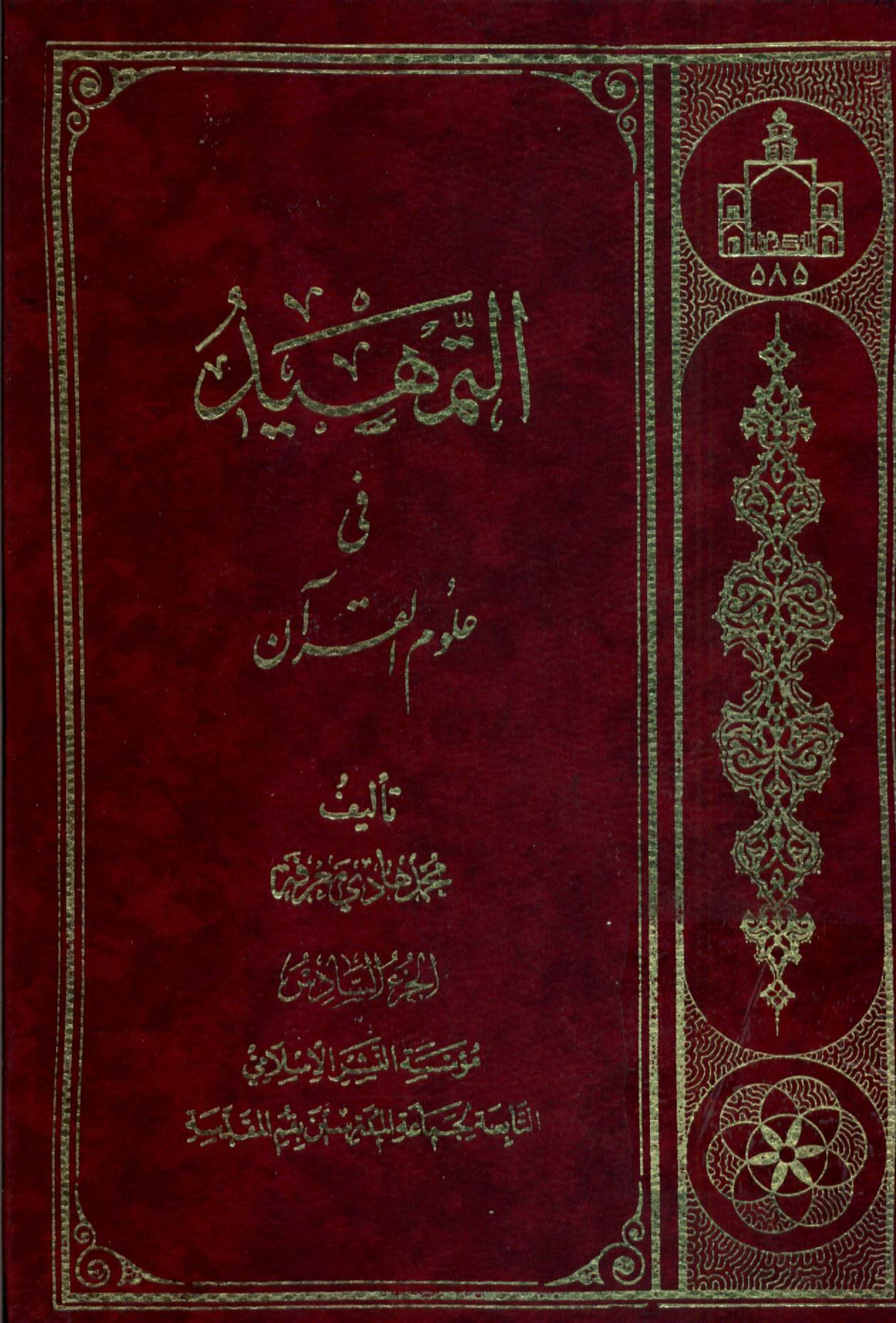
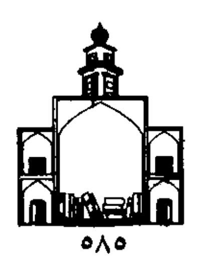

٥٨٥
التمهيد
في
علوم القرآن
تأليف
محمد هادي معرفة
الجزء السادس
مؤسسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة



التمهيد

في

علوم القرآن

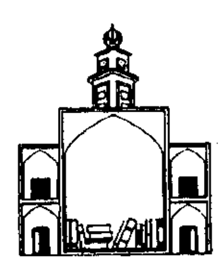
تأليف

محمد هادي معرفة

الجزء السادس

مؤسسة النشر الإسلامي

التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة



التمهيد

(ج ٦)

■ تأليف: الأُستاذ المحقّق الشيخ محمّد هادي معرفة □
■ الموضوع: علوم القرآن □
■ طبع ونشر: مؤسّسة النشر الإسلامي □
■ عدد الصفحات: ٤٢٠ □
■ المطبوع: ٢٠٠٠ نسخة □
■ الطبعة: الأُولى □
■ التاريخ: ١٤١٧ هـ. ق □

مؤسّسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى محمّد وآله الطاهريـن.



٢ ـ الإعجـاز العـلمي

(إشاراتٌ عابرة وإلماعاتٌ خاطفـة)
عن أسرار الطبيعـة وغياهب الوجـود

١ ـ هل القرآن مشتمل على جميع العلوم ؟!

٢ ـ هل وقع التحدّي بالجانب العلمي؟

٣ ـ الماء أصل الحياة

٤ ـ كيف نشأت الحياة؟

٥ ـ منشأ تكوين الجنين

٦ ـ الرجع والصدع

٧ ـ الفضاء يتمدّد

٨ ـ تخلخل الهواء في أطباق السمـاء

٩ ـ الغلاف الهوائي حجابٌ حاجز

١٠ ـ ماسكـة الفضـاء

١١ ـ الرتق والفتـق

... ومواضيـع أُخـر

الباب الثاني

في الإعجاز العلمي

﴿قُل أنزَلـهُ الّذي يَعلَمُ السرَّ في السمَاواتِ والأرض﴾[1].

إشارات عابرة وإلماعاتٌ خاطفة

عن أسرار الطبيعة وغياهب الوجود

لا شكّ أنّ القرآن كتابُ حكمةٍ وهدايةٍ وتربيةٍ وإرشاد ﴿يَتلو عليهم آياتِهِ ويُزَكِّيهم ويُعَلِّمهُمُ الكتابَ والحِكمة﴾[2]، ﴿ويحلُّ لَهُمُ الطيّباتِ ويحرِّمُ عَليهِمُ الخبائث﴾[3]. ﴿ويُخرِجُهُم مِنَ الظُلُمَاتِ الى النُورِ بإذنِه﴾[4]. ﴿ليَكونَ لِلعَالَمِينَ نَذيراً﴾[5].

هذه هي رسالة القرآن رسالة الله في الأرض ﴿أرسَلَ رَسولَهُ بِالهُدى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ على الدِينِ كُلّه﴾[6].

إذاً فليست الشريعة دراسة طبيعة، ولم يكن القرآن كتاب علم بالذات سوى إشارات عابرة جاءت في عرض الكلام، وإلماعاتٌ خاطفة وسريعة الى بعض أسرار الوجود، والى طرف من كوامن أسباب الحياة. لكن إجمالاً وفي غموضٍ تامّ يعرفها العلماء الراسخون، إذ لم تصدر على سبيل القصد والبيان، وهي في نفس الوقت تنمّ عن خضمّ بحرٍ لا ينفد، وعن مخزون علمٍ لا يتناهى. ﴿قُل لَو كانَ البَحرُ مِدَاداً لِكلِمات رَبِّي لَنَفَدَ البَحرُ قَبلَ أن تَنَفدَ كَلِماتُ ربِّي وَلو جِئنا بِمِثلِه

(١) الفرقان: ٦. (٢) آل عمران: ١٦٤، الجمعة: ٢.
(٣) الأعراف: ١٥٧. (٤) المائدة: ١٦. (٥) الفرقان: ١.
(٦) الفتح: ٢٨، الصف: ٩.

مَدَداً﴾[١]، ﴿وإنّ اللهَ قد أحاطَ بكلّ شيءٍ عِلماً﴾[٢].

نعم، إنّها شذرات بدت من طيّ كلامه تعالى، ورشحات فاضت من عرض بيانه، كانت عظيمة وفخيمة، كلّما تقدّمت ركب الحضارة، وتألّق نجم العلم والمعرفة على آفاق الوجود، وإذا بالقرآن يسبق الانسان بخطوات، ولا يكاد يلحق أذياله في هذا المسير ﴿ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء﴾[٣].

* * *

وهذا نظير ما يُؤثَر عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام من كلمات جاءت في عرض كلامه، وهي تنمّ عن خضمّ بحر متلاطم أمواجه، بعيد أغواره، أو كما قال هو عليه السلام: ينحدر عنّي السيل ولا يرقى إليّ الطير.

فمن ذلك قوله في عجائب خلقة الإنسان: إعجبوا لهذا الإنسان ينظر بشحم، ويتكلّم بلحم، ويسمع بعظم، ويتنفّس من خرم[٤].

كان علم التشريح[٥] القديم يرى من طبلة الأُذن[٦] العضو الأساسي لآلة السمع، وذلك بِتَذَبذُبٍ يحصل فيه على أثر الموج الصوتي الوارد عليه، وعلى أثره يحصل تموّج في الهواء الراكد المحفوظ في حفرة الصماخ خلف هذا الغشاء، وهذا التموّج يؤثر في العصب الدماغي المفروش على سطح الصماخ الباطني، وبذلك ينتقل الصوت الى مركزه في المخّ ويحصل السماع[٧].

---

(١) الكهف: ١٠٩. (٢) الطلاق: ١٢. (٣) النحل: ٨٩.

(٤) نهج البلاغة: قصار كلماته رقم ٨.

(٥) علم وظائف الأعضاء، وقد شرحه ابن سينا في القانون: ج ١ ص ٢٤ فما بعد.

(٦) هو الغشاء الفاصل بين التجويفين الداخلي والظاهري للأُذن.

(٧) قال ابن سينا بصدد تشريح الأُذن: الأُذن عضو خُلِق للسمع وجعل له صدف معوجّ ليحبس جميع الصوت ويوجب طنينه، وثقب يأخذ في العظم الحجري ملولب معوجّ ليكون تعويجه مطولاً لمسافة الهواء الى داخل مع قصر تحته. وثقب الأُذن يؤدّي الى

←

وبذلك تعرف أن لا شأن للعظام في أجهزة السمع في نظرة الأطبّـاء القدامى.

ومن ثمّ حمل ابن أبي الحديد ذلك على مخاطبـة العامّـة بما يـفهمونه مـن ظاهر الكلام، قال: هذا كـلامٌ محمولٌ بعضــه على ظاهره لما تدعو إليــه الضرورة من مخاطبة العامّة بما يفهمونه والعدول عمّا لا تقبله عقولهم ولا تعيه قلوبهم. قال: فأمّا السمع للصوت فليس بعظم عند التحقيق وإنّما هو بالقوّة المُودَعـة في العصب المفروش في الصماخ كالغشـاء. فإذا حمل الهواء الصوت ودخل في ثقب الأُذن المنتهي الى الصماخ ـ بعد تعويجـات فيه ـ جـعلت لتـجري مـجرى اليـراعــة المصوّتــة، وأفضى ذلك الصوت الى ذلك العصب الحامل للقوّة السامعة، حـصل الإدراك. قال: وبالجملة، فلا بدّ من عظم، لأنّ الحامل للّحم والعـصب إنّـما هـو العظم[1].

أمّا ابن ميثم فحمل كلامـه عليه‌السلام على إرادة عظم الصدغ الحاوي على جهاز السمع، قال: وأراد بالعظـم الذي يُسمع به العظم المسمّى بالحجري، وهـو عـظم صلب فيه مجرى الأُذن كثير التعاريج والعطفـات، يمرّ كذلك الى أن يلقى العصبـة النابتة من الدماغ التي هي مجرى الروح الحامل للقوّة السامعـة[2].

← جوبـة (حفرة) فيها هواء راكد وسطحها مفروش بليف العصب الدماغي. فإذا تأدّى الموج الصوتي الى ما هناك أدركـه السمع. والصماخ كالثقبة العنبيّة المشتملة على الهواء الراكـد الذي يُسمع الصوت بتموّجـه. (القانون: ج ٢ ص ١٤٨ ـ ١٤٩ الفن الرابـع في أحوال الأُذن). وقال عند تشريح العصب الدماغي: تنبـت من الدماغ أزواج من العصب سـبعـة ... وأمّـا الزوج الخامس فكـلّ فرد منه ينشقّ بنصفيـن على هيأة المضاعف، ومـنبته مـن جـانبي الدماغ، والقسم الأول من كـلّ زوج منه يعمد الى الغشاء المستبطن للصماخ فيتفرق فـيه كلّـه. وهذا القسم منبته بالحقيقة من الجزء المؤخّـر من الدماغ وبه حسّ السمع. (القانون: ج ١ ص ٥٤ ـ ٥٥).

(١) شرح النهـج: ج ١٨ ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٢) شرح ابن ميثم: ج ٣٧ باب المختار من حكمـه.

أمّا التشريح الحديث[1] فيـرى أنّ حاسّـة السمع إنّما تقوم بسـلسلة عـظام

(١) الأُذن كما يفصّلها علماء التشريح مركّـبة من ثلاثـة أجزاء:
الأوّل: الأذن الظاهرة، وهي المكوّنـة من صفيحة غضروفية، وتسمّى «الصيوان» ومن قناة تمتدّ داخل العظم الصدغي، على جانبيها عدّة ثقوب تتّصل بغدد تفرز دهناً ثخيناً أصفر يسمّى «الصـملاخ» ضروريّ لصحّة الأُذن متى أدّى وظيفته خرج بـنفسه ولَـفَظَتْهُ الأُذن، فيرفعه الانسان باصبعـه بسهولة ..
الثاني: الأُذن المتوسّطة، تنفصل عن الأُذن الظاهرة بغشاء الطبلة، وهو غشـاء شـفّاف تحتـه تجويف ضيّق يتّصل بالفم الخلفى بواسطة قناة. وفي أقصى هذا التجويف فـتحتان مسدودتان بغشاء مشدود، هما متّصلتان بالأذن الباطنـة. احدى هاتين الفتحتين متّصل بها أربع عُظيمات تتحرّك بعضـلات صغيرة، وتحدث توتّراً أو استرخاءً في الغشاء المـرتكزة عليه.
الثالث: الأُذن الباطنـة، هي الجزء الانتهائي، وهي مكوّنة من دهليز تنفتح فيه قـنوات أشكالها كأنصاف الهلال، مملوءات بسائل من نوع السائل الذي يملأ ذلك الدهليـز. وبجانب تلك القنوات عضو يشبـه القوقعـة مملوء بسائل، ومتّصل بصندوق الطبلـة. وفي هذه الأُذن الباطنة تتوزّع أفرع العصب السمعي.
ولا يخفى أنّ المتكلّم إنّما يحدث بكلامه ارتجاجاً في الهواء، على توقيع خاصّ، فتصل تلك الارتجاجات الهوائيّة إلى صيوان الأُذن، ومنـه تدخل الى القناة السمعيّة الظاهرة، ومنها الى غشاء الطبلـة الذي هو أسفل تلك القناة فترجّـه فيرتـجّ، فتتبعه العظيمات السمعيّة التي هي على الغشـاء، فتحدث في ذلك الغشاء توتّراً، أو رخاوةً بواسطة عضلاتها، على حسب شدّة الصوت وضعفـه. وفي نفس الوقت تحدث الارتجاجات عينها في الهواء الموجود في صندوق الطبلة، فينتقل منها الى الأُذن الباطنة بواسطة الفتحتين اللتين ذكرناهما، وهنالك تتأثر الأعصاب السمعيّة، وينقل الصوت الى المخّ فتدركـه الروح وتفهمـه. (دائرة معارف القرن العشرين: ج ١ ص ١٣٥ ـ ١٣٦).
والأُذن الوسطى تجويف مملوء بالهواء، في داخل العظم الصدغي، ويسمّى «صـندوق الصماخ» وشكلـه كعدسـة مقعّرة الطرفين، ارتفاعـه ٥ / ١ سانتيمتر، وينفصل عن الأذن الخارجيـة بواسطة غشاء الصماخ. وصندوق الصماخ يتّصل بحفر الأنف بواسطة تـجويف مخروطيّ الشكل، وله فتحات دائرية الشكل، وبيضيّتـه تفصله عن الأُذن الداخليـة.
وغشاء الصماخ غشاء رقيق، سعته التقريبية سانتيمتر مربع، ويشكّل في قعر الأُذن زاوية

←

متّصلة بطبلة الأُذن كائنة خلفها، فينتقل الصوت بواسطتها الى العـصب السـمعي الذي تنقل آثاره الى الدماغ.

وذلك أنّ ذرّات الوسط الناقل للتموّجات الصـوتيـة تـهتزّ بـاهتزاز مـصدر الصوت، فإذا صادف أن التقطت الأُذن بعض هذه التموّجات ومرّت فـي القـناة السمعيـة ـ وهو الجزء الظاهر منها ـ فإنّ تأثيرها يصل الى الطبلة الموجودة في نهاية القناة السمعية، فتهتزّ بتأثير الفرق بين الضغوط الواقعة على وجهيها الأمامي والخلفي، فتنتقل هذه التغيّرات بواسطة سلسلة العظام المتّصلة بها الى السائل الذي تسبح فيه فروع العصب السمعي الذي تنقل آثاره الى المـخّ.

وبذا يكون الإنســان قد تمكّـن ـ بنتيجـة تعوّده سـماع أصـوات مـختلف الآلات ـ من تعيين شدّة الصوت الذي وصـل الى سمعه ودرجتـه ونوعـه[1].

* * *

وأمّا حاسّة الابصار فلا تختلف النظرة القديمـة عن النظرة الحديثـة، في أنّها قائمـة بشحمـة العين[2] وقد عبّر عنها ابن سينا في القانون بـالرطوبة الجـليدية،

← بدرجة (٤٥ ـ ٤٠) ويكون تحديبه الى الداخل.

وهذا الغشاء متكوّن من ثلاثة أجزاء: سطحه الخارجي جلدة رقيقة، وسطحه الداخلي مادّة مخاطيّة، وفي الوسط طبقة متشابكة من ألياف عصبية كثيرة.

وعلى السطـح الداخلي للغشـاء عظيمات على أشكال مدقّـات أو مطرقات صـغيرة، متّصلة به بواسطة عضلات، وهذه العظيمات واقعة بين غشاء الصماخ والفتحات البـيضيّة الشكل في نهاية الأُذن.

وهذه العظيمات هي التي تنقل التذبذبات الصوتية من غشـاء الصـماخ الى الفـتحات البيضية، ومنها الى ألياف العصب السمعي فإلى المـخّ. (لغت نامـه ـ دهخـدا).

(١) مبادئ العلوم العامّـة: ص ٣٦٢.

(٢) قالوا: العين هي الجزء المسبّب لحاسّـة الابصار، وتتكوّن مـن شـحمة عـلى هـيئة كـرة تستطيع الحركة داخل كساء يتركب من جزءيـن، أحدهما معتم والآخر شفّاف، ويسـمّى ←

قال: وهي رطوبة صافية كالبرد والجليد مستديرة ينقص تفرطحها من قدّامها...[١] فإن كان أراد بها نفس الشحمة التي جاءت في تعابير المتأخرين..، وإلاّ فهو دليل آخر على إعجاز كلام الامام أمير المؤمنين عليه السلام العالم بخبايا العلوم وأسرار الوجود.

* * *

هذا، والمقال من إفادات والدي العلّامة المرحوم (الشيخ علي معرفة) نبّه عليه في كثير من خطاباته على حشود أهل الأدب والمعرفة من أبناء كربلاء المقدّسة قبل هجرتنا الى النجف الأشرف التي وقعت في العقد السابع من القرن الرابع عشر للهجرة. فرحمة الله عليه من والدٍ بارّ ومؤدّب كريم.

وما هداني الى هذا الطريق إلاّ عنايته بتربيتي هذه التربية الدينية الصالحة -إن شاء الله- والخالصة لله تعالى، إعلاءً لكلمته وإحياءً لشريعته المقدّسة.

فليكن إنجازي لهذا المشروع القرآني الضخم (في محتواه وغايته) والمتواضع (في عمله) هديّة الى روحه الطيّبة[٢]، جزاءً من الله عنّي وعن الاسلام خير جزاء الصالحين، وحشره مع أوليائه الأئمة الميامين محمّد وآله الطاهرين عليهم صلوات ربّ العالمين.

← الأخير بالقرنيّة. وهو عبارة عن قرص كثير التحدّب يشبه زجاجة الساعة، يوجد خلفه قرص ملوّن مستدير يسمّى «القزحيّة» وفي وسطه ثقب يسمّى «البؤبؤ». وتسدّ البؤبؤ من الداخل عدسة لامّة شفّافة وظيفتها جمع الأشعة الضوئية المارّة بالبؤبؤ على حاجز خلفها يسمّى «الشبكيّة» حيث ينتهي العصب البصري فيها بتفرّعات دقيقة جداً، وبواسطة هذا العصب تنتقل التأثيرات الضوئية الى الدماغ. (مبادئ العلوم: ص ٣٥٢).

(١) القانون: ج ١ ص ١٠٨. وتبعه على هذا التعبير سائر الأطباء القدامى الذين تأخّروا عنه، قبل أن تزدهر شُعَب العلوم في العصر الأخير.

(٢) توفى رحمه الله في ٢٢ صفر ١٣٧٩ هـ عن عمر جاوز الستّين (٦٣) ودفن في كربلاء بجوار أبي الفضل العباس بن علي عليهما السلام في الصحن الشريف على يمين الداخل من الباب الخلفي تحت الطاق.

وبعد، فإذا ما أضفنا الى هذه الحقيقة المُذهلة، أنها عُرضت على يد رجل أُمّي لا يكتب ولا يقرأ عن كتاب ولا درس عند أُستاذ، من أُمّـةٍ عربية جاهلة، وفي بيئة بدويـة متوغّلة في البداوة، في صحراء جرداء قاحلـة، بعيدة عن حضارات الأُمم وثقافات العالم بمسافات شاسعـة، فنحن إذاً أمام معجزة خارقـة للعادة، لا شكّ فيها ولا ريب، وإنّما يكابر فيها من استغلق على نفسـه مشارع البصيرة، وعاقب نفسه إذ حجب عنها إشعاع تلك الرحمـة التي يشعّها هذا الكتابُ الكريـم.

﴿إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كـفوراً﴾[1]. ﴿فـإنّها لا تـعمى الأبـصارُ ولـكن تعمى القلوبُ التي في الصدور﴾[2]. ﴿وما يلقّاها إلّا الذين صـبروا ومـا يلقّاها إلّا ذو حظٍّ عظيم﴾[3].

* * *

وليُعلم أنّنا في هذا العرض إنّما نحاول فهم جانب من الآيات الكونية، ربّما صعب دركها قبلئذٍ، وأمكن الاهتداء إليها في ضوء حقائق عـلمية راهـنة، جـهد المستطاع. وقد نخطئ الصواب، ويعود العتب علينا بالذات.

إنّنا لا نحاول تطبيق آية قرآنية ذات حقيقة ثابتة على نظرية علمية غير ثابتة وهي قابلة للتعديل والتبديل، إنّما مبلغ جهدنا الكشف عن حقائق وأسرار كونية انطوت عليها لفيفٌ من آيات الذكر الحكيم، كشفاً في ضوء العـلم الثـابت يـقيناً حسبما وصلت إليه البشرية قطعيّاً، ممّا لا يحتمل تغييراً أو تعديلاً في سيره، نظير ما وصل إليه العلم من دورة المياه في الطبيعة، والجاذبية العامّة، ودرجات ضغوط الأجسـام وما شابه.

فإنّ بقاء الآية على إبهامها أولى من محاولة تطبيقها على نظريّة علميّة غـير بالغة مبلغ القطعيـة والكمال، وربّما كانت تحميلاً على الآية وتمحّلاً باهتاً، إن لم يكن قولاً على الله بغير علـم.

---

(١) الإنسـان: ٣. (٢) الحـجّ: ٤٦. (٣) فصّلـت: ٣٥.

هل القرآن مشتمل على جميع العلوم ؟!

قلنا: إنّ الإشارات العلميّة التي جاءت في القرآن الكريم إنّما كانت رشحات فاضت من عرض بيانه الحكيم، لأنّها صدرت من منبع علم مكين ﴿قل أنزلَهُ الذي يعلمُ السِرَّ في السماواتِ والأرض ..﴾[1]. ولم تكن مقصودة بالذات، ولا جاء القرآن لإفادة بيانها إفادة بالذات، ذلك لأنّ القرآن كتاب هداية وإرشاد الى معالم الأخلاق الكريمة، وليس كتاباً علميّاً ولا جاء لكشف أسرار الطبيعة في شيء.

غير أنّ هناك أوهاماً حيكت حول قضية الإعجاز العلمي للقرآن، فيما زعم البعض أنّ في القرآن بيان كلّ شيء، تجاوزاً عن حدود أحكام الشريعة، الى سائر العلوم الطبيعية وغيرها ممّا عرفه البشر أو لم يعرفه بعد، فإنّها كلّها موجودة في القرآن، إمّا صريحةً أو بإشاراتٍ رمزيّة يعرفها الراسخون في العلم، حيث لا رطب ولا يابس إلّا في كتابٍ مبين .. مراداً به القرآن الكريم، حسبما زعم!

وذلك استناداً الى قوله تعالى: ﴿ما فرّطنا في الكتاب من شيء﴾[2] وقوله: ﴿ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء﴾[3].

وإلى حديث عبد الله بن مسعود: من أراد العلم فعليه بالقرآن، فإنّ فيه خبر

---

(١) الفرقان: ٦.　(٢) الأنعام: ٣٨.　(٣) النحل: ٨٩.

الأوّلين والآخرين. قال البيهقي: يعني أُصول العلم[١].

وفي لفظ آخر: من أراد علم الأوّلين والآخرين فليتدبّر القرآن[٢].

ونقل السيوطي عن أبي بكر بن مجاهد (المتوفّى سنة ٣٢٤ هـ) أنّه قال يوماً: ما شيء في العالم إلّا وهو في كتاب الله. فقيل له: فأين ذكر الخانات فيه؟ فقال: في قوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناحٌ أن تدخلوا بُيوتاً غير مسكونةٍ فيها متاعٌ لكم﴾[٣] فهي الخانات.

وقال بعضهم: ما من شيء إلّا يمكن استخراجه من القرآن لمن فهّمه الله، حتّى أنّ بعضهم استنبط عمر النبيّ ﷺ ثلاثاً وستّين سنة من قوله تعالى في سورة المنافقين ـ وهي السورة ٦٣ حسب الترتيب الموجود ـ: ﴿ولن يؤخّر اللهُ نَفْساً إذا جاءَ أجلُها﴾[٤] فإنّها رأس ثلاث وستّين سورة. وعقّبها بالتغابن ليظهر التغابن في فقده.

وروي عن ابن عبّاس قوله: لو ضاع لي عقالُ بعيرٍ لوجدته في كتاب الله[٥].

* * *

قال ابن أبي الفضل المرسي[٦] في تفسيره: جمع القرآن علوم الأوّلين والآخرين، بحيث لم يُحط بها علماً حقيقةً إلّا المُتكلّم بها وهو الله تعالى، ثمّ رسول الله ﷺ، خلا ما استأثر الله به سبحانه وتعالى. ثم ورث ذلك عنه معظم الصحابة وأعلامهم كالخلفاء الأربعة وابن عبّاس، حتّى قال: لوضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى. ثم ورث عنهم التابعون، ثم تقاصرت الهمم وفترت

(١) الإتقان للسيوطي: نوع ٦٥ في العلوم المستنبطة من القرآن ج ٤ ص ٢٤.
(٢) إحياء علوم الدين للغزالي: باب ٤ كتاب آداب تلاوة القرآن ج ١ ص ٢٩٦.
(٣) النور: ٢٩. (٤) المنافقون: ١١. (٥) الإتقان: ج ٤ ص ٢٥ ـ ٢٦.
(٦) هو محمّد بن محمّد بن عبد الله بن أبي الفضل المرسي (المتوفّى سنة ٦٥٥ هـ) كان إماماً في القراءة واللغة والنحو وكان يحفظ صحيح مسلم مجرّداً عن السند. (معجم الأدباء: ج ١٨ ص ٢٠٩ ـ ٢١٢).

العزائم، وتضاءل أهل العلم، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه، فنوّعوا علومه، وقامت كلّ طائفة بفنّ من فنونه، فاعتنى قوم بضبط لغاته وتحرير كلماته وتعدادها وإلى أمثال ذلك، من غير تعرّض لمعانيه ولا تدبّر لما أُودع فيه، واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبني، والمفسرون بألفاظه، والأُصوليّون بما فيه من الأدلّة، وتأمّلت طائفة معاني خطابه، وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام، وتلمّحت طائفة ما فيه من قصص وأخبار لأُمم خالية، وتنبّه آخرون لما فيه من حِكم وأمثالٍ ومواعظ ... وإلى أمثال ذلك من إشارات ولطائف ودلالات.

قال: وقد احتوى القرآن على علوم أُخرى من علوم الأوائل، مثل الطبّ والهيأة والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة وسائر الحرف والصناعات.

قال: أمّا الطبّ فمداره على حفظ نظام الصحّة واستحكام القوّة، وذلك إنّما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيّات المتضادّة، وقد جُمع ذلك في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وكان بين ذلك قواماً﴾[1]. وعرّفنا فيه بما يعيد نظام الصحّة بعد اختلاله، وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله تعالى: ﴿شرابٌ مختلفٌ ألوانهُ فيه شفاءٌ للناس﴾[2]. ثم زاد على طبّ الأجسام بطبّ القلوب وشفاء الصدور.

وأمّا الهيأة ففي تضاعيف سوَره، من الآيات التي ذكرت ملكوت السماوات والأرض. وما بثّ في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات.

وأمّا الهندسة ففي قوله: ﴿انطلقوا الى ظلٍّ ذي ثلاث شُعَب﴾[3].

وأمّا الجبر والمقابلة فقد قيل: إنّ أوائل السوَر فيها ذكر مُدَد وأعوام وأيّام لتواريخ أُمم سالفة، وإنّ فيها تاريخ بقاء هذه الأُمّة، وتاريخ مدّة أيّام الدنيا، وما مضى وما بقي، مضروب بعضها في بعض.

---

(١) الفرقان: ٦٧. (٢) النحل: ٦٩. (٣) المرسلات: ٣٠.

وأمّا النجامة ففي قوله: ﴿أو أثارةٍ من علم﴾[1].

وفيه أُصول الضنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها، كالخياطة في قوله: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَان﴾[2] والحدادة: ﴿آتوني زُبَرَ الحديد﴾[3] ﴿وألنّا لَهُ الحديد﴾[4]، والبناء في آيات، والنجارة: ﴿وَاصنعِ الفُلكَ بأعْيُننا﴾[5]، والغزل: ﴿نقضت غزلها﴾[6]، والنسج: ﴿كمثلِ العنكبوتِ اتّخذت بَيتاً﴾[7]. والفلاحة: ﴿أفرأيتم ما تحرُثون﴾[8]، والصيد في آيات، والغوص: ﴿كلَّ بنّاءٍ وغوّاصٍ﴾[9]. ﴿وتستخرجوا منهُ حِليةً﴾[10]، والصياغة: ﴿واتّخذَ قومُ موسى من بعده من حُليّهم عجلاً جسداً﴾[11]. والزجاجة: ﴿صَرحٌ ممرّدٌ من قوارير﴾[12] ﴿المصباح في زجاجة﴾[13]. والفخارة: ﴿فأوقد لي يا هامانُ على الطين﴾[14]، والملاحة: ﴿أمّا السفينةُ ...﴾[15]، والكتابة: ﴿علّمَ بالقلم﴾[16]، والخبز: ﴿أحمل فَوقَ رأسي خُبزاً﴾[17]، والطبخ: ﴿بعجلٍ حنيذ﴾[18]، والقصارة: ﴿وثيابك فطهّر﴾[19]. والجزارة: ﴿إلّا ما ذكّيتُم﴾[20]، والبيع والشراء في آيات، والصبغ: ﴿صِبغةَ الله﴾[21]، ﴿جُدَدٌ بِيضٌ وحُمر﴾[22]، والحجارة: ﴿وتنحِتونَ من الجبال بُيوتاً﴾[23]، والكيالة والوزن في آيات، والرمي: ﴿وما رميتَ إذ رميت﴾[24]. ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قُوّةٍ﴾[25].

قال: وفيه من أسماء الآلات وضروب المأكولات والمشروبات

---

(١) الأحقاف: ٤.
(٢) الأعراف: ٢٢.
(٣) الكهف: ٩٦.
(٤) سبأ: ١٠.
(٥) هود: ٣٧.
(٦) النحل: ٩٢.
(٧) العنكبوت: ٤١.
(٨) الواقعة: ٦٣.
(٩) ص: ٣٧.
(١٠) النحل: ١٤.
(١١) الأعراف: ١٤٨.
(١٢) النمل: ٤٤.
(١٣) النور: ٣٥.
(١٤) القصص: ٣٨.
(١٥) الكهف: ٧٩.
(١٦) العلق: ٤.
(١٧) يوسف: ٣٦.
(١٨) هود: ٦٩.
(١٩) المدّثّر: ٤.
(٢٠) المائدة: ٣.
(٢١) البقرة: ١٣٨.
(٢٢) فاطر: ٢٧.
(٢٣) الشعراء: ١٤٩.
(٢٤) الأنفال: ١٧.
(٢٥) الأنفال: ٦٠.

والمنكوحات، وجميع ما وقع ويقع في الكائنات ما يحقّق معنى قوله: ﴿ما فرّطنا في الكتاب من شيء﴾[(١)(٢)].

* * *

وقال أبو بكر المعافري المعروف بابن العربي الإشبيلي (المتوفّى سنة ٥٤٤ هـ) في كتاب قانون التأويل: إنّ علوم القرآن (٧٧٤٥٠) علماً، على عدد كلم القرآن، مضروبةً في أربعة. إذ لكلّ كلمة ـ كما قال بعض السلف ـ ظهر وبطن وحدّ ومطّلع. وهذا مطلق دون اعتبار تركيب وما بينها من روابط. وهذا ما لا يحصى ولا يعلمه إلّا الله عزّوجلّ[(٣)].

وقد ذكر السيوطي أنّ عدد كلمات القرآن (٧٧٩٣٤) أو (٧٧٤٣٧) أو (٧٧٢٧٧) وغير ذلك[(٤)].

ويقول الإمام بدر الدين محمّد بن عبد الله الزركشي (المتوفّى سنة ٧٩٤ هـ):

وفي القرآن علوم الأوّلين والآخرين، وما من شيء إلّا ويمكن استخراجه منه لمن فهّمه الله تعالى، حتى أنّ بعضهم استنبط عمر النبي ﷺ ثلاثاً وستّين من قوله تعالى: ﴿ولن يؤخّر اللهُ نَفْساً إذا جاءَ أجلُها﴾[(٥)]. فإنّها رأس ثلاث وستين سورة. وعقّبها بالتغابن ليظهر التغابن في فقده.

وقوله تعالى ـ مخبراً عن عيسى عليه السلام ـ: ﴿قال إنّي عبدُ الله آتاني الكتاب ـ الى قوله: ـ أُبعثُ حيّاً﴾[(٦)]. ثلاث وثلاثون كلمة. وعمره ثلاث وثلاثون سنة.

---

(١) الأنعام: ٣٨.

(٢) بنقل جلال الدين السيوطي في الإتقان: ج ٤ ص ٢٦ ـ ٣١.

(٣) ينقل الزركشي في البرهان: ج ١ ص ١٦ ـ ١٧ وراجع الإتقان: ج ٤ ص ٣٢.

وزاد بعض من تأخّر: إنّ في قوله تعالى: ﴿ويخلقُ مالا تعلمون﴾ (النحل: ٨) إشارة الى صنع القطار والسيارة والطائرة وغير ذلك من أنواع الصناعات الحديثة. كما أنّ في قوله ﴿رفيع الدرجات﴾ (غافر: ١٥) إشارة الى درجات الدائرة لأنّ «رفيع» بحساب الجمل ٣٦٠ عدداً. (راجع سرافرازى ـ رابطة علم ودين).

(٤) الإتقان: ج ١ ص ١٩٧.

(٥) المنافقون: ١١.

(٦) مريم: ٣٠ ـ ٣٣.

وقد استنبط الناس زلزلة عام اثنين وسبعمائـة[١] من قـوله: ﴿إذا زلزلـت الأرض﴾[٢] فإنّ الألف باثنين والذال بسبعمائـة.

وكذلك استنبط بعض أئمّة العرب فتح بيت المقدس وتخليصه من أيدي العدو في أوّل سورة الروم بحساب الجمل، وغير ذلك[٣].

ويذكر قبل ذلك أحاديث وأقوال في حاجة المفسّر الى الفهم والتبحّر في العلوم، ويورد حديث «أُنزل القرآن على سبعة أحرف، لكلّ آيـة ظـهر وبـطن». وقول ابن مسعود: من أراد علم الأوّلين والآخرين فليثوّر القرآن أي لينقر ويفكّر في معانية[٤].

* * *

ولجلال الدين السيوطي (المتوفّى عـام ٩١١ هـ) أيضاً رأي يشبـه رأي الزركشي في اشتمال القرآن على أنواع العلوم، لكنّه يـخصّ المعارف وأُصول التشريـع، ولعلّـه منقول[٥].

* * *

ولأبي حامد الغزالي (المتوفّى عام ٥٢٠ هـ) رأي خاصّ باشتمال القرآن على ما يبعث على اكتساب المعالي، حيث فيه الإشارة الى كثير من عوالم الطبيعة وأسرارها، ممّا لا يمكن فهمها فهماً دقيقاً إلّا بعد معرفة جملة من العلوم الطبيعيـة، الأمر الذي أدّى بالمسلمين الى تحصيل أكثر المعارف والعلوم في هذا السبيل. وإليك من كلام الغزالي:

---

(١) وصفها ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٠٧ بقوله: وفيها كان بمصر والقاهرة زلزلة عظيمـة أخربت عدّة منائر ومبانٍ كثيرة من الجوامع والبيوت، حتى أقام الأُمراء ومباشرو الأُوقاف مدّة طويلة يرمون ويجدّدون ما تشعّث فيها من المدارس والجوامع حتى منارة الاسكندريـة.

(٢) الزلزلـة: ١.

(٣) البرهـان: ج ٢ ص ١٨١ ـ ١٨٢.

(٤) المصدر السابق: ص ١٥٣ ـ ١٥٦.

(٥) الإتقـان: ج ٤ ص ٣٣ ـ ٣٥.

قال : العلوم كلّها داخلة في أفعال الله عزّوجلّ وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته. وهذه العلوم لا نهاية لها. وفي القرآن إشارة الى مجامعها، والمقامات في التعمّق في تفصيله راجع الى فهم القرآن. ومجرّد ظاهر التفسير لا يشير الى ذلك، بل كلّ ما أُشكل فيه على النظّار واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن إليه رموز ودلالات عليه، يختصّ أهل الفهم بدركها. قال رسول الله ﷺ: اقرأوا القرآن والتمسوا غرائبه. وقال عليّ كرّم الله وجهه: مَن فهم القرآن فسّر به جمل العلم. أشار به الى أنّ القرآن يشير الى مجامع العلوم كلّها.

وبعد أن ذكر أحاديث أُخر قال: فهذه الأُمور تدلّ على أنّ في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً ومتّسعاً بالغاً، وأنّ المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه[١].

هذا ما يقوله في كتاب الإحياء، ويزيده وضوحاً في كتاب جواهر القرآن، فنجده يعقد الفصل الخامس منه لكيفية انشعاب علوم الطبيعة والرياضة والطبّ وغيرها من القرآن، فيذكر علم الطبّ والنجوم وهيأة العالم، وهيأة بدن الحيوان وتشريح أعضائه، وعلم السحر والطلّسمات ... وغير ذلك.

ثمّ يقول: ووراء ما عدّدته علوم أُخرى، يعلم تراجمها، ولا يخلو العالم عمّن يعرفها .. وظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لايتمارى فيها أنّ في الإمكان والقوّة أصنافاً من العلوم بعدُ لم تخرج الى الوجود .

ثمّ يقول: ثم هذه العلوم ليست أوائلها خارجة من القرآن، فإنّ جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله، وهو بحر الأفعال الذي لا ينفد، فمن أفعال الله تعالى مثلاً الشفاء والمرض، كما قال ـ حكايةً عن إبراهيم ـ: ﴿وإذا

---

(١) إحياء علوم الدين: الباب الرابع من كتاب آداب التلاوة: ج ١ ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

مرضتُ فهو يشفينِ﴾[١] وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلّا من عرف الطبّ بكماله، إذ لا معنى للطبّ إلّا معرفة المرض بكماله وعلاماتـه، ومعرفة الشفاء وأسبابه.

ومن أفعاله تعالى تقدير معرفة الشمس والقمر ومـنازلهما بـحسبـان. قـال تعالى: ﴿الشمس والقمرُ بحُسبان﴾[٢] وقال: ﴿وقدّره منازل لتعلموا عدد السِنينَ والحساب﴾[٣]. وقال: ﴿وخَسفَ القمر * وجُمِع الشَمسُ والقَمر﴾[٤] وقال: ﴿... يُولجُ الليلَ في النهار ويُولجُ النهار في الليـل﴾[٥]، وقـال: ﴿ والشـمسُ تـجري لمُستقرّ لها ذلك تقديرُ العزيز العليم﴾[٦]. ولا يعرف حقيقة سير الشـمس والقـمر بحسبـان، وخسوفهما، وولـوج الليل في النهار وكيفية تكوّر أحدهما على الآخر، إلّا من عرف هيئات تركيـب السماوات والأرض، وهو علم برأسـه ولا يـعرف كمال معنى قوله: ﴿يا أيّها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم * الذي خَلقَك فسوّاكَ فَعدَلك * في أيّ صورةٍ ما شاءَ ركّبـك﴾[٧] إلّا من عرف تشريـح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطناً، وعددها وأنواعها، وحكمها ومنافعها. وقد أشار في القرآن في مواضع إليها، وهي من علوم الأوّلين والآخرين، وفي القرآن مـجامـع عـلم الأوّلين والآخرين.

وكذلك لا يعرف معنى قوله: ﴿سَوَّيتهُ ونفختُ فيه من روحي﴾[٨] ما لـم يعلم التسوية، والنفخ والروح ووراءها علوم غامضـة يغفل عن طـلبها أكـثر الخـلق، وربّما لا يفهمونها إن سمعوها من العالم بها.

قال: ولو ذهبتُ أُفصّل ما تدلّ عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال، ولا يمكن الإشارة إلّا الى مجامعها. فتفـكّر في القرآن، والتمس غرائبـه، لتصادف فيه مجامع علم الأوّلين والآخريـن[٩].

---

(١) الشعـراء: ٨٠. (٢) الرحمـن: ٥. (٣) يونـس: ٥.
(٤) القيامـة: ٨ و ٩. (٥) الحـجّ: ٦١. (٦) يـس: ٣٨.
(٧) الانفطار: ٦ ـ ٨. (٨) الحجـر: ٢٩.
(٩) جواهر القرآن: ص ٣٢ ـ ٣٤ (راجـع الذهبي:ج ٢ ص ٤٧٤).

هذا كلامه الظاهر في اشتمال القرآن على دقائق ولطائف لا يمكن الوقوف على حقيقتها إلّا بعد الحصول على علوم مرتبطة ومعارف متناسبة مع الذي جاء في القرآن.

وهو كلام صحيح، حيث إحدى الوسائل لمعرفة معاني كلام الله تعالى، هي العلوم والمعارف البشريّة العالية.

وهناك فرق بين الانبعاث نحو العلوم والمعارف، وبين الانتشاء واستخراج العلوم منه. فإنّ الصحيح هو الأول دون الأخير الذي ذهب إليه أمثال المرسي.

* * *

ولأبي إسحاق الشاطبي ـ الفقيه الأُصولي ـ (المتوفّى سنة ٧٩٠ هـ) رأي معارض، ينكر على القائلين باشتمال القرآن على أنواع العلوم غير الشرعيّة، وحتى الإشارة إليها سوى ما كانت العرب تعرفه من علوم متعارفة، كعلم الأنواء وبعض التواريخ وما أشبه ممّا كان متداولاً لدى العرب وأشار إليه القرآن في عرض كلامه ..

قال: إنّ العرب كان لها اعتناء بعلوم ذكرها الناس، وكان لعقلائهم اعتناء بمكارم الأخلاق، واتّصاف بمحاسن الشيَم، فصحّحت الشريعة منها ما هو صحيح وزادت عليه، وأبطلت ما هو باطل، وبيّنت منافع ما ينفع من ذلك، ومضارّ ما يضرّ منه. ثمّ ذكر من العلوم الصحيحة التي اعتنت العرب بها علم النجوم وما يختصّ به من الاهتداء في البرّ والبحر، واختلاف الأزمان باختلاف سيرها، وما يتعلّق بهذا المعنى.

ثم قال: وهو معنى مقرّر في أثناء القرآن في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وهو الذي جعلَ لكم النجومَ لتهتدوا بها في ظُلمات البرّ والبحر﴾[1] وقوله: ﴿وبالنجم هُم يهتدون﴾[2] وقوله: ﴿والقمرَ قدّرناهُ منازل حتى عادَ كالعُرجُونِ

(١) الأنعام: ٩٧.
(٢) النحل: ١٦.

القديم ﴿لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدرِكَ القمَرَ ولا الليلُ سابقُ النهارِ وكلٌّ في فلكٍ يَسبحون﴾(١) وقوله: ﴿هو الذي جعل الشمسَ ضياءً والقمرَ نوراً وقـدَّرهُ مـنازل لتعلَموا عددَ السِنينَ والحِساب﴾(٢) وقوله: ﴿وجَعلنا الليلَ والنهارَ آيتينِ فمحَونا آيـةَ الليلِ وجَعلنا آيةَ النهارِ مُـبصِرة﴾(٣) وقـوله: ﴿ولقـد زيّـنا السـماءَ الدُّنـيا بمَصابيـحَ وجَعلناها رُجوماً للشياطين﴾(٤) وقوله: ﴿يسألونك عن الأهِلّةِ قل هيَ مَواقيتُ للناسِ والحـجّ﴾(٥) وما أشبه ذلك من الآيـات.

وذكـر علم الأنواء، وأوقات نزول المطر، وإنشـاء السحاب، وهبوب الرياح المثيرة لها، وعرض لما ورد في ذلك من القرآن، مثل قوله تـعالى: ﴿وهـو الذي يريـكم البرقَ خوفاً وطمعاً وينشئُ السَحاب الثقال * ويسبّح الرعدُ بحمده﴾(٦) وقوله: ﴿أفرأيتُم الماءَ الذي تَشـربَـوُن * أأنـتُم أنـزَلتُموهُ مـن المُـزنِ أم نـحنُ المنُزِلُون﴾(٧) وقوله: ﴿واللهُ الذي أرسل الرياحَ فَتُثيرُ سَحاباً فسُقناهُ الى بلدٍ ميّتٍ فأحيينا بِهِ الأرضَ بعدَ مَوتها﴾(٨) وغير ذلك من الآيـات.

وذكر علم التاريخ وأخبار الأُمم الماضية ـ وفي القرآن منه كثير ـ قال تعالى: ﴿ذلك من أنباءِ الغَيبِ نُوحيهِ إليكَ وَمَا كُنتَ لَديهم إذ يُلقُون أقلامَهم أيُّهم يكـفلُ مريم﴾(٩) وقال: ﴿تلك من أنباءِ الغَيب نُوحيها إليكَ ما كُنتَ تَعلَمُها أنتَ ولا قومُك من قبلِ هذا﴾(١٠).

وذكـر علم الطب ـ وكان للعرب منه شيء مبنيّ على التجارب ـ وجاء منه في القرآن وجه جامع شافٍ، قليل يستفاد منه الكثير، قال تعالى: ﴿كُلُوا واشرَبُوا ولا تُسرفوا﴾(١١).

---

(١) يـس: ٣٩ و ٤٠. (٢) يونـس: ٥. (٣) الإسـراء: ١٢.
(٤) المـلك: ٥. (٥) البقـرة: ١٨٩. (٦) الرعـد: ١٢ و ١٣.
(٧) الواقعـة: ٦٨ و ٦٩. (٨) فاطـر: ٩. (٩) آل عمران: ٤٤.
(١٠) هـود: ٤٩. (١١) الأعـراف: ٣١.

وذكر التفنّن في فنون البلاغة والخوض في وجوه الفصاحة والتصرّف في أساليب الكلام، وكان من أعظم منتحلات العرب، فجاءهم بما أعجزهم في القرآن، قال تعالى: ﴿قُل لئِنِ اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتُوا بمثل هذا القرآنِ لا يأتُون بمثلِهِ ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً﴾[١].

وذكر ضرب الأمثال واستشهد بقوله تعالى: ﴿ولقد ضربنا للناسِ في هذا القرآن من كلِّ مَثَل﴾[٢].

ثمّ بعد هذا البيان ذكر أنّ القرآن إنّما تعرّض لما ألفه العرب من العلوم الصحيحة، وأهمل ما كان باطلاً، كالكهانة والزجر وخطّ الرمل والطيرة والعيافة ونحوها. أمّا وزيادةً على ذلك فلم يتعرّض لها القرآن، والقول بذلك تجاوز عن الحدّ، قال: إنّ كثيراً من الناس تجاوزوا الحدّ في الدعوى على القرآن، فأضافوا إليه كلّ علم يذكر للمتقدّمين والمتأخّرين من علوم الطبيعيات والتعاليم كالهندسة وغيرها من الرياضيات والمنطق وعلم الحروف وأشباهها .. وهذا إذا عرضناه على ما ذكرناه لم يصحّ.

قال: وربّما استندوا في دعواهم الى قوله تعالى: ﴿ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء﴾[٣] وقوله: ﴿ما فرّطنا في الكتاب من شيء﴾[٤] ونحو ذلك.

قال: أمّا الآيات فالمراد بها عند المفسّرين ما يتعلّق بحال التكليف والتعبّد. أو المراد بالكتاب في الآية الثانية اللوح المحفوظ، ولم يذكروا فيها ما يقتضي تضمّنه لجميع العلوم النقلية والعقلية[٥].

* * *

قلت: ولعلّ وهن مستند ذاك الزعم ظاهر لا يحتاج الى بيان.

---

(١) الإسراء: ٨٨. (٢) الروم: ٥٨. (٣) النحل: ٨٩.
(٤) الأنعام: ٣٨.
(٥) الموافقات للشاطبي: ج ٢ ص ٦٩ ـ ٨٢، وراجع الذهبي: ج ٢ ص ٤٨٥ ـ ٤٩٠.

أمّا الآيات الكريمة التي استندوا إليها فهي على نمطين:

الأول: ما كان المقصود من الكتاب المذكور فيها هو القرآن، غير أنّ المقصود: تبيان كلّ أمر يمسّ شؤون الدين وأحكام الشريعة الغرّاء.

إذ قوله تعالى: ﴿ونزّلنا عليك الكتاب تِبياناً لكلّ شيء﴾[1]، يعني: تبياناً لكلّ شيء يمسّ أمر الشريعة. قال الطبرسي: ومعناه: ليبيّن كلّ شيء يحتاج إليه من أُمور الشرع. فإنّه ما من شيء يحتاج الخلق إليه في أمر من أُمور دينهم إلّا وهو مبيّن في الكتاب، إمّا بالتنصيص عليه أو بالإحالة على ما يوجب العلم من بيان النبي ﷺ والحجج القائمين مقامه أو إجماع الأُمّة. فيكون حكم الجميع في الحاصل مستفاداً من القرآن[2].

فالحاصل: أنّ أُصول المعارف ومباني أحكام الشريعة كلّها مذكورة في القرآن، هذا لا شكّ فيه، ولا بدّ أن يكون كذلك، لا أكثر ولا أقلّ.

وذلك، لأنّ القائل ـ الذي تعهّد هذا البيان ـ هو الشارع فلا بدّ أن يكون مما يمسّ جانب الشرع لا غير .. والروايات بهذا الشأن كثيرة[3].

وهذا نظير ما إذا تعهّد طبيب حاذق بأنّه كتب رسالة جمع فيها ما يحتاج إليه الناس وأطلق الكلام، فإنّ المنصرف من كلامه هذا والمستفاد منه ليس سوى الأُمور الراجعة الى الصحّة والمرض والأدوية والأدواء لا غير، لأنّه هو المستفاد المنصرف إليه كلام مثل الطبيب .. وهكذا الفقيه البارع وغيره من ذوي الاختصاص إنّما تعود تعهّداتهم الى جانب تخصّصاتهم، ولا يتعدّاها في شيء.

وكذا قوله: ﴿ما فرّطنا في الكتاب من شيء﴾[4] لو كان المراد هو القرآن. أمّا لو كان المقصود هو اللوح المحفوظ ـ كما قيل ـ فشأنه خارج عن مورد البحث[5].

---

(١) النحل: ٨٩.
(٢) مجمع البيان: ج ٦ ص ٣٨٠.
(٣) راجع الميزان: ج ١٢ ص ٣٥٠.
(٤) الأنعام: ٣٨.
(٥) مجمع البيان: ج ٤ ص ٢٩٨.

والنمط الثاني من الآيـات: ما كان المقصود من الكتاب المذكور فـيها هـو اللوح المحفوظ، كهذه الآية على قول، وكقوله تعالى: ﴿ولا رَطـبٍ ولا يابسٍ إلّا في كتاب مبيـن﴾[١] فإنّ المراد به هو اللـوح المحفوظ،وهو كناية عن علمه تعالى الأزلي.

وأمّا حديث عبد الله بن مسعود: «من أراد علم الأوّلين والآخرين فـليتدبّر القرآن» فقد أراد علم الشرائـع ومكارم الأخـلاق، لأنّ ذلك هو ممكن الاستفادة من القرآن لمن أرادها.

نعم، كان استدلال أبي حامد الغزالي معقولاً: إنّ العلوم كلّها داخلة في أفعال الله عزّوجلّ وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاتـه، وهـذه العـلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارة الى مجامعها ...

إنّـه يعني أنّ ما يبدو في هذا الوجود مـن عـلوم وفـنـون ومـعارف فـانّها تجلّيات لصفاته تعالى، وبما أنّ القرآن مهبط ظهور هذه التجلّيات فلا بدّ أن تتجلّى من خلال كلماتـه وجملـه وعباراتـه ما يشي بمبادئ تـلـك الظـهورات .. وإن كانت في صورة رشحـات وخطفات عابـرة .. لانّها صادرة من ذلك البحر الخضمّ المتلاطـم.

فالذي نقول به ونعتقده، هو: أن قطعيّات العلوم والمعارف البشـرية تـجعل باستطاعتنا القدرة على فهم معاني القرآن، وأنّ في القـرآن إشـارات عـابرة الى أسرار الوجود، لا يمـكن فهم حقيقتها إلّا بعد معرفة جملة من العلوم والوقـوف على كثير من أسرار الطبيعة الكامنة التي كشفها العلم وسيكشفها على اسـتمرار، وهي خير وسيلة نافعة للحصـول على فهـم كتاب الله وكشف رموزها وإشاراتها الخافيـة.

---

(١) الأنعـام: ٥٩.

نعم، ليست هذه الوسيلة ـ مهما كانت قطعيّة الآن ـ بحاسمة، ما دام العلم في طريقه الى التكامل ولم يبلغ الغاية، وإنّما هو مجرّد احتمال مبنيّ على العلم الحاضر، هذا فحسب.

هل وقع التحدّي بالجانب العلمي؟

هل وقع التحدّي بجانب إعجاز القرآن العلمي كما وقع بجوانب الإعجاز البياني من فصاحة وبيان ونظم وأُسلوب؟

لا شكّ أنّ الإعجاز قائم ـ في الجملة ـ بهذا الجانب كسائر الجوانب، أمّا التحدّي فقد يقال باختصاصه بجانب البيان فحسب، إذ لم تكن إشارات القرآن العلمية معروفةً عند نزوله لأحد من الناس، وإنّما أثبتها العلم بعد ذلك بعدّة قرون أو سيثبتها عبر الأيّام. فإن كان ذلك دليلاً على إعجازه في مجال قادم فإنه ليس دليلاً على وقوع التحدّي به في أول يومه.

هكذا يقول الدكتور أحمد أبو حجر: إنّ آيات التحدّي إنّما تُسجّل عجز العرب الأوائل عن معارضة القرآن. وبما أنّهم عجزوا وثبت عجزهم ـ وهم سادة البيان وأرباب الفصاحة ـ فالعرب اليوم أولى بالعجز. وبذلك قامت الحجّة بهذا الكتاب العزيز[1].

قال ابن عطية: قامت الحجّة على العالم بالعرب، إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنّة المعارضة، كما قامت الحجّة في معجزة موسى بالسحَرة، وفي معجزة عيسى بالأطباء[2].

ويقول الدكتور صبحي صالح: ولا ريب أنّ العرب المعاصرين للقرآن قد سُحِروا قبل كلّ شيء باسلوبه الذي حاولوا أن يعارضوه فما استطاعوا، حتى إذا

(١) التفسير العلمي للقرآن في الميزان: ص ١٣١.
(٢) مقدّمتان في علوم القرآن: ٢٧٩.

فهموه أدركوا جماله ومسّ قلوبهم بتأثيره ... وهذا ما نجده عنصراً مستقلّاً بنفسه كافياً لإثبات فكرة الإعجاز وخلود القرآن، باسلوبه الذي يَعلو ولا يُعلى. أمّا مايتساوق مع هذا العنصر الجمالي الفنّي الرائع من الأغراض الدينيّة والعلمية ـالتي توسّع فيها بعضهم[١] ـ كاشتمال القرآن على العلوم الدينية والتشريعية، وتحقيقه مسائل كانت مجهولة للبشر، وعجز الزمان عن إبطال شيء منه. فهي أُمور لا سبيل الى إنكارها، بل يقوم عليها من الأدلّة والبراهين ما لا يُحصى. غير أنّها أدخل في معاني الفلسفة القرآنية منها في بلاغة القرآن، وليست هي مادّة التحدّي لفصحاء العرب، وإنما تحدّى القرآن العرب بأن يأتوا بمثل اسلوبه، وأن يعبّروا بمثل تعبيره، وأن يبلغوا ذروته التي لا تُسامى في التصوير. فما إعجاز هذا الكتاب الكريم إلّا سحره، ولقد فعل سحره هذا فعله في القلوب في أوائل الوحي، قبل أن تنزل آياته التشريعية ونبوءاته الغيبية ونظرته الكلّية الكبرى الى الكون والحياة والإنسان[٢].

ويسترسل أبو حجر في كلامه: إذا كنّا لانجد تناقضاً بين الآيات الكونيّة المذكورة في القرآن وبين ما يكتشفه العلم في حاضره ومستقبله ـ بل نجد توافقاً وانسجاماً ـ فليس ذلك دليلاً على إعجازه المرتبط بالتحدّي، بل هو دليل على أنّه منزل من عند الله تعالى.

وليس كلّ ما نزل من عند الله معجزاً، فالتوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية نزلت من عند الله، ولم توصف بالإعجاز كما وصف القرآن، ولم يقع بها التحدّي كما وقع بالقرآن!

وأيضاً فإنّ الآيات الكونية التنزيلية لاتشمل سوَر القرآن كلّها ولا آياته جميعها، وإنّما تقع فقط في بعض السوَر وفي بعض الآيات .. ومعلوم أنّ التحدّي

---

(١) انظر تفسير المنار: ج ١ ص ٢١٠ ـ ٢١٢ الوجه السابع من وجوه الإعجاز التي ذكرها بمنتهى الاختصار والإيجاز، وقد جرى على هذا الزرقاني في مناهل العرفان: ج ٢ ص ٣٥٣ ـ ٣٦١.

(٢) مباحث في علوم القرآن: ص ٣٢٠ ـ ٣٢١.

وقع بأيّة سورة من سوَر القرآن، فكلّ سورة من سوَرها فيها إعجاز لا يبلغه أحد ولن يصل إليه أحد.

قال: فلو كان القرآن معجزاً بسبب الإشارات العلمية المتفرّقة في ثنايا بعض آياته لكان كثير من السوَر التي تخلو من مثل هذه الإشارات بعيدة عن الإعجاز، ولم يقل بذلك أحد، لأنّ قليل القرآن وكثيره معجز.

وإذا ثبت أنّ قليل القرآن وكثيره معجز ثبت أنّ ما في القرآن من حقائق الأخبار ودقائق الشرائع وعجائب الأسرار-التي لم يعرفها البشر إلّا بعد القرون المتطاولة ـ كلّ ذلك بمعزل عن الذي طولب به العرب أن يعارضوه، بما حملهم على الاعتراف بأنّه كلام ربّ العالمين[١].

وأضاف: أنّ هذا الوجه من الإعجاز ـ على القول به ـ لن يوفّق الى فهمه والإحاطة به إلّا من كان من أهل العلم الذي يدرك هذه الحقائق ويعيها ويؤمن بصدقها، فإن لم يكن من أُولئك حجب عنه هذا الوجه.

وأخيراً، فإنّ في هذا الوجه منزلقاً خطيراً، إذ أنّ بعض من يدّعي العلم قد يُحمّل آيات مِن القرآن في هذا السبيل ما لا تحتمل، وقد ينسبون الى العلم ما هو منه براء، رغبة في إثبات إعجاز جديد للقرآن الكريم[٢].

قال: هذه هي وجهة نظر القائلين بأنّ اشتمال القرآن على الحقائق العلمية لا يعدّ وجهاً من وجوه الإعجاز في القرآن، وإن كان يدلّ على أنّه منزل من عند الله[٣].

* * *

على أنّهم قد يتعقّبون آراء الفريق الأول (القائل باستمرار التحدّي والإعجاز الشامل) بالنقد، فيعلّقون على قولهم: «إنّ هذا النوع من المعارف التي جاءت في

---

(١) انظر الظاهرة القرآنية تقديم محمود شاكر: ص ٢٢.

(٢) انظر الإسلام والإنسان المعاصر لفتحي رضوان (سلسلة اقرأ): ٤٠٦ ص ٢٢٦.

(٣) التفسير العلمي للقرآن: ص ١٣٠ ـ ١٣٣.

سياق بيان آيات الله وحكمه كانت مجهولة للعرب أو لجميع البشر في الغالب. حتّى أنّ المسلمين أنفسهم كانوا يتأوّلونها ويخرّجونها عن ظواهرها لتوافق المعروف عندهم في كلّ عصر من ظواهر وتقاليد أو من نظريّات العلوم والفنون الباطلة ...»[١] .. يعلّقون على هذا القول، بأنّ المسلمين الذين لم يعرفُوا أنّ قرآنهم جاء مؤيّداً لحقائق العلوم ـ التي لم يوفّق إليها العلماء إلّا بعد أربعة عشر قرناً ـ قد حَسُن إيمانهم بالقرآن، وحَسُن انتفاعهم بأحكامه وآياته، فنشروا نوره وأقاموا دولته ونفّذوا أوامره وانتهوا بنواهيه وتأدّبوا بآدابه. في حين أنّ الذين يعرضون الآن علمهم وذكاءهم وقدرتهم على استنباط ما يتّفق من آيات القرآن مع العلم الحديث هم أقلّ الأجيال المسلمة تأثّراً بهذا القرآن في شؤون دينهم ودنياهم[٢].

وهكذا قال ابن سراقة: بعض وجوه إعجاز القرآن ما ذكر الله فيه من أعداد الحساب والجمع والقسمة وما الى ذلك، ليعلم بذلك أهل الحساب أنّه ﷺ صادق في قوله، وأنّ القرآن ليس من عنده، إذ لم يكن ممّن خالط الفلاسفة ولا تلقّى الحساب وأهل الهندسة ..[٣].

* * *

يبدو أنّ الذي دعا بالقائل بعدم الشمول واقتصار التحدّي على العرب الأوائل وفي جانب بيانه فقط هي نظرته القاصرة على آيات وقع التحدّي فيها موجّهاً الى العرب بالذات. ولا شكّ أن تحدّياً موجّهاً الى العرب يومذاك لا يعني سوى جانب البيان الذي فاق أساليب العرب وأعجزهم عن أن يأتوا بمثله.

غير أنّ تحدّي القرآن لم يقتصر على فترة من الزمان ولا على أُمّة من الناس دون من سواهم. فنراه وجّه نداءه الصارخ الى البشريّة جمعاء في طول الزمان وعرضه، ولكلّ الأجيال ومختلف الأقوام، وما شأنه ذلك لا يعقل اقتصاره على

(١) راجع تفسير المنار: ج ١ ص ٢١٢.
(٢) التفسير العلمي للقرآن: ص ١٣٣ ـ ١٣٤.
(٣) الإتقان للسيوطي: ج ٦ ص ٣١.

جانب الفصاحة والبيان، إذ ليس كلّ الناس عرباً ولا كلّ العرب فصحاء ... فلا بدّ أنّ في القرآن شيئاً هو الّذي تُحُدِّيَ به تحدّياً على وجه العموم، ومن ثمّ كان بمجموع الكتاب، لا بسورة واحدة أو آية أو آيات بالذات[1].

قال تعالى: ﴿قُل لئنِ اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتُون بمثله ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً﴾[2].

فهذا تحدّ عامّ وقع موجّهاً الى كافّة الأنام، سواء من عاصر نزول القرآن أو سائر الأيّام.

* * *

وبعد، فإليك بعض ما وصلت إليه أفهام البشريّة حسب ما وصلت إليه من العلوم الطبيعية المقطوع بها تقريباً، وكان ذلك دليلاً على معجزة القرآن الخارقة للعادة، في يوم كان سرّ هذه العلوم والآراء النظريّة، مكتوماً على البشرية يومذاك، وأصبح اليوم مكشوفاً، وسيكتشف حسب مرّ الأيّام.

---

(١) ذهب الشيخ محمّد الطاهر بن عاشور الى أنّ الإعجاز العلمي حاصل بمجموع القرآن، وهو إعجاز حاصل من القرآن، وغير واقع به التحدّي إلّا إشارة (هامش التفسير العلمي: ١/١٣٣).

(٢) الإسراء: ٨٨.

الماءُ أصلُ الحياة

﴿وجعلنا من الماءِ كلَّ شيءٍ حيٍّ﴾[1].

قال رسول الله ﷺ: كلُّ شيء خُلق من الماء[2].

تدلّنا النصوص الشرعية الصادرة عن منابع الوحي على أنّ الماء هو أوّل ما خلق الله من الجسمانيات، فقد روى الصدوق في كتاب التوحيد بإسناده عن جابر ابن يزيد الجعفي (تابعيّ ثقة صدوق: ١٢٨) أنّ رجلاً من علماء أهل الشام جاء الى أبي جعفر الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام وقدّم إليه أسئلة زعم أنه قدّمها الى سائر أصناف الناس فاختلفوا ولم يتبيّن وجهُ الصواب، فمن ذلك سؤاله عن بدء الخلقة، فكان فيما أجابه الإمام عليه السلام قوله: فأوّل شيء خَلَقَهُ مِن خَلقِهِ الشيءُ الذي جميعُ الاشياء منه، وهو الماءُ[3].

وهكذا رواه ثقة الإسلام الكليني في روضة الكافي، قال عليه السلام: وخلق الشيء الذي جميع الأشياء منه، وهو الماء الذي خُلق الأشياء منه، فجعل نسب كلّ شيء الى الماء، ولم يجعل للماء نسباً يضاف اليه[4].

وأيضاً بإسناده عن محمّد بن مسلم (الثقة الجليل) عن الإمام جعفر بن محمّد

---

(١) الأنبياء: ٣٠.

(٢) بحار الانوار: كتاب السماء والعالم ج ٥٤ ص ٢٠٨ حديث ١٧٠، وراجع الدرّ المنثور: ج ٤ ص ٣١٧.

(٣) بحار الانوار: ج ٥٤ ص ٦٧ حديث ٤٤ عن كتاب التوحيد ص ٦٧ حديث ٢٠ باب التوحيد.

(٤) الكافي: ج ٨ ص ٩٤ حديث ٦٧، البحار: ج ٥٦ ص ٩٧ حديث ٨١.

الصادق عليه السلام: كان كـلُّ شيء ماءً، وكان عرشـه على الماء(١).

* * *

وفي قوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستّة أيام وكان عرشه على المـاء﴾(٢) دلالـة على أنّ الماء وُجد قبل أن توجَد عوالمُ الكون من سماء وأرض، لأنّ العرش كناية عن عرش التدبير، وهو عـلمه تـعالى بـمصالح الوجود على الإطـلاق. فإذ لم يكن سوى الماء فإنّ عرشه تعالى لم يـكن مستوياً على شيء سوى الماء. فالآيـة كناية عن أنّه تعالى كان ولم يكن معه شيء، سوى أنّه خلق الماء قبل أن يخلق سائر الموجـودات.

* * *

وفي القرآن الكريم أيضاً مواضع تشير الى أنّ أصل الحياة مـن المـاء، فـي نشأتها وتكوينها و ظهورها في عالم الوجود. قال تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كلَّ شيءٍ حيّ﴾(٣) وقال: ﴿والله خلق كلَّ دابّةٍ مِـن مـاء﴾(٤). وقـال فـي خـصوص الإنسان بالذات: ﴿وهو الذي خَلقَ مِن الماءِ بشراً﴾(٥).

اختلف أهل التفسير في المراد من هذا الماء الذي هو نشأة الحيـاة.

قال الإمام الرازي: ذكروا في هذا الماء قوليـن: (أحدهمـا) أنه المـاء الذي خلق منه أُصول الحيوان، وهو الذي عنـاه بقوله: ﴿والله خلق كلّ دابّة من ماء﴾. (والثانـي) أنّ المراد النطفـة، لقـوله: ﴿خُـلِقَ مِـن مـاءٍ دافِـق﴾(٦). ﴿مِـن مـاءٍ مَهين﴾(٧)(٨).

وقال ـ في قوله تعالى: ﴿واللهُ خَلقَ كلَّ دابةٍ مِن ماء﴾ ـ: فـي ذلك وجـوه:

---

(١) الكافي: ج ٨ ص ٩٥ حديث ٦٨ وص ١٥٣ حديث ١٤٢، البحار: ج ٥٤ ص ٩٨ حديث ٨٢.
(٢) هـود: ٧. (٣) الأنبيـاء: ٣٠. (٤) النـور: ٤٥.
(٥) الفرقـان: ٥٤. (٦) الطـارق: ٦. (٧) المرسـلات: ٢٠.
(٨) التفسير الكبير: ج ٢٤ ص ١٠١.

(الأول) ـ وهو أحسنها ـ ما قاله القفّال: إنّ قوله «من ماء» صلة «كلّ دابة»، وليس من صلة «خَلقَ». والمعنى: أنّ كلّ دابة متكوّنة من الماء ـ أي متولّدة من انعقاد النطفة ـ فهي مخلوقة لله تعالى. (الثاني) أنّ أصل جميع المخلوقات من الماء، لأنّ الماء هو الأصل الأول الذي خلقه الله، كما ورد في الحديث: أول ما خلق الله الماء. (الثالث) أنّها متولّدة من النطفة، أو لأنّها لا تعيش إلّا بالماء[١].

* * *

ولكنّ المحقّقين من أهل التفسير لم يزالوا على القول بأنّ المراد من هذا الماء هو الذي منه أصل جميع المخلوقات، فإنّ من الماء نشأت الحياة وبذرت بذرتها الأُولى، بشكل حيوان بسيط ذي خليّة واحدة (الأميبا)[٢] وارتقت الى حيوانات معقّدة الأعضاء ذوات الخلايا العديدة، فوق الملايين. أمّا كيف وجدت أول ما وجدت الحياة ـ في المياه: البحار والبحيرات والمستنقعات ـ فهذا ممّا لم يجد له العلم إجابة صحيحة صالحة للقبول على مسرح العلوم التجريبية المجرّدة.

ومن ثمّ فإنّ نظرية التطوّر في الحياة ـ على أنحائها وأشكالها ـ إنّما تبتدئ من عصر ما بعد الخليّة، أمّا عصر ما قبلها فمجهول، سوى أنه أمرٌ تحقّق بإرادة الله المهيمن على مقدّرات هذا الكون، الأمر الذي لا محيص عن الإذعان به ما دام التسلسل باطلاً وكان التولّد الذاتي مستحيلاً، وقد أبطله العلم على أساس التجربة أيضاً.

قال سيّدنا الأُستاذ الطباطبائي ﵀ ـ عند قوله تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كلّ

---

(١) التفسير الكبير: ج ٢٤ ص ١٦.

(٢) قدبسط الأُستاذ الطنطاوي الكلام حول هذا الحيوان (ذي الخلية الواحدة) في تفسيره الجواهر (ج ١٢ ص ٢٢٦) عند قوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً﴾.

ولشيخنا الأُستاذ محمّد تقي الفلسفي أيضاً مقال لطيف حول مسألة الحياة، بحث فيه على ضوء الآراء الحديثة عن الحياة ونشأتها وتطوّرها، على اسلوبه الشيّق. فراجع: تفسيره لآية الكرسي: ص ٣٩ ـ ٩٨.

شيء حيّ﴾ ـ: والمراد أنّ للماء دخلاً تامّـاً في وجود ذوي الحياة، كـما قـال: ﴿والله خَلَقَ كلّ دابّـةٍ مِن ماء﴾ . قال: وفي ظلّ البحوث العلميّة الحديثة ظهرت صلة الحياة بالماء[١] معجزة قرآنيّة خالدة.

* * *

قال سيّد قطب: وأمّا قوله تعالى: ﴿وجعلنا من الماءِ كلّ شيءٍ حيّ﴾ فـيقرّر حقيقة خطيرة يَعُدُّ العلماء كشفها وتـقريرها أمـراً عـظيماً. ويُـمجّدون «دارون» لاهتدائـه اليها! وتقريره: أنّ الماء هو مهد الحياة الأوّل.

وهي حقيقة تثير الانتباه حقّاً، وإن كان ورودها في القرآن الكـريم لا يـثير العجب في نفوسنا، ولا يزيدنا يقيناً بصدق هذا القرآن. فنحـن نسـتمدّ الاعـتقاد بصدقه المطلق، في كلّ ما يقرره، من إيماننا بأنّـه من عند الله، لا مـن مـوافـقـة النظريات أو الكشـوف العلميـة له. وأقصى ما يقال هنا كذلك: إنّ نظرية النشُوء والارتقاء لدارون وجماعته لا تعارض مفهوم النصّ القرآنـي فـي هـذه الـنقطة بالذات.

ومنذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً كان القرآن الكريم يوجّه أنـظار الكـفّار الى عجائب صنع الله في الكون، ويستنكر أن لا يؤمنوا بها وهم يرونها مـبثوثة فـي الوجود «أفـلا يؤمنـون ؟» وكلّ ما حولهم في الكون يقود الى الإيمان بـالخالق المدبّر الحكيـم[٢].

وقال أيضاً ـ عند قوله تعالى: ﴿والله خَلَقَ كـلّ دابّـةٍ مِـن مـاء﴾ ـ: وهـذه الحقيقة الضخمة التي يعرضها القرآن بهذه البساطة ـ حقيقة أنّ كل دابّـة خُلقت من ماء ـ قد تعني وحدة العنصر الأساسي في تركيب الأحياء جميعاً، وهو الماء. وقد تعني ما يحاول العلم الحديث أن يثبته من أنّ الحياة خرجت من البـحر ونشأت

---

(١) تفسير الميزان: ج ١٤ ص ٣٠٥.
(٢) في ظلال القرآن: ج ٥ ص ٥٣١.

أصـلاً في الماء، ثمّ تنوّعت الأنـواع، وتفرّعت الأجناس.

ولكنّـنا نحن على طريقتنا في عدم تعليق الحقائق القـرآنـيّة الثـابتة، عـلى النظريات العلميـة القابلة للتعديل والتبديل. لا نزيد عـلى هـذه الإشـارة شـيئاً، مكتفين بإثبات الحقيقة القرآنيـة، وهي أنّ الله خلق الأحياء كلّها من الماء، فهي ذات أصل واحد. ثمّ هي ـ كما ترى العين ـ متنوّعة الأشكـال، مـنها الزواحـف تمشي على بطنها، ومنها الإنسان والطير يمشي على قدميـن، ومنها الحيوان يدبّ على أربع، كلّ ذلك وفق سنّة الله ومشيئته، لا عن فلتـة ولا مصادفـة. فالنواميس والسُنن التي تعمل في الكون قد اقتضتها مشيئةُ الله الطليقة ﴿إنّ الله على كلّ شيءٍ قديـر﴾[1].

* * *

وبعد، فيجدر بنا الآن ـ ونحن بصدد فهم الآيـة على ضوء مكتشفات العلم ـ البحث عن نظريـة العلّامـة «تشارلز داروين»[2] عن الحياة وعن تطوّرها عـبر الوجود، على ما أشار إليه سيّد قطب مُمَجّداً لموقفه في هذا الاكتشاف!

وقد لخّص الأُستاذ إسماعيل مظهر مذهب النشوء والارتقاء عـلى مـاسلكه داروين في مقدّمة كتابه «أصل الأنواع». وكان تـلخيصاً وافـياً ومسـتوعباً كـلّ جوانب هذا البحث، بروايـة العلماء الأحيائيين، مبتدئاً من أصـل وجـود هـذه البسيطة (انفصالها عن سديم الشمس) فإلى وجود الحياة عليها وتطوّرها، والانتهاء بوجود أكمل المخلوقات (الإنسان) والعهدة على راويها، وإليك من تلك الخلاصة.

* * *

ينتشـر في السماء غماماتٌ ضبابية مضيئة وقف الفلكيّـون والكيميّون على سرّ العناصر التي تتألّف منها.

---

(١) في ظلال القرآن: ج ٦ ص ١١١ قد ذكرت الآية في سبعة موارد.

(٢) توفّي سنة ١٨٨٢ م.

إنّها كتل مضيئة شديدة الحرارة، سمّاها العلماء (السُدُم) مفردها: سديم، والمعروف منها قرابة مليونين.

على أنّ الرأي يختلف في قوامها: أهي غازية أم جُزَيئات صلبة؟ أمّا المتّفق عليه بين العلماء فهو: أنّ النظم الشمسية جميعاً ناشئة عنها.

واختلف الرأي في الطريقة التي تألّف بها نظامنا الشمسي، ولكن أقربها الى المعقول مذهب الأُستاذ «سيرجيمس جينز» الفلكي المعروف. ومحصّله: أنّ النظام الشمسي الذي تؤلّف الأرض جزءً منه إنّما كان في الأصل جزءً صغيراً جدّ الصغر من كتلة سديمية هائلة الحجم عظيمة الأبعاد، تهشّمت فتناثرت منها شموس كبيرة، وما شمسنا إلّا إحدى هذه الشموس. فلمّا اقترب منها نجمٌ ضالٌّ حدث جذبٌ مَدّيٌّ على جرم الشمس، فخرج منه ذراع انعقدت فيه كتل، كانت فيما بعد الأرض وأخواتها من السيّارات.

وإلى هنا أدّى علم الفلك رسالة التوضيح عن حقيقة النظام الذي نعيش فيه، ومن ثمّ أخذ علم الجيولوجية (علم طبقات الأرض) يؤدّي إلينا رسالة ثانية.

* * *

كانت الأرض عند انفصالها من سديم الشمس كتلة من المادّة وفيرة الحرارة، مضت تبرد ببطءٍ شديد حتى أخذت قوام الجماد. وقبل ذلك ـ أي عندما بدأت تأخذ القوامَ العجيني ـ كانت كتلة من المادّة المصهورة شديدة البياض، وبتناقص الحرارة تدرّجاً، نزلت الى الحالة النارية أي أصبحت حرارتها حمراء اللون. والقسط الأوفر والأثقل وزناً من هذه الكتلة انّما يؤلّف بطن الأرض، أمّا قشرتها فهي الجزء الأخفّ من الكتلة .. والجزء المركزي لا يزال في حالة المَيعان، أمّا القشرة فتؤلّف الأديم الذي نسمّيه «التربة» أو «الثرى».

وفوق الأرض أيضاً ذلك الماء الذي نسمّيه البحار والبحيرات والأنهار.

وفي الدور الذي كانت فيه الأرض كتلة منصهرة غشّاها غلاف كثيف من الماء

بخاريّ القوام، فلمّا بردت برد معها ذلك الغلافُ البخاري واستحال ماءً. كـذلك تقلّصت الأرض عندما أخذت تبرد تدرّجاً، فتجعّد سطحُها، كجلد تفّاحة جـفّت وانضمرت. وفي الأغوار المنخفضة تجمّع الماء وانتهى الأمر بأن أصبحت الأرض كرّة من يابس ومـاء.

لقد اقتضى التطوّر ـ حتى بعد أن بلغت الأرضُ هذا المبلغ من التنشّؤ ـ أزماناً متطاولة، بل موغلـة في التطاول، قبل أن يظهر على سطحها شيء من الكـائنات الحيّة، (وفي الماء أخذت الحياة تتأصّـل).

أمّا تفصيل الأدوار التي مضت فيها الأرض حتى أصبحت بيئة صالحة للحياة فمن اختصاص علم الجيولوجيـة. ومن ثمّ يبدأ علم الأحافير يؤدّي رسالة ثالثـة.

* * *

عندما بلغت الأرض من التطوّر مبلغاً يسمح بظهور الحياة دبّت فـيها تـلك النسمة العجيبة، ولقد تركت الكائنـات الحيّة الأُولى آثارها منطبعة في الصخور أوفي صوَر احفورية. ولقد سمّيت هذه الآثار بالأحافير (واحدتها: أُحفورة)، لانّها تحتفر من الأرض.

خلّف الأحياءُ آثاراً في صورة أجزاء من نبات وأصداف وحشرات وأسماك وعظام وطبعات أقدام لطيور أو ذوات أربع، ومن مجموع هذه الآثار يؤلّـف علم الأحافير مدوّنـة العصور الخالية.

* * *

حتى منتصف القرن الماضي كان المعتقد أنّ كلّ نوع من الأنواع الحيّة قد خلق مستقلاًّ، وأنّ خلق الانسان كان النهاية التي توّجت أعمال الخلق، وينبني على هذا أنّ الأنواع ثابتة لا تتغيّر ولا تتطوّر.

في سنة ١٨٥٩ م أظهر «داروين» خطأ هذه العقيدة، وأنّ الأنواع المختلفة ـ نباتاً كانت أم حيواناً ومعها الانسان ـ إنّما نشأت تدرّجاً من طريق الاحـتفاظ

بمختلف التحوّلات التي تنشأ في أفراد كلّ منها. أمّا هذا التحوّل فقد استغرق أحقاباً طويلة جهد الطول، وفقاً لما يقتضيه تأثير سنن طبيعية دائمة التأثير في طبائع الأحياء.

ولقد أبان «داروين» أنّ ما في مستطاع الانسان أن يبتكر في السلالات الداجنة من صوَر مستحدثة بالانتخاب الاصطناعي، في مكنة الطبيعة أن تستحدث مثله بالانتخاب الطبيعي، وإن كان الانتخاب الطبيعي أبطأ أثراً في تحوّل الأحياء من الانتخاب الاصطناعي.

* * *

سمّيت هذه النظريةُ «نظرية التطوّر». أمّا العوامل الطبيعية التي يؤدّي فعلُها الى التطوّر ونشوء الأنواع فخمسة عوامل:

١ ـ الوراثة: ومحصّلها أنّ الشبه يأتي بمشابهه، فالسنانير لا تلد كلاباً، بل سنانير، أي أنّ صغار كلّ نوع تشابه آباءها، ذلك في النبات كما في الحيوان.

٢ ـ التحوّل: أفراد كلّ نوع تتشابه ولا تتماثل، أي لا تكون نسخة مطابقة لأُصولها. فهي تشابه آباءها ولكن لا تماثلهم. ففي بطن من السنانير مثلاً لا تقع على اثنين متماثلين تماماً، وإن تشابه الجميع حتى في اللون فإنّها تختلف في الظلال التي يمتدّ فيها اللون.

٣ ـ التوالد: إنّ ما يولد من النبات والحيوان أكثر ممّا يقدّر له البقاء. فالطبيعة تُسرف في الايجاد، كما تُسرف في الافناء، ومن هنا ينشأ العامل الرابع وهو:

٤ ـ التناحر على البقاء: وهو عامل مطّرد التأثير غير منقطع الفعل، فكلّ نبات أو حيوان يبرز في الوجود ينبغي له أن يسعى الى الرزق وأن يجالد في سبيل ذلك، وأن يجاهد غيره على ضرورات الحياة، وينشأ عن هذا:

٥ ـ بقاء الأصلح: فالأفراد التي تتزوّد من بنائها بقوّة أوفى أو حيلة أزكى أو تكون أكثر قدرة على مقاومة الأفاعيل الطبيعية تكون أكثر قابلية للبقاء، وأعقاب

نسل فيه صفاتها التي مكّنت لها في الحياة.

وباستمرار فعل هذه العوامل الخمسة أمكن للأحياء أن تعمر رقعة الأرض جميعاً.

خلاصة المدارج التي سار فيها تطوّر الأحياء:

طوال عهود من الزمان ـ موغلة في القدم ـ تنشّأت صنوف مختلفة من الأحياء، ومضت متطوّرة ضاربة في سبيل الارتقاء، كما فنت غيرُها وبادت لعجزها عن مسايرة مقتضيات التطوّر، كلّياً أو جزئيّاً، وما فنى وباد من الأحياء إلّا وقد احتلّ مكانه غيرُه من الكائنات، لأنّها أصلح للبقاء بقدرتها على تحصيل مؤهّلات الحياة أو مقاومة أفاعيل الطبيعة، كالحرّ والبرد والرطوبة والجفاف وغير ذلك. وهذه الصوَر المتفوّقة خلال بعض الأزمان عادت فأخلت السبيل لغيرها من الصوَر الحيّة، لما أن نضب فيها معين القدرة على التكيّف التي من شأنها أن توائم بين حاجات حياتها وبيئتها التي تعيش فيها.

أول ظهور الحياة على وجه الأرض:

تلك كانت قصّة التطوّر التي رسمها علماء الطبيعة وأخيراً العلّامة «تشارلز داروين».

وأمّا ظهور الحياة فقد ظهرت أول ما ظهرت في تلك الصورة الهلاميّة التي يسمّيها علماء الطبيعة «الجبلة» أو «البروتو بلازم» وهي الذخيرة أو الأصل الذي تعود إليه كلّ صوَر الأحياء من نبات وحيوان.

فأبسط صوَر الحياة حيٌّ، هو عبارة عن شذرة صغيرة من «البروتوبلازم» أو «الجبلة» تتضمّن جسماً مستديراً هو «النواة». وكلاهما من الصُغر بحيث لا تراه العين إلّا مستعينة بالمجهر «المكرسكوب». وهذه الشذرة المكوّنة من جبلة ونواة،

هي ما يسمّيه الأحيائيّون: «الخليّة». وكلّ الأحياء ـ على إطلاق القول ـ إمّـا أن تتألّف من خليّة واحدة أو من خلايا متعدّدة. والانسان نفسه لا يتعدّى أن يكون تأليفه من عدد لا يحصى من الخلايا المختلفة. والحيوانات إمّا آحادية الخـليّة، وتسمّى علميّاً: الأوالي (البرزويّات) تتألّف من خليّه واحدة .. أو كثيرة الخلايا، وعلميّاً (المتزويّات) تتألّف من أكثر من خليّة، أي من خلايا عديدة، وقد يصحّ أن تكون الحيوانات كثيرة الخلايا قد نشأت من آحادية الخليّة.

أمّا كثيرات الخلايا فكانت لدى أول أمرها بسيطة التركيب، كحيوان المرجان وقناديل البحر وشقائق البحر وما الى ذلك.

عقيب ذلك ظهَر الحيوان الدوديّ الصورة (الديـدان) أو الحيوانات الدودانيّة التي منها «الرخويّـات» كالمحار والحـلازيـن والحـبارات مـن الأسـماك، ثـمّ «الشوكيّات» كنجوم البـحر وقـنافذ البـحر وخـيار البـحر، ثـم «القشـريّـات» كالسراطين والاربيان، ثمّ من بعد ذلك ظهرت «الحشـرات».

من ثمّة ظهرت صـوَر جـديدة مـن الحـيوان، هـي عشـائر ذوات صـفات مستحدثة، دلّ وجودها على وقوع انقلاب كبير في سير الحياة. فكلّ الحيوانات التي ذكرنا من قبل كانت رخوة القوام ليّنة الأجسام، معدومة العظام، ولو أنّ بعضاً منها كالسراطين والمحار وقنافذ البحر قد اختصّت بأصـداف تـقي ذواتـها مـن العطب. أمّا الصوَر الجديدة فكان لها حبـل متين يمتدّ طـوال الجسـم ويسـمّى علميّاً «الرتمـة».

وكان ظهور هذا الحبل أول مدرج من مدارج التطوّر نحو تكوين «القفار» أو «الصلب» المؤلّف من أجزاء عظمية، كلّ منها يسمّى «قفارة».

أمّا أوالي الحيوانات ذوات الرتمة ـ وقد نسمّيها علميّاً «الرتميّات» ـ فكانت سهمية الشكـل ومن أهل الماء وأشهرها «الاطريف» وقد يسـمّى «السـهيم» أو الحرب أيضاً. ومن «السهيم» نشأت الأسماك.

وقد بدأت بالصورة ذوات الهيكل الغضروفي وأترابها، ثمّ ظهرت الأسماك ذوات الهياكل العظمية الصلبة، كالصمون والقدّ والفرخ، كما تفرّع من «الحريب» صورة أُخرى كالسباذج والجلكيّات، وهي من الأحياء التي لا ترتمة لها، أي ليس لها حبل ظهري إلّا عندما تكون صغيرة وفي أول عهدها بالحياة.

أمّا الأحياء التي نشأت من بعد ذلك فجميعها من ذوات القفار، وبذلك انقسمت الأحياء قسمين عظيمين: اللافقريات (معدومات الفقار)، والفقاريات (ذوات الفقار).

ظهر بعد ذلك أسماك متطوّرة تستطيع أن تعيش في الطين اللازب، إذا ما غاض الماء في فصول الجفاف. وبدلاً من أن تتنفّس بخياشيمها كبقية الأسماك نشأ لها مع هذا التطوّر جهاز آخر هي عبارة عن رئات أوّلية، تحوّلت عن مثانة السبح (العوّامة) فتدرّعت بذلك في معركة الحياة بجهازين للتنفّس. ومن ثمّ سمّيت هذه الأسماك «ذوات التنفّسين».

ومن ذوات التنفّسين تنشّأت البرمائيات (الكائنات البرّية المائية) كالضفادع وما إليها. وهي التي تستطيع العيش في اليابسة، كما تستطيع العيش في الماء. ومن البرمائيات تنشّأت الزواحف كالعظايا والتماسيح والحيّات. ومن فرع من الزواحف تنشّأت الطيور.

ومن الزواحف أيضاً تنشّأت ذوات الثدي التي تغذّي صغارها بسائل هو اللبن، ولذا سمّاها بعضهم «اللبونات» وكانت أوالي الثدييات حيوانات بيوض، تضع بيضاً كالزواحف والطيور، فاذا نَقَفَ[1] البيض عن صغارها أرضعتها. ولا يزال بعضها عائشاً حتى اليوم كالصلول والنفطير، وكلاهما يعيش في استراليا، وليس في غيرها من بقاع الأرض.

---

(١) نَقَفَ الفرخُ البيضة: نقبها وخرج منها.

ومن الثدييات البيوض تنشّأت الجلبانيات (ذوات الكيس) كالكنغر وغيره.

وتفرّع من الجلبانيات شعب متفرّقة من الاحياء، أهمّها ـ من وجهة النظر البشرية ـ ما يسمّى علميّاً «الصعابير» أو «الليامير». فإنّ من هذه الصعابير تنشّأت السعادين (ذوات الذيول) والقردة (فاقدات الذيول) والبشرانيّات.

* * *

أمّا من أيّة من الشعب العديدة التي تحوّلت عن الصنابير قد تنشّأ الانسان، فأمرٌ لا يزال محوطاً بكثير من الشكّ عند العلماء. ولكن الراجح أنّ سلفاً من الأسلاف البشرية ـ المشابهة للبشر ـ قد تطوّرت عنه شعب جاء منها الغرلّى والشمزى والارطان والحين، ثمّ الانسان.

ويظهر أيضاً أنّه من الصعابير جاء «السغل» وهو حيوان صغير من الرئيسات، في دماغه تلك البلديات التي على غرارها تشكّل الدماغ البشري. وممّا يذهب إليه بعض الأحيائيين أنّ «السغل» قد يكون الأصل الذي منه نشأ الانسان.

ومن هنا نرى أنّه بالتطوّر قد وجدت جميع الكائنات الحية فخرج بعضها من بعض على طول الأحقاب الجيولوجية، وكان أصل الجميع ناشئاً من الماء الذي هو أصل الحياة. ومن الماء كلُّ شيءٍ حيّ.

* * *

وممّا يزوّدنا به علم الفلك والجيولوجيا والأحافير، يقول العلماء: إنّ الزمن الذي انقضى منذ انفصال الأرض من السديم الأصلي حتى ظهور الانسان يتراوح بين ثلاثة آلاف وخمسة عشر ألف مليون سنة، أي أنّ الفرق بين تقدير العلماء في قياس الزمن يبلغ اثني عشر ألف مليون سنة. وقد يكون ذلك الزمان أطول ممّا يقدر له العلماء. ولكن الملحوظ أنّهم إنّما يقدّرون أقلّ ما يمكن من الزمن لتتمّ فيه تلك العملية التطوّرية العظمى.

تلك قصّة الحياة ـ على ما رسمها «داروين» ـ ولكن مقتصرة على عصر ما

بعد الخلية، التي هو أساس الحياة بكلّ صوَرها المادّية، وفي الانسان في خصوص جانب جسده لا غير. ولم يعرض للبحث في عصر ما قبل الخلية ليعرف كيف نشأت الحياةُ في تلك الصورة البسيطة، ومن أين هبط ذلك السرّ الرهيب، سرّ الحياة الذي جعل من المادّة الجامدة كائنا حيّاً.

قال الدكتور إسماعيل مظهر: لم يكن مذهب «داروين» انتصاراً للمادّية الصرفة انتصاراً حاسماً قاطعاً، بل انتصاراً جزئياً، لم يتجاوز أنّه تفسير لبعض وجوه من خصيّات المادّة، تناول «داروين» منه ناحية المادّة الحيّة، أي المادّة بعد أن دبّت فيها الحياة. ولكن ما الحياة؟ ذلك هو سرّ الأسرار![1].

(١) أصل الأنواع: ص ٥٩.

كيف نشأت الحياة ؟

ما أصل الحياة؟ وكيف نشأت في هـذه الأرض؟ سـؤال ورد عـلى أذهـان الباحثيـن في كلّ عصر من عصور التاريخ. وتجشّم كثير منهم مؤونـة البحث فيه، فملأوا المجلّدات الضخام ابتغاء الوصول الى معرفة ذلك السرّ الخفي، سرّ الحياة، ولكن لم يزيدوا على القول بأنّ «الحياة هي حياة» لا أكثر.

قالوا: أصل الحياة من التراب، وتدرّجوا الى القـول بأنّـها نـتيجة اخـتلاط العناصر، وأيّ العناصر تلك التي تبدع الحياة؟ «فاقد الشيء لا يعطيـه». لا جَرَمَ قالوا بالتولّد الذاتي ـ وإنّها نشأت بذاتها ـ ولم يثبتوه بتجربة، اللهمّ إلّا فروضاً ما أنزل الله بها من سلطان[1].

لبث القائلون بالتولّد الذاتي على قولهم حيناً من الدهر حتى قام «روسـيل وولاس» وهو من زعمـاء «النشوء والارتقاء»، ونقض عليهم ذلك الرأي، إذ قال

(١) ولقد ظلّت الفكرة عن أصل الحياة ومنشأها الأول شغلت فراغاً واسعاً من العالم القـديم، وكلّما تقدّم الزمان ازداد العالم توغّـلاً في غياهب الجهل عن أصل هذه الحقيقة، حتى أراد «وليم طمسـن» أن يخرج بالعالم من ظلمات الجهل، فقال: بأنّ الحياة هبطت الى الأرض من السماء، حملتها النيازك والشهب ومن ثمّ تكاثرت فيها.

نعم، خرج بنا إذ ذاك من ظلمات جهل بسيط الى حلكـة جهل مركّب، لأن الحياة سواء أنشأت في السماء أم في الأرض فذلك لا يوصلنا الى معرفة أصلها ونشأتها. تلك شاكـلة البحث في أصل الحياة، والمظنـون قويّـاً أنّ الفكر الإنسـاني سيقف عند هـذا الحـدّ مـن المبحث أجيالا وأجيالا.

بأنّ نواة الخليّة الحيّة ليست شيئاً كيموياً عويص التركيب، ومن المستطاع تركيبها ثانية اذا حلّلت، ولكنها لا تكون نواة حيّة، إذ تكـون قـد فـقدت بـين التـحليل والتركيب سرّاً هو سرّ الحياة، فما هو ذلك السرّ؟

لا جَرَمَ أنّ الانسان سائر من طريق العلم الى الاعتراف بالعجز، فكلّما كشف لنا عن سرّ من أسرار هذا الكون الفسيح ألفاه محوطاً بكثير من الأسرار الأُخر التي يعجز الفكر الانسـاني أزماناً طوالاً دون معرفة كنههـا. وستتدرّج الانسانية فـي كشف المُغمضات حتى تنتهي الى حدٍّ تتكاثف عنده ظُلمات تلك الأسـرار، وإذ ذاك يقف الفكر معترفاً بالعجز(١).

* * *

و «التولّد الذاتي» رأي ظهر في أواسط القرن التاسع عشر نـتيجـةً لسـلسلة بحوث منظومة قام بها فحول من العلماء في القرن الثامن عشر، أو قرن «المادّية» كما يقولون، قالوا: إنّ الانسان اذا استطاع أن يبرهـن على التـولّد الذاتـي فـي الأجسام التي لا حياة فيها، تيسّر له أن يبرهن عليه في الأجسام الحيّة.

وقد يتبادر الى الأذهان أن التولّد الذاتي لزام للـنشوء والارتـقاء ، لولا أنّ الحقيقة على نقيض ذلك، فإنّ التطوّر لا يبحث إلّا فيما بعد أصل الحياة من نشوء بعض الصور من بعض على مَـرِّ الزمان، وبتأثير نواميس طبيعيـة، قد نعرف بعضها وقد يغيب عنّا البعضُ الآخر. أمّا القول بالتولّد الذاتي فقد أتى من رأيٍ شاع في القرن الثامن عشر هو القول بقدم العالم، الذي كانت من نتيجـته إنكـار «علّة أُولى واجبـة الوجود بذاتها».

* * *

القول بقدم العالم قول تدرّج الباحثون منه الى إنكار علّة أُولى واجبة الوجود بذاتها. ولأجل أن يؤيّدوا مذهبهم أرادوا أن يطبّقوه عـلى عـالم الحـياة، فـقالوا

---

(١) أصل الأنـواع: ص ٢٧.

بالتولّد الذاتي اعتباطاً ومن غير أن تمسّ إحدى المسألتين بالأُخرى. لأنّ إثبات التولّد الذاتي أو نفيه لا يترتّب عليه مطلقاً القولُ بإنكار «علّة أُولى». لأننا لو فرضنا أنّ الحياة قد نشأت من اختـلاط بعض العناصر الأوّلية مقرونة بـمهيّئات أُخـر، فذلك لا يستوجب نفي تلك القوّة المدبّرة التي استطاعت بوساطتها تلك العناصرُ من الدور في سلسلة من التغيّرات والتطوّرات، حتى بلغت حدّاً عنده انبثّت فيها الحياة. تلك السلسلة الدورية التي لا يمكن إيضاحُها بأيّـة طريقة كيموية أو آليّـة.

قالوا: إنّ القوّة المتحرّكة والقابلية الذاتية مبدآان طبيعيّان غير منفصلين، وإنهما والمادّة صنوان لا يفترقان.

فاذا سألتهم ـ عن ماهيّة تلك القابلية وحقيقة ذلك الاستعداد، أو عن القوّة التي بثّتها في الطبيعة بنسب متكافئة لا يعرضها خلل ولا ينالها ضلال، كأنّ للطبيعة عيناً تنظر بها ـ حاروا في الجواب وأعادوا على سمعـك كلامهم الأول بـتحوير مـن الألفاظ. سوى أنّ الحقيقة تضطرّهم الى القول بأنّ هناك قوّة مسيطرة ترجـع إليها كلّ القوى، تلك هي العلّة الأُولى[1].

* * *

وللعلّامـة الأُستاذ «أ.كريسي موريسون» رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك مقال ضافٍ عن الحياة ونشأتها وعن أصل الانسـان، عـلى ضـوء الدراسـات العلميـة الحديثة، ترجمـه الأُستاذ محمود صالح الفلكي المصري. وقدّم له الدكتور أحمـد زكي والشيخ الباقوري.

وبما أنّ الغاية من المقال هي البرهنة على تواؤم العلم مع الدين، وأن لا موضع في العلم ينبو عن الدين أبداً، وبذلك كان من المناسب القريب إثبات مقاله هـنا تتميماً للفائدة، وتقريباً للأصل القائل، بأنّ العلم يدعو للإيمان، كما هـو عـنوان المقال بالذات، جـاء فيه:

---

(١) أصل الأنواع: ص ٣٠.

ما هـي الحيـاة؟

الحياة باقية، وقد استمرَّت بعد العصور الأُولى والعصور الجيولوجية. وظهرت قارات وغرقت أُخرى، وأنّ المحيطات العتيقة والبحار الضحلة لتزخر كلّها بالحياة، وأنّ الحياة لتسبر غورها وتتخلّل الأمواج المتلاطمة وتنفذ في رمال كلّ شاطئ.

وقد مضت الحياة قُدُماً حيث تراجع كلّ عصر من عصور الجليد، وقاومت كلّ تقدّم للمناطق الباردة، قوية مظفرة. وقد ارتفعت الجبال من الأرض ذات الغضون، وانشقّ السطح واهتزّ مع كلّ زلزال. وتفتّتت قمم الجبال الشاهقة خلال ملايين السنين، وبان أثر ذلك في طبقات بعضها فوق بعض، وغمر ماء البحار قارّات، وصار غرين (طمي) الأراضي القديمة يغطّي قاع كلّ محيط وكأنه كفن.

ولكن استمرّت الحياة بعد ذلك كلّه!

والحياة تستخدم ذرّات الأرض، وتخلق عجائب جديدة طبقاً لقوانين الكون، ولكنّها في تقدّمها تخلّف وراءها كلّ صغيرة لمستها. وأنّ «صخور دوفر البيضاء» المكوّنة من الطباشير والجير والحجر الصوان لتقصّ علينا قصّة الحيوانات الرخوة والنباتات المائية والمخلوقات البحرية التي لا عدد لها في خلال الدهور. وأنّ الغابات الحيّة والفحم والزيت والغاز لتدلّنا على نشاط العالم القديم الذي تلقّت فيه الحياة طاقة الشمس، وأحالها الإنسان ناراً. وأنّ هذه التركة لتفوق في قيمتها كلّ ثروة أُخرى، لأنّها رفعت الإنسان عن مرتبة الحيوان. ومن بين أتون بدايات القشرة الأرضية، حيث كانت كلّ مادة تستحيل جمرةً أو رماداً، استخدمت الحياة طاقة الشمس، ومزّقت ذرّات الماء المتّحدة، وفصلت الكربون البليد من الأُوكسيجين وحوّلته إلى ثاني أُوكسيد الكربون، وخزنت في الأرض وفوق

سطحها الموارد الوحيدة للنار. ومن النار قام المثوى وجميع أدوات المدنية، وكلّ ذلك لأنّ الحياة تلقّفت وحفظت كلّ القوى التي أطلقتها الشمس.

وقد تغلّبت الحياة على الظروف المتغايرة للماء والأرض والهواء، ولا تزال ماضية في طريقها في شكل نبات وحيوان. ومن الأميبا [١] صاعداً إلى السمك والحشرات وذوات الثدي وطيور الجو، أو نازلاً إلى الجرثومة والميكروب والبكتريا،وكذا النباتات التي لا حصر لها، وسواء في شكل خليّة أو سمكة قرش أو عنكبوت أو ديناصور أو إنسان أو زرع، فإنّ الحياة تهيمن على العناصر، وترغمها على حلّ تركيباتها، والاتحاد من جديد على أساس صلات أُخرى.

والحِياة تأتي بمخلوقات في صوَر شتّى من صوَر السلَف، وتمنح هذه الصوَر القدرة على تكرار أنفسها على مدى أجيال لا حدّ لها.

والحياة شديدة الخصب في توالدها، حتى أنّها تعول نفسها، وتطعم من فائضها، ومع ذلك تضبط جميع الكائنات الحيّة، لتمنع أيّ مخلوق من مخلوقاتها، من أن يطغى على العالم. فالجراد مثلاً لو بقي دون ضابط استطاع في بضع سنين أن يلتهم كلّ زرع أخضر، وعندئذٍ تنتهي حياة كلّ حيوان فوق الأرض.

والحياة مثالة، تشكّل الكائنات الحية. وهي فنّانة، تختطّ كلّ ورقة في كلّ شجرة، وتلوّن الأزهار والتفّاح والغابات، وريش عصافير الجنة. وهي موسيقية، علّمت كلّ طير كيف يشدو بأغاني غرامه، وعلّمت الحشرات كيف ينادي بعضها بعضاً بموسيقى أصواتها المتعدّدة. وهذه الأصوات، سواء أكانت نقيق الضفدعة في الربيع، أم قوق الدجاجة بين صغارها، أم زئير الأسد في صولته، أم تبويق الفيل، تشمل كلّ «برج النغم» للأحاسيس، ولا يفوقها سوى صوت الإنسان في مرونته المدهشة.

---

(١) الأميبا:حيوان ميكروسكوبي ذو خلية واحدة يتولّد بالانقسام الذاتي.

والحياة قد جعلت الإنسان وحده سيّداً على تـموّجات الصـوت مـجتمـعة وزوّدته بمادّة إنتاجها: فالمزمار والبوق والقيثار، وكذا شعر الخيل، والشمـع الذي يُمسح به قوس الكمان، ورجع الصدى من قـيثارة الأوركسـترا المـصنوعة مـن الخشب، والصوت المنخفض المزدوج الذي هو كصوت الخنزير، وطرقة الجـلد على الطبل، كلّ أُولاء مدينة بالفضل للحياة !.

والحياة مهندسـة، فهي التي وضعت تـصميـم سـيقان الجـندب (النـطـيط) والبرغـوث، والعضـلات والروافـع، والمفاصل، والقلب الذي يخفق دون كـلل، ونظام الأعصـاب الكهربيـة لكلّ حيوان، والدورة الدموية الكاملة لكلّ كائن حيّ. وهي تصمم الهندبـاء البرّية، ثمّ تزخرف بذورها فـي (شـرابـات) يـحملها كـلّ نسيم.والحياة تشكّـل الأزهار، وترغـم الحشرات على أن تحمل اللـقـاح مـن عضو التذكير إلى عضو التأنيث.

والحياة كيموية، فهي التي تهب المذاق للفواكـه والتوابل وتهب العطر للورد. والحياة تركّب مواد جديدة لم تجهزها الطبيعة بعد، لموازنـة عـمليّاتها والقـضاء على الحياة المغيرة.

والحياة تهب الضوء البارد «للذباب المنير» ليعاونه على بثّ غـرامـه ليـلاً . وكيميا الحياة فائقـة، لأنّها لاتقنع باستخدام أشعّة الشمس لتحويل الماء وحامض الكربـون إلى خشب وسكّر، بل إنها إذ تفعل ذلك تطلق الاُوكسيجيـن كي تتنسّم الحيوانات نسيـم الحياة.

والحياة مؤرّخـة، فقد كتبت تـاريخها صـفحة صـفحة، تـاركة سـجلّها فـي الصخور، وهو تاريخ كتبتـه بنفسها ولا ينتظر إلّا الترجمـة.

والحياة تمنـح مخلوقاتها الفرح لكونها حيّـة، فالحمل يرتع ويقفز، وهـو لا يدري لماذا.

والحياة تلوّن عيني الطفل وتمنحهما بريقاً، وتصبغ خدّيه، وتبعث بـالضحك

إلى شفتيه. أمّا المادّة فلا تبتسم أبداً.

والحياة تقي مخلوقاتها بوفرة الغذاء في البيض، وتعدّ كـثيراً مـن صـغارها للحياة الناشطة بعد الميـلاد، أو أنّها تخزن الغذاء تأهّباً لصغارها بوحي أُمومة لا شعوريـة.

والحياة تنتج الحياة، إذ تعطي اللبـن لسدّ الحاجات العاجلة، مـتوقعة هـذه الضرورة، ومتأهّبـة لما يجيء من حوادث.

والحياة قد جاءت للعالم بحبّ الأمّ لولدهـا، وجـاءت للإنسـان بـالمثوى والأُسرة، وبحـبّ الوطن الذي ينافح عنه حتى الموت.

والحياة تحمي نفسها، بالحيطة في استخدام الألوان لمساعدة مـخلوقاتها أو إخفائهـم، وبإعداد الساقَين للجري، ومنح الأسلحة للدفاع، من القرون والأشداق والمخالب، وكذا السمع والبصر والشم، والأجنـحة للتحليق في الجو، وهكذا تزوّد الحياة والدفـاع والهجوم وهي تهب قناعاً خفياً لبعض الحشرات التي لا يحدث منها أيّ أذى، لكي تقيها كلّ هجـوم.

أمّا المادّة فإنّها لم تفعل قطّ أكثر ممّا تمليه قوانينها. فالذرّات إنّما تطيع قواعد الأُلفة الكيموية وقوّة الجاذبية وتأثيرات درجـة الحـرارة والدوافع الكهربية.

والمادّة ليست مبتكرة، أمّـا الحـياة فـإنّها تأتـي إلى الوجـود بـتصميمات وتكوينات جديـدة رائعـة.

وبدون الحياة كان سطح الأرض يصير صحراء شاسعـة مجدبـة، وفضاء من ماء غير نافـع.

وبدون الحياة تكون المادّة جامدة، ومتى تركتها الحياة عادت مجرّد مادّة، ولكن تبقى لها القدرة على مواصلة حياة مخلوقات أُخرى، وبذا تخلد الحياة في الكائنـات الحيّـة.

وأمّا ما هي الحياة، فذلك ما لم يدره إنسـان بـعد، فـليس للـحياة وزن ولا

حجم[١].

والحياة ذات قوّة، لأنّ الجذر النامي يقدر أن يشقّ صخرة. والحياة تنشئ شجرة عظيمة وتحفظها من الجاذبية مدّة ألف سنة أو تزيد. وهي ترفع أطنان الماء من الأرض كلّ يوم، وتنشئ ورق الشجر والفواكه، وأقدم كائن حيّ هو شجرة يرجع عهدها إلى خمسة آلاف سنة، وهي لا تعدو كونها لحظة في الأبدية. والحياة الفردية عابرة. والحياة هي المسؤولة عن كلّ حركة لكلّ كائن حيّ. وكلّ هذه الطاقة تقريباً تأتي عن طريق الشمس.

والحياة لا تقدر أن تستمرّ في المادّة التي تكون في حدود ضيّقة، بالغة الحرارة أو البرودة، لأنّ هاتين تقضيان على ظروف المادّة التي تتوقّف عليها الحياة. فإنّ الحياة لم تظهر على هذه الأرض إلّا حين كانت الظروف موائمة لها، وستقطع نشاطها حين يحدث تغيير ملحوظ في تلك الظروف[٢] غير أنّ الظروف الحالية قد وجدت واستمرّت منذ ثلاثمائة مليون سنة على الأقل.

والطبيعة لم تخلق الحياة، فإنّ الصخور التي حرقتها النار والبحار الخالية من الملح لم تتوافر فيها الشروط اللازمة. وهل احتضنت الحياة هذه الأرض والكرات الأرضية الأُخرى في انتظار فرصة يزوّد فيها الكون بقوّة الإدراك؟ إنّ الجاذبية هي من خواصّ المادّة، والكهرباء أصبحنا نعتقد أنها المادّة نفسها، وأشعة الشمس والنجوم يمكن انحرافها بالجاذبية، ويبدو أنها وثيقة الصلة بها.

وقد أخذ الإنسان يدرس حدود الذرّة ويقيس قوّتها المخزونة، غير أنّ الحياة نفسها خدّاعة، مثل الفضاء لماذا؟

والحياة منتظمة، على وتيرة واحدة، في بذل جهدها لإحياء المادّة، وهي لا

---

(١) قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربّي﴾ الإسراء: ٨٥.

(٢) قال تعالى: ﴿إذا السماء انفطرت * وإذا الكواكب انتثرت * وإذا البحار فُجّرت * وإذا القبور بُعثرت * علمت نفسٌ ما قدّمت وأخّرت﴾. (الانفطار: ١ ـ ٥).

تعرف فرحاً ولا حزناً، ولا تميز بين أحد وأحد. ومع هذا فالحياة هي الأُساس، وهي الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها فهم المادّة.

والحياة هي المصدر الوحيد للوعي والشعور، وهي وحدها التي تجعلنا ندرك صنع الله ويبهرنا جماله، وإن كانت أعيننا لا تزال فوقها غشاوة.

إنّ الحياة ليست إلّا أداة تخدم مقاصد الخالق سبحانه، وعلى هذا فالحياة باقية كمشيئته تعالى.

كيف بدأت الحياة ؟

في لغز بداية الحياة نقطة يجب أن يقف العلماء أمامها، لنقْص الحجج. أجل هناك قرائن كثيرة يمكن إقرارها علمياً. غير أنّ بداية الحياة بلغت من العجب، والنتائج المترتبة عليها بلغت من التشعّب، بحيث إنّ أكثر العلماء البيولوجيين علماً لا بد أن تتملكه الدهشة. فهو بوصفه عالماً لا يستطيع أن يؤمن بالمعجزات، ولكنه بوصفه إنساناً ذكياً يجد ـ نتيجة لبحثه وبحوث غيره ـ أنّ معظم الكائنات الحيّة الآن تتطوّر من خلية ميكروسكوبية فريدة، على أثر خروجها من طور الحياة تحت الميكروسكوب واقترابها من طور السدفة الذرّية. ويبدو أنّ تلك الخلية قد وهبت القدرة على التكاثر، ومواءمة نفسها على أشكال عديدة من الحياة، وأنها أعدّت لكي تعيش في كلّ ركن وشقّ على ظهر الأرض. والعلم يقرّ بأنّ الواقع لا يمكن أن يكون إلّا كذلك. ويعتقد البعض أنّ هذا مصادفة من المواد الكيموية والماء والوقت. ويرى البعض الآخر النظام ماثلاً في كلّ جانب فسيح من الحياة، إذ تمضي قُدماً من منبعها إلى هدفها ـ سواء أكانت ستصبح حيواناً رخَواً أم إنساناً ـ دون أن تعبر الفجوة مرّةً أُخرى.

والآن لنعالج الموضوع بشعور من الإجلال، لا تحدّه الحدود الدقيقة التي تفرضها العقائد الدينية، أو الحقائق العلمية بشأن سبب الحياة ومصدرها، ولنصوّر

لأنفسنا الوقائـع المعترف بها. وبذا يمكننـا أن نحكم، وأمامنا الموضوع كامـلاً. وبهذه الطريقة يمكننـا أن نعلم إن كنتُ أنا أو أنت مجرّد مجموعة عرضيـة مـن المادّة، تولّدت عن الكيمويات والماء والوقت، أولاً.

أُنظر إلى الشيء الهامّ الوحيد؛ إنّه أهمّ من الأرض نفسها ومن الكون كلّه. وأهمّ من كلّ شيء آخـر ـ ما عدا الخالق المدبّر الذي كـان السـبب فـي وجـود ذلك الشيء ـ وأعني تلك النقطة من النطفـة (البروتو بلازم)[1] التي لا تكاد تُرى، وهي شفّافة لزجـة (كالجيـلاتين) قادرة على الحركة، تستمدّ نشاطها من الشمس. وهي بالفعل كفء لاستخدام ضوء الشمس في عزل ثاني أُوكسيد الكربون من الهواء، مرغمة الذرّات على الانفصال، قابضـة على الهيدروجيـن من المـاء، ومـنتجـة لهيدرونات الكربون، وبذا تعدّ غذاءها بنفسها من أحد المركّبـات الكيموية العنيدة للغايـة.

إنّ هذه الحلبة الفريدة ـ هذه النقطة الصغيرة الشـفّافـة التـي تشـبه الطـلّ ـ تحتوي في نفسها على جرثومة الحياة، وبها القدرة على توزيـع هذه الحياة على كلّ كائن حيّ، كبيراً كان أو صغيراً، وعلى مطابقة كلّ مخلوق لبيئتـه حيثما يمكن وجود الحياة، من قاع المحيط إلى السماء. وقد صاغ الزمـن والبيئة شكل كلّ كائن حيّ بحيث يتّفق مع أنواع الظروف المتعدّدة. وعندما تكوّن هذه الكائنـات الحيّة شخصيّتها الفردية فإنها تكون قد ضحت ببعض مرونتها وقابليتها للتغيّر، وأصبحت مخصّصـة وثابتة، وقد فقدت القدرة على العودة إلى الوراء ولكنّها كسبت مزيداً من المواءمـة مع الظروف التي وجدت فيها.

إنّ قوى هذه النقطة الصغيرة من النطفـة (البروتوبلازم) ومحتوياتها كانت ولا تزال أعظم من الزرع الذي تخضرّ به الأرض، وأعظم من كلّ الحـيوانـات التـي

---

(١) البروتوبلازم هي المـادّة الزلاليـة الحـيّة التـي تـتكوّن مـنها خـلية الأجسـام النـباتية والحيوانيـة، وقد رأينا أن نترجمها بكلمـة «النطفـة».

تتنسّم نسيم الحياة لأنّها مصدر كلّ حياة، وبدونها كان لا يمكن وجود شيء حيّ.

والعلم يوافق على كلّما ذكرنا خطوةً خطوة، ولكنّه يتردّد في أن يتّخذ خطوة أخيرة، ويقول إنّ الإنسان قد خطر على هذه الأرض بوصفه طفلاً لمنبع الحياة الكوني، سيّداً بين الحيوانات، وذا تكوين ماديّ معقّد التركيب للغاية، وصاحب عقل أعدّ عن قصد ليتلقّى لمحة من القدرة الإلهية التي نسمّيها بالروح.

وينبغي لنا أن نبدأ بالأرض كلّها على أنّها صحراء، وليس ثمّة من موادّ غير ما ترك حين بردت الأرض. وقد ارتفعت الأرض من المحيطات، وحدث في الصخور تأكّل لا يمكن وصفه فمزّقها إرباً، وكون كثيراً من الصخور الثانوية والغرين والطحل. ولم يوجد سوى الموادّ غير العضوية في تركيبات كالبازلت والجرانيت وتلك الصخور الأُخرى النارية والمتحوّلة، والغرين الذي سبق رواسب الوجود الحيواني، أمّا الرواسب من أمثال حجر الكلس والمرجان والطباشير والحجر الصوان فإنها لم تكن موجودة. وليس لدينا سوى موادّ قليلة لنعالجها، فلدينا الماء، وربّما كان على درجة من الحرارة شديدة الثبات.

إنّ لغز ظهوره الحياة على الأرض قد يحلّ وقد لا يحلّ بحدوثه الذاتي. وقد افترض البعض أنّ الحياة قد جاءت من بعض الكواكب في شكل جرثومة انسلّت دون أن يصيبها تلف، وبعد أن بقيت زماناً غير محدود في الفضاء، استقرّت على الأرض، ولكن كان من العسير على تلك الجرثومة أن تبقى حيّة في درجة حرارة الصفر المطلق في الفضاء، وإذا استطاعت البقاء رغم ذلك فإنّ الإشعاع الكثيف للموجة القصيرة كان يقتلها. فإن كانت قد بقيت حيّة رغم ذلك فلا بدّ أنها وجدت لنفسها المكان الملائم، وربّما كان المحيط، حيث أدّى اتّفاق مدهش في الظروف إلى توالدها وبداية الحياة على الأرض.

وفضلاً عن ذلك يعود بنا هذا الفرض خطوة أُخرى فيما نحن بصدده. لأننا يمكننا أن نسأل: وكيف بدأت الحياة على أيّ كوكب من الكواكب؟

إنّ المتّفق عليه عموماً هو أنه لا البيئة وحدها، ولا المادّة مهما كانت موائمة للحياة، ولا أيّ اتّفاق في الظروف الكيموية والطبيعية قد تخلقه المصادفة، يمكنها أن تأتي بالحياة إلى الوجود.

وبصرف النظر عن مسألة أصل الحياة التي هي بالطبع من الألغاز العلمية، قد افترض أنّ هنّة ضئيلة من الحياة، بلغت من الضآلة أنّها لا ترى أو تلمح بالميكروسكوب، قد أضافت إليها ذرّات، وقلّت توازنها الوثيق، فانقسمت، وكرّرت الأجزاء المنفصلة هذه الدورة، وبذا اتّخذت أشكال الحياة، ولكن لم يزعم أحد أنّها اتّخذت الحياة نفسها.

إنّ «الأميبا» هي مخلوق ميكروسكوبي حيّ على درجة كبيرة من التطوّر، وهو مكوّن من ملايين لا حصر لها من الذرّات في تنظيم مرتّب. و «الأميبات» هي مخلوقات ذوات خلية واحدة، قد لا يزيد قطرها على جزء من مائة من البوصة، وتوجد في جميع مياه العالم. والأميبا تشعر بالجوع، وتبحث عن غذائها عن قصد وعمد. وأيّة درجة من كبر الحجم يجب أن يبلغها الحيوان حتّى نعترف بأنّ له رغبات وعزيمة؟ ولكنّ الحجم هو لا شيء في حسبان اللانهائية، لأنّ الذرّة لا تقلّ كمالاً عن نظام المجموعة الشمسية. وإذا اتّخذنا الأميبا مثلاً للإيضاح ـ دون أن نزعم أنّ هذا المخلوق الحيّ ذا الخلية الواحدة هو المنبع الأصلي للحياة ـ فإنّه يمكن القول بأنّ مخلوقاً مّا نطفياً (بروتو بلازمياً) حيّاً ـ بعد أن ضاعف تكوينه الداخلي ـ قد انقسم وصار اثنين، ثمّ انقسم الاثنان وصارا أربعة، وهكذا إلى غير حدّ، كما تفعل الخلايا الآن في كلّ مخلوق حيّ. فكلّ خلية تحتوي في نفسها ـ في تقسيمها الباكر ـ القدرة على إنتاج فرد كامل. والخلايا نفسها باقية إلّا إذا وقع لها حادث أو صادفها تغيّر في الظروف لا قبل لها به. وهي تكون الخلايا البسيطة في جميع المخلوقات، من حيوانات أو نباتات في الوقت الحاضر، وبذا تكون صوَراً طبق الأصل من أسلافها. ونحن بوصفنا كائنات بشرية،

أُمما منتظمة من بلايين فوق بلايين من أمثال تلك الخلايا، وكلّ خليـة هي مواطن يؤدّي نصيبه الكامل من الخدمة الخالصة في ذكاء. وهذا يختلف اختلافاً بيّناً عن الجزئية المادّية العاطلة من الحياة[1].

ولكن في الاستطاعة أن نشير إلى شيء حدث منذ زمن بعيد، عند بدء الحياة على الأرض، وكان له شأنٌ عظيم، ذلك أنّ خلية واحدة قد نمت عندها القـدرة المدهشة على استخدام ضوء الشمس في حلّ مركّب كيموي، واصطناع غذاء لها ولأخواتها من الخلايا. ولا بدّ أنّ لدّات أُخريات لخلية أصيلة أُخرى قد عاشت على الغذاء الذي أنتجته الخلية الأُولى، وأصبحت حيواناً، في حين صارت الخلية الأُولى نباتاً، والنباتات التي هي نسل هذه الخلية هي التي تغذّي جميع الكائنات الحيَّة الآن. فهل يمكننـا أن نعتقد أنّ كون خلية قد أصبحت حيواناً وأُخرى قـد أصبحت نباتاً إنّما حدث بطريق المصادفـة؟ إنَّ التوازن العجيب بين الزرع وحياة الحيوان إنّما استقرّ بهذا القسيم. وإذا عدنا إلى قصّة ثاني أُوكسيد الكربون وجدنا أنّ هذا التقسيم هو أساسيّ إطلاقاً بوصفه إحدى ضروريات الحـياة نـفسها. ولو كانت الحياة كلّها حيوانية لكانت الآن قد اسـتنفدت الأُوكسـيجيـن. ولو كـانت الحياة كلّها نباتية لكانت قد استهلكـت كلّ ثاني أُوكسـيد الكـربون. وفـي كـلتا الحالتيـن كانت تنتهي هذه الحياة وتلـك.

وكما ذكرنا من قبل، من المفروض أنّه في التاريخ الباكر جدّاً للكرة الأرضية لم يكن بالهواء أُوكسيجيـن مطلق، إذ كان كلّ الأُوكسيجيـن مخزوناً في قشـرة الأرض وفي الماء وثاني أُوكسيد الكربون. فـإذا كـان الأمـر كـذلك فـإنّ كـلّ

---

(١) قال الله تعالى في كتابه الكريـم: ﴿ولقد خلقنا الإنسانَ من سُلالةٍ من طين * ثمّ جـلعناهُ نطفةً في قرارٍ مكين * ثمّ خلقنا النُطفة علقـةً فخلقنا العلقـة مُضغةً فخلقنا المُضغة عـظاماً فكسونا العظامَ لحماً ثمّ أنشأناه خلقاً آخرَ فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين﴾. (المؤمنون: ١٢ ـ ١٤).

الأوكسيجين الذي لدينا الآن قد جاء من الزرع. وقد ثبت ذلك بشكـل مقبول، لأنّ النباتات تستعمل ثاني أوكسيد الكربون، وتطلق الأوكسيجين. ولكن إذا كان هذا كلّـه صحيحاً فإنّ الحيوانات التي لا غنى لها عن الأوكسيجين لكي تعيش لا بدّ قد جاءت إلى الوجود بعد زمـن طويل من تطوّر النباتات في البحر والأرض، فهل كان ظهور الحياة على دفعتيـن؟ سنترك ذلك للمستقبل ليقرّره.

ومن عجـب أنّه في كـلتا الحـياتيـن الحـيوانـيـة والنـباتية، مـنذ ظـهور الكائنـات البروتوبلازمية الأولى، قد تطوّر الذكر والأنثى بشكل جعل كلّ نـوع يستمرّ بالاتّحاد المتكرّر مع الاحتفاظ بمميّزاته العامّة.

وليس هذا مجال البـحث فـي تـفاصيل الاضـطرارات والنـتائج الطـبيعيـة والكيموية التي أدّت إلى التوزيع. ويكفي أن نجعل الأمر مفهوماً لأولئـك الذين ليس لهم معرفـة خاصّة بالعلوم. ويمكن إيضاح الأمر على الوجـه الآتي:

الظاهر أنّ مجموعات الخلايا كانت أدنى إلى البقاء حيّة حين كـانت عـلى صلات وثيقة معاً، وبذا بدأت تتّحد، ثنائيـة ورباعية ومئوية وألفية ثمّ مليونية. ثمّ دعيت كلّ خلية لأن تؤدّي مهمّة وكّلت إليها. وتدريجاً ـ مع تكليفها تلك المهامّ المختلفة ـ أصبح في حيّز الإمكان أن يقوم المجموع بوجوه جديدة من النشـاط، ففي الحيوانات صار الحمل (وهو عبارة عن تركيبـات صغيرة تشـبه الشـعر). وصارت الزوائد والأقدام الكاذبـة تساعد على جمـع الطعام الذي تنشط خلايا أخرى في هضمه. وبعض الأجزاء كانت مكوّنة من عدّة خلايا. فهناك مـجموعة منها صنعت غطاءً وقائياً كثيفاً كقشر الشجرة، وأخرى كانت مشغولة بنقل الغذاء من مكان إلى آخر في المخلوق الحيّ. وأخيـراً نجدها مشغولةً بتكوين الخشب في الجذوع، أو بتكوين العظام أو الأصداف لتدعم جرمها المتجمّع النامي. وبعض الأصداف وضعت في الخارج، مثل أصداف اللـزيق (سـمـك صـدفي). وهـذه الحيوانات الرخوة من النوع الذي يغلق على نفسـه. وبعض العـظام قـد كـوّنت

بالداخل، فالإنسان يحتاج إلى سلسلة فقرية. وجميع الأشياء التي تعيش تبدأ من خلية بسيطة، وهذه الخلية ترغم كلّ نسلها على أن يؤدّي الخدمات وأن يتبع دون انحراف تصميم المخلوق الذي كان على الخلية الأصلية مضاعفته، سواء أكان سلحفاةً أم أرنباً.

وقد يمكن السؤال عمّا إذا كان للخلايا فهمٌ وإدراك أم لا، وسواء اعتقدنا أنّ الطبيعة قد زوّدت الخلايا بالغريزة ـ مهما تكن هذه ـ أو بقوّة التفكير أم لم نعتقد ذلك فلا مناصَ لنا من الاعتراف بأنّ الخلايا ترغم على تغيير شكلها وطبيعتها كلّها لكي تتمشّى مع احتياجات الكائن الذي هي جزء منه. وكلّ خلية تنتج في أيّ مخلوق حيّ يجب أن تكيّف نفسها لتكون جزءً من اللحم، أو أن تضحّي نفسها كجزء من الجلد الذي لا يلبث حتى يبلى. وعليها أن تضع ميناء الأسنان وأن تنتج السائل الشفّاف في العين، أو أن تدخل في تكوين الأنف أو الأُذن. ثمّ على كلّ خلية أن تكيّف نفسها من حيث الشكل وكلّ خاصّية أُخرى لازمة لتأدية مهمّتها. ومن العسير أن نتصوّر أنّ خليةً مّا هي ذات يد يمنى أو يسرى، ولكن إحدى الخلايا تصبح جزءً من الأُذن اليمنى، بينما الأُخرى تصبح جزءً من الأُذن اليسرى. إنّ بعض البلّورات المتشابهة كيموياً تحوّل أشعة الشمس نحو اليمين وبعضها الآخر نحو الشمال. ويبدو أنّ مثل هذا الميل موجود في الخلايا. ومتى وجدت في المكان الصحيح الذي تخصّه فإنّها تصحّ جزءً من الأُذن اليمنى أو الأُذن اليسرى. وأُذناك تواجه إحداهما الأخرى في رأسك، وليستا في كوعيك كما هما عند الصرصور، وتقوّساتهما متضادّة، وحين تكمل تكوّن الأُذنان متماثلتين إلى حدّ يصعب عليك عنده أن تميّز بينهما.

إنّ مئات الآلاف من الخلايا تبدو كأنّها مدفوعة لأن تفعل الشيء الصواب في الوقت الصواب وفي المكان الصواب، والحقّ أنّها طائعة، والحياة تدفع إلى الأمام، بانية، مصلحة متوسّعة، وخالقة ما هو حديث وما هو أفضل، بنشاط لا يفتر ولا

مثيل له في الأشياء الجامدة. فهل هذا ناشئ عن إدراك؟ أم عن غريزة؟ أم أنـه أمر يحدث فحسب؟ يمكنـك أن تجيب عن ذلك بنفسـك.

بيدَ أنـّك قد تقول الآن: إنّ كلّ ما ورد بهذا الفصل لا يفسّر لنا كـيف بـدأت الحياة، أي كيف جاءت إلى هذه الأرض، والكاتب لا يعرف كيف، ولكنّه يؤمن بأنّها جاءت كتعبيـر عن القوّة الإلهية، وبأنّها ليست مادّيـة.

أصــل الانســـان:

هناك طرق عدّة للبحث في أصل الإنسان. وإنّ متابعـة هذه الطرق ليحدث اضطراباً لكثيريـن من ذوي الآراء الجامدة فمن الآراء ما يقول بأنّ الإنسان قـد جاء عن طريق عملية تطوّر من الشرارة الأصلية للحياة. وهذا هو الأساس الذي تقوم عليه فكرة التطوّر كلّها. وهناك رأي آخر يقول بأنّ الله في حكمته قد أودع الحياة على الأرض، وخلق الإنسان كَما هو أو كما كان، كامـلاً. وثمّـة رأي يقول بأنّ العناية الإلهية لا تقف، ولكنّها أنتجت الحياة بكلّ أطوارها بسلسلة من الخلق. على أنّ هناك رأياً آخرَ يقول بأنّ الحياة التي انتهت إلى الإنسان كـانت نـتيجـة سعيدة لمزيج حدث مصادفـة من المواد الكيمويّة بمافيها الماء.

ويمـكن القول بأنـّه مع الإيمان بوجود الخالق، فإنّه قد شاءت إرادتـــه أن يخلق من العناصر الأصليـة للأرض شيئاً تكون له حياة، ويبلغ فـي النـهاية إلى تطوّر في المخّ يسمح بإيداعـه الذكاء. ويمكن القول بأنّ الله تعالى قد شاء أن يمنح هذا الذكاء سيادةً وسيطرةً على جميع الكائنـات الحيّة الأُخرى وعلى كائنـات أُخرى كثيرة عاطلة من الحياة.

وأيّاً ما تختزْ لنفسك من هذه الآراء فإنّ من الواضح أنّ الإنســان لم يـوجد كإنسان منذ بدأت الحياة ولكنّه تطوّر فيما بعد إلى ما هو عليه الآن. وعلى أيّ حال لم يظهر كإنسان إلّا بعد أن عجزت كلّ أشكال الحياة للكائنـات الأُخـرى عـن

إيجاد جهاز بالغ التعقيد كالعقل البشري.

وإذا فرضنا أنّ الإنسان بدأ مع ظهور الحياة الأُولى فإنّ وجوده يرجع إلى ٤٠٠ مليون سنة أو أكثر. أمّا إذا قبلنا النظرية الثانية فإنّه يكون قد وجد بعد ذلك، أو في أيّ وقت نتيجة للمشيئة الإلهية. أما إذا قبلنا الفرض الثالث فإنّنا لا يمكننا أن نحدّد تاريخاً لأول وجوده كإنسان إلّا بما يرجع بنا ملايين عدّة من السنين. وقد أمكن تتبّع تاريخ الإنسان كإنسان بالأدلّة الكافيه لإقناع العلماء لمدّة مليون سنة مضت، ولكن هذا حدّ أدنى متّفق عليه، أمّا قبل ذلك فإنّ تطوّره ـ مهما يكن الحيوان الذي تطوّر منه ـ يرجع إلى قدم لا يصل إليه حسبان البشر.

ويوجد في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي بنيويورك حصان أثري ذو ثلاث أصابع، وهو حيوان صغير كان لا ريب سريع العدو. ولا شكّ أنّه كان حصاناً، غير أنّ تطوّره إلى الحصان الجليل الحالي الذي يجري على ما نسمّيه حافراً تطوّر من إصبع قد تطلب ملايين السنين. فإذا اتّخذنا من ذلك مَعلماً للطريق فلنقدّر إذاً الزمن الذي تطلّبه الإنسان حتى تطوّرت يداه وعيناه وذهنه، وبذا صار حيواناً طفيفاً ورفعه ذلك إلى كيانه الحالي.

والآن نعود فنقتبس التقلّبات التي مرّ بها هذا المخلوق الصغير الأعزل من وسائل الدفاع، وإن يكن حقّاً سريع الحركة فإنّه معرّض للخطر من كلّ مخلوق يأكل اللحم، ومن كلّ زاحف سامّ، ومن كلّ جسم يحدث المرض. وكان عليه أن يعني بصغاره زمناً طويلاً من عجزهم، فإنّ أطفال الإنسان تولد عديمة الحول والحيلة، وهي تأتي تباعاً وبذا قد يصبح عدّة أطفال عاجزين، في حاجة إلى الغذاء والوقاية في وقت واحد. وهذا يضاعف عجيبة بقاء الإنسان في خلال الدهور! فقد عاش خلال تغيّرات كالعصر الثلجي وفي كلّ طور آخر من أطوار الحياة المحرومة الوقاية. وهذا ينطبق طبعاً على جميع الحيوانات الأُخرى. وإنّه لمن معجزات العناية الإلهيّة أن استطاعت هذه المخلوقات أن تثبت أمام تلك

الظروف. ومن جهة أُخرى فإنّ أنواعاً لا عدد لها كانت قد ولدت ثمّ انقطعت عن الوجود. وليست عظـام «الديناصورات»[١] إلّا دليـلاً واحـداً يـثبت بـه عـلماء الجيولوجيا (علم طبقات الأرض) أنّه وجدت في الماضي حيوانات غريبة قدر لها الفشل فعفا عليها النسيان. وكان ذلك أيـضاً مـثال مـلاييـن مـن الحشـرات والأسماك والطيور وأنواع أُخرى عديدة من مـخلوقات شـتّى. ولعـلّ «الحَـمام المسافر»[٢]كان في وقتٍ مّا أكثر عدداً من البشر، ولكن آخر واحدة منه ماتت في عهدنا، وانقرضت سلالتـه الفاخرة كما انقرض «البطريق» العظيـم و «الدودو»[٣].

وتجد علماء الآثار في إظهارهم لتطوّر الإنسـان، يتّخذون من سعة المخّ في جمجمتـه مفتاحاً لتقدّمـه. وقد حلّت أجناس ولا تزال تحـلّ محلّ أُخرى، ويبدو أنّ الجنَس الأبيض هو في الذروة في الوقت الحاضر. أفيأتي الزمن بـالإنسـان الممتـاز «السوبرمان» الذي ينسل ذرّية من نوعه تملأ الأرض على رحبها؟

إنّ العظام في جمجمة الطفل يفرّقها غضروف يتيـح لمخّه مزيداً من النمو، وقد يستمرّ ذلك في طور الشباب إذا كان ثمّة حاجة إلى مثل هذا التوسّع. ولكـنّ الواقع أنّنا نصبح ذوي أدمغة صلبة في وقت باكر ... ويحسـن بنا أن لا نغلق عقولنا دون الحقيقة قبل الأوان[٤].

* * *

(١) الديناصورات جمع ديناصور، وهو الحيوان الهائل الذي وجد مدفوناً تحت أطباق الثلوج وانقرض من الحياة منذ زمن طويل.

(٢) نوع من الحمام كان موطنـه أمريكا الشمالية، وكان ذا رأس صغير ومـنقار قـصير وذيـل طويل وجناحين طويلين مدبّبين.

(٣) الدودو طائر منقرض من فصيلة الحَمـام.

(٤) العلم يدعو للإيمان: ص ٨٣ ـ ١١٠.

منشـأ تكوين الجنـين

﴿فَليَنظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن ماءٍ دافِق * يَخرُجُ مِن بينِ الصُلبِ والتَرائِب﴾[1].

الدفق: الدفع بشدّة، والدافق هنا بمعنى المدفوق، وقد شاع هذا الاستعمال عند العرب ولا سيّما عند أهل الحجاز. قال الفرّاء: أهل الحجاز أفعل لهذا من غيرهم أن يجعلوا المفعول فاعلاً اذا كان في مذهب نعت، كقول العرب: هذا سرٌّ كاتم، وهمٌّ ناصب، وليلٌ نائم، وعيشةٌ راضية. قال: وأعان على ذلك أنّها توافق رؤوس الآيات التي هي معهنّ[2].

والصُلب: العمود الفقري الممتدّ من الكاهل حتّى العجب.

والترائب: جمع تريب وتريبة، أُطلق على عظام متساوية الأطراف ومترادفة التركيب في هيكل الانسان العظمي، منها الضلوع الكائنة بين الثديين، ومنها العظم الناتئ بين الحاجبين فوق العينين، ومنها العظم المنحني المتساوي الطرفين الكائن بين أُصول الفخذين فوق العانة كما نقل عن الضحّاك ـ فيما رواه ابن كثير ـ قال: الترائب بين الثديين والرِجلين والعينين[3].

وأصله من «ترب» بمعنى تساوي الشيئين، وهو أصل في اللغة، كما قال أحمد بن فارس[4].

---

(١) الطارق: ٥ ـ ٧. (٢) معاني القرآن: ج ٣ ص ٢٥٥.

(٣) تفسير ابن كثير: ج ٤ ص ٤٩٨.

(٤) معجم مقاييس اللغة: ج ١ ص ٣٤٦.

ومنه الأتراب ـ جمع الترب ـ بمعنى الخدن، ومنه التريب أي الصدر عند تساوي رؤوس عظامه، ومنه التربات وهي الأنامل لتساوي أطرافها، والواحدة تربة.

قوله: «يَخرُجُ مِن بينِ الصُلبِ والتَرائِب» أي صُلب الرجل وترائبه. لأنّ الولد إنما يتكوّن من ماء الرجل، أي نطفته لا غير. كما قال تعالى: ﴿خُلق الإنسانُ من نُطفة﴾[1] والنطفة ماء الرجل ومنيّه يُنزله بشهوة ودفق. صرّح بذلك أهل اللغة. والأصل: سلالة الماء وزلاله. والأكثر استعماله في النزر منه، وبذلك خصّ إطلاقه على منيّ الرجل. قال الراغب: النطفة الماء الصافي، ويعبّر عن ماء الرجل.

وفي قوله تعالى: ﴿ألم يَكُ نُطفةً من منيٍّ يُمنى﴾[2]. وقوله: ﴿وأنّهُ خَلَقَ الزَوجَينِ الذَكَرَ وَالأُنثى * مِن نُطفَةٍ اذا تُمنى﴾[3] تصريحٌ بأنّه مخلوقٌ من ماء الرجل يُنزله في رحم المرأة. والآيات بهذا الشأن كثيرة[4].

وقوله: ﴿إنّا خَلَقْنَا الإنسانَ مِن نُطفَةٍ أمشاج﴾[5] أي أخلاط من عناصر شتّى.

قال الإمام الرازي: لا شكّ أنّ أعظم الأعضاء معونةً في توليد المني هو الدماغ، وللدماغ خليفة وهي النخاع، وهو في الصلب، وله شُعب كثيرة نازلة الى مقدم البدن، وهو التريبة، فلهذا السبب خصّ الله تعالى هذين العضوين بالذكر[6].

وسنذكر أقوال الحكماء المتقدّمين تعقيباً على كلام الأطبّاء المحدّثين، مشفوعة بروايات تُساند هذا القول بصراحة.

* * *

(١) النحل: ٤. (٢) القيامة: ٣٧. (٣) النجم: ٤٥ و ٤٦.

(٤) راجع الكهف: ٣٧، والحجّ: ٥، والمؤمنون: ١٣ و ٣٠، وفاطر: ١١، ويس: ٧٧، وغافر: ٦٧، والإنسان: ٢، وعبس: ١٩. (٥) الإنسان: ٢.

(٦) التفسير الكبير: ج ٣١ ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

دور الصلب والترائب في إفراز المني:

النُطفة تتكوّن عند الرجل في أنابيب الخصية، ثمّ بعد كمال تكوينها ونضجها تنتقل بالحبل المنوي، الى الحويصلين المنويين، ومنهما الى القناتين الدافقتين، فالإحليل، فإلى خارج الجسم.

والصُلب ـ حسب علم التشريح ـ يشمل: العمود الفقري الظهري، والعمود الفقري القطني، وعظم العجز. ويشتمل من الناحية العصبيّة على المركز التناسلي الآمر بالانتعاظ ودفق المني وتهيئة مستلزمات العمل الجنسي. كما أنّ الجهاز التناسلي تعصبه ضفائر عصبيّة عديدة ناشئة من الصُلب، منها الضفيرة الشمسية، والضفيرة الخثلية، والضفيرة الحويضية. وتشتبك في هذه الضفائر الجملتان الودّية ونظيرة الودّية، المسؤولتان عن انقباض الأوعية وتوسّعها، وعن الانتعاظ والاسترخاء وما يتعلّق بتمام العمل الجنسي.

أمّا الترائب فقد عرفت أنّ من معانيها ما يتّفق مع الحقيقة العلمية، وهي عظام أُصول الأرجل أو العظام الكائنة ما بين الرجلين، كما ذكره ابن كثير نقلاً عن الضحّاك.

وأصبح تفسير الآية ـ على ضوء هذا التوضيح، كما ذكره الدكتور كنعان الجابي، في كتابه «موجز علم النسج» ـ: إنّ الماء الدافق الذي هو ماء الرجل ـ أي المني ـ يخرج من بين صُلب الرجل وترائبه ـ أي أُصول أرجله ـ. وذلك لأنّ معظم الأمكنة والممرّات التي يخرج منها السائل المنوي تقع من الناحية التشريحية بين الصُلب والترائب. فالحويصلان المنويّان ـ وهما الغدّتان المفرزتان ـ يشكل إفرازهما قسماً من السائل المنوي، ويقعان خلف غدّة الموثة (البروستات) وإفرازهما ذو لون غنيّ بالفركتوز. كما أنّ لهما دوراً إيجابياً في

عملية قذف السائل المنوي على شكل دفقات بسبب تقلّص العضلات الموجودة بهما[1].

وقال الدكتور حسن هويدى: إنّ في تعبير الآية الكريمة دلالة على تعاون الصُلب والترائب في هذا الإفراز وإخراج السائل المنوي، كعاملين لإخراج المني من مستقرّه ليؤدّي وظيفته. وذلك لأنّه يخرج من بين صُلب الرجل ـ كمركز عصبي تناسلي آمر ـ وترائبه ـ كمناطق للضفائر العصبية ـ المأمورة بالتنفيذ. حيث يتمّ بهذا التناسق بين الآمر والمأمور خروج المني الى القناتين الدافقتين. وهذا ثابت من الناحية العلمية، وموضح لدور الجملة العصبية، ولا بدّ من تعاون الجانبين لتدفّق المني، فإن تعطّل أحدهما توقّف العمل الجنسي الغريزي[2].

تكوين الولد من نطفة الرجل و بييضة المرأة:

يتألّف جهاز الرجل التناسلي من غدّتين يغلفهما كيس جلدي مرن يسمّى بالصفن، الذي يتدلّى بين الفخذين، وتحوي كل خصية آلافاً مؤلّفةً من أنابيب متناهية في الصغر ملتفّة حول بعضها، وتسمّى بالأنابيب المنويّة.

ومثل الخصية كمثل مصنع يخرج نطف الرجل وبذوره، فمتى أينعت النطف وتمّ تكوّنها سارت في أنابيب دقيقة تنقلها الى مستودع يحتضنها ويحنو عليها ليجعلها صالحة للتلقيح عند الطلب. وتتسابق النطف المكدّسة في المستودعين الى الخروج من سجنها (الحويصلات المنويّة) عند تفجّر البركان الجنسي، فتسير في الإحليل، تدفعها تقلّصات عضلية تقذف بها خارجاً لتؤدّي رسالتها في حفظ النوع.

أمّا المرأة فيتألف جهازها التناسلي من مبيضين يسكن كلّ منهما الجهة

(١) مع الطبّ في القرآن الكريم: ص٣٣.

(٢) مجلّة حضارة الاسلام: العدد الأول سنة عشرين.

المناسبة من أسفل حوض المرأة، ويقوم بوظيفة طبخ وإنضاج البـيـيضة. وتـحرّر المرأة بييضةً واحدةً في كلّ شهر، يقوم بإطلاقها أحد المبيضيـن بالتناوب، فيتلقّفها أُنبوب مجوّف (النفير) يحتضن البييـضة ويساعدها في مسـيرها، فـتجتاز تـلك المسافة ثمّ تستقرّ داخل النفير دون نهاية الثلث الأوّل منه من طرف الرحم فـي موضع يسمّى (البوق) وتنتظر خطيبها (الحيوان المنوي) الذي يأتيها مـن نـطفة الرجل.

ولكي يتمّ الإخصاب ويتكوّن الجـنين يـجب اجـتماع عُـنْصُرَي الإلقـاح: الحيوان المنوي المذكّر المسمّى «النطفة» والبييضة المؤنّـثة. وانّ الحمل يتمّ لقاءً بين البييـضة، وهي عنصر منفعل غير مؤثّر يصنعه جسد المـرأة، وبـين الحـيوان المنوي، وهو عنصر فاعل يصنعه جسد الرجل. وهذا اللقاء يؤلّف المُضغة البشرية.

والسائل المنوي ـ الذي يقذفـه جهاز التناسلي للرجل ـ يكون عادةً ثـلاثة سنتيمترات مكعّبة تحوي (... /... / ٢٥٠) مائتين وخمسين ميليون من الحيوان المنوي تقريباً، يستطيع كلّ واحد منها أن يكوّن جنيناً اذا ما أُتيحت له بييضة مؤنّثة حيّه ناضجة، ليدخل فيها فيلقّحها وتغدو معها حجيرة كاملة تامّة التكوين.

وتختلف المرأة عن الرجل في أنّها لا تبيض سوى بييضة واحدة في الشهر، وليس لها سلطان في تحريرها وإرسالها للتلقيـح، لأنّ مبيض المرأة يمارس عمله مستقلاً عن إرادتها، وذلك في دورة قمرية تقريباً تتراوح عادةً بين ٢٧ و ٢٨ يوماً، وهي دورة شهريّة طمثية حقيقية، تبتدئ بظهور دم الحيض وتنتهي بانتهاء أيّـام البيض (النقاء) وظهور دم حيض ثانٍ. كلّ ذلك خارج عن إرادة المرأة، الأمر الذي لا يمـكن تقديمـه أو تأخيره عن وقتـه المحدّد الطبيعي أو اختصاره أو الزيادة عليه.

وعندما تنضج البييضة وتتحرّر من مكانها ينجذب النفير إليها ليـتلقّفها، ثـمّ تأخذ حجيراتها الفارشـة بالاهتزاز لسوق البييـضة نحو الرحم، ومتى وصلت هذه

البييضة الى نهاية الثلث الأُول من النفير (البوق) تنتظر لقاء الحيوان المنوي الآتي من قبل إفراغ نطفة الرجل في الرحم عن طريق المهبل، فتستقبله وتحتضنه، وبذلك يتكوّن أول خليّة من خلايا الجنين.

وتنتهي المقارنة الجنسية بين الذكر والأُنثى بقذف الحيوانات المنويّة في داخل المهبل، حيث تتسابق هذه الحيوانات الى غايتها، كأنّها في مباراة للجري. وغايتها هي حصول اللقاء مع البييضة حيث كانت في حالة انتظار، فالحيوان المنوي الذي سبق الآخرين إنّما يحاول الدخول في البييضة فتتقبّله البييضة، وترسل لاستقباله وجذبه نتوءً في واجهته (استطالة في سطحها المواجه للحيوان المنوي الآتي إليها) كي تحتضنه.

ويتكوّن الجنين نتيجةً لاتحاد جسدَي الرجل والمرأة، أو على الأصحّ نتيجةً لامتزاج نطفة الرجل مع بييضة المرأة، وتغدو هذه البييضة بعد التلقيح (دخول الحيوان المنوي فيها) ناضجة مكتملة بعناصر النموّ والتطوّر وتكوين الجنين.

والحيوان المنوي بيضويّ الشكل ذو ذنب، سريع الحركة لا يهدأ ولا يسكن، ويبقى حيّاً مدّة ثلاث أيّام اذا كان الجَوّ الحراري ملائماً.

فالسائل المنوي يتدفّق من عضو الرجل داخل مهبل المرأة، ويتمّ امتصاصه من قِبَل رحمها. أما البييضة فتربض في النفير بانتظار الزائر المفضّل. وكلّما كان تدفّق المني عميقاً كانت المسافة قصيرة لحصول اللقاح بين عنصري تكوين الجنين.

* * *

يقول علماء الاختبارات الدقيقة في هذا المجال: إنّ النطفة تقضي بين ٨ ـ ١٢ ساعة لقطع المسافة من المهبل الى النفير حيث تلاقي البييضة فيه.

وقد تأكّد لكثير من العلماء أنّ الحيوان المنوي يسير بذبذبات الذنب بسرعة ٢ ـ ٣ مليمترات في الدقيقة الواحدة، لذلك يحتاج في سيره الى مقدار خمس

ساعات لقطع مسافة العشرين سنتيمتراً التي تفصل عنق الرحم عن منطقة اللقاء (حيث مستقرّ البييضة).

وإنّ حياة الحيوان المنوي داخل جهاز المرأة التناسلي لا يتعدّى ٤٨ ساعة (يومين) اذا كان الوسط الذي يعيش فيه ملائماً وكانت خصيتا الرجل سالمتين قادرتين على إنتاج نطف قويّة قويمة.

وقد عرفت أنّ بييضة المرأة لا تلبث أكثر من ثلاثة أيّام، فهي لا تعمر ولا تبقى حيّة طويلاً إلّا اذا أنقذها حيوان منوي من نطفة الرجل، يساعدها على إتمام مصيرها والمضيّ بها لأداء رسالتها[1].

* * *

وللشيخ أحمد مصطفى المراغي في تفسيره بيانٌ على أساس تكوين الجنين من الماءين: نطفة الرجل وبييضة المرأة، يخرجان من بين صلبيهما وترائبيهما معاً، وله في ذلك استفتاء من أحد مراجع الطبّ الحديث بالقاهرة، قال:

إنّ الولد يتكوّن من منيّ مدفوق من الرجل، فيه جرثومة حيّة دقيقة لا ترى إلّا بالآلة المُعظّمة (الميكرسكوب) ولا تزال تجري حتى تصل إلى جرثومة نظيرتها من جراثيم المرأة وهي البويضة، ومتى التقت الجرثومتان اتحدتا وكوّنتا جرثومة الجنين.

قال: وقد استفتيت في نظرية الحمل وكيفيّة تكوين الجنين النطاسي البارع عبد الحميد العرابي بيك وكيل مستشفى الملك سابقاً، فأجابني حفظه الله بما يأتي:

كيفية حصول الحمل ونموّ الجنين في الرحم:

قال الله تعالى: ﴿فلينظُرِ الانسانُ ممّ خُلِق * خُلِقَ مِن ماءٍ دافِق * يَخرُجُ من

---

(١) الدكتور صبري القبّاني في كتابه (أطفال تحت الطلب):ص ٢٥ ـ ٥٠.

بينِ الصُلبِ والتَرائب﴾(١) وقال أيضاً: ﴿ونُقرُّ في الأرحام ما نشاءُ الى أجلٍ مسمّى﴾(٢).

اعلم أخي وفّقك الله إنّ فِي هاتين الآيتين وما شاكلهما من الآيات سرّاً من أسرار التنزيل ووجهاً من وجوه إعجازه، إذ فيهما معرفة حقائق علمية تأخّر العلم بها والكشف عن معرفتها وإثباتها ثلاثة عشر قرناً.

بيان هذا: إنّ صُلب الانسان هو عموده الفقري (سلسلة ظهره) وترائبه هي عظام صدره، ويكاد معناها يقتصر على حافّة الجدار الصدري السفلي.

واذا رجعنا الى علم الأجنّة وجدنا في منشأ خصية الرجل ومبيض المرأة ما يفسّر لنا هذه الآيات التي حيّرت الألباب، وذهب المفسّرون مذاهب شتّى على قدَر ما أتى كلّ واحد منهم من علم، وإن كان بعيداً عن الفهم الصحيح والرأي السديد.

ذاك أنّه في الاسبوع السادس والسابع من حياة الجنين في الرحم ينشأ فيه ما يسمّى (جسم وولف وقناته) على كلّ جانب من جانبي العمود الفقري، ومن جزءٍ من هذا تنشأ الكِلَى وبعض الجهاز البولي، ومن جزءٍ آخر تنشأ الخصية في الرجل والمبيض في المرأة. فكلّ من الخصية والمبيض في بدء تكوينهما يجاور الكِلَى ويقع بين الصُلب والترائب، أي ما بين منتصف العمود الفقري تقريباً ومقابل أسفل الضلوع.

وممّا يفسّر لناصحّة هذه النظرية أنّ الخصية والمبيض يعتمدان في نموّهما على الشريان الذي يمدّهما بالدم، وهو يتفرّع من الشريان «الأورطي» في مكان يقابل مستوى الكِلَى الذي يقع بين الصُلب والترائب، ويعتمدان على الأعصاب التي تمدّ كلّاً منهما وتتّصل بالضفيرة الأورطية، ثمّ بالعصب الصدري العاشر، وهو يخرج من النخاع بين الضلع العاشر والحادي عشر، وكلّ هذه الأشياء تأخذ

---

(١) الطارق: ٥ ـ ٧. (٢) الحجّ: ٥.

موضعها في الجسم فيما بين الصُلب والترائب.

فاذا كانت الخصية والمبيض في نشأتهما وفي إمدادهما بالدم الشرياني وفي ضبط شؤونهما بالأعصاب قد اعتمدتا في ذلك كلّه على مكان في الجسم يقع بين الصُلب والترائب فقد استبان صدق ما نطق به القرآن الكريم.

هذا، وكلّ من الخصية والمبيض بعد كمال نموّه يأخذ بالهبوط الى مكانه المعروف، فتهبط الخصية حتى تأخذ مكانها في الصفن، ويهبط المبيض حتى يأخذ مكانه في الحوض بجوار بوق الرحم.

وقد يحدث في بعض الأحيان أن لا تتمّ عملية الهبوط هذه، فتقف الخصية في طريقها ولا تنزل الى الصفن، فتحتاج الى عملية جراحية حتى تصل الى وضعها في الموضع الطبيعي.

هذا، والانسان يبدأ حياته جنيناً، والجنين يتكوّن من تلقيح بويضة تخرج من المبيض متدفّقةً نحو بوق الرحم بالحيوان المنوي الذي تفرزه خصية الرجل، ويكون التلقيح في الغالب في داخل أحد البوقين أو فيهما معاً، ثمّ تسير البويضة في طريقها الى الرحم حتى تستقرّ في قرار مكين الى أجلٍ مسمّى.

هذا اذا صادفها أحد الحيوانات المنويّة. أمّا اذا أخطأها التلقيح فتكون ضمن الإفرازات الرحمية التي تُطرَد في خارج الجسم.

وممّا يلاحظ أنّ إفراز البويضات عند المرأة هو عملية فسيولوجية شهرية لا علاقة لها بالاجتماع الجنسي، غير أنّ هذا الاجتماع ضروريّ لعملية التلقيح بالحيوان المنوي الذي يسبح في ماء الرجل.

وممّا سبق تعلم أنّ الماء الدافق يكون من كلٍّ من الرجل والمرأة، أمّا ماء الرجل فيتكوّن من الحيوانات المنويّة وسوائل أُخرى تفرزها الخصية والبروستاتة والحويصلات المنويّة. وهذه السوائل كلّها جعلت مُباءةً ومستقرّاً للحيوان المنوي الذي بدونه لا يتمّ التلقيح.

وهكذا الحال في البويضات التي يفرزها مبيض المرأة، فإنّها بعد أن تكون في المبيض على شكل حويصلة صغيرة تسمّى حويصلة (جـراف) تنمو وتبلغ أشدّها في نحو شهر حتى تتقرّب من المبيض ثم تنفجر كما تنفجر الفقاعة وتندفع مـنها البويضات مع السائل الذي خرج من الفقاعة الى البوق حيث يقابلها حيوان منوي يقوم بعملية التلقيح. وكلا الماءيـن ماء الرجل ومـاء المـرأة دافـق، أي يـنصبّ مندفعاً، وهذا هو الحاصل فعـلاً.

ومن هذا يتبيّن بوضوح أنّ الانسان خُلِقَ ونشأ من الماء الدافـق (ماء الرجل، وأهمّ ما فيه الحيوان المنوي، وماء المرأة وأهمّ ما فـيه البـويضة) الذي يـنصبّ مندفعاً من عضوين هما الخصية والمبيض، ومنشأهما وغذاؤهما وأعصابهما كلّها بين الصُلب والترائب.

وقد ثبت في علم الأجنّة أنّ البويضة ذات الخليّة الواحدة تصير عـلقةً ذات خلايا عدّة، ثّم تصير العلقة مضغةً ذات خلايا أكثر عدداً، ثمّ تصير المضغة جنيناً صغيراً وزّعت خلاياه الى طبقات ثلاث يخرج من كلّ طبقة منها مـجموعة مـن الأنسجة المتشابهة في أول الأمر، فاذا تمّ نموّها كوّنت جسم الانسان[1].

الذكورة والأُنوثة في ماء الرجل:

قال تعالى: ﴿وأنّه خَلَقَ الزوجينِ الذَكرَ والأُنثى * من نُطفةٍ اذا تُمنى﴾[2].

البييضة الملقّحة التي يتكوّن منها الجنين تحتوي على ٢٢ زوجاً من صبغيات جسمية يتكوّن منها بنية جسم الجنين، وزوج واحد من صبغيات جنسية هي التي تعيّن جنس الجنين أذكر هو أم أُنثى وهذا التعيين يأتيه من نطفة الرجل: كروموزوم (س) أو كروموزوم (ي).

وقد استطاع الطبّ الحديث اليوم من تمييز نوعين متساويين من النطف عند

---

(١) تفسير المراغي: ج ٣٠ ص ١١٢ ـ ١١٥.

(٢) النجـــم: ٤٥ و ٤٦.

كلّ رجل، يحتوي أوّلهما على صبغيات تسمّى (كروموزم ـس) ويحتوي ثانيهما على (كروموزوم ـ ي). وعند اندفاق هذه النطف في الرحم يزاحم بعضها بعضاً تسابقاً وتدفّقاً، بحثاً عن البييضة وجرياً وراءها، فإن كانت النطفة الملقّحة من النوع الأول أي (كروموزوم ـ س) سوى خلق الجنين ذكراً، وإن كانت النطفة الملقّحة من النوع الثاني أي (كروموزم ـ ي) سوى خلق الجنين أُنثى.

وقد أثبتت التجارب الطبّية ودلّت الاختبارات العلمية المجراة على آلاف الأزواج أنّ الصبغيّات الكامنة في النطف تتناقل الأوصاف والأخلاق والألوان العائلية بطريق الوراثة، على ما هو معروف[1].

وعلى أيّة حال فإنّ نطاف الرجل هي المسؤولة عن تحديد الجنس، لأنّها تحمل الأشكال المتغايرة من صبغيات جنس الجنين. وهذا ما ذكره القرآن بصراحة[2].

نظرة الأطباء القدامى:

قال الشيخ أبو علي المعروف بابن سينا في كتاب «القانون» عند تشريح أعضاء التناسل: قد خلق الأُنثيان عضوان رئيسيان يتولّد فيهما المني من الرطوبة المتحلّبة إليهما في العزوق كأنّها فضل من الغذاء الرابع في البدن كلّه، وهو أنضج الدم وألطفه، فيتخضخض فيهما بالروح في المجاري التي تأتي البيضتين من العروق النابضة والساكنة المتشعّبة من عرقٍ نابض وعرقٍ ساكن هما الأصلان. ثم ينصبّ عنهما في أوعية المني الى الإحليل وينزرق في مجامع النساء ـ وهو الجماع الطبيعي ـ الى الرحم. ويتلقّاه فم الرحم بالانفتاح والجذب البالغ، اذا توافى الدفقان معاً.

---

(١) أطفال تحت الطلب: ص ١٦٧.

(٢) مع الطبّ في القرآن الكريم: ص ٢٧.

والمجرى الذي تأتي فيه العروق الى الأُنثيين هو في الصفاق الأعظم الذي هو على العانـة. وأمّا الغشاء التي يغشّي الشرايـيـن والأوردة الواردة الى الأُنـثيين فمنشأهُ من الصفاق الأعظم ـ كما علمت ـ وبذلك يتّصل أيـضاً بـغشاء النـخاع، وينحدر على ما ينحدر من العروق والعلائق في بربخي الأربية الى الأُنثيين.

وأمّا القضيب فإنّه عضو آلي يتكوّن مـن أعـضاء مـفردة ربـاطية وعـصبية وعروقية ولحمية، ومبدأ منبته جسم ينبت من عظم العانة، رباطيّ كثير التجاويف واسعها، وتجري تحت هذا الجرم شرايـيـن كثيرة واسعة فوق ما يليق بقدر هـذا العضو، وتأتيـه أعصاب من فقار العجز.

وسبب المني هو أنّ المني فضلة الهضـم الرابـع الذي يكون عند توزّع الغذاء في الأعضاء راشحـة عن العروق.

وعند جالينوس والأطباء أنّ للذكر والأُنثى جميعاً زرعاً يقال عليه اسم المني فيهما، لا باشتراك الاسم بل بالتواطؤ[١] وفي كلّ واحد من الزرعيـن قوّة التصوير والتصوّر معاً، لكن زرع الذكر أقوى في القوّة التي منها مبدأ التصوير ـ بـإذن الله تعالى ـ وزرع الأُنثى أكثر في القوّة التي عنها مبدأ التصوّر. وأنّ منيّ الذكر يندفق في قرن الرحم فيبلعه فم الرحم بجذب شديد، وأنّ منيّ الأُنثى يندفق من داخل رحمها من أوعية وعروق الى موضع الحبل.

وأمّا العلماء الحكماء فمحصول مذهبهم أنّ منيّ الذكر فيه مبدأ التصوير، وأنّ

---

(١) مقصوده من الاشتراك: أنّ ماء الرجل وماء المرأة شيئان متباينان لا رابط بينهما في الماهية والحقيقة، ومن ثمّ فإطلاق اسم المني عليهما من الاشتراك اللفظي، الموضوع لكلّ واحد من المعنييـن وضعاً على حدة.

وأمّا التواطؤ فهو الاشتراك المعنوي، وأنّهما في أصل الحقيقة شيء واحد اختلفا في بعض الجهات لا في الماهيـة.

لكن الأكثر على أنّهما شيئان، وأنّ اسم النطفة أو المني إنّما يـطلق عـلى مـاء الرجـل بالحقيقة، وعلى ماء المرأة بالمجاز والمناسبة لا غيـر.

منيّ الأُنثى فيه مبدأ التصوّر. وأنّ اسم المني اذا قيل عليهما كان باشتراك الاسم، إلّا أن يحتمَل معنى جامع ويسمّى له الشيء منيّاً، وأمّا في المعنى الذي يسمّى به دفـق الرجل منيّاً فليس دفق الأُنثى منيّاً، وبالحقيقة فإنّ منيّ الرجل حارٌّ نضيج ثخين، ومنيّ المرأة من جنس دم الطمث نضيج يسير أو استحال قـليلاً ولم يـبعد عـن الدميوية بعد منيّ الرجل، فلذلك يسمّيه الفيلسوف المتقدّم طمثاً.

ويقولـون: إنّ منيّ الذكر اذا خالـط فعل بقوّتـه ولم يكن لجرميّته كبير مدخل في تقويم جرمية بدن المولود، فإنّ ذلك من منيّ الأُنثى ومن دم الطمث، بل أكثر غنائه في جرمية روح المولود، وإنّما هو كالأنفحـة الفاعلة في اللبن، وأما مـنيّ الأُنثى فهو الأُسّ لجرمية بدن المولود.

وقال ابقراط: إنّ جمهور مادّة المني هو من الدماغ، وإنّه ينزل في العـرقين اللذين خلف الأُذنين، ولذلك يقطع فصدهما النسل ويورث العقـر[1].

ولم يعرف جالينوس هل يورث قطع هذيـن العرقيـن العقر أم لا؟

وأنا أرى أنّ المني ليس يجب أن يكون من الدماغ وحده، وإن كانت خميرته من الدماغ، وصحّ ما يقوله ابقراط من أمر العرقين، بل يجب أن يكون له من كلّ عضو رئيس عين، وأن تكون الأعضاء الأُخرى ترشّـح أيضاً الى هذه الأُصول، وبذلك يكون الشبـه[2].

قال القرشي ـ شارح كتاب القانون ـ في شرح عبارة الشيخ الأخيرة:

إنّما يكون تولّد المني من الرطوبة المبثوثة على الأعضاء كالطلّ، وهي تتبخّر حتى تتصعّد الى الدماغ، وهناك تفارقها الحرارة المتبخّرة فتبرد وتتكاثف وتعود الى قوامها، ثمّ من هناك ينزل الى العروق التي خلف الأُذنين وينفذ الى النخاع في

(١) قال القمّي ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿لقطعنا منه الوتيـن﴾ الحاقّة: ٤٨ ـ: عرق في الظهر يكون منه الولد (التفسير: ج ٢ ص ٣٨٤).

(٢) القانون في الطبّ: المقالة الأُولى من الفن العشرين ج٢ ص ٥٣٢ ـ ٥٣٤.

عروق هناك، لئـلّا يتغيّر عن التعدّل الذي أفاده الدماغ، فلا يتبخّر بالحرارة كـرّة أُخرى. فاذا نزلت من هناك حتى وصلت الى قرب الأُنثيين صادف هناك عروقاً واصلة من الكليتين الى الأُنثيين، وتلك العروق مملوءة من الدم، فـتتسخّن فـي الكليتين وتعدل، فيحيله ذلك النازل من الدماغ الى مشابهـه بعض الاستحالة، ثمّ ينفذ بعد ذلك الى الأُنثيين، ويكمل فيهما تعدّلـه وبياضه ونضجـه، ومنهما يندفع الى أوعيتـه[1].

ونقل المجلسي ﷺ عن الحكيم (ارسطو) وجماعة من الحكـماء: أنّـه ليس للمرأة منيّ ـ بهذا الوصف المعروف ـ وإنّما تنفصل مـن مـبيضها رطـوبة شـبيهة بالمنيّ، وقد يطلق عليها اسم المنيّ مجازاً بالتشبيه (وهو ماء أصفر رقيق أشبه بدم الاستحاضة القليلة). قالوا: واذا امتزج منيّ الرجل بتلك الرطوبة تتولّد منه مـادّة الجنين. ومنيّ الرجل هو العاقد والفاعل، ورطوبة المرأة هي المنعقدة والمنفعلة[2].

وهذا الذي ذكره حُكماء القـديم والحـديث هـو الذي دلّت عـليه الآيـات وصريح الروايات، ولنذكر نماذج منها:

* * *

قال تعالى: ﴿أفرأيتُم ما تُمنون * أأنتم تخلُقونه أم نَحنُ الخَالقون﴾[3] فالذي يُخلَق هو الذي يُمنى كما في قوله: ﴿ألم يك نطفةً من منيٍّ يُـمنى﴾[4] وهـذا الى جنب قوله تعالى: ﴿أفرأيتم ما تحرُثون * أأنتم تزرعُونهُ أم نَحنُ الزَارعون﴾[5] يدلّ بوضوح على أنّ الرجل هو باذر نطفة الجنين التي يتكوّن منها،وإنّما المـرأة أرض صالحة لهذا الإنبات والإيـلاد، كما قال: ﴿نساؤكم حَرثٌ لكـم﴾[6]. نـعم يجب أن لا يُنسى مالمواد الأرض الصالحة وأملاحها الحظّ الأوفـى فـي تـنمية

(١) بنقل العلّامة المجلسي في بحار الأنوار: ج ٥٧ ص ٣٩٠ من كتاب السماء والعالم.
(٢) بحار الأنوار: ج ٥٧ ص ٣٦٨.
(٣) الواقعـة: ٥٨ و ٥٩.
(٤) القيـامة: ٣٧.
(٥) الواقعـة: ٦٣ و ٦٤.
(٦) البقـرة: ٢٢٣.

الزرع وإنبات النبات. وهكذا المرأة لها الحظّ الأوفر في تنمية الجنين وتربيته ليكون ولداً سوياً. نظير ما لبيض الدجاج في صفاره وبياضه من تموين فرخها وتكوينه الأوّلي، لكنه لايعدو تغذية نطفة الديك الداخلة في البيضة والتي تشكّل هي المبدأ الأوّل لتكوين الفرخ.

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ قوله: أمّا العظام والعصب والعروق فمن الرجل، وأمّا اللحم والدم والشعر فمن المرأة[1].

وفي الحديث عن الامام الصادق عليه السلام: إنّ للرحم أربعة سُبُل، في أيّ سبيل سلك فيه ماء الرجل كان منه الولد. وفي رواية أُخرى: إنّ الله خلق للرحم أربعة أوعية ...[2].

وجاء في باب الديات: وجعل منيّ الرجل الى أن يكون جنيناً خمسة أجزاء، وذلك أنّ الله خلق الانسان من سلالة وهي النطفة، فهذا جزء. ثم علقة، فهو جزءان. ثم مضغة فهو ثلاثة. ثم عظماً، فهو أربعة . ثم يكسى لحماً، فحينئذ تمّ جنيناً، فكملت له خمسة أجزاء[3].

* * *

قال تعالى: ﴿وتقلّبك في الساجدين﴾ جاء في تأويلها عن الامام الباقر عليه السلام قال: في أصلاب النبيّين. وفي رواية أُخرى عنهما عليهما السلام: في أصلاب النبيّين نبيّ بعد نبيّ حتى أخرجه من صلب أبيه، عن نكاح غير سفاح من لدن آدم عليه السلام[4].

وتقول مخاطباً للامام الحسين عليه السلام ـ في زيارته عند ضريحه بمشهد كربلاء ـ: أشهد أنّك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهّرة ....[5].

---

(١) بحار الأنوار: ج ٥٧ ص ٣٣٦ حديث ٩ و ص ٣٣٨ ح ١٥ عن علي عليه السلام (طبع بيروت).
(٢) الكافي: ج ٦ ص ١٦ و ١٧ حديث ١ و ٢ باب أكثر ما تلد المراة.
(٣) بحار الأنوار: ج ٥٧ ص ٣٥٤ حديث ٣٧.
(٤) تفسير الصافي: ج ٢ ص ٢٢٨ في تفسير آية ٢١٩ من سورة الشعراء.
(٥) زيارة وارث، وهي السابعة من زياراته المطلقة.

وعن ابن عباس قال: ما زال النبيّ ﷺ يتقلّب في أصلاب الأنبياء حتّى ولدته أُمّه.

قال: وسألته ﷺ فقلت: بأبي أنت وأُمّي أين كنت وآدم في الجنّة؟ فتبسّم حتّى بدت نواجده ثم قال: إني كنت في صلبه وهبط الى الأرض وأنا في صلبه، وركبت السفينة في صلب أبي نوح، وقذفت في النار في صلب أبي إبراهيم. لم يلتق أبواي قطّ على سفاح لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيّبة الى الأرحام الطاهرة، مصفّىً مهذّباً لا تتشعّب شعبتان إلّا كنت في خيرهما[1].

وقد ورد بطرق متظافرة عن النبيّ ﷺ: كنت أنا وعليّ على يمين العرش نسبّح الله قبل أن يخلق آدم بألفي عام، فلمّا خُلق آدم جعلنا في صلبه، ثمّ نقلنا من صلب الى صلب في أصلاب الطاهرين وأرحام المطهّرات، حتّى انتهينا الى صلب عبد المطّلب فقسمنا قسمين، فجعل في عبد الله نصفاً وفي أبي طالب نصفاً، وجعل النبوّة والرسالة فيّ، وجعل الوصية والقضيّة في عليّ[2].

* * *

وفي الكافي بسند صحيح عن الامام الباقر عليه السلام قال: إنّ الله عزّوجلّ اذا أراد أن يخلق النطفة التي أخذ عليها الميثاق في صلب آدم أو ما يبدو له فيه ويجعلها في الرحم حرّك الرجل للجماع، وأوحى الى الرحم أن افتحي بابك حتى يلج فيك خلقي وقضائي النافذ وقدري، فتفتح الرحم بابها فتصل النطفة الى الرحم، فتردّد فيه أربعين يوماً ثمّ تصير علقة ـ الى أن قال: ـ ثمّ يبعث الله ملَكين ... فيصلان الى الرحم وفيها الروح القديمة المنقولة في أصلاب الرجال وأرحام النساء[3].

---

(١) الدرّ المنثور: ج ٥ ص ٩٨.

(٢) عن أمالي المفيد وغيره بروايات كثيرة أوردها المجلسي في بحار الأنوار: ج ٣٥ ص ٣١.

(٣) الكافي: ج ٦ ص ١٣ حديث ٤.

وفي رواية أُخرى أيضاً صحيحة الاسناد عنه عليه‌السلام: اذا وقعت النطفة في الرحم استقرّت فيها أربعين يوماً(١).

وعنه أيضاً ـ وقد سئل عن قوله تعالى ﴿مخلّقةٍ وغير مُخلّقةٍ﴾(٢) ـ قال: المخلّقة الذرّ الذين خلقهم الله في صلب آدم، وأخذ عليهم الميثاق ثمّ أجراهم في أصلاب الرجال وأرحام النساء(٣).

وفي رواية الصدوق بإسناده عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: اذا وقع الولد في جوف أُمّه ... الى الوقت المقدّر لولادته(٤).

وفي البصائر: تقطر قطرة من تحت العرش فتقع على ثمرة أو بقلة، فيأكلها الامام الذي يخلق منه نطفة الامام بعده، فيخلق الله من تلك القطرة نطفة في الصلب، ثمّ يصير الى الرحم فيمكث فيها أربعين ليلة(٥).

* * *

والمتلخّص من مجموع ما ذكرنا من كلمات أعلام التحقيق مشفوعة بظهور الآيات وصريح الروايات، هو: أنّ النطفة في حقيقتها من ماء الرجل وهو منيّه. وهي تشتمل على حيوانات منويّة دقيقة هي أصل مبدأ الانسان ذكراً أو أُنثى، ولا شأن لبييضة المرأة عند تلقيحها بنطفة الرجل سوى تنمية هذه النطفة وتغذيتها وتموينها بما يؤول الى لحم وشعر، أمّا العظم والعصب والعروق ـ وهي مادّة الانسان الأصلية ـ فهي من ماء الرجل لا غير.

إنّ حياة ما في نطفة الرجل هي حياة حيوانية، وأمّا حياة بُييضة المرأة فهي حياة نباتية، سرعان ماتذبل وتتعفّن فتفسد إذا لم ينقذها الحيوان المنوي الكائن

---

(١) الكافي: ج ٦ ص ١٦ حديث ٧، البحار: ج ٥٧ ص ٣٥٦ و٣٥٧ حديث ٤٠ و ٤١.
(٢) الحجّ: ٥.
(٣) الكافي: ج ٦ ص ١٢ حديث ١.
(٤) بحار الأنوار: ج ٥٧ ص ٣٥٢ حديث ٣٦.
(٥) بحار الأنوار: ج ٥٧ ص ٣٥٨ حديث ٤٧.

في نطفة الرجل، والهائم في طلب البييضة ليدخل فيها، عندما ينطلق في الرحم لغرض تلقيحها وأخصابها. ﴿نساؤكم حرثٌ لكم﴾[١]. وفي الحديث: اختاروا لنطفكم[٢].

وليس للمرأة منيّ كمنيّ الرجل، وإنّما هو ماء أصفر رقيق هو أشبه بالمستحال من الدم، قد تنزله بشهوة ويحصل لها فتور عنده، وهي تبيض في كلّ شهر بييضة هي معدّة لتغذية نطفة الرجل وتنميتها اذا دخلت فيها. وأمّا إطلاق النطفة ـ في بعض الكلمات ـ على مائها فبأصل إطلاق الكلمة في معناها اللغوي: سلالة الماء وزلاله. وقد عرفت من كلام الحكماء أنّ إطلاق المنيّ على مائها إمّا بالاشتراك اللفظي ـ أي معنى آخر سوى ما أُريد من المنيّ عند إطلاقه على ماء الرجل ـ أو تشبيه ومجاز، وبذلك يجمع بين مختلف الروايات.

* * *

وللأُستاذ عبد الكريم عبد الله نيازي في «أطوار الجنين» و «أمراض الوراثة» مقالان عرضهما على آيات من القرآن الحكيم. نوردهما نصّاً، والعهدة عليه:

القرآن الكريم وأطوار الجنين

يتحدّث القرآن الكريم عن أطوار النموّ الإنساني في مواضع متعدّدة... ويجعلها دليلاً قاطعاً على إعادة الله الخلق كما بدأكم تعودون!!.

ولقد تحدّثت الكثير من الآيات الكريمة عن هذه الأطوار مجملة ومفصّلة:

﴿مَا لَكُم لاَ تَرجُونَ للهِ وَقَاراً * وَقَد خَلَقَكُم أطواراً﴾[٣]. قال ابن عبّاس وقتادة وعكرمة والسدي وابن زيد: معناه من نطفة ثمّ من علقة ثمّ من مضغة ... إلى

(١) البقرة: ٢٢٣. (٢) وسائل الشيعة: ج ١٤ ص ٢٩ حديث ٦.

(٣) نوح: ١٣ و ١٤.

آخر أطوار الإنسان.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إن كُنتُم في رَيبٍ مِن البَعثِ فَإنّا خَلَقنَاكُم مِن تُرابٍ ثُمّ مِن نُطفَةٍ ثُمّ مِن عَلَقَةٍ ثُمّ مِن مُضغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَير مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُم وَنُقِرُّ في الأرحَامِ مَا نَشآءُ إلى أجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخرِجُكُم طِفلاً ثُمّ لِتَبلُغُوا أشُدَّكُم ومِنكُم من يُتَوفّى وَمِنكُم مَن يُرَدُّ إلى أرذَلِ العُمُرِ لِكي لا يَعلَمَ مِن بَعدِ عِلمٍ شَيئاً﴾[1].

﴿ولَقَد خَلَقنا الإنسَانَ مِن سُلالَةٍ من طينٍ * ثُمّ جَعَلناهُ نُطفَةً في قَرَارٍ مَكينٍ * ثُمّ خَلَقْنَا النُّطفَةَ عَلَقَةً فَخَلقنَا العَلَقَة مُضغَةً فَخَلقنَا المُضغَةَ عِظَاماً فَكَسَونَا العِظَامَ لَحماً ثُمّ أنشأنَاهُ خَلقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أحسَنُ الخَالِقينَ﴾[2].

﴿الَّذِي أحسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَهُ وَبَدأ خَلقَ الإنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمّ جَعَلَ نَسلَهُ مِن سُلالَةٍ مِن مَآءٍ مَهِينٍ * ثُمّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فيه من رُوحِهِ﴾[3].

﴿يا أيُّها الإنسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَريم * ألَّذِي خَلَقَكَ فَسَوّاكَ فَعَدَلَكَ * في أيِّ صُورَةٍ ما شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[4].

من هذه الآيات الكريمة نستطيع أن نحدّد معالم أطوار الجنين الإنساني وهي:

١ ـ نطفة.

٢ ـ علقة.

٣ ـ مضغة مخلّقة وغير مخلّقة.

٤ ـ عظام.

٥ ـ لحم يكسو العظام.

٦ ـ التسوية والتصوير «خلق آخر» والتعديل.

٧ ـ نفخ الروح.

---

(١) الحجّ: ٥. (٢) المؤمنون: ١٢ ـ ١٤. (٣) السجدة: ٧ ـ ٩.

(٤) الانفطار: ٦ ـ ٨.

وروي عن الإمام أمير المؤمنينعليه السلام أنّه ردّ على من قال إنّ العزل هو الموؤدة الصغرى قائلاً: لا تكون موؤدة حتى تمرّ على الأطوار السبع: تكون سلالة من طين، ثمّ تكون نطفة، ثمّ تكون علقة، ثمّ تكون مضغة، ثمّ تكون عظاماً، ثمّ تكون لحماً، ثمّ تكون خلقاً آخر، فقال عمر: صدقت أطال الله بقاءك.

وكما عرفنا فإنّ أوّل هذه الأطوار هو طور النطفة، والنطفة تطلق على ثلاثة أشياء هي:

١ ـ نطفة الذكر، وهي الحيوانات المنوية.

٢ ـ نطفة الأُنثى، وهي البويضة.

٣ ـ النطفة الأمشاج، وهي النطفة المختلطة من ماء الرجل وماء المرأة، أي البويضة الملقّحة، والنطفة الأمشاج هي بداية مرحلة خلق الإنسان، حيث يلقّح الحيوان المنوي البويضة في الثلث الوحشي من قناة الرحم ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُطْفَةٍ أمشَاجٍ نَبتَلِيهِ فجَعَلنَاهُ سميعاً بصيراً﴾[1].

فإذا ما لقّحت البويضة وصارت بويضة ملقّحة ابتدأت انقسامات متعدّدة، وتعرف هذه المرحلة بمرحلة الانقسام والانشقاق. وتتحوّل البويضة الملقّحة «النطفة الأمشاج» إلى ما يشبه التوتة فتسمّى عندئذٍ التوتة. ثمّ تنتقل بعد ذلك فتصير مثل الكرة المجوّفة وتدعى عندئذٍ الكرة الجرثومية. ويبقى قطر النطفة الأمشاج حتّى بعد أن تصبح كرة جرثومية لا يزيد عن ربع مليّمتر !!.

وتستغرق هذه المرحلة أسبوعاً كاملاً حتّى تعلّق هذه النطفة الأمشاج التي تحوّلت إلى كرة جرثومية لها خلايا آكلة وقاضمة تعلّق بواسطتها وبواسطة حملات دقيقة بجدار الرحم ...وتتحوّل عندئذٍ إلى المرحلة التي تليها وهي العلقة.

وفي اليوم الرابع عشر والجنين في مرحلة العلقة لا يزيد حجمه عن نقطة وفي اليوم الثامن عشر لا يزيد حجمه عن حرف كتابي ٥ وفي اليوم الرابع

(١) الانسان: ٢.

والعشرين وقد بدأ مرحلة المضغة يكون حجمه أقلّ من حبّة القمح أو الأرز. وفي الاسبوع الرابع وهو في قمّة مرحلة المضغة لا يزيد حجمه عن حبّة القمح. وفي الاسبوع السادس والنصف في أوجّ تكوين الأعضاء لا يزيد حجمه عن حبّة فاصوليا بل أقلّ من ذلك. وفي الاسبوع السابع والنصف وقد تكاملت الأعضاء تقريباً لا يزيد حجمه عن حبّة الفاصوليا أو الفول. وفي الاسبوع التاسع بعد انتهاء فترة الحميل ودخوله إلى مرحلة الجنين لا يزيد حجم الجنين عن ثلاثة سنتيمترات، أي ما يزيد قليلاً عن البوصة. وفي الاسبوع الحادي عشر يكون الشكل الإنساني مميّزاً لدرجة لا يمكن أن يخطئها أحد، وتبدأ في هذه الفترة الأعضاء التناسلية الخارجية في التمايز. وفي الاسبوع الخامس عشر تستطيع الأُمّ أن تحسّ حركة وليدها بكلّ وضوح، وتكون الأعضاء التناسلية الخارجية واضحة جدّاً.

العلقة:

هي الطور الثاني الذي تنتقل إليه النطفة، ويبدأ العلوق منذ اليوم السابع «منذ التلقيح» عندما تلتصق الكرة الجرثومية بجدار الرحم، وتمدّ الخلايا الخارجية الآكلة معاليق صغيرة متعدّدة لتلتقي بمثيلاتها الموجودة على الخلايا الطلائية في غشاء الرحم، حتّى تتمكّن من الولوج إلى داخل الغشاء، وتبدأ عندئذٍ تعلّقها بواسطة الخلايا المخلاوية الآكلة التي تتحوّل الى الحملات المشيمية .. وهي تمثّل تعلّق الكرة الجرثومية بجدار الرحم !.

ثمّ إنّ الكرة الجرثومية تنقسم إلى كتلة خلايا خارجية آكلة وظيفتها العلوق بجدار الرحم وامتصاص الغذاء منه «وهي تشكّل ٩٠ بالمائة من مجموع خلايا الكرة الجرثومية» وكتلة خلايا داخلية «تشكّل ١٠ بالمائة من مجموع الكرة الجرثومية» وهذه الكتلة الداخلية يخلق الله منها الجنين، ويتعلّق الجنين بواسطة

معلاق يربطه بالغشاء المشيمي «الكوريـون».

فهناك إذاً جملة تعلّقات في هذه المرحلة، تـعلّق أوّلي بـواسـطة الحـملات الدقيقة، ثمّ تعلّق ثاني بواسطة الخلايا الآكلة، ثمّ تعلّق ثالث بواسـطة الحـملات المشيمية، ثمّ تعلّق رابع يربط بين الجنين الحقيقي وبين الغشاء المشيمي بواسطة المعـلاق.

ولا شكّ أنّ أهمّ ما يميّز هذه المرحلة هو هذا التعلّق. وأنّ وصف العلقة العالقة بجدار الرحم والمحاطة بالدم المتجمّد «المتخثّر» هو أدقّ وصف لهذه المرحلة.

وتستغرق هذه المرحلة اسبوعين تقريباً، ينمو خلالها القـرص الجـنيني إلى لوح كمّثريّ الشكل ذي ثلاث طبقات متمايزة:

أ ـ الطبقة الخارجيـة «الأكتودرم».

ب ـ الطبقة المتوسطة «الميزودرم».

ج ـ الطبقة الداخلية «الأنتودرم».

وفي نهاية هذه المرحلة تتكثف الطبقة المتوسّطة القريبة من مـحور الجـنين لتشكّل الكتل البدنية، ويبدأ ظهور أو كتلة بدنية في اليـوم العشـرين أو الواحـد والعشرين منذ التلقيح، وعندئذٍ تكون العلقة قد تحوّلت إلى مضغـة.

وفي هذه المرحلة نجد أنّ الكرة الجرثومية التي كانت قبيل العلوق لا تزيد عن نصف ملّيمتر قد أصبحت بعد العلوق باسبوع واحد فقط ملّيمتراً ونصفاً. وفي نهاية الاسبوع الثالث منذ التلقيح يصبح طول اللوح الجنيني ـ من الآن فصاعداً لا يحسب إلاّ طول الجنين الحقيقي فقط ـ ملّيمترين ونصف.

والطور الثالث حسب التقسيم القرآني هو طـور المضغة.

الاسبـوع الرابـع:

ويبدأ هذا الطور بظهور الكتل البدنية ويكون أول ظهورها في أعلى اللـوح جهة الرأس. ثمّ يتوالى ظهور هذه الكتل من الرأس إلى مؤخّرة الجـنين، ويـبدأ

ظهورها في اليوم العشرين أو الواحد والعشرين منذ التلقيح. ثمّ تستمرّ في الظهور واحدة على كلّ جانب من محور الجنين حتى تبلغ ٤٢ إلى ٤٥ زوجاً من الكتل البدنيـة.

وهذه الكتل البدنية ليست إلّا تكثّفاً لطبقة الميزودرم المتوسّطة بجانب محور وميازيب في الطبقة الخارجيـة «الأكتودرم» وبروز نتوء فـي الطـبقة المـتوسّطة «الميزودرم» وتتكوّن بذلك خمسة أزواج من الأقواس البلعومية في المنطقة العليا من الجنين تحت قمّة الرأس مباشرة. ويكون وصف المضغة أو القطعة من اللحم التي مضغتها الأسنان ولاكتها ثمّ قذفتها هو أصدق وصف وأدقّـه لهذه المرحلة.

مرحلة العظام واللحـم:

وهي مرحلة تستغرق الاسبوع الخامس والسادس والسابع، وتتحوّل الكتل البدنية إلى جزءيـن:

١ ـ جزء أمامي وإنسي، ويسمّى القطعة الهيكلية ، وهي تكوّن عظام الفقرات، كما أنّ انسياب خلاياه في المنطقة العنقية «٤ ـ ٨» يشكّل عظام الأطراف العليا ، وانسياب خلاياه في المنطقة القطنية «١ ـ ٥» والعجزية «١ ـ ٤» يشكّـل عـظام الأطراف السفلى. كما تشكّل الأربع كتل البدنية الواقعة في منطقة الرأس «الجزء المؤخّري القاعدي» من الجمجمة. وتتكوّن الأضـلاع من نـتوءات مـن العـمود الفقري في المنطقة الصدرية «١ ـ ١٢».

وبذلك يتشكّل معظم الجهاز الهيكلي من هذه الكتل البدنية. أمّا عظام الوجه والفكّين وعظام الأذن الوسطى «المطرقة والسندان والركاب» فإنّها جميعاً تشكّل من القوس البلعومي الأول، ويتكـوّن العظم اللامي من القوس البلعومي الثاني!!.

ولا يـبقى إلّا قـحفة الجـمجمـة التـي تـتكوّن مـن الخـلايا المـيزودرمية «المتوسّطة» المتكثفة في قمّة الرأس، والتي تتحوّل مباشرةً من غشاء إلى عـظم

دون أن تتحوّل إلى غضاريف، كما هو معهود في أغلب عظام الجسد.

٢ ـ جزء خلفي وظهري، ويسمّى المقطع العضلي الآدمي الذي سرعان ما ينقسم بدوره إلى قسمين:

أ ـ آدمي، وهو يشكّل أدمة الجلد وما تحت الجلد من أنسجة.

ب ـ عضلي، وهو يشكّل معظم عضلات الجسم، وخاصّة تلك الموجودة في الجذع. كما ينساب هذا القطّاع العضلي في المنطقة العنقية «٤ ـ ٨» لتكون عضلات الطرف العلوي، وفي المنطقة القطنية والعجزية لتكون عضلات الأطراف السفلية. ولايزال هناك من علماء الأجنّة من يقول: إنّ عضلات الأطراف تتكوّن في موضعها، ويكون تكوّن العظام سابقاً ولو ببضعة أيام لتكون العضلات، وتأتي العضلات بعد ذلك لتكسو العظام.

ويقول الدكتور «لانجمان» في كتاب علم الأجنّة الإنساني: وفي الاسبوع السادس تكون هذه الهياكل الغضروفية لعظام الأطراف العلوية والسفلية قد ظهرت بوضوح وإن كان الطرف العلوي يسبق الطرف السفلي ببضعة أيام. وأوّل علامة على وجود عضلات الأطراف تظهر في الاسبوع السابع.

وعندما يتحدّث «لانجمان» عن الفقرات والعمود الفقري يقول: وبعد أن تتحرّك خلايا القطع الهيكلية إلى الجهة الانسية مكوّنة العمود الفقري تعرف الخلايا المتبقية من الكتلة البديلة باسم المقطع الآدمي والمقطع العضلي. ونتيجةً لتكوّن جسم الفقرة من قطعتين هيكليّتين متجاورتين فإنّ ذلك الالتحام يؤدّي إلى تحرّك القطع العضلية لتغطيتها.

ومعنى ذلك أنّ العظام تسبق العضلات، ثمّ تكسو العضلات العظام، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿فخلَقنَا المُضغَةَ عِظَاماً فَكَسَونَا العِظَامَ لَحماً﴾[1].

---

(١) المؤمنون: ١٤.

ثمّ أنشأناه خلقـاً آخـر:

وهو طور التصوير والتسوية والتعديل، ثمّ النفخ في الروح . والآيات الدالّه على التصوير كثيرة:

منها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُـمْ في الأَرحَامِ كَيفَ يَشَاءُ﴾(١).

﴿وَلَقَد خَلَقنَاكُم ثُمّ صَوّرنَاكُم﴾(٢).

﴿وَصوَّركُم فَأَحسَنَ صُوَرَكُم وإلَيهِ المَصيرُ﴾(٣).

﴿يَا أَيُّها الإنسَانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ * الّذِي خَلَقَكَ فَسَوّاكَ فَعَدَلَك * في أيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ ركَّبَكَ﴾(٤) ومن أسماء الله الحسنى المصوِّر ﴿هُـوَ اللهُ الخَـالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَـهُ الأَسمَاءُ الحُسنَى﴾(٥).

وأمّا التسوية فهي تتمّ مع التصوير وقبله وبعده، وهي تشمل جميـع الأعضاء. فالأطراف مثلاً عند أول ظهورها تبدأ كبرعم صغير مكـوّن مـن تكـثّف لخـلايا الميزودرم «الطبقة المتوسّطة» مغطىً بغطاء من الطبقة الخارجية الاكـتودرم. ثـمّ تتكوّن في الطبقة المكثّفة من المـيزودرم خـلايا غـضروفية، وتـرسب النسـيج الغضروفي في موضع النسيج الغشائي. ثمّ ما تلبث الخلايا العظمية أن تظهر فتقوم بتفتيت النسيج الغضروفي كما تتكوّن خلايا آكلة فتأكل الغضاريف وخـلاياها، وتضـع الغضاريف عظاماً تكون مراكز للتمعظم وينتشر منها التمعظم في أجـزاء الهيكل الغضروفي.

إنّ عملية الهدم والبناء والتسوية والتعديل مستمرّة في الجنين بشكـل مثير، إذ كلّ يـوم بل كلّ ساعة تشهد جديداً. هذه انبوبة القلب المستطيلة تتحوّل إلى شكل حرف كتابي S . ثمّ تتكوّن الغرف المتتالية: الأُذين العام، والبطين العام، وبـصلة

---

(١) آل عمران: ٦. (٢) الأعراف: ١١. (٣) التغابـن: ٣.
(٤) الانفطـار: ٦ ـ ٨. (٥) الحشـر: ٢٤.

القلب، والجيب الوريدي. ثم يُعاد التركيب ليدخل الجيب الوريدي في الأُذين الأيمن، وتدخل بصلة القلب في البطين الأيمن والأيسر، ومن بصلة القلب أيضاً تنشأ جذور الشريان الأورطي والشريان الرئوي.

ومن له أدنى إلمام بعلم الأجنّة وعلم التشريح وعلم وظائف الأعضاء يعرف كيف أنّ أجهزة الجسم المختلفة تُهدم ويعاد بناؤها باستمرار. وتتجلّى هذه التسوية والتعديل في أجلى صورها في الجنين، ثم تقلّ نسبياً بعد الولادة، ثم تقلّ كذلك بعد البلوغ، ولكنها لا تتوقّف حتّى في الشيخوخة.

وهناك جهاز واحد فقط لا يشمله التغيير والتبديل المستمر، ألا وهو الجهاز العصبي. فالجهاز العصبي: الدماغ والنخاع الشوكي والأعصاب لا تتغيّر بعد الولادة من حيث الهدم والبناء.. ولكنّها تتغيّر من حيث اتّصالات الخلايا العصبية ببعضها. أمّا قبل الولادة في الجنين ـ وخاصّة في الشهر الثاني من الحمل ـ فإنّ التغيير يكون فيها على أشدّه. ففي كلّ لحظة هناك تغيير في الشكل أو في الوظيفة أو في إزالة مجموعة من الخلايا قد أدّت وظيفتها ...أو في بناء مجموعة أُخرى.

إنّ ما يحدث في الجنين شبيه إلى حدٍ مّا بما يحدث عند بناء عمارة، فهناك السقالات والأعمدة التي تقام ثمّ تهدم وتزال بعد أداء وظيفتها، وهناك بناء الأساس أولاً، ثمّ بناء الأعمدة والجدران، ثمّ بعد ذلك تأتي مرحلة الأبواب والنوافذ، ثمّ تأتي بعد ذلك مرحلة التبليط والتزيين والتحسين «الديكور» ولا يمكن أن تقوم مرحلة التبليط قبل بناء الأعمدة والجدران، ولا يمكن وضع الموزاييك والتحسينات قبل إقامة الأبواب والنوافذ، وهكذا كلّ مرحلة تدلف إلى المرحلة التي بعدها.

وكذلك في بناء جسم الإنسان، كلّ مرحلة تدلف إلى المرحلة التي بعدها وما استخدم من أدوات في المرحلة السابقة ولم يعد له حاجة فلابدّ من إزالته حتّى لا يعوق الطريق.

وهذه باختصار هي التسوية والتعديل ...وهي مرحلة مستمرّة في بناء جسم الإنسان منذ أن كان جنيناً، إلى أن يصبح شيخاً هرماً، ولكن هذه التسوية والتعديل أبرز ما تكون في الجنين.

ولا يمكن أن تتمّ التسوية والتعديل إلّا بعد وضع الأُسس، والأُسس لجميع الأعضاء توضع في الفترة ما بين الاسبوع الرابع والثامن، ولهذا تعتبر هذه الفترة هي الفترة الحرجة التي تكون فيها الجينات أشدّ ما تكون قابلية للتغيير، ولذا فإنّ تأثير الأدوية والعقاقير أو الأشعة أو الحميات مثل الحصبة الألمانية تكون في أوجّ تأثيرها على الجنين في هذه الفترة.

ولذا ينبغي أن تجتنب الحامل التعرّض لتأثيرات الأدوية والعقاقير والأشعّة والأمراض المعدية مثل الحصبة الألمانية طوال فترة الحمل بصورة عامّة، وفي هذه الفترة الحرجة «الاسبوع الرابع حتّى الاسبوع الثامن» على وجه الخصوص.

هذا هو ملخّص للتقسيم القرآني لنموّ الجنين الإنساني:

١ ـ نطفة «الاسبوع الأول منذ التلقيح».

٢ ـ علقة «الاسبوع الثاني والثالث».

٣ ـ مضغة «الاسبوع الرابع».

٤ ـ العظام والعضلات «الاسبوع الخامس والسادس والسابع».

٥ ـ التصوير «الاسبوع الخامس والسادس والسابع».

٦ ـ التسوية والتعديل.

٧ ـ نفخ الروح.

أمّا تقسيم جهابذة علم الأجنّة فيتّفق فيما يأتي:

مرحلة البويضة الملقّحة «النطفة الأمشاج» ويختلفون بعد ذلك، فمنهم من يجعل من الاسبوع الثاني حتّى الاسبوع الثامن مرحلة واحدة، هي مرحلة

الحميل، ويقسّم بعد ذلك ما يحدث في مرحلة الحميل إلى:

أ ـ الانغراز «العلقـة».

ب ـ الجنين ذو الطبقتيـن.

ج ـ مرحلة الجنين ذي الثلاث طبقات.

د ـ الكتل البدنية.

هـ ـ تكوّن الأعضاء.

ومنهم من يقسّم هذه المرحلة إلى ثلاثة أقسام فقط هي:

أ ـ مرحله العلوق، وتستمرّ حتّى تـظهر أغشـية الجـنين والدورة الدمـوية. وتتمايز طبقات اللوح الجنيني إلى ثلاث طبقات، وتدّعى أحياناً هذه المرحلة ما قبل الكتل البدنية ...وهذا التقسيم ينطبق تماماً على مرحلة العلقة، لأنها تبدأ بعد العلوق مباشرةً، وتنتهي بظهور الكتل البدنية «أي المضغة» ومدة هذه المـرحـلة اسبوعان فقط «أي منذ نهاية الاسبوع الأول للتلقيح وحتّى نهاية الاسبوع الثالث للتلقيح».

ب ـ مرحلة الكتل البدنية، ولا يختلف علماء علم الأجنّة في هذه المرحلة، وهي تبدأ من اليوم العشرين أو الواحد والعشرين وتنتهي باليوم الثلاثيـن، وهذه المرحلة حسب التعريف القرآني هي مرحلة المضغـة.

ج ـ مرحلة تكوّن الأعضاء، وتبدأ من الاسبوع الرابع وتنتهي في الاسـبوع الثامن، وهي الفترة الحرجة بالنسبة للجينات لقابليّتها الشديدة للتأثّر بعوامل البيئة في هذه الفترة.

وفي هذه المرحلة نرى التقسيم القرآني يربط بين المضغة التـي تـتحوّل إلى عظام فيكسوها اللحم ﴿فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً﴾[1]. كما يربط التقسيم القرآني التصوير والتسوية والتعديل بما يحدث بعد المضغة ﴿ثم أنشأناه

(١) المؤمنون: ١٤.

خلقاً آخر فتبارك الله أحسنُ الخالقين﴾[١].

وتشرحها الأحاديث النبوية الشريفة: إذا مرّ بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملَكاً فصوّرها ... وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ... ثم قال: يا ربّ ذكر أم أُنثى؟ فيقضي ربّك ما يشاء ويكتبـه الملَك. أخرجه مسلـم.

ففي نهاية الاسبوع السادس تكون النطفة قد بلغت أوجّ نشاطها في تكوين هذه الأعضاء، وهي قمّة المرحلة الحرجة الممتدّة مـن الاسـبوع الرابـع وحـتّى الاسبوع الثامن، فيوجّهها التوجيه الذي أمر به، ونحن نعلم أنّ المبيض والخصية لا يمكن التعرّف عليهما قبل دخول الملَك، فإذا دخل الملَك أمكـن فـي الاسـبوع السابع والثامن التعرّف على الغدّة التناسلية أخصية هي أم مبيض.

وفي حديث آخر رواه مسلم أيضاً: أنّ النطفة إذا استقرّت في الرحم أربعين ليلة ثمّ يتسوّر عليها الملَك فيقول: يا رب ذكر أم أُنثى؟ وفـي رواية «لبضع وأربعين ليلة» وفي رواية أُخرى «لخمس وأربعين ليلة».

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله تعالى عنه: وكّل الله بالرحم ملَكاً يقول: أي ربّ نطفة، أي ربّ علقة، أي ربّ مضغة. فإذا أراد الله أن يقضي خلقاً قال: يا ربّ أذكر أم أُنثى؟ أشقيّ أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أُمّـه».

وهكذا نرى من مجموع الآيات والأحاديث أنَّ قمّة تكوين الأعضاء وتحديد الذكورة والأُنوثة أعلى مستوى الغدد التناسلية إنما يكون في الأربعين، وهذه هي الفترة التي تسمّى فترة تكوين الأعضاء، وهي تبدأ من الاسبوع الرابع وتنتهي في الاسبوع الثامن، وتكون في أوجّ نشاطها في الاسبوع السادس.

الاسبوع الخامس إلى الاسبوع الثامن:

وفي هذه الفترة يستطيل الحميل من ٥ ملّيمترات إلى ٢٣ ملّيمتراً، وتظهر عليه

---

(١) المؤمنـون: ١٤.

علامات خارجية كثيرة واضحة، وإن كان بعضها لم يكتمل في هذه الفترة. وأول مظاهر هذه الفترة:

١ ـ اعتدال ملحوظ في تقوّس الجسم عامّـة.

٢ ـ بدء تكوين الوجـه.

٣ ـ ظهور واضـح لبدء العينين والأُذنين والأنف.

٤ ـ بدء ظهور أزرار الطرفين العلويّين فالطرفين السفليّين وربما تقسيمهما.

٥ ـ صغر نسبي في الذيل.

٦ ـ استطالة العنق البدني ليكون الحبل السرّي.

٧ ـ انبعاج واضـح للكبد والقلب يرى على سطح الجسـم.

٨ ـ تحديد منطقة العنق وظهور الأقواس البلعومية على جانبيها.

٩ ـ أعضاء التناسل الظاهرة «الغدد التناسلية» وإن كانت غير الجنس يمكـن تمييزها في نهاية هذه الفترة.

وفي نهاية الاسبوع الثامن تكاد تكـون الأعـضاء الداخـلية كـلّها اتّـخذت موضعها ... وإن بدت تشكّل أولي. وتعتبر في نهاية الاسبوع الثامن اكتمال دورة الحميل وبدء دورة الجنين، فإذا ما انتهت مرحلة تكوين الأعضاء فـإنّ مـرحـلة الحميل تكون قد انتهت ...وبدأت مرحلة أُخرى تعرف لدى علماء علم الأجنّـة بمرحلة الجنين ...وهي تبدأ من بدايـة الشهر الثالث وتنتهي بالولادة.

ولا يكون في هذه المرحلة إلّا تخليق يسير، وأبرز سمة في هذه المرحلة هي ظاهرة النموّ المتّصل السريع، وتستمرّ هذه المرحـلة حـتّى تـنتهي بآلام الطـلق والولادة !.

ومما تقدّم يبدو أنّ التقسيم القرآني لمراحل نموّ الجنين الإنساني أدقّ مـن وصف علم الأجنّة ...وإن كان التقسيم القرآني يتفق مع كثير من هذه التـقسيمات ـ كالنطفة، المضغة، العظام، واللحم ـ ولا يركّز بعض علماء علم الأجنّة على مرحلة العلقة كما يركّز عليها التقسيم القرآنـي...وكـذلك مـرحـلة التـصوير والتسـوية

والتعديل. أمّا نفخ الروح فهو لا يزال في طيّ الغيب الذي لا يعلمه: ﴿إلّا اللهُ وَٱلرَّاسِخُونَ في العِلمِ يَقُولُونَ آمَنّا بِهِ كُلٌّ مِن عِندِ رَبِّنَا﴾[1].

وسنعرض بإيجاز لما يحدث في فترة الجنين، أي منذ الشهر الثالث إلى الولادة.

الشهر الثالث: «الشهر القمري يحسب ٢٨ يوماً».

□ تبدو العنق ظاهرة.

□ يلتصق الجفنان.

□ تتّخذ الأطراف شكلاً قريباً من شكلها عند الولادة.

□ بداية ظهور الأظافر في أطراف الأصابع.

□ يتميّز غشاء المذرق إلى جزءيه: البولي التناسلي والشرجي بوضوح.

□ تبدو أجزاء القلب بوضوح ويكون له غشاء التكوّر.

□ تتميّز أجسام الفقرات وتظهر بعض مراكز التمعظم.

□ ينمو الطحال والغدّتان فوق الكليتين «الغدّتان الكظريتان».

□ يبلغ طول الجنين من الرأس إلى العقب ٩٠ ملّيمتراً.

الشهر الرابع:

□ يظهر على الرأس ثمّ الجسم وبر «أي شعر خفيف».

□ ويكتمل تكوين المشيمة.

□ تتميّز أعضاء التناسل الظاهرة فيبدو القضيب في الغلام والشفران والفرج في البنت.

□ تتراجع الأمعاء التي كانت بمنطقة الحبل السرّي إلى تجويف البطن.

الشهر الخامس:

□ يغطّي الزغب الرأس والجسم بأكمله، وتحسّ الأمّ أول حركات الجنين

(١) آل عمران: ٧.

وذلك في بداية هذا الشهر.

- □ تدخل الأمعاء بأكملها من منطقة السرّة إلى تجويف البطن.
- □ يبدأ ظهور الشعر لفروة الرأس والحاجبيـن.
- □ ينمو القلب والكبد.
- □ يبدأ الرحم والمهبل نموّهما.

الشهـر السادس:

- □ يزداد السائل الأُمنيوس «الرهل» وهو كيس السلى زيادة كبيرة.
- □ تظهر طبقة دهنية تغطّي بشرة الجنين.
- □ ينمو الجنين في هذا الشهر أكثر من أيّ فترة أُخرى، إذ يصل طول الرأس العقبي ٣٥٠ ملّيمتراً ووزنـه كيلو غراماً كامـلاً.

الشهـر السابع:

- □ يصل السائل الأمنيوس إلى غايته ويبلغ لتراً ونصف لتر، ثمّ يقلّ في الأشهر التالية.
- □ يمتلئ الجسم بازدياد الطبقة الدهنيـة تحت الجلد.
- □ نموّ كبير للجهاز العصبي والهضمي وتكتمـل أجزاؤهما.

الشهـر الثامـن:

- □ تتّخذ السرّة موضعها المحدّد في المولود.
- □ يظهر الجسم مليئاً، ويزول الوبر «الزغـب».
- □ يغزر شعر فروة الرأس.
- □ يغطّي جسم الجنين بطبقة دهنيه متجبّنـة.
- □ تصل الأظافر إلى أطراف الأصابـع.

الشهـر التـاسـع:

- □ يزداد النموّ واستدارة الجسم وامتلاؤه، وينفتـح الجفنان، وتنزل الخصيتان

إلى كيس الصفن خارج الجسم.

الشهر العاشر:

□ يكتمل النموّ ـ وخاصة في الرئتين ـ وتنمو الجيوب الهوائية.

وإذا ذكرنا عشرة أشهر للجنين فالمقصود عشرة اشهر قمرية بالحساب هو ٢٨ يوماً فقط، فتكون الجملة ٢٨٠ يوماً، ويبدأ حسابها منذ بداية آخر حيضة حاضتها المرأة الحامل، وبذلك يكون العمر الحقيقي للجنين هو ٢٨٠ ـ ١٤ = ٢٦٦ يوماً فقط، وهذا هو العمر التقديري للجنين منذ لحظة التلقيح وبما أنّ الحساب منذ لحظة التلقيح ـ أو حتى من الاتّصال الجنسي الذي حصل بعده الحمل ـ عسير جدّاً. فإنّ الحساب في الغالب لا يكون منذ بداية آخر حيضة حاضتها الأُمّ.

القرآن الكريم وأمراض الوراثة

لعلّ القرآن الكريم كان أول من أشار إلى انتقال الأمراض الوراثية إلى الأبناء وإلى الجنين، فكان أول دليل وأول برهان منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، في حين كان العلم ما يزال يحبو، ولم يتمّ اكتشاف ذلك إلّا حديثاً وبعد تجارب طويلة.

قال الله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَومَهَا تَحمِلُهُ قَالُوا يَا مَريَمُ لَقَد جِئْتِ شَيئاً فَرِيّاً * يَا أُختَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ أمرءَ سَوْءٍ وَمَا كَانَت أُمُّكِ بَغِيّاً﴾[1]. هنا قد تعجّب قوم مريم كيف تأتي أمراً فريّاً وأبوها لم يكن امرءَ سوء وأمُّها لم تكن بغيّاً !! فبيّن الله تعالى في هذه الآية أنّه حتّى الأخلاق تنتقل بالوراثة، وأنّ الأب إن كان غير حميد والأُمّ إن كانت فاسدة نقلا إلى ذرّيتهما سوء الأخلاق بالتوريث.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحُ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً *

---

(١) مريم: ٢٧ و ٢٨.

إِنَّكَ إِن تَذَرْهُم يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾[1] ومعنى ذلك أنّ الخلَف يأخذ من السلَف صفاتهم بالوراثـة، فهؤلاء الكفّار الفجّار لا يلدون إلّا أمـثالهم، ولا جَرَم أنّ الولد على سرِّ أبيه، ولا تلد الحيّة إلّا حيّة.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا إِن يَسرِق فَقَد سَرَقَ أَخٌ لَـهُ مِن قَبلُ﴾[2] أي إن سرق فذلك شيء وراثيّ فيه، سبق أن سرق أخ له من قبل. فالسرقة وراثة في هذا الفرع، وهذا بطبيعة الحال على حسب اعتقادهم، وإن كان لا يطابق الواقـع فيما يتعلّق بسيدنا يوسف عليه السلام.

هذا وفي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله ما يؤيّد تأثير المرأة في توريث أخلاقها لأنسالها، فيقول صلى الله عليه وآله في الحديث الشريف: «تزوَّجوا من الحـجر الصـالح فـإنّ العِرقَ دسّاس». ويقول في حديث آخر: «تخيّروا لنطفكم ولا تضعوها في غـير الأكفاء». فنرى في هذيـن الحديثين الشريفين أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد وضع أُسس علم الوراثة، فحذّر من زواج المرأة إن لم تكن من الحجر الصالح، أو لم تكن من الأكفاء، لأنَّ العِرقَ دسّاس ينقل إلى النسل ما فيها من خير وما فيها من شر.

وحقّاً إن تكن المرأة سيّئة الخُلق ورثت بويضتها نطفة الرجل فيخرج الجنين كأُمّه سيّئ الخُلق، وإن تكن غير كفء بأن تكون ضعيفة العقل أو ذات بله فتنقل بويضتها وراثة البله والجنون وغير ذلك من الأمراض إلى نسلها.

ولذلك أمر الرسول صلى الله عليه وآله باختيار المرأة ذات الدين والخلق، فقال صلى الله عليه وآله في حديث آخر: تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها. فاظفر بذات الدين تربت يداك، فإنّ النسل سيرث منها خلقها فيكون ملَكاً رحيماً إن صلحت، وشيطاناً رجيماً إن فسدت، وهي مرآة أبنائها، وهم صورة مصغّرة منهـا، وفـضّل الرسول صلى الله عليه وآله دينها وخُلُقها. وهذه وجهة نظر الدين فـي الوراثـة مـن الأبـوين، وسنرى بعد ذلك رأي الطبّ في ذلك.

---

(١) نـوح: ٢٦ و ٢٧. (٢) يوسـف: ٧٧.

الطــبّ والوراثـة:

يقول الطـبّ: إنّ الجنين يعتمد في خلقته وتكوينه على نوع الحيوان المنوي في الرجل ونوع البويضة في المرأة، فيخرج الولد يشبه الأبوين جسماً وعقلاً، فإن اختلف عنهما كان موضع غرابـة وشذوذ، وهذه قاعدة.

وقانون «ماندل» يقول بأنّ هناك وحدات تمثّل صفات خاصّة موجودة في الحيوان المنوي وفي البويضة، وهذه الوحدات تنتقل بعضها أو كلّها إلى النسـل، وعندما تتّحد وحدات الأبوين المـختلفة مع بـعضها بـاتّحاد الحـيوان المـنوي والبويضة تتغلّب وحدة على الأُخرى، أو بمعنى آخر قد تطغى إحدى خـواصّ الوحدات من إحداهما على الأُخرى في الذرّيـة. ولنضرب لذلك مـثـلاً يسـهل علينا فهم هذه النظرية.

إذا توالد خنزيران برّيان ـ وقد اختير الخـنزيران لسـهولة عـمل التـجارب عليهما في المعامل ـ أحدهما «الذكر أو الأُنثى» أبيض اللون، والثاني أسود، كان أوّل نسل منهما أسود اللون كأحد الأبوين، وذلك لأنّ اللون الأسود يطغي ويمسح اللون الأبيض، وليس معنى ذلك أن يذهب اللون الأبيض إلى غير رجعة، فإنّ هذا النسل سوف ينتج إذا تناسل نسـلاً بعضه أسود وبعضه أبيض، وقد وجد أنّ ثلاثة أرباع النسل في هذه الحالة أسود كأحد الأجداد السود، والربـع أبـيض كـالجدّ الأبيض.

ومن هذا المثال السابق ندرك كيف يطغى اللون الأسود في الإرث التناسلي، فكذلك الخُلق الفاسد يطغى على الخُلق الحسن، كما طغى اللون القـاتم الأسـود على الأبيض. فإن كان أحد الأبوين شرّير الخُلق نشأ النسل أكثر ميـلاً إلى الفساد وجرى ذلك في أنســال متعاقبة، ينشأ بعضهم إن لم يكن كلّهم وقد التوت طُرُقهم وسقطت مروءاتهم وضلّت عقولهـم.

وهناك أمثلة من واقع الحياة وسجلّ الأطباع، ولنبدأ بذكر إرث الجنين من الأب.

بدأت أُسرة بأكملها ـ وهي أسرة «جيوكسي» في نيويورك ـ برجل كانت مهنته صيد السمك، وكان شرّيراً فاسد الأخلاق، نزّاعاً إلى الشرّ ميّالا إلى الاستهتار، كما كان كسولاً في عمله خاملاً في مهنته، وقد ولد في سنة ١٧٢٠ م ورُزق بخمس بنات فتزوّجن فأتين في ستة أنسال متعاقبة بحوالي ١٢٠٠ شخص بما فيهم مائتان ضُمّوا إلى هذه الأُسرة برابطة الزواج، وقد عرف تاريخ ٥٤٠ منهم تمام المعرفة، وعرف عن ٥٠٠ آخرين جزء من تاريخهم، فكانوا بين أشخاص التزموا مهنة التسوّل وعاشوا في ملاجئ الإحسان وبين رجال ونساء فاسدين، وأكثر من نصف النساء عاهرات، وبعضهم حذق أساليب الإجرام، وتفنّن في الاحتيال والنهب والسرقة والقتل.

ولم يعثر في سجلّ هذه الأُسرة من بداية تاريخها على واحد قد تعلّم في مدرسة أو تخرّج في جامعة، ولكن وجد فيها عشرون شخصاً قد تعلّموا صناعات مختلفة، ولكن أين تعلّموها؟ لقد تعلّموها بين جدران السجون، وسبب هذا النسل الفاسد كلّه ليس إلّا رجلاً واحداً فاسداً، قد لقّحت نطفته الفاسدة المرأة، فنقلت إلى بويضتها الفساد فورث البنات والبنين الشرّ.

هذا مثل طبّي أوردَته كتبُ الطبّ، وأثبتت كيف نشأ النسل فاسداً كأبيه، وقد سبقه القرآن الكريم فقال: ﴿فأتَت بِهِ قَومَهَا تَحمِلُهُ قَالُوا يَا مَريَمُ لَقَد جِئتِ شَيئاً فَرِيّاً * يَا أُختَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمرَءَ سَوءٍ وَمَا كَانَت أُمُّـكِ بَغِيّاً﴾[1].

إنّ إدمان الخمور هو مرض عائلات بأسرها، وإنّ عدواه لتنقل إلى الذرّية بالتوريث ثمّ بالتقليد، فإنّ مرض الخمور أسوأ مرض للذرّية يقتدونه. ثمّ إنّ المخ يتأثّر بالخمور، فيصبح مدمنها ضعيف العقل لا يبرم أمراً ولا يعي شيئاً.

---

(١) مريم: ٢٧ و ٢٨.

فالخمور تسمّم خلايا الجسم، ولا سيّما المـجموعة العـصبية مـنه، وتـؤثّر فـي الحيوانات المنوية فتفسد «بروتوبلازمها» وتشوهّـه، فينشأ النسل كذلك مريضاً ضعيف المـخّ.

وليس فساد النطفة من الخمر مقصوراً على أنسال نسل ضعيف المخّ أو فاسد الأخلاق، بل إنها تسبّب أمراضاً أُخرى في ذرّيات مدمن الخمور. وما أمـراض الفساد الباهي والشهوة الضالّة كمرض «السـاديزم» و «المـاسوشيزم» إلّا نـتيجة ذلك.

وهذه الأمراض الوراثية هي علامة نقص في المخّ وضعف في الإرادة ونزوع إلى الجريمـة. وما هذا النزوع للجريمة إلّا مرض عقلي، فكما أنّـه لا يوجد فاصل حقيقي بين حدّي العقل والجنون فكذلك لا يوجد فـاصل حـقيقي بـين حـدّي الجريمة والجنون. فإنّه لتوجد أنواع من الجرائـم غريزية في الإنسان لا يمكن أن تميّز من السفـه أو انحـلال المخّ أو الجنون، حتّى أنـّه من الصعب تقرير عـلاج أصحاب هذه الجـرائـم، هـل يكـون بـين جـدران السـجون ؟ أو فـوق أسـرّة المستشفيات؟

إرث الجنين التناسلـي من الأُمّ:

١ ـ أثبت الطبّ أنّ للبويضة تأثيراً كبيراً في تكوين الجنين، فالبويضة تنتـج طفلاً مشوّه الخلقة. وقد ذكر الدكتور «هيجار» حالة سـيّدة اسـتؤصل لهـا أحـد المبيضيـن اللذيـن يفرزان البويضات، وذلك لوجود مرض خبيث فيه، ثـمّ بـعد ذلك حملت، ثمّ وضعت طفلاً مشوّه الخلقة، فعجب لذلك حيث قد أُزيل المبيض، فأعاد الفحص ووجد أنّ المبيض الثاني مصاب بـورم خـبيث، وقـد نشأ الطـفل مشوّهاً لمرض هذا المبيض الثاني.

ويذكر الدكتور «مارشـان» أنّ تأثير التركيب يتّضح أثره، ويبدو تأثيره في

البويضة من المبيض، لأنّه ينقل كلّ خواصّ الأُمّ إلى البويضة أثناء نموّها في الرحم.

٢ ـ وبويضة المرأة الفاسدة تنتج نسلاً فاسداً، فيصف «بويلمان» حالة أُسرة بدأت بفتاتين أنسلتهما امرأة شرّيرة سكّيرة، وأعقبتا في خمسة أو ستة أنسال ٨٣٤ شخصاً، عرف تاريخ ٧٠٩ منهم، وكانوا بين أولاد لقطاء وأطفال عاشوا في الملاجئ وأشخاص اتخذوا التسوّل مهنةً لهم، وبين نساء عاهرات ورجال أشرار ولصوص وقتلة.

٣ ـ وهذا مثل آخر عن بويضة المرأة ضعيفة العقل ذكره الدكتور «هنري جودارد» عن أُسرة بدأت برجل انجليزي طيّب العنصر قد تزوّج من فتاة ضعيفة العقل بلهاء، فرزقهما الله ولداً أبله. ثمّ تزوّج هذا بامرأة سليمة، فأنجبا خمسة أطفال ضعاف المخّ واثنين سليمين.

ثمّ تتبّع تاريخ هؤلاء فكانوا إمّا مرضى بأمراض عقلية نتيجة انحراف جهازهم التناسلي أو مدمني خمور أو مصابين بالصرع أو مجرمين أو ضعاف عقول، ولم يوجد فيهم بحالة اعتيادية إلّا عدد قليل جدّاً. وهناك أمراض تنتقل في النطفة وفي البويضة للنسل كمرض الزهري، فإن كان أحد الأبوين أو كلاهما مريضاً بالزهري انتقل هذا المرض إلى نسلهما في أجيال متعاقبة.

وهكذا كان رسولنا الكريم ﷺ أول من أشار إلى انتقال الأمراض بالوراثة: تخيّروا لنطفكم ولا تضعوها في غير الأكفاء.

إنّ الطبّ الحديث قد أثبت بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّ هناك بعض الأمراض تنتقل إلى الطفل بالوراثة، لأنّ الحالة الصحّية للأبوين والسيرة الطيّبة للعائلة لهما تأثير على الجنين وعلى صحّته وعلى وضعه الصحّي.

ولقد بدأ العالم الغربي يأخذ بمبدأ الفحص قبل الزواج لضمان أن يولد الأطفال وهم سالمون على قدر الإمكان من الأمراض الوراثية.

أمّا عن الأمراض الوراثيـة فلا يمكن حصرها وتعدادها، ولكنّنا نؤكّد ما أكّده العلم الحديث من أنّ الجنين يحمل صفات الوالدين وصفات العائلـة، وأنّ وضعه الصحّي يتأثّر بهذه الصفات... والأمراض الوراثية في معظمها هي الأمراض التي لا يمكن معالجتها بالوسائل الطبّية المتعارف عليها مثل: الهيموفيليا «صعوبة تخثّر الدم».

وفي بعض الأحيـان هناك من ينحدر مريضاً من أبٍ سليم. والجواب على ذلك: أنّ السبب في مرض الأجداد السابقين ـ كما رأينا فيما سبق الخنزير البرّي الأبيض ـ قد ينشأ في ثالث دور من التناسل من أبوين أسودين، راجعـاً إلى لون جدّه الأبيض الأول.

فالأب والأمّ والأجداد ينقشون صفاتهم في الأولاد، ويورثونهم ما فيهم من صفات، حتّى ليرى المولود كأنّه نسخة طبعت مرّة أُخرى من صحيفة لوح موجود، وقد نرى عائـلات قد انتشر في أفرادها جميعاً شمم الأنوف،وعائـلات غيرها قد تفشّى بينهم فطس الأُنوف، ونرى طول القامـة وضخامتها في أفـراد، وقـصرها وضآلتها في أفراد آخرين، ونرى عائلات قد انتقل فيها ـ نسلاً بعد نسل ـ مرض البول السكّري،وإلى عائلات غيرها قد انتقل فيها الميل إلى الانتحـار حـتّى أنّ أفرادها ليتشابهون في طريقة الانتحار.

وقد رأينا أنّ بني إسرائيل قد توارثوا حبّ جمـع المال ينتقل فيهم جيـلاً بعد جيل، وشاهدنا العرب الرُحَّل وقد كرهوا سكنى المدن وعـرفوا بـحبّ الخـيام، يتوارث الأبناء منهم ذلك عن الآباء. وهذه أدلّة على أنّ الوراثة تنتقل من الآباء إلى الأبناء، وأنّ هذه الوراثة جسمانية وعقلية ونفسيـة.

فكمـا تتجلّى في الجسم في خلقته وقامته وصورته وحركاتـه تتجلّى فـي العقل نموّه أو ضعفه وصحّته أو مرضه، وذكائه أو بلاهته، وتتجلّى كذلك في النفس في صفاتها وسجاياها وغرائزها وطباعهـا.

هذا وقد رأينا أنّ النطفة هي العامل في ذلك والناقل لما في الأب إلى نسله، وحيث إنّ الدين الإسلامي قد ألمّ من قبل بتأثير الوراثة. فقد عبَّر القرآن الكريم عن النطفة بأنّها أمشاج .. ﴿أَلاَ يَعلَمُ مَن خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾[1].

وكلّما تعمّقنا في الدراسة ظهرت لنا حقيقة قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيءٍ﴾[2] و ﴿ثُمَّ جَعَلنَاهُ نُطفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾[3].

والقرار المكين هو رحم المرأة، وحقّاً إنّه لقرار مكين، إذ تربطه ألياف قوية في موضعه، وتثبته أربطة متينة، ويحمله حوض من عظام متينة، ففوقه الحجبتان، وعلى جانبيه الحرقفتان، وعظام العجز والعصعص من خلف له ساندان، ثمّ إنّه ليغطّى من أعلى بالمثانة ومن أسفل بالمستقيم!!.

ثمّ نتأمّل كيف بُني جداره، وقوي إزاره، وتتالت عضلاته، وتكاثرت انحناءاته، وتجوّف داخله؟ ثمّ كيف تقسّم هيكله إلى جزء أقلّ حجماً من الأول، وهو عنق الرحم؟

ثمّ نتأمّل كيف تكوّن وتركّب من ثلاث طبقات: طبقة بريتونية، وطبقة أُخرى عضلية، وغشاء مخاطي؟ ثمّ كيف تكوّنت الطبقة العضلية أيضاً من ثلاث طبقات: فالأُولى سطحية ضفيرية الشكل، والثانية غائرة سميكة مكوّنة من ألياف حلقية، والثالثة موجودة بين هاتين الطبقتين وتتكوّن من ألياف طويلة؟

هذا هو الرحم ـ بيت الجنين ومعقله ـ لم يغفل الخالق العظيم أن يحصن بابه كما حصن حيطانه، حتّى يكون قراراً مكيناً وبيتاً كاملاً أميناً، فكيف حصن بابه؟

باب الرحم هو عنقه الذي يخرج منه دم الطمث في غير وقت، فماذا يحدث لهذا العنق بعد أن يحدث الحمل؟ يسدّ تجويفه بكتلة مخاطية صلبة تصير للعنق باباً، كما تغلق السدادة عنق الزجاجة، وتنشأ هذه السدادة من ازدياد أفراز الغدد العنقية، وليست هذه السدادة طبقة واحدة، بل هي ثلاث طبقات بعضها فوق

---

(١) الملك: ١٤. (٢) الأنعام: ٣٨. (٣) المؤمنون: ١٣.

بعـض. أو بمعنى آخر هذا الباب يتكوّن من ثلاثة أسوار خلف سور وقـايةً مـن الجراثيـم وضماناً من عدم تخطّيها.

أمّا السور الأول فقد وجد بالفحص أنّه يحوي جراثيم. أمّا السـور العـنقي الأوسط فهو خطّ الدفـاع الهامّ، حيث يحتوي على كرات بيضاء تفتك بما يصل إليها من جراثيـم. أمّا السور الثالث ـ وهو الأقرب إلى الجنين ـ فهو لذلك خالٍ من الجراثيـم بعد خطوط الدفـاع الأُولى.

وقد ثبت طبّياً أنّ جميع الجراثيـم لا تستطيع اختراق خطّ الدفاع الأوسط ما عدا جرثومـة السيلان، والسيلان مرض معدٍ ينتقل بالزنا، وكأنّ الله تعالى لم يشأ بذلك أن يحمي نسل الزاني. ويـؤكّـد ذلك عـدم اسـتقرار الأجـنّـة فـي أرحـام المصابات بمرض الزهري ـ وهو أيضاً من أمراض الزنا ـ وإن كان ينتقل بالتوريث التناسلي إلى الأبرياء والبريئات، فكم من امرأة صارت بالزهري سقاطاً.

هذا وإنّ الجنين نفسه وهو في الرحم قد لفّ في ثلاثـة أكسية، كساء من فوق كساء، وبينه وبين الأكسيـة ماء وقايةً للجنيـن يمنع عنه تأثير الصدمات ويحفظ فيه حـرارة جسمـه. قال تعالى: ﴿يَخلُقُكُم في بُطُونِ اُمَّهَاتِكُم خَلقاً مِن بَعدِ خَلقٍ في ظُلُماتٍ ثَلاَثٍ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُم لَـهُ المُلكُ لاَ إلهَ إلاّ هُوَ فَأنّى تُصرَفُون﴾[1].

هذا هو الرحم وقد تثبّت بالأربطة القويـة، وتحصّن بالعظام وتوثّق منه بنيانه وتحصّنـت أبوابه وجدرانـه، سور خلف سور، وسياج بعده سياج، ليكون للجنيـن قراراً، وفيه يتدرّج أطواراً، ويحميـه تسعة أشهر طوالاً.

ثُمَّ خَلَقنَا النُطفَةَ عَلَقَةً :

ولكي نفهم كيف تصير النطفة علقة في هذه الآية الكريمـة لابدّ من أن نشرح بإيجاز شيئاً من متعلّقات الرحم، وأنّهما البوقان والمبيضان وأربطتهما.

---

(١) الزمـر: ٦.

البـوق: قناة تصل تجويف الرحـم بـتجويف البـريتـون، وهـو مـعدّ لنـقل البويضة، ولمرور الحيوانات المنوية.

المبيض: هو عضو بيضاويّ الشكل موضـوع على جانب الرحم، وهو الذي ينتج البويضات للتناسل، ويفرز إفرازات تؤثّر على نظام النموّ لسائر الجسم. يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾[1] وهنا فليتأمّل الإنسان كلمة العطف «ثمَّ». فلم يقل سبحانه: خلقنا النطفة علقة، لأنّ هنا دوراً يحدث، وفترة تمضي قبل أن تتحوّل النطفة إلى علقـة !!.

فإنّ النطفة لتصير علقـة يجب أن يعيش منها حيوان واحد يمكنـه أن يصل إلى بويضـة المرأة في البوق، فإن لم يلتق بها حتّى الطرف الوحشي للـبوق فـلا يحصل حمل، فإنّ البويضة إذا تجاوزت هذا الطرف أُحيطت بمادّة زلالية تعوق بل تمنع دخول الحيوان المنوي فيها.

ثمّ إنّ هذه النطفة كثيراً مّا تموت في طريقها، فإن وصل أحدها إلى البويضة حصل الحمل، وإلّا فالنطفة تمنى، ثمّ تموت وتذوي، فلا يحصل الحمل. وهذا هو السبب في تأخّر الحمل عند بعض السيّدات، فقد تكون النطفة ضعيفة فلا تستطيع الوصول إلى البويضة فتموت في طريقها ولا تـبلغ هـدفها، أو قـد تكـون هـذه الحيوانات المنوية غير تامّـة النموّ، وقد يكون خالياً منها المني، كما هو الحال في مني بعض الناس، حيث يكون ذلك خلقة فـيهم، أو يكـون قـد أصـابهم مـرض الخصيتيـن، فيخرج المني خالياً من الحيوانات المنوية. وفي حالة خلوّ المني من الحيوانات المنوية لا يحدث حمل أبداً. وإذا التقى الحيوان المنوي بالبويضة في البوق فهناك طور يمرّ قبل حدوث الحمل أو قبل تحويل النطفة إلى علقـة.

كيـف يحصـل التلقيح ؟

إذا سرى الحيـوان المنوي في داخل الرحم جذب بجاذبية خاصّة إلى بويضة

---

(١) المؤمنون: ١٤.

المرأة، فيلتقيان في البوق، ثمّ يخترق رأسه البـويضة ويـنفصل ذيـله خـارجـاً ويختفي، ثمّ تدخل البويضة الملقّحة إلى الرحم مدفوعة بانقباض البوق ومساعدة أهداب البشرة المغطّية للطبقة المخاطية. وعند دخول البويضة الملقّحة إلى الرحم تأخذ طريقها في الغشاء المخاطي، ثمّ تعلّق فيه وتنغرس في داخلـه، ثـمّ يسـدّ مكان دخولها، فإذا نظرنا إلى هذه البويضة الملقّحـة في مكانها رأينا جسماً متعلّقاً في داخل الغشاء المخاطي للرحـم. وهذا دور العلقـة، ففي اللغة: أعـلق ظـفره بالشيء: أنشبه، فكذلك البويضة الملقّحة قد تعلّقت في داخل الغشاء المـخاطي للرحم واستمسكت فيه.

تفسير آخـر لدور العلقـة:

قال الله تعالى: ﴿اقرَأ باسمِ رَبّـكَ الَّذِي خَلَق * خَلَقَ الإنسَانَ مِن عَلَق﴾[1]. إثباتاً لوجود الحياة فيها، ولا سيّما أنّ الحيوان المنوي بـعد أن يـتّحد بـالبويضة يتطاول باستطالة حتّى يصبح شكله كالعلقـة تماماً، وهو في ذلك الوقت لا يمكن أن يرى بالعين المجرّدة ولا يميّز إلّا بالمجهر، فمن يستطيع أن ينبـئ عن ذلك إلّا ربّ العالميـن؟!. ومن يستطيـع أن يصون هذه العلقـة ـ وهي لا تُرى إلّا بالمجهر حديثاً ـ غير الخلّاق العظيـم؟!.

وهكذا يثبت المولى عزّوجلّ كيف تنقل خـواصّ الأب والأُمّ إلى الجـنين، وكيف أنّ خواصّ الوراثة تنتقل عبر الحيوان المنوي للذكر وبويضة الأُنثى، ولماذا حرّم الزنا في الإسـلام حفاظاً على النسل ومنعاً من انتقال الأمراض.

والسائل المنوي للذكر عبارة عن سائل رخوي أصفر له رائحـة خاصّة تنشأ من اختلاطه بإفرازات تأتي من الحويصـلات المنوية وغـدد كـوبر ومـن غـدّة البروستاتا وغدد مجرى البول، ولا سـيّما بـاختلاطه بـإفراز غـدّة البـروستاتا.

(١) العلـق: ١ و ٢.

والكّمية التي تخرج في الدفعة الواحدة تتراوح بين غرام وعشر غرامات، وهذا السائل يحتوي على الحيوانات المنوية وبعض خلايا بشرية وكريّات بيضاء، وبه موادّ زلاليّة ودهنية وبعض الأملاح. ويخرج من الدفعة الواحدة من هذه الحيوانات المنوية أكثر من ٢٢٠ مليوناً، ويحتاج حدوث الحمل إلى حيوان منوي واحد لا أكثر.

والحيوان المنوي لا يُرى بالعين المجرّدة، إذ يبلغ طوله ٥٥ ميكروناً، والميكرون واحد من ألف من الملّيمتر، ويتكوّن الحيوان المنوي من رأس وعنق وجسم وذيل.

يقول الله تعالى في سورة الإنسان: ﴿هَل أَتَى عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِن الدَّهرِ لم يَكُن شَيئاً مَذكُوراً * إنّا خَلَقنَا الإنسَانَ مِن نُطفَةٍ أمشَاجٍ نَبتَلِيهِ فَجَعَلنَاهُ سَمِيعاً بَصيراً﴾[1] ولقد فسّر المعتدلون النطفة الأمشاج بأنّها اختلاط من منيّ الرجل وماء المرأة الممتزجين المختلطين، وفي اللغة العربية: مشج الشيء أي خلطه.

والنطفة المقصود بها الحيوان المنوي، أي أنّها خاصّة بالرجل، ويقول عليه الصلاة والسلام: «تخيّروا لنطفكم ولا تضعوها في غير الأكفاء»!!.

إنّ الحيوان المنوي يتّحد بالبويضة، وينقل إليها صفات الذكر، فينشأ الجنين يشبه أباه، ويرث منه أمراضه. ولقد أثبت العلم الحديث بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّ نواة الحيوان المنوي ونواة البويضة هما الحاملان لخواصّ الوراثة، وذلك بانقسامهما إلى وحدات تسمّى «كروموزومات» وهي التي تنقل الإرث التناسلي.

فسبحان الله العظيم، إنّ العلم كلّما تقدّم ظهرت لنا نظرياته الحديثة ازداد إيماننا بالله عزّوجلّ وازداد إيماننا بالدين الإسلامي الحنيف والقرآن الكريم، وسبحان الله القائل: ﴿مَا فَرّطنَا في الكِتَابِ مِن شَيءٍ﴾[2].

إنّ جوانب عطاء القرآن الكريم ـ كتاب الله الخالد ـ للناس كثيرة ومتعدّدة،

---

(١) الانسان: ١ و ٢. (٢) الأنعام: ٣٨.

لا يحيط بها إنسان مهما استبحر في العلم وظنَّ أنَّه بلغ من المعرفة ذروتها، فكلّما بلغ الإنسان شأواً من المعرفـة وجد القرآن الكريم أبعد مدى، لأنّه كلام الله الذي أحاط بكلّ شيء علماً، يقول تعالى: ﴿ وَلَو أنّما في الأرضِ مِـن شَـجَرةٍ أقـلاَمٌ والبَحرُ يَمُدُّهُ مِن بَعدِهِ سَبعَةُ أبحُرٍ مَا نَفِدَت كَلِمَاتُ اللهِ﴾[1].. ويقول تعالى: ﴿وَمَـا أُوتِيتُم مِنَ العِلمِ إلاّ قليلاً﴾[2].

وكلّما تقدّم العلم وأعطت الأفكار أحسن ما وصـلت إليـه بـحوثها للـحياة والأحياء وجد الباحثون ما يحثّهم على الجدّ والتشمير إلى المزيد من الهدي إليه، وحصلوا عليه من مثل قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الحَمدُ للهِ سَيُرِيكُم آيَاتِهِ فَتَعرِفُونَهَا﴾[3] ويقول تعالى: ﴿سَنُرِيهم آيَاتِنَا في الآفَاقِ وَفي أنفُسِهِم حَتّى يَتَبَيّنَ لَهُم أنـّه الحَقُّ أوَلَمْ يَكفِ بِرَبِّكَ أنـّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيد﴾[4].

والقرآن الكريم يحدو قافلـة الذين يسبرون أغوار الكـائنات، ويـحاولون الإفادة من كلّ ما خلق الله في أرضه وسـمائـه، مـن حـيوان ونـبات، وجـماد وأفـلاك، وظواهر كونية، وفي بحار ومحيطـات، وأجواز فضاء، تميط الأيـام عنها لثاماً وراء لثـام، فيبدو العجب العجاب الذي نقول ويقول غيرنا أمامه: ﴿هذا خلقُ الله فأروني ماذا خلقَ الّذينَ من دونه﴾[5]. أجل ماذا خلقَ الذين من دونه؟ وآيات الله وكلماته ما تزال تتحدّى العُتـاة. ﴿إنّ الّذِينَ تَدعُونَ مِن دونِ اللهِ لَن يَـخلقُوا ذُبَاباً وَلَو اجتَمَعُوا لَـهُ وإن يَسلُبهُمُ الذُبَابُ شَيئاً لاَ يَستنقِذُوهُ مِنهُ ضَـعُفَ الطـالِبُ وَالمَطلُوبُ﴾[6] وماذا علم هؤلاء وهؤلاء؟ ﴿ولا يحيطون بشيءٍ من علمـه إلاّ بما شـاء﴾[7] [8].

(١) لقمـان: ٢٧. (٢) الإسراء: ٨٥. (٣) النمـل: ٩٣.
(٤) فصّلت: ٥٣. (٥) لقمـان: ١١. (٦) الحـجّ: ٧٣.
(٧) البقـرة: ٢٥٥. (٨) القرآن الكريم معجزة وتشريع: ص ١٨٥ ـ ٢١٣.

الرجـع والصـدع
وأثرهما الهائـل في تكييف الحيـاة

﴿والسماءِ ذاتِ الرجعِ * والأرضِ ذاتِ الصدْعِ﴾[1].

الفضاء المحيط بالأرض له خاصّية ارتجاعية، بسبب حـالتها الانـحنائيـة الحاصلة لها بفعل الجاذبة الأرضيـة. وهذا الوضـع الدائـري للسـماء هـو الذي أكسبها هذه الخاصّية الارتجاعية، فترجع كلّ ما يصعد إليها بشدّة ودفـق.

وقد فهم المفسّرون الأوائـل: أنّها ترجع البخار الصاعد إليها مطراً.

والآن فقد علمنا أنّ الأمواج اللاسلكية والتلفزيونية ترتدّ هي الأُخرى من السماء اذا أُرسلت إليها، بسبب انعكاسها على الطبقات العـليا الآيـونية. ولهـذا نستطيع أن نلتقط ما تذيعه المذاييـع البعيدة بعد انعكاسها ونستمع إليها ونشاهدها، ولولا ذلك لضاعت وتشتّتت ولم نعثر عليها. فالسماء أشبه بمرآة عاكسة ترجع ما يبثّ إليها، فهي السماء ذاتُ الرجـع.

وهي أيضاً تعكس الأشعّة الحرارية تحت الحـمراء فـترجـعـها الى الأرض لتدفئها.

* * *

والأرض تنصدع ليخرج منها النبات ونـافورات الغـاز الطـبيعي والبـترول وينابيع المياه الكبريتية ونفث البراكيـن، وتنصدع مع كلّ هزّة زلزاليـة.

---

(١) الطارق: ١١ و ١٢.

إنّا مرّةً بعد أُخرى نجد أنفسنا أمام ألفاظ دقيقة، جامعة في معانيها، ومختارة بدقّة، ومصفوفة بإحكام.

وإنّها علمٌ إلهيّ نافذ الى أعماق الطبيعة، وليست علماً بشرياً مقصوراً على مظاهر الكون دون الوصول الى أسرارها الكامنة.

فنحن أمام دقّةٍ وإعجاز وعلمٍ شامل.

* * *

ومعنى آخر لعلّه أدقّ وأنسب لما بين صدع الأرض ورجع السماء من رابطة طبيعية، وهو أن يكون المراد ـ والله العالم ـ تراجع السماء في دورة الفلك السنوية، بسبب انحراف محور الأرض في دورتها حول الشمس قليلاً عن العمود على مستوى فلكها (مدارها) ويكون انحرافه بزاوية قدرها (٥ / ٢٣ درجة) ولذلك تأثير على تغيّر مناخ الأرض بنتيجة دورانها حول الشمس، ويؤدّي الى ما نسمّيه بتبدّل الفصول الأربعة، فتتصدّع الأرض ـ أي تنفلق ـ لتخرج نباتها كلّما تراجعت السماء من فصل الى فصل، من شتاء الى ربيع فإلى صيف والى خريف. وهكذا بسبب هذا التراجع السماوي وتبدّل الفصول تتفجّر عيون الأرض وتتدفّق مياهها فتفيض بغزارة الأمطار، أو تغور وتنضب وتجدب الأرض اذا أمسكت السماء قطرها.

هكذا يرتبط اختلاف مناخ الأرض باختلاف حركات السماء ربطاً وثيقاً، ﴿صُنعَ اللهِ الذي أتْقن كلَّ شيءٍ﴾[1]. ﴿إنّا كلَّ شيء خَلقناهُ بقَدَر﴾[2].

* * *

ومعنى ثالث أعمق وأخفى هي: رجعة الاعتدالين في دورة تستغرق ٢٦ ألف سنة، ومن جرّائها يطرأ على الأرض كلّ ١٣ ألف سنة تغيير عظيم في المناخ وفي سطح القشرة الأرضية من صدوع وشقوق وفوالق وجيوب، بسبب ما يحصل من

(١) النمل: ٨٨. (٢) القمر: ٤٩.

تغيير في باطن الأرض من هذا التحوّل.

فقد دلّت البحوث الفلكية على أنّ القطب الشمالي الأرضي لا يتّجه اتّجاهاً ثابتاً الى نقطة في السماء (النجمة القطبية) بل له دورة حول دائرة متصوّرة في السماء قطرها الظاهري ١٨ متراً، وتستغرق هذه الدورة ٢٦ ألف سنة.

فاذا تصوّرنا مدّ المحور الأرضي عن القطب الشمالي الى الفضاء فالخطّ الوهمي هذا ينحرف عن النجمة القطبية اليوم درجةً ونصفاً، فاذا أخذ هذا الخطّ بالاقتراب من النجمة القطبية حتّى اذا ما بلغ الانحراف عنها بنصف درجة أخذ بالابتعاد عنها، وهكذا يبتعد ويقترب منها في دائرة تستغرق دورتها ستّاً وعشرين ألف سنة. وتسمّى هذه الظاهرة الفلكية عندهم برجعة الاعتدالين، مطابقة لما جاء في تعبير القرآن ﴿والسماء ذات الرجع﴾!.

وسبب هذه الدورة أو الرجعة تأثير جاذبتي الشمس والقمر، على القسم المنبعج من سطح الأرض (منطقة خطّ الاستواء الدائري)، كلّ منهما يحاول إرجاع الأرض الى مستوى مداره.

فتأخذ نقطة الاعتدال (وهي نقطة الملتقى بين مدار الأرض والدائرة الاستوائية المائلة عن المدار) بالرجوع من جرّاء ذلك.

ورجعة الاعتدالين هذه لها أثر عظيم على حياة سكّان الأرض، إذ أنّ من جرّائها يطرأ على الأرض كلّ ثلاثة عشر ألف سنة تغيير عظيم في المناخ، فنصف الكرة الشمالي يحلّ الصيف فيه الآن، والأرض أبعد ما تكون عن الشمس في دورتها حولها، ولذلك كان الصيف معتدلاً. وبالعكس في النصف الجنوبي الذي يكون الصيف فيها شديد الحرّ لقرب الشمس منها. والشتاء في النصف الشمالي الآن معتدلٌ أيضاً لقرب الشمس منه. والعكس في النصف الجنوبي.

لكن بعد ١٣ ألف سنة يتحوّل المناخان، ويكون اتّجاه الأرض عكس اتّجاهها اليوم، فالصيف في النصف الشمالي شديد الحرّ وهو معتدل في النصف الجنوبي،

والشتاء على العكس. كلّ ذلك بسبب تبديل المناخ الحاصل بارتجاع نقطة الاعتدالين.

وأمّا الصدع فهو ينشأ من هذا الرجع أيضاً، إذ أنّ دلائل العلم الحديث برهنت على أنّ الزلازل الأرضية تكون صدوعاً وشقوقاً وفوالق في القشرة، بعوامل طبيعية أهمّها رجعة الاعتدالين ـ أي عدم ثبات القطب الشمالي ـ ولا تزال الزلازل تنتاب الأرض كلّ يوم عشرات المرّات منها العنيفة وأكثرها الخفيفة، تسجّلها مقاييس الزلازل من حيث لا يشعر الانسان بها. وهذه الزلازل كثيراً مّا تُحدِث شقوقاً وصدوعاً في قشرة الأرض كما هو معروف.

قال رشيد رشدي (مدرّس الجغرافية في المدارس العالية ببغداد): انظر الى هذاالانسجام والاتّساق، والإعجاز في تعبير الرجع والصدع، والربط الوثيق الطبيعي بينهما، فلو حاول كل عباقرة البيان ونوابغ علوم الطبيعة ليأتوا بكلمتين تخلفان هاتين اللفظتين بمعناهما المتّسع الشامل لما قدروا ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً[1].

(١) بصائر جغرافية: ص ٢٧٠.

الفضاء يتمدّد
توسّعاً مطّرداً مع تضاعف الزمان

﴿والسماءَ بنيناها بأيدٍ وَإنّا لَمُوسِعُون﴾[1].

يقال: آد يأيد أيداً، وزان: باع يبيع بيعاً، بمعنى اشتدّ وقوي وصلب. أي بنينا السماء بقوّة وإحكام. والإيساع: الإكثار من الذهاب بالشيء في الجهات[2].

وفي هذه الآية الكريمة إشارة الى حقيقة كونية ظلّت خافية ثلاثة عشر قرناً، حتى ظهرت معالمها في القرن الرابع عشر للهجرة (أوائل القرن العشرين للميلاد) حيث عثر العلم على ظاهرة التوسّع في عالم النجوم.

إنّ فسحة الفضاء لا تزال تتمدّد وتتوسّع إطّراداً مع توالي الأحقاب، وإنّ مجموعة المجرّات غير العديدة تزداد تلوّياً وانفلاتاً عن بعضها، كأنّها في حركاتها اللولبية أو الحلزونية آخذة بالفرار من مراكز دوائرها ـ إن صحّ هذا التعبير ـ وبذلك تتوسّع دائرة الوجود المتكوّن من هذه الأنجم المتكدّسة في ضلوع المجرّات.

هذا مضافاً الى ما تتولّد من كواكب على إثر انفجارات هائلة في كرات عظيمة كادت تشكّل مجموعات شمسية في أحضان المجرّات .

عن ابن عبّاس في تفسير الآية: قادرون على خلق ما هو أعظم منها، أي سماوات هي أعظم ممّا ترون فوق رؤوسكم بأعين مجرّدة.

لكنّ الآية نصّت على فعليّة هذا الاتّساع ولا يزال، وليس مجرّد القدرة

---

(١) الذاريات: ٤٧.　　(٢) مجمع البيان: ج ٩ ص ١٦٠.

عليه فحسب[1].

وأوّل من تنبّه لمطّاطية السماء هو العالم الفلكي (آبه جرج لومتر) البلجيكي المتولّد سنة ١٨٩٤ م، وذلك عام ١٩٢٧م. كان أُستاذاً بجامعة (لوون) أبدى نظرته هذه ردّاً على نظرة (اينشتاين) المتوفّى سنة ١٩٥٥ م، المادّية المحضة للكون، كانت تفرض من شكل العالم اسطوانياً محدوداً من جوانبه الأربعة: اليمين واليسار والخلف والأمام. أمّا الفوق والتحت فلا نهائيان. هكذا كان (اينشتاين) يفرض شكل العالم.

أمّا (لومتر) فقد ردّ على هذه الفرضية التي تجعل من الكون مادّة هامدة لا حراك فيها. وكذا من فرضية (ويليام دوستير) المتوفّى سنة ١٩٣٤ م، القائلة بأنّ الكون حركة بلا مادّة.

قال لومتر: هاتان النظرتان لا تترجّح إحداهما على الأُخرى، بل المترجّح في النظر أنّ هذا الكون يتشكّل من مادّة وحركة، ومن ثمّ فإنّ له أمداً ونهاية، وإنّه يشبه أن يكون ككرة قديمة يتنفّخ فيزداد توسّعاً وتضخّماً، وينبسط شيئاً فشيئاً عبر الأحقاب.

ونُشرت فرضيته هذه في مجلّة علمية سنوية في (بروكسل) ولكنها سرعان ما تنوسيت ولم يعرها أحد باهتمام. غير أنّ الأرصاد الأمريكية في نفس الوقت كانت تعمل في الكشف عن هذه الحقيقة لترى فرضية (لومتر) من عالم الكون بعين شهود.

كان (وستوملون سليفر) مدير المرصد الأمريكي عام ١٩١٢ م قد أثبت أنّ أطيافاً جمّة من سحابيات حلزونية تتغيّر من جهاتها، وكأنّها بفضل القوّة الطاردة آخذة بالفرار والابتعاد من عالمنا الشمسي.

وحقيقة الفرار هذه لفتت من نظر الأُستاذ (هوبل أُودون پاول) فقام بجمع

---

(١) لظهور الوصف (المشتق) في فعلية النسبة، لا شأنيّتها.

أطياف السحابيات الحلزونية، والتي كانت جميعاً تؤيّد نظرية (سليفر)، فعمّم (هوبل) النظرية وأعلن أنّ السحابيات الحلزونية آخذة بالفرار جميعاً بعضها من بعض، وسرعة هذا الفرار تتناسب مع الفواصل بينها، وبذلك احتارت أنظار العلماء بالنسبة الى أجرام السماء.

وفي هذا الأثناء عثر الأُستاذ (ادينكتون) على مقال الأُستاذ (لومتر) الآنف، فجعل يطالعه بنهم وحرص شديد، معترفاً بصدق الحقيقة التي اكتشفها (لومتر) من ذي قبل، واتّضحت لديه ظاهرة التمدّد في عالم الكون. وكان ذلك تحوّلاً في فرضية عالم النجوم. ومن ثمّ قام (ادينكتون) عام ١٩٣١ م بتنظيم نظرة (التوسّع الكوني) وتقديمها الى جامعة لندن كحقيقة ثابتة من عالم الوجود.

وخلاصة النظرة: أنّ عالم المجرّات ـ وهي تفوق الملايين ـ قد تحوّلت من حالتها الهامدة التي كان يفرضها (اينشتاين) في شكلها المنحني الى صورة كرة دائرية تتضخّم وتتوسّع شيئاً فشيئاً، وسرعة هذا التوسّع تبلغ في شعاع مطّرد مع ضعف الزمان. ففي مدّة ملياردي عام (عمر الأرض) ازداد هذا الشعاع بضعف. وهي سرعة هائلة يطّرد معها توسّع الكون وانبساط هذا الفضاء الرحيب[١].

قال الأُستاذ رشيد رشدي: والكون برحبه الفسيح آخذٌ في التوسّع، كما برهن عليه التحقيق العلمي الحديث. ودلّت عليه الآية الكريمة: ﴿والسماءُ بنيناها بأيدٍ وإنّا لَمُوسِعُون﴾ ولام التأكيد هنا لا تحتاج الى توضيح في الدلالة على حتمية هذه التوسعة وعلى استمرارها في الأكوان والعوالم السماوية، فيالها من معجزة قرآنية[٢].

وقال سيّدنا الطباطبائي ﷺ: ومن المحتمل أن يكون «مُوسعون» من «أوسع في النفقة» أي كثّرها، فيكون المراد: توسعة خلق السماء، كما تميل إليه الأبحاث

---

(١) راجع تاريخ العلوم تأليف (پي‌ير روسو) ترجمة حسن صفّاري بالفارسية: ص ٨٦٢ ـ ٨٦٨.

(٢) بصائر جغرافية: ص ٣٠١.

الرياضيـة اليوم[١].

* * *

هذا، ولكن غالبية المفسّرين حملوا التوسعة هنا على الغنى والسعة في الرزق، كما في قوله تعالى: ﴿يُغنِ اللهُ كلّاً من سَعَتِه﴾[٢] وبقرينة قوله قبل ذلك ﴿وفي السماءِ رزقُكُم وَمَا تُوعَدون﴾[٣]. وقوله بعد ذلك: ﴿إنّ اللهَ هُوَ الرَزّاقُ ذُو القوّةِ المَتين﴾[٤].

نعم هو معنى مجازي للتوسعة، أخذاً من التوسعة في المكان للتوسعة في الحال. قال الراغب: السعة تقال في الأمكنة وفي الحال وفي الفعل، كالقدرة والجود ونحو ذلك. ففي المكان نحو قوله: ﴿إنّ أرضي واسعة﴾[٥]. وفي الحال قوله تعالى: ﴿لِينفِقَ ذُو سَعَةٍ مِن سَعَته﴾[٦].وقوله: ﴿عَلَى المُوسِعِ قَدَرُه﴾[٧] والوسع من القدرة ما يفضل عن قدر المكلّف. والوسع الجدة والطاقة ... وأوسع فلان: اذا كان له الغنى وصار ذا سعة.

هكذا روي عن الحسن في تفسير الآية، قال: وإنّا لموسعون الرزق على الخلق بالمطر[٨].

غير أنّ هذا المعنى المجازي للسعة يتوقّف على مجاز آخر في كلمة «ايد» مجازاً من القدرة الى النعمة، كما ذكره سيّدنا الطباطبائي، وهو مجاز شائع أيضاً.

وسياق الآية عرض لمظاهر قدرته تعالى في الخلق والتدبير، ﴿يَزيُد في الخَلقِ ما يَشاء﴾[٩] ومن ثمّ جاء تعقيبها بقوله: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنّي لَكُم مِنهُ نَذيرٌ مُبين﴾[١٠].

---

(١) تفسير الميزان: ج ١٨ ص ٤١٤.
(٢) النساء: ١٣٠.
(٣) الذاريات: ٢٢.
(٤) الذاريات: ٥٨.
(٥) العنكبوت: ٥٦.
(٦) الطلاق: ٧.
(٧) البقرة: ٢٣٦.
(٨) مجمع البيان: ج ٩ ص ١٦٠.
(٩) فاطر: ١.
(١٠) الذاريات: ٥٠.

تخلخل الهواء في أطباق السماء
وعندهـا تتضـايق الأنفاس

﴿ومَن يُرِد أن يُضِلَّهُ يَجعَل صَدرَهُ ضَيِّقاً
حَرَجـاً كأنـّمَا يصّعّدُ في السَمـاءِ﴾[1].

التصعّد : محاولة أمر شاقّ بتكلّف وتحرّج. يقال: تصعّده الأمرُ وتصاعده أي شقّ عليه وصعب.

وقد ذكر المفسّرون في معنى الآية وفي وجـه هذا التشبيه الغريب: أنّ من يرد الله خذلانه يتركه وشأنه، ومن ثَـمَّ يمنعه من فيض ألطافه. فيقسو قلبه وينبو عن قبول الحقّ وعن الاهتداء الى جادّة الصواب. فعنده يجد قلبه مطموساً مغلقـاً عليه أبواب الرحمة ومنافذ النور، فيجد نفسه في تضايق من الحـياة ويـتحرّج عـليه العيش. فحالة هكذا إنسـان متعوس، تشبه حالة من يحاول أمـراً مـمتنعاً عـليه فيتكلّفه من غير جدوى، كمحاولة الصعود الى أطباق السماء. ونتيجته ضيق النفس وكربة الصدر والرهق المُضني لا غير.

وهذا التفسير كان يصحّ لو كان التعبير «كأنـّما يصّعّد الى السماء» لكن التعبير «كأنّما يصّعّد في السماء».

ولفظة «التصعّد» تـعطي مـعنىً آخـر هـو: تـضايق النـفس وكـربة الصـدر والتحرّج، يقال: تصعّد نَفَسُه أي صَعُب عليه إخراجـه. كـما يـطلق «الصَـعُود» و

---

(١) الأنعـام: ١٢٥.

«الصَعَد» على العقبة الكؤودة، ويستعاران لكلّ أمر شاقّ متناهٍ في المشقّة. قال تعالى: ﴿ومَن يُعرِض عن ذِكرِ ربّهِ يَسلُكهُ عذاباً صَعَداً﴾[1]. أي شاقّاً أليماً للغاية. وقال: ﴿سأُرهقُه صَعُوداً﴾[2] قال الراغب: أي عَقَبة شاقّة.

إذاً فمعنى «كأنّما يصّعّدُ في السماء»: يكابد الأمرّين وتتضايق عليه الحياة، كمن يتضايق صدره ويتحرّج عليه التنفّس في جوّ خانق، لا يصل الهواء الكافي الى رئتيه، وهذا كمن يحاول العيشة في جوّ السماء المتخلخل الهواء.

وتوضيحاً لهذا الجانب من تفسير الآية وبيان وجه الشبه لا بدّ أن نمهّد مقدّمة.

* * *

كان المعتقد قديماً أنّ الهواء لا وزن له، حتّى سنة ١٦٤٣ م، التي قد تمّ فيها اختراع آلة المرواز (بارومتر) على يد (تروشللي). وبواسطتها عرف وزن الهواء. فتبيّن عند ذاك أنّ الهواء مكوّن من مجموعة من الغازات، لكلّ منها وزن معيّن. ويعرف وزن الهواء فوق أي نقطة معيّنة بالضغط الجوّي، ويمكن قياسه بواسطة البارومتر. وقد عرف الآن أنّ هذا الضغط عند مستوى البحر يعادل ثقل عمود من الزئبق، ارتفاعه حوالي ٧٦ سم مكعب. وهذا يساوي من الثقل زهاء ألف غرام على كل سانتيمتر مربّع.

وقدّر متوسّط ضغط الهواء على إنسان عند سطح البحر ما يعادل ١٤ طناً، أي ١٤ مليون غرام، لكنّه على ارتفاع ٥ كيلو مترات من سطح البحر، يقلّ هذا الوزن الى ٧ ملايين غرام، فكلّما ارتفعنا عن سطح البحر، ينقص الضغط، خصوصاً في طبقات عليا من الهواء، حيث تقلّ كثافة الهواء فيخفّ وزنه بنسبة هائلة.

والواقع أنّ نصف الغاز الهوائي ـ أي كثافة الغلاف الهوائي، سواء من حيث الوزن أم من حيث الضغط ـ يقع بين سطح البحر وارتفاع ٦ آلاف متر. كما أنّ ثلاثة

(١) الجن: ١٧. (٢) المدّثر: ١٧.

أرباعه تقع تحت مستوى ١٢٠ ألف متر.

أمّا اذا ارتفعنا الى مستوى ٨٠ ألف متر فلا يبقى فوق ذلك أكثر من (١/٢٠٠٠٠) من الوزن الكلّي للهواء.

وبالجملة إنّ الهواء يخفّ ضغطه كلّما ارتفعنا، فعلى ارتفاع ثلاثة أميال ونصف يكون الضغط نصف الضغط على سطح البحر، وعلى ارتفاع سبعة أميال يكون الربع، وعلى ارتفاع عشرة أميال يكون الثمن، ثمّ هو لا يطّرد.

ويرجع نقص الضغط بالارتفاع الى أُمور أهمّها:

١ ـ قلّة ارتفاع العمود الهوائي.

٢ ـ فسحة الفضاء في الطبقات العليا، ممّا يوجب تخلخلاً في الهواء.

٣ ـ ابتعادها عن قوّة جذب الأرض، التي كانت توجب ضغط الهواء في الطبقات السفلى الملاصقة للأرض خصوصاً.

٤ ـ توفّر الغازات الخفيفة في الطبقة العليا بدل توفّر الغازات الثقيلة في الطبقة السفلى. وعوامل أُخرى لا مجال لشرحها[١].

* * *

وبعد، فإنّ الهواء يضغط على أجسامنا من جميع الجوانب، سوى أنّنا لا نشعر بتأثيره ولا بثقله، وذلك لأنّ الدم الذي يجري في عروقنا يولّد ضغطاً على الجدران الداخلية للأوعية الدموية، وهذا الضغط الداخلي يوازن ضغط الهواء الواقع على أجسامنا فلا نشعر به. ولكن الناس الذين يتسلّقون الجبال العالية يحسّون بضيق في التنفّس بسبب اختلال التوازن بين ضغط الهواء الخارجي وضغط الدم.

وفي سنة ١٨٦٢ م حاول شخصان انكليزيان الصعود بمنطاد الى أقصى ارتفاع ممكن، فبلغا الى حدّ سبعة أميال، ولكنّهما عانيا مصاعب جمّة، فتعذّر

---

(١) راجع التفصيل في كتاب بصائر جغرافية لرشيد رشدي: ص ٢٠٥ ـ ٢٠٨.

تنفّسهما وأخذا ينزفان دماً من آذانـهما وعـيونهما وأنـفيهما وحـنجرتيهما، ولم يستطع العلماء في بادئ الأمر تشخيص السبب، حتى عرفوا فيما بعد أنّ الهواء يقلّ ضغطاً كلّما ارتفع، فهو في الطبقات العليا أقلّ ضغطاً منه في الطبقات السفلى[١].

وحيث إنّ الجلد الذي يغطّي الأعضاء المـذكورة (الأُذن والعـيـن والأنـف والحنجرة) رقيق جدّاً (وهو من نوع الأغشية الرقيـقة) تعذّر عليه مقاومة ضغط الدم عندما يقلّ ضغط الهواء الخارجي فيتدفّق الدم من خلالـه ويحصل النزيف، ويصعب التنفّس بسبب هذا الضغط الداخلي.

وبذلك يتعسّر تنفّس الإنسان ويتضايق صدره ويكاد يختنق كلّما أخذ فـي الارتفاع عن سطح البحر متوغّـلاً في الفضاء.

وذلك بسبب قلّة الهواء وتخلخلـه الموجب لانخفـاض الضغط الخـارجـي على الجسـم، ممّا يؤدّي لنقص معدّل مرور الهواء عبر الأسناخ الرئـوية الى الدم. كما يؤدّي انخفاض الضغط لتمدّد غازات المعدة والأمعاء التي تـدفع الحـجاب الحاجز للأعلى، فيضغط على الرئتين ويعيق تمدّدها. وكلّ ذلك يؤدّي لصعوبة في التنفّس، وضيق يزداد حرجاً كلّما صعد الإنسان عالياً، حتى أنّـه قد يحصل نزوف من الأنف أو الفم يؤدّي أيضاً للوفاة.

وعامل آخر: انخفاض نسبة الأُوكسجين في الارتفاعات العالية، فهي تعادل ٢١ ٪ تقريباً من الهواء فوق سطح الأرض، وتنعدم نهائيـاً في علو ٦٧ ميلاً. ويبلغ توتّر الأُوكسجين في الأسناخ الرئوية عند سطح البحر ١٠٠ ملم. ولا يزيد عـن ٢٥ملم في ارتفاع ٨ آلاف متر، حيث يفقد الإنسان وعيه بعد (٢ ـ ٣) دقائق ثمّ يموت[٢].

* * *

(١) مبادئ العلوم العامة: ص ٥٧.

(٢) مع الطبّ في القرآن الكريم: ص ٢١.

فسبحانه من عظيـم، في تعبيره هذا الدقيق: ﴿وَمَن يُرِد أن يُضِلَّهُ يَجعَل صَدرَهُ ضَيّقاً حَرَجاً كأنّما يَصّعّدُ في السماء﴾[1] فهو كمـن يـحسّ بـحرج فـي تـنفّسه، وتتضايق عليه الحياة بسبب ارتفاعه في طبقات عليا من الفضاء، وليس تشبيهاً بمـن يحاول الصعود الى السماء فيضيـق صدره بسبب العجز. هكـذا يكشف العلم عن أسرار هذا الكتاب المبيـن ﴿كتابٌ أنزلناهُ إليـكَ مُبَاركٌ لِيَدّبّروا آياتِهِ ولِيَتَذَكَّرَ أُولو الألبَـاب﴾[2].

(١) الأنعام: ١٢٥. (٢) ص : ٢٩.

الغلاف الهوائي حجابٌ حاجـز

﴿وَجَعَلنَا السَماءَ سَقفاً مَحفُوظاً

وَهُم عَن آياتِها مُعرِضُون﴾[1].

يحيط بالأرض غلافٌ هوائيّ سميك قد يبلغ ارتفاعه أكثر من ٣٥٠كيلومتراً. والهواء يتكوّن من غاز النتروجين بنسبة (٠٣ / ٧٨) والأُوكسجين (٩٩/٢٠) وثاني أُوكسيد الكاربون (٠٤/ ٠) وبخار الماء وغازات أُخرى (٩٤/٠).

وهذا الغلاف الهوائي بهذا السمك وبهذه النِسَب من تركيبه الغازي يكوّن تُرساً واقياً للأرض من قذائف السماء، وهي تترى على الأرض من كلّ جوانبها في عدد هائل (بالملايين يومياً).

وذلك أنّ الفضاء ملؤها الأحجار المتناثرة، على أثر تحطّم كواكب مندثرة، فتتكوّن منها مجموعات حجرية كثيرة مبعثرة دائرة حول الشمس. فإذا ما اقتربت الأرض في دورانها حول الشمس من إحدى هذه المجموعات (وكم لها من اقتراب منها يومياً) انجذبت اليها كميّات كبيرة من تلك الأحجار بفعل جاذبيّتها (جاذبيّة الأرض) فتنهال عليها وفرة من أحجار، منها الصغيرة ومنها الكبيرة، وتبلغ سرعة سقوطها ما بين (٥٠ و ٦٠) كيلو متراً في الثانية أو تزيد، وهي سرعة هائلة. فإذا دخلت الجوّ الأرضي احترّت فاتّقدت وهي تخترق الهواء، فرسمت وراءها

---

(١) الأنبياء: ٣٢.

خطّاً من نور لا يلبـث أن ينمحي.

لكنّها لاحتكاكها بأجزاء الهواء أثناء اختراقها الجوّ الأرضي، وبـتأثير غـاز الأُوكسجين وغاز الأزوت (ثاني أُوكسيد الكاربون) تحترق فور مرورها خلال الطبقات الجوّية العالية، فتتحوّل الى ذرّات رمادية تبقى عالقة في الهواء، مكوّنةً الغبار الكوني.

وهذه هي التي دُعيت بالشُهُب كأنّها شعلة متوهّجـة انقضّت من السماء، ولا تلبث أن تخفى وتذهب هباءً منثوراً.

ومنها ما يكون كبيراً جـدّاً فـينفجر عـند انـقضاضه، فـيُسمَع له دويّ كـبير، وتتساقط بعض أجزائه دون احتراقها على سطح الأرض، وتكـون مـادّتها مـن النيكل والحديد[١].

فانظر الى آثار رحمة الله، كيف يكون الجوّ الهوائي ترساً منيعاً يقي الأرض يوميّاً من ملاييـن القذائف السماوية التي تذوب قبل وصولها الى سطح الأرض، فلولا الغلاف الغازي للأرض، لتعذّرت الحياة على سطحها. فـقد أصـبح الهـواء بمجموعه ـ وخاصّة منه الأزوت ـ وقاءً عامّاً للأرض من هذه الرجوم. ولولا هذه الخاصّية والميزة لهذه الغازات لتعسّرت الحياة، كما في القمر الذي لا هواء له أو هو متخلخل جدّاً، ولذلك كان سطح القمر معروضاً كلّ يوم لقصف متلاحق لا ينفكّ عنه، لعدم وجود هواء في جوّه يقيـه شرّ هذه البليّة!.

﴿سُبحانَ الذي سخّر لنا هَذا وَمَا كُنّالهُ مُقرِنيـن﴾[٢].

---

(١) قد تكون القذيفـة ضخمـة بحيث تبلغ بضعة أطنان (كلّ طنّ ألف كيلو غرام) أو أكثر. فلا يمكن لغاز الأزوت وغيره من الغازات من تحطيمها، فتصل الى الأرض كحجر سماوي، مدمّرة مخرّبة. وقد عثروا على بعضها في أنحاء الأرض وخاصّة في المناطق غير المأهولة. أليس ذا عجيباً؟! (بصائر جغرافية: ص ١١٣ و ٢٩٠).

وتُحفظ في إحدى المتاحف كتلة من الحديد والنيكل زنتها ٦٠ طنّاً من النيازك الواقعة من السماء (مع الله في السماء: ص ١٦٥).

(٢) الزخـرف: ١٣.

ماسكـــة الفضـــاء

(الجاذبيّـة العامّـة)

﴿والسماءِ ذاتِ الحُبُـك﴾[1].

سئل الامام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام عن هذه الآيـة فقال: هي محبوكـة الى الأرض، وشبّك بين أصابعه، فقيل له: كيف تكون محبوكـة الى الأرض والله يقول: ﴿رَفَعَ السَماوَاتِ بغَيرِ عَمَدٍ ترونَها﴾[2].. قال عليه السلام: ثَمّ عَمَدٌ، ولكن لا ترونها[3].

والحبك: الشدّ الوثيق. وثوب محبوك وحبيـك: متين النسج جيّد الصنـع.

وتشبيك الأصابع: تداخل بعضها في البعض، ولعلّه كناية عن الوشائـج الوثيقة المترابطـة المتشابكة مع بعضها والماسكـة بأجرام الفضاء، فلا تتبعثر ولا تتهاوى، وحفظاً على التوازن القائم بين أجزاء الكون. وما هي إلّا قانون الجاذبية العامّـة، تفاعلت مع القوّة الطاردة فأمسكـت بعرى السماوات والأرض أن تزولا. وهكذا توازَنَ النظامُ وأمكنت الحياة على الأرض.

والعَمَد: هي الطاقات والقوى الحاكمة على نظام الكون، إنّـها مـوجودة قـد كشفها العلم ولمس آثارها وعثر على حصائلها التي هي الحياةُ والبقـاء.

فقد عثر العلم على أنّ الأجسام على نسب كتلها تتجاذب مع بعضها، وهـي التي جعلت الشمس تمسك بالأرض فتدور حولها. وهي التي جـعلت الشـمس تمسك بعطارد والزهرة وجعلتهما يدوران حولها، كـلّاً فـي مـداره. وهـي التـي

---

(١) الذاريـات: ٧. (٢) الرعـد: ٢. (٣) تفسير القمّي: ج ٢ ص ٣٢٨.

أمسكت بالمرّيخ والمشتري وزحل وجعلتها جميعاً حول الشمس تدور. وهكذا سائر الكواكب في سائر المنظومات، وسائر المنظومات في سائر المجرّات، بل وجميع المجرّات في عرض الفضاء اللامتناهي، هي التي عملت في إمساكهنّ دون التفرّق والاندثار ﴿ومن آيَاتِهِ أن تَقومَ السَماءُ والأرضُ بأمرِهِ﴾[1]. ﴿إنّ اللهَ يُمسِكُ السَمَاواتِ والأرضَ أن تَزُولا﴾[2].

هذه هي الجاذبية، قد جهل العلم بحقيقتها وعن نشأتها، سوى أنّه عرفها بحدودها وميزاتها وبعض آثارها. هذا فحسب، أمّا كيف حصلت وبمَ حصلت وما سببها وسرّها الكامن وراء ظاهرها ؟! فهذا شيء مجهول، وسيبقى مجهولاً الى الأبد، شأن سائر مكتشفات العلم التي بقيت خافية السرّ في طيّ الوجود.

ففي أواخر القرن السابع عشر للميلاد قام إسحاق نيوتن (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧) بتجارب، وعلى أثرها عثر على تجاذب عام بين الأجسام، قائم بنسبة كتلها طرديّاً، وبنسبة مربّع المسافة بينها عكسيّاً، وعرف بقانون (الجاذبية العامّة)[3].

وقانون الجاذبية، عبارة عن جذب كلّ كتلة لكلّ كتلة أُخرى[4] بقوّة تزداد بازدياد كتلتيهما، وتقلّ بنسبة مربّع المسافة بينهما.

ومعنى ذلك أنّه لو زادت المسافة الى الضعف وكانت الكتلة ثابتة لنقصت القوّة الجاذبة الى الربع. وإذا زادت المسافة ثلاث مرّات لنقصت الجاذبة بينهما الى ١/٩ ما كانت عليه. أمّا اذا كانت المسافة ثابتة فإنّ زيادة الكتلتين من شأنها أن تزيد القوة الجاذبة زيادة مطّردة.

* * *

وهل الجاذبية بنفسها قدرة فاعلة أم وراءها سرّ أخفى؟

---

(١) الروم: ٢٥. (٢) فاطر: ٤١. (٣) مبادئ العلوم: ص ١٨.

(٤) تعرّف كتلة كلّ جسم بأنّها كميّة المادّة المحتوية في ذلك الجسم. والكتلة هي التي تعيّن مقدار الوزن. وقد اصطلح على اتّخاذ الغرام وحدة علمية للمقارنة بين الكتل. والغرام: كتلة سنتمتر مكعّب من الماء المقطّر. (مبادئ العلوم: ص ٦ ـ ٧).

قال إسحاق نيوتن: ولا يمكن أن يتصوّر المرء أنّ المادّة الهامدة بدون تأثير من خارج المادّة هي العاملة بذاتها ...وأرجو أن لا ينسب ذلك إليّ ...أنّ القول بالجاذبية المادّية، وأنّها من خواصّ المادّة الجامدة، وأنّ لكلّ جسم أن يؤثر على جسم آخر، وبينهما الفراغ التام، قول لا يستقيم، ولا يصحّ أن يقول به من كانت عقليته عقلية علمية، بل الجاذبية لا بدّ أن يكون لها سبب وسيط يعمل وفقاً لقوانين أُخرى لا نعلمها، وهل ذاك الوسيط مادّي أوأمر متعالٍ عن المادّة؟ فهذا ما أتركه الى فهم القارئ وتقديره[1].

هذا ما يقوله مكتشف قانون الجاذبية، ينبّؤك عن خفاء سرّها، ولكنه مع ذلك فإنّ هذا القانون، رغم الجهل بحقيقته فإنّه ذو أهميّة كبرى في معرفة السرّ العلمي لحفظ التوازن العامّ بين أجزاء الكون، ولولاه لتبعثرت هباءً وانتشرت منثوراً في الفضاء.

وبذلك أيضاً يعلّل قانون الثقل والوزن، ولولاه لطارت الأجسام المستقرّة على الأرض أو المحيطة بها الى أبعاد السماء، ولما استقرّت المحيطات والبحار في مستقرّها، ولما بقي هواء محيط بالأرض، ولانعدمت الحياة على سطح الأرض بانعدام الهواء، وهكذا لم يبق سحاب معلّقاً في جوّ السماء، ولما أمطرت السماء على الأرض وجفّت المياه.

* * *

أمّا القوّة المركزية الطاردة فهي: أنّ كلّ جسم يدور حول مركز فإنّه يكتسب بذلك قوّة تدفعه في الابتعاد عن المركز وهي أيضاً بنسبة مربّع السرعة كلّما كانت الحركة الدورية أسرع فإنّ قوّة الطرد تزداد، وبالعكس تقلّ مع انخفاض السرعة. فلو كانت سرعة الدوران بمقياس ١٠ كيلومترات في الساعة فإنّ قوّة الدفع

---

(١) بصائر جغرافية: ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

الطاردة تكون حينذاك بمقياس ١٠ × ١٠ = ١٠٠ كيلومتر في الساعة[١].

ولكن يجب أن لا يتناسى المسافة بين النقطة المركزية والجسم الدائر، وكذا كتلته، فإنّ ذلك كلّه ذو تأثير على مبلغ قوّة الطرد.

قال الدكتور أحمد زكي: إنّ من المهمّ أن نعرف شيئاً عن علاقة هذه القوّة من حيث مقدارها بالدوران من حيث سرعته ومن حيث عدد لفّات الشيء الدائر، لهذا نقول: هب أنّ كرة من حديد وزنها ٧ أرطال تدور حول محور، وهي مرتبطة بالمحور بحبل طوله ٣ أقدام، وهب أنّ الكرة تلفّ لفّتين في الثانية حول هذا المحور، إذاً فالقوّة المركزية الطاردة التي بها تشدّ الكرة المحور (وهي تساوي القوّه الجاذبة التي يجذب بها المحور الكرة) تساوي بالتقريب: $\frac{١}{٤}$ ١×كتلة الحديد × طول الحبل (أي نصف قطر الدوران) × ٢ (عدد اللفّات في الثانية) = $\frac{١}{٤}$١ × ٣ × ٢ = ١٠٥ من الأرطال.

ومعنى هذا أنّه كلّما زادت سرعة اللفّ في الثانية زادت القوّة، وكلّما قلّت تلك قلّت هذه[٢].

* * *

ويستطرد الأستاذ رشيد رشدي قائلاً: إنّ القوّة الجاذبية للأرض تأخذ بالتناقص كلّما اتّجهنا نحو خطّ الاستواء، حيث تزداد سرعة الأرض المحورية التي تؤدّي الى زيادة القوّة الطاردة، وهذا النقص عند خطّ الاستواء يكون بنسبة ١/٢٨٩ ولمّا كان العدد ٢٨٩ مربّع العدد ١٧ والقوّة الطاردة تزداد بنسبة مربّع السرعة، فلو بلغت سرعة الأرض حول نفسها ١٧ مرّة عمّا عليها الآن لازدادت القوّة الطاردة ٢٨٩ مرّة عمّا هي عليها الآن، ولتساوت القوّة الطاردة مع القوّة الجاذبة للأرض، وحينذاك لآل ثقل الأجسام عند خطّ الاستواء الى صفر، أي فلن

(١) بصائر جغرافية: ص ٢٧٥.

(٢) مع الله في السماء: ص ٧٠ ـ ٧١.

يبقى عندئذٍ تأثير مّا للجاذبية الأرضية، ولاختلّ النظام الراهـن على وجه الأرض حيث تستحيل الحياة عليها[١].

إنّ محور الأرض الذي يصل بين قطبيها أصغر من محورها الذي عند خـطّ الاستواء. الأول طوله ٧٩٠٠ ميلاً، والثاني طوله ٧٩٢٦ ميـلاً، أي يزيد على الأول بـ(٢٦) ميـلاً، ولذلك برزت الأرض قليلاً عند بطنها (خطّ الاستواء) وتفرطحت عند قطبيها.

والسبب في ذلك يعود الى حركة الأرض المحورية، فتفعل فيها القوّة المركزية الطاردة التي تفعل في كلّ جسم دائر. والأرض اليوم جامدة ولكنّها بالأمس كانت أكثر ليونـة، فلم تكن تقاوم تغييـرات تحصل في شكلها، كما هي تقاوم اليوم.

إنّ دورة الأرض المحورية لا تؤثّـر في جميع سطحها تأثيراً سواءً.إنّها عند خطّ الاستواء أكثر بُعداً من المركز عن خطّ العرض ٣٠ عـن عـرضها ٦٠ عـن عرضها ٩٠، أي عند القطب، لأنّ القطب لا يكاد يدور. ومن أجل هذا اشتدّ بروز الأرض قديماً، وهي ليّنـة عند خطّ الاستواء، وأخـذ يـقلّ تـدرّجاً، ذهـاباً الى القطبين. وبمقدار مّا خرجت الأرض ببطنها، دخلت عند الرأس والقدم.

لتفرطح الأرض ودورانها حول محورها، وأيضاً تـفاعل القـوّتين الجـاذبة والطاردة، نتائج كثيرة وخطيرة.

منها: أنّ الأشياء توزن عند القطبين أكبر ممّا توزن عند خطّ الاستواء. وبلفظ علمي: الكتلة الواحدة اذا نقلناها من خطّ الاستواء الى القطب فهي تزداد ثـقـلاً كلّما سرنا في هذا الطريق، لأنّ الثقل أو الوزن ما هو إلّا قوّة جذب الأرض بجرمها العظيم، ما على سطحها من أشياء.

وقوّة الجاذبية تتناسب تناسباً عكسياً مع مـربّـع المسـافة بـين الشـيئيـن المتجاذبين وجاذبية الأرض متركّزة في مركزها، وتنقص كلّما بعُدت الأشياء عن

---

(١) بصائر جغرافيـة: ٢٧٥.

هذا المركز. والكتلة عند القطب أقرب الى مركز الأرض منها وهي عند خطّ الاستواء.

وعامل آخر يؤثّر في اختلاف هذا الوزن وفي قوّة هذا الانجذاب، ذلك قوّة الأرض المركزية الطاردة تحاول أن تطرد ما على الأرض بفعل دورانها، تحاول أن تقذف بها بعيداً. وأثر هذه القوّة الطاردة على الأشياء على عكس القوّة الجاذبة. ومن ثمّ فإنّ الطاردة تضعف من الجاذبة وتنقص منها، والقوّة الطاردة فاعلة أكثر فعلها عند الاستواء، ومعدومة عند القطبين، لأنّهما لا يدوران حول المركز.

فهذا العامل الجديد يخفّ بالأوزان عند خطّ الاستواء، وهو لا يؤثّر عند القطبين .فتفرطح الأرض ودورانها يفعلان في الأجسام على سطح الارض، ويفعلان معاً: يزيدان الشدّ معاً، أو ينقصان منه معاً. وهذا الاختلاف يكون بنسبة ١/٢٨٩، أي أنّ جسماً مّا نزنه عند القطب (نقيس مقدار شدّ الأرض له) فنجد أنّ وزنه ٢٩٠ رطلاً ـ مثلاً ـ ثمّ نعيد وزنه عند الاستواء فنجد أنّ وزنه نقص رطلاً، أي صار ٢٨٩ رطلاً. ولا يكون ذلك بالميزان ذي الكفّتين طبعاً، لأنّه في هذه الحالة تخفّ السنجة كما يخفّ الشيء الموزون، أو تزيد كما يزيد، وإنّما يكون الوزن بقياس مقدار الشدّ، فكان يستخدم ميزان ذو زنبورك، أو نحو ذلك.

* * *

ومن نتائج زيادة جاذبية الأرض عند القطبين: أنّ الأشياء تنزلق على سطحها الى حيث الجاذبية أكبر، فكان من المنتظر أن يسير ماء البحار والمحيطات الى القطبين انزلاقاً وانحداراً.

ولكن الأرض كرة تدور حول محورها فيكسبها دورانها هذا قوّة مركزية طاردة، يكون اتّجاهها عمودياً على المحور، وهي تعمل في عكس اتّجاه جاذبية الأرض، فهي تميل الى دفع تلك المياه من القطبين الى خطّ الاستواء.

وبذلك تعادلت القوّتان: قوّة الجاذبية وقوّة الدفع، وبذلك توزّعت المياه على سطح الأرض توزّعاً نعرفه عادلاً.

قال الدكتور أحمد زكي: وهذا تقدير لولاه لتغيّر وجه الأرض. فمن يا ترى قدّره، وقدّر هذه الدرجـة الدقيقة من الضبط والربط ؟![1].

فسبحان من ﴿خَلَق كلّ شَيْءٍ فقدَّرهُ تَقديراً﴾[2]. ﴿إنّا كـلّ شَـيْءٍ خَـلقناهُ بِقَدَر﴾[3].

(١) مع الله في السماء: ص ٧١ ـ ٧٥.
(٢) الفـرقـان: ٢.
(٣) القمـر: ٤٩.

الرتق والفتق
في السماوات والأرض

﴿أوَلَم يرَ الذِينَ كَفَروا أنّ السمَاواتِ والأرضَ كانتا رَتقاً فَفَتَقنَاهُما﴾[1].

﴿ثُمَّ استوى الى السماءِ وَهي دُخَانٌ فقال لَهَا وللأرضِ ائتيا طَوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين * فَقَضَاهُنَّ سَبعَ سَماوات﴾[2].

اختلف أهل التفسير في المراد من الرتق والفتق في الآية على قولين:

الأوّل: أنّ السماء كانت رتقاً مسدوداً نوافذُها لا تُمطر، والأرض ملتحماً مساربُها لا تُنبت، ففتقناهما: ﴿ففتحنا أبوابَ السماءِ بماءٍ مُنهَمِر﴾[3] ﴿ثُمَّ شَقَقنَا الأرضَ شَقّاً * فأنبتنَا فيها حبّاً﴾[4].

قال البيضاوي: وعليه فالمراد بالسماوات هي سماء الدنيا، وجمعها باعتبار الآفاق. أو لعلّ للسماوات بأسرها مدخلاً في الإمطار[5]. وكلاهما خلاف التحقيق والتعبير أيضاً.

قال الطبرسي: وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام[6].

أمّا الرواية عن أبي جعفر الباقر عليه السلام فهي التي يرويها الكليني في الروضة بإسناد مجهول[7] عن رجل شامي جاء الى الإمام فسأله عن الآية، فقال له الإمام: فلعلك تزعم أنّهما كانتا رتقاً ملتزقتين ففتقت إحداهما عن الأُخرى؟ قال: نعم.

---

(١) الأنبياء: ٣٠.
(٢) فصّلت: ١١ و ١٢.
(٣) القمر: ١١.
(٤) عبس: ٢٦ و ٢٧.
(٥) أنوار التنزيل: ج ٤ ص ٣٩.
(٦) مجمع البيان: ج ٧ ص ٤٥.
(٧) لوقوع محمّد بن داود في الطريق.

قال: استغفر ربّك، فإنّ قول الله جلّ وعزّ: «كانتـا رتقـاً» يقول: كانت السماء رتقاً لا تنزل المطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت الحبّ، فلمّا خلق الله تبارك وتعالى الخلق ... فتق السماء بالمطر والأرض بنبـات الحبّ ...[١].

وأيضاً عـن أبـي الربـيع ـ وهـو أيـضاً مـجهول ـ قـال: حـججنا مـع أبـي جعفر عليه السلام في العامّ الذي حجّ فيها هشام بن عبد الملك، وكان معه نافع مولى عمر ابن الخطّاب ... فجاء نافع الى الإمام وسأله عن هـذه الآيـة، فـقال: ... وكـانت السماوات رتقاً لا تمطر شيئاً، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت شيئاً، فلمّا أن تاب الله على آدم أمر السماء فتفطّرت بالغمام ثمّ أمرها فأرخت عزاليها (هي فم المزادة)، ثمّ أمر الأرض فأنبتت الأشجار وأثمرت الثمار وتفتّقت بـالأنهار، فكـان ذلك رتقها وهذا فتقها[٢].

وأمّا الرواية عن أبي عبد الله عليه السلام فهي نفس الرواية الثـانية، رواهـا القـمّي والاسناد إليه مقطوع ـ وأبدَل من نافع بالأبرش الكلبي، فجاء الى أبي عبد الله عليه السلام وسألـه عن الآية فقال: هو كما وصف نفسه ـ الى أن قال: ـ وكانتا مرتوقتيـن ليس لهما أبواب، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبـات[٣].

قال المجلسيّ العظيـم: وهذا خلاف ما أُثر عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: أنّ المراد بالفتق جعل الفُرَج بين كل من السماوات والأرض[٤] وسنتعرّض له إن شاء الله.

* * *

الثاني ـ وهو المعروف قديماً وحديثاً ـ: أنّ السماوات والأرض كانتا رتقاً أي ذاتي رتق وهو الضمّ والالتحـام، أي كـانتا شـيئاً واحـداً وحـقيقة مـتّحدة، ففتقناهما بالتنويع والتمييز.

---

(١) الكـافي: ج ٨ ص ٩٥ رقم ٦٧.

(٢) الكافي: ج ٨ ص ١٢٠ رقم ٩٣ وفي نسخ الروضة «وتفهّقت» بدل «وتـفتّقت» ولعـلّ مـا أثبتناه هو الصحيح.

(٣) تفسير القمّي: ج ٢ ص ٧٠.

(٤) مرآة العقول: ج ٢٥ ص ٢٣٢ ط حديثـة وج ٤ ص ٢٩٤ ط قديمـة.

قال الرازي: كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين، ففصل الله بينهما ورفع السماء الى حيث هي وأقرّ الأرض. وهو قول قتادة وسعيد بن جبير، ورواية عكرمة عن ابن عبّاس.

ولأبي مسلم الإصفهاني رأي أسدّ، قال: يجوز أن يراد بالفتق الإيجاد والإظهار، كقوله تعالى ﴿فاطر السماوات والأرض﴾...فأخبر عن الإيجاد بلفظ الفتق، وعن الحال قبل الايجاد بلفظ الرتق[١].

وفي كثير من الآيات إشارة الى هذا المعنى، منها ما جاء بلفظ « فَطَر »[٢] أو « فاطر »[٣] فإنّ الفطر وإن كان المراد به الخلق والإبداع لكنّه بعناية فصله الى الوجود الخاص، بحدوده وأبعاده، بعد أن كان مندكّاً في الوجود الكلّي الشامل، لا ميز فيه ولا تحديد.

وهذا كما يفصّل الخيّاط البزّة الواحدة الى قمصان وأثواب. وكما يفعل الفخّار بالطينة أشكالاً من الآنية والجرار. فالكلّ مندمج في الأصل الواحد، وإنّما يخرجها الى الوجود فاعلُ الصوَر والأشكال.

* * *

وهذا المعنى هو الذي جاء في كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال ـ في خلق العالم ـ: ثمّ أنشأ سبحانه فتق الأجواء، وشقّ الارجاء، وسكائك الهواء ـ الى أن قال في خلق الملائكة: ـ ثمّ فتق ما بين السماوات العُلىٰ، فملأهنّ أطواراً من ملائكته[٤].

وقال ـ في عجيب صنعة الكون ـ: ففتقها سبع سماوات بعد ارتتاقها[٥].

---

(١) التفسير الكبير: ج ٢٢ ص ١٦٣. (٢) الأنعام: ٧٩، الأنبياء: ٥٦.

(٣) في ستّ آيات: الأنعام: ١٤، ويوسف: ١٠١، وإبراهيم: ١٠، وفاطر: ١، والزمر: ٤٦، والشورى: ١١.

(٤) أولى خطبة من نهج البلاغة. والسكائك: جمع سكاكة ـ بالضمّ ـ وهي الهواء الملاقي لعنان السماء. (٥) الخطبة رقم ٢١١ ص ٣٢٨ بيروت.

وهذا هو الذي أشارت إليه الآية الكريمة في سورة فصّلت: ﴿ثمّ استوى الى السماء وهي دُخَانٌ فقال لها وللأرض ٱئتيا طوعاً أو كَرهاً قالتا أَتَينا طـائِعين * فقضاهنّ سَبعَ سَماوات﴾[١].

فالدخَان ـ وهي المادّة الأُولى لخلق السماوات ـ هو الأصل؛ ومنه تفرّعـت السماوات العُلى وخرجت الى الوجود. وقوله «ائتيـا» كناية عن الأمر بالتكوين. ﴿إنّما أمره إذا أراد شيئـاً أن يقول له كُن فيـكون﴾[٢].

قوله: « فقضاهُنّ سَبعَ سماوات » يدلّ على سبق مادّتهنّ عـلى وجـودهنّ، فأفاض عليهنّ الصوَر المائزة بينهـنّ .

ويدلّ عليه أيضاً قوله في سورة النازعات: ﴿رَفَعَ سَمكَها فَسَوّاها﴾[٣]. فـقد سواهنّ برفع سمكهنّ، كنايةً عن تمدّد جوانبها لتأخذ شكلها الخاص.

* * *

ولعلّـك تقول: هلّاكان قوله تعالى: ﴿وَجَعلنَا مِنَ المَاءِ كُـلَّ شَيءٍ حيّ﴾ عقيب قوله ﴿.. كانتا رتقاً ففتقناهما ..﴾ قرينة راجحـة لإرادة المعنى الأول من الآيـة؟

قلت: مظاهر أربعة من مظاهر الكون جاءت هنا من سورة الأنبياء (الآيـات رقم ٣٠ ـ ٣٣) مترادفة مع بعضها البعض، تلك آيات عظمته تـعالى فـي الخـلق وجليل قدرته في التدبير، كـلّ ظاهرة آية برأسها مستقلّة في حقيقتها وفي تكوينها وفي دلالتها على عظمة الكون.

أولاً: رتق السماوات والأرض وفتقهما.

ثانياً: كون الماء منشأ الحياة كلّها.

ثالثاً: جعل الرواسي في الأرض لتحول دون ميدانها.

رابعاً: الغلاف الهوائي جنّة واقية للأرض عـن الخـراب وزوال الحـياة عـن سطحها.

---

(١) فصّـلت: ١١ و ١٢. (٢) يس: ٨٢. (٣) النازعـات: ٢٨.

وكلّ واحدة منها آية تدلّ على أنّه واحد، وهم عن آياتها معرضون. وعليه فكما أنّ جعل الجبال أوتاداً لا مساس له بمسألة الفتق والرتق كذلك جعل الماء منشأ الحياة كلّها، سوى أنّ الجميع آيات ربّ العالمين.

وقد بحثنا عن الآيات الثلاث الأُخرى كلّاً في مجاله.

* * *

ونظرة تفرّع الموجودات من أصل واحد فتقاً بعد رتق نظرة قديمة، حدّث بها التوراة في أصل التكوين أيضاً. قال الإمام الرازي ـ في تأويل قوله تعالى «أوَلم يَر الذين كفروا» ـ: كانت اليهود والنصارى ومن يليهم من المشركين عالمين بذلك، فإنّه جاء في التوراة: إنّ الله تعالى خلق جوهرة، ثمّ نظر إليها بعين الهيبة فصارت ماءً، ثمّ خلق السماوات والأرض منها وفتق بينها[1].

قال الأُستاذ الطنطاوي: لم تظهر هذه العلوم ـ عن أصل السماوات والأرض بهذه الصورة التي كشفت النقاب عن قسم وفير من إعجاز القرآن العلمي ـ إلّا على يد من كفروا بدين الاسلام، والمسلمون لا يعلمون إلّا من الفرنجة، فنحن نكتب ذلك عنهم، فصدق الله وجاءت المعجزات القرآنية تترى في عصر العلم[2].

وقد رجّح سيّدنا الطباطبائي هذا المعنى وقرّبه، قال: لا نزال نشاهد انفصال المركّبات الأرضية والجويّة بعضها من بعض، وانفصال أنواع النبات من الأرض، والحيوان من الحيوان، والإنسان من الإنسان. وظهور المنفصل بالانفصال في صوَر جديدة لها آثار وخواصّ جديدة، بعد ما كان متّصلاً بأصله الذي انفصل عنه، غير مميّز الوجود ولا ظاهر الأثر ولا بارز الحكم، فقد كانت هذه الفعليّات كامنة الوجود في القوّة، مودعة الذوات في المادّة، رتقاً من غير فتق، حتّى فتقت

---

(١) التفسير الكبير: ج ٢٢ ص ١٦٢. وهذه العبارة محذوفة من أول التوراة الحاضرة، وإنّما تبتدئ بما بعد خلق السماوات والأرض. والآية المذكورة ٣٠ من سورة الأنبياء.

(٢) تفسير الجواهر: ج ١٠ ص ١٩٩.

بعد الرتق، وظهرت بفعليّة ذواتها وآثارها.

والسماوات بأجرامها والأرض بجرمها حالهما حال سائر أنواع الموجودات التي لمسنا كينونات وجوداتها بروزاً وانهداماً، والمادّة نفس المـادّة، والأحكـام والقوانين السائدة على عالم الوجود سفـلاً وعلوّاً لا تختلف ولا تتخلّف. فتكرّر المواليد في المتناول المشهود يدلّنا على وقوع مثلها في الأجواء المتباعدة. وأنّ الجميع كانت يوماً رتقاً منضمّة بـعضها الى بـعض، ولم يكـن مـيّز بـين السـماء والأرض، ففتقها الله بتدبير وإحكام، ليظهر ما بكلٍ من فعلية وآثار.

وقد قرّبت الأبحاث العلمية الحديثة هذه النظرة، حيث أوضحت أنّ الأجرام الواقعـة تحت الحسّ مؤلّفة من عناصر معدودة مشتركة، ولكلّ منها بقاء محدود وعمر مؤجّـل وإن اختلفت بالطول والقصر.

هذا وأمّا إرادة الإمطار والإنبات من الرتق بعد الفتق، فهذا يخصّص البرهان على ذاتـه المقدّسة بهاتين الظاهرتين فحسب، بخلاف البـرهان عـلى التـقريب الأول[١].

* * *

وتقول النظرة الحديثة: إنّ الكون في أصله سَديم، جَمعُه سُدُم[٢]. والسـديم يُشبه سحابة من غاز وغبار، وأصحّ تعبير عنه ما جاء في القرآن: الدُخَـان. وقد يقع في أوسط السديم نجوم تشعّ فيه فتنيره، وتعرف هذه بـالسُدُم النـيّرة. ومـن السُدم «المعتم» ذلك أنّها تتألّف من غبار رقيق دقيق، صغرت حباته حتّى بلغت

(١) الميزان: ج ١٤ ص ٣٠٣.

(٢) والسديم: أصله الضُباب أو الرقيق منه. واستعير للمادّة الغازية الغبارية التي تكوّنت مـنها الأجرام السماوية. ويطلق عليها اسم «الأثيـر» وهو لفظ معرّب من أصل يوناني، يدلّ في مصطلح العلم القديم على مادّة الأجرام السماوية، وقد كان المعتقد أنها مادّة لطيفة للغاية لا تكوّن ولا تفسد. وسُمي بالعنصر الخامس، تمييزاً له من العناصر الأربعـة الخاضعة للـكون والفساد. (راجـع: «المصطلحـات العلمية والفنية» ملحق لسان العرب: ج ١ ص ٣٤٦).

قدر موجـات الضوء.

والسديم يغلب فيه الغاز فيكون نيّراً، ويغلب فيه الغبار فيكون مُعتماً.

والسُدُم من نيّرة ومعتمـة، ليس الذي بها من غاز وغبار إلّا ما تبقّى من خلق النجوم. إنّ نظرية الخلق تقول: إنّ المجرّة كانت من غاز وغبار. ومن هذين تكوّنت النجوم بالتكثّف، وبقيت لها بقية. ومن هذه البقية كانت السُدُم المعتمة التي نـرى مئات منها في المجرّة، نراها سوداء لأنّها حجبت ما وراءهـا من نجوم مضيئـة.

قال الدكتور أحمد زكي: ونظر العلماء في: كيف تكوّنت مجموعتنا الشمسية؟ وخرجوا بنظريات عدّة.

ومن أقدم هذه النظريات نظرية الفيلسوف الألماني «عمانويل كـنت» عـام ١٧٥٥ م، قال: إنّ المجموعة الشمسية كانت سديماً، كـانت ضـباباً مـن غـازات وعناصر، بعضها الثقيل وبعضها الخفيف. وينتـج عمّا بينها من اختلاف أن تنحدر العناصر الأثقل الى أواسط السديم، ويعارض ذلك رغبة الغـازات فـي التـمدّد. وينتج عن هذا دوران جانبي، فيأخذ السديم يدور دوران الرحى. وفـي القـلب تتولّد الشمس، ومن حولها من مادّة السديم تتولّد الكواكـب.

نظرية لها أخطاء علمية ظاهرة، يضيق المقام عن إيرادها.

ويأتي العالم الفرنسي «لابلاس» بنظريته عام ١٧٩٦ م، وهـو يـبيّنها عـلى نظرية «كنـت» ويقول: إنّ أصل المجموعة الشمسية سديم، ولكنـه نشأ وهو يدور كالرحى. وهو لم يتعرّض لـ: كيف أنّ هذا السديم يدور؟ وينكمـش السديم الدائر. ومعنى هذا سرعة تحدث في دورانه. فبهذا يقضي علم الحركة. ثـمّ هـو يـزداد سرعةً ودوراناً، حتى تتكـوّن قوّة طاردة تطرد أجزاء مـنه عـن مـركز الدوران، فتطير عن السديم أجزاء، تظلّ دائرة، فهذه هي الكواكـب.

نظرية بها إغراء وبها إقـناع ظـاهران، ولكـنّها لا تـصمد للـنقد ولا تـصمد للحساب، إنّها إن شاقت وصفاً وصمدت وصفاً وكيفاً لم تصمد تقديراً ولم تصمد كمّاً.

وينتهي العلماء الى أنّ الصعوبة في هذه النظريات وأمثالها أنها تحاول إنتاج الحركة الدوّارة من السديم نفسه، فتخرج النتائج غير مرضية، وتخرج لا تتّفق وحال الكواكب الجارية. وجب إذاً أن يهدف العلماء الى نظرية تأتي فيها قوّة الدوران من الخارج.

فزعموا أنّ نجماً يقترب من نجم، وكلاهما مائع، فكلاهما من غاز. ويجذب النجمان أحدهما الآخر، فتخرج من النجم الواحد انبعاجات يتحكّم في حركتها النجم الثاني وهو يمرّ. والانبعاجة يتغيّر موضعها من النجم الأول الذي هي منه تبعاً لموضع النجم الثاني العابر. فلو أنّ هذا النجم اقترب اقتراباً كافياً من النجم الأول لسلخ منه هذه الانبعاجة التي تدور مع دورانه. وهي إذا انسلخت فإمّا أن تلحق بهذا النجم الثاني الذي هو لا شكّ أعظم النجمين. أو يكون هذا النجم الثاني قد فات سريعاً، ففقد فعله في القطعة المنسلخة، فتغلب عليها وفعلت فيها جاذبية النجم الأول فأخذت تدور حوله، ثمّ هي تتقطّع قطعاً هي الكواكب.

ونظرية أُخرى تقول: إنّ النجم إذا اقترب من نجم اصطدم به اصطداماً، فتقطع أحدهما، وبردت القِطَع ودارت فكانت النجوم.

وغير هذه النظرية ثالثة فرابعة، وكلّها تنبئ على اقتراب نجم من نجم.

فإن صحّت هذه النظريات، فكم من مجموعة شمسية تحتمل أن تكون من جرّاء هذا؟

عدد غير كبير لا شكّ في هذا. والسبب في هذه القلّة هو قلّة احتمال اقتراب نجم من نجم. ذلك لأنّ النجوم متباعدة في الفضاء تباعداً كبيراً. إنّ أقرب نجم للشمس يبعد عنها ٢٥ مليون مليون ميل. إنّ الفضاء الكوني شيء هائل، ودرجة الاحتمال يحسبها الحاسبون، وحسبها «السيرجيمس جينز» فوجد أنّ اصدام نجم معيّن بنجم آخر يحتمل مرّة واحدة في كلّ ٦٠٠/٠٠٠ مليون مليون عام، واحتمال اقتراب نجم معيّن من نجم آخر يزيد على ذلك قليلاً.

ومن جانب آخر تتراءى لنا نظرية في تكوّن هذا الكون كلّه، بشموسه ونجومه. إنّ هذه النظرية تقول: إنّ الكون كلّه كان ذرّة واحدة هائلة ثمّ انفجرت، ومن انفجارها تكوّنت النجوم، والنجوم أخذت تتباعد، والكون لا يزال يتّسع الى اليوم وتتباعد نجومه.

فإن صحّ ذلك فالنجوم كانت في زمنٍ مّا قريباً بعضُها من بعض. فاحتمال تصادمها وتقاربها كان عند ذلك احتمالٌ كبير. وإذاً فاحتمال تكوّن المجموعات الشمسية احتمال كبير[١].

* * *

يقول الطنطاوي: هذه الآية من المعجزات، لأنّ هذا العلم لم يُعرف عند العرب ولا عند الأُمم المعاصرين لهم، وإنّما عرف في عصرنا الحاضر. فعليَّ أن أُعلن وأقول لهم: إنّ هذه معجزة واضحة في القرآن، فإنّ الله قد استدلّ بحسن صنعه وإتقانه على تفرّده بالقدرة والحكمة، إذ جعل الحرارة سبباً في حركات تلك العوالم التي كانت ناراً محترقة، ثمّ بواسطة هذه الدورات أزماناً برد ظاهر الشمس فانفصلت منه الأرض وغيرها من السيارات، وأرضنا منها، وكان هذا الحساب المدهش في سيرها والخلق البديع على ظهرها وإتقان كلّ شيء عليها. هكذا كان ذكره في القرآن مع جهل المسلمين وغير المسلمين من فُرس وروم وأُمم أُخرى بهذه النظرية التي لم تكن إلّا حديثاً معجزة مدهشة، فإنّ أهل أُوروبا وهم الكافرون بنبيّنا محمّد ﷺ عرفوا هذا الرأي، عرفوا ذلك بعقولهم، فالعقل البشري مستعدّ لمعرفة هذا من اتّباع الأسباب ومن درس العجائب في هذا الكون[٢].

* * *

(١) مع الله في السماء للدكتور أحمد زكي: ص ١٩١ وص ٢١٢ ـ ٢١٥. وراجع «مباني نجوم» ص ٢٩٠.

(٢) تفسير الجواهر: ج ١٠ ص ١٩٨.

هذا، وقد استسلم الشيخ الطنطاوي للنظرة الحديثة عن أصل الخلقة، وحاول التوفيق بينها وبين النصّ القرآني محاولة ظاهرها البتّ والقطع من الأمر.

لكنّا نقول ـ كما يقول سيّد قطب وقد أسلفنا شطراً من كلامه في صدر هذا الحقل ـ: ونحن لا نحاول أن نحمل النصّ القرآني المستيقن على نظرية غير مستيقنة، تُقبل اليوم وقد تُرفض غداً، لذلك لا نحاول أن نوفّق بين النصوص القرآنية والنظريات التي تسمّى علمية، وهي شيء آخر غير الحقائق العلمية الثابتة القابلة للتجربة، كتمدّد المعادن بالحرارة وتحوّل الماء بخاراً وتجمّده بالبرودة، ونحو ذلك، وهي شيء آخر غير النظريات العلمية.

إنّ القرآن ليس كتاب نظريات علمية ولم يجئ ليكون علماً تجريبياً كذلك، إنّما هو منهج للحياة كلّها، منهج لتقويم العقل ليعمل وينطلق في حدوده، دون أن يدخل في جزئيات وتفصيليات علمية بحتة، فهذا متروك للعقل بعد تقويمه وإطلاق سراحه في حدوده المضروبة.

نعم، قد يشير القرآن أحياناً الى حقائق كونية كهذه الحقيقة التي يقرّرها هنا: ﴿إنّ السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾[١]. ونحن نستيقن هذه الحقيقة لمجرّد ورودها في القرآن، وإن كنّا لا نعرف منه كيف كان فتق السماوات والأرض، أو فتق السماوات عن الأرض. ونتقبّل النظريات الفلكية التي لا تخالف هذه الحقيقة المجملة التي قرّرها القرآن، ولكنّا لا نجري بالنصّ القرآني وراء أيّة نظرية فلكية، ولا نطلب تصديقاً للقرآن في نظريات البشر، وهو حقيقة مستيقنة. وقصارى ما يقال: إنّ النظريات الفلكية القائمة اليوم لا تعارض المفهوم الإجمالي لهذا النصّ القرآني، السابق عليها بأجيال[٢].

* * *

(١) الأنبياء: ٣٠.

(٢) في ظلال القرآن: ج ٥ ص ٥٣٠ وراجع أيضاً ج ٧ منه ص ٢٢٤ ـ ٢٣٠.

وجاء في كتاب «مباني علم النجوم»: إنّ النجوم والكواكب السيّارة العظام إنّما وجدت على أثر تكاثف الغازات والغبارات الموجودة في الفضاء، وذلك بسبب التجاذب بين ذرّاتها. ولمّا كانت القوّة الجاذبة إنّما تنبعث من مراكز الأجسام وبذلك يحصل الانجذاب إليها، ومن ثمّ فإنّ الموجودات السماوية (المتحصّلة من تكاثف الغاز والغبار) تتقلّص وتنكمش نحو مراكزها، وبذلك تتكوّن كريّة الشكل بطبعها، إلّا اذا كانت المادّة المتكاثفة في حالة الدوران حول المركز، ففي هذه الحالة يحصل نوع تفرطح في طرفي محورها (القطبين) كما هو المشاهد في كرة الأرض وكذا في المشتري، المفرطحتين في جانبي قطبيهما قليلاً[١].

(١) مباني نجوم تأليف الأساتذة: استروو، ليندز، پيلانز. ترجمة الدكتور زمرّديان والدكتور حاجبي. من نشرة جامعة طهران رقم ١٧٠٥ الطبعة الثانية لسنة ١٣٦٤ هـ ش: ص ٩ فما بعد.

السُحب

تكوينها، تنويعها

﴿ويُنشِئُ السَحَابَ الثِقَال﴾[1].

مصطلحات علمية وُضعت وفق تعابيرالقرآن:

قال الدكتور محمّد جمال الدين الفندي : ذكر القرآن أنّ الرياح ـ ومنها الهواء الصاعد ـ هي التي تثير السحاب وتكوّنه. والقرآن حسب علمنا أول كتاب يقرّر تلك الحقيقة[2].

أمّا تكوين السُحب، فإنّها تتكوّن بتبريد الهواء تحت درجة الندى، فتقلّ قدرته على حمل بخار الماء، ويتحوّل هذا الأخير الى نقط من الماء أو الى بلّورات من الثلج، تبعاً لدرجة الحرارة السائدة.

ويتمّ تبريد الهواء في الطبيعة بعدّة طرق:

١ ـ التبريد الذاتي، أي تبريد الهواء بمجرّد انتشاره وتقليل الضغط الواقع عليه، ويحدث ذلك عندما يصعد الهواء الى طبقات عُليا من الجوّ يقلّ فيها الضغط، فينتشر ويبرد وتقلّ قدرته على حمل بخار الماء. ويتكاثف هذا الأخير الى نقطة من الماء، او الى بلّورة من الثلج.

وتلعب هذه العملية أهمّ دور في تكوين السُحب ونزول الامطار. إذ معدّل

---

(١) الرعد: ١٢. (٢) الله والكون: ص ١٧٣.

التبريد في الهواء الصاعد هو درجة سنتجراد لكلّ ١٠٠ مترٍ إذا لم يحدث التكاثف ٦٥ ٪ درجة اذا حدث التكاثف.

٢ ـ التبريد بالإشعاع الحراري أثناء الليل، وهو يـولّد الضـباب والشـابورة وبعض السحب الطبقية أو البساطيـة المنخفضـة.

٣ ـ التبريد بالمزج، يعني خلط هواء ساخن رطب بآخر بارد جافّ، بحيث تكون درجـة حرارة الخليط تحت نقطة الندى. فيتمّ التكاثف على هيأة ضباب، كما هو الحال عند اختـلاط كتل هواء تيّار الخليج الدافئ فـي شـمال المـحيط الأطلسي، ممّا جعل البحّارة يطلقون عليه اسم «بحر الظُلمات» وتَصوّروه مأوى الأشباح ومثوى الأرواح.

التقسيم الطبيعي للسُحـب:

السحب إمّا أن تنمو رأسيّاً وتشمخ كالجبال، وعندئـذٍ تسمّى «ركاميـة». وإمّا أن تنمو اُفقياً وتمتدّ كالبساط، وعندئـذٍ تسمّى «بساطيـة» أو «طبقيـة».

ويفرّق القرآن بين النوعين، فيسمّى النوع الأوّل ركامياً، والثاني بساطياً. فممّا جاءت الإشارة فيه الى النوع الأول قوله تعالى: ﴿أَلَم تَرَ أَنّ اللهَ يُزجي سَحاباً ثُمّ يُؤَلِّفُ بينَهُ ثُمّ يَجعلُهُ رُكاماً فترى الوَدقَ يَخرُجُ مِن خِـلالِه ويُنـزِّلُ مِن السماءِ من جِبال فيها من بَرَدٍ فَيُصيبُ بِهِ مَن يشاءُ ويَصرِفُهُ عَمّن يشاء﴾[1].

وجاءت الإشارة الى النوع الثاني في قوله تعالى: ﴿اللهُ الذي يُرسِلُ الرِيَاحَ فَتُثيرُ سَحاباً فيبسُطُهُ في السَماءِ كيفَ يَشاء﴾[2].

والسحاب الممطر لايعدو النوعين. والعرب تسمّي السحاب المـمطر بـاسم «المـزن». ولذلك فمن الوجهـة العلميـة هناك المزن الركامي والمزن البسـاطي (الطبقي). قال تعالى: ﴿أَفَرأيتُم الماءَ الذي تَشرَبُون * أَأَنتم أنزلتُمُوهُ مِنَ المُزنِ أم

(١) النـور: ٤٣. (٢) الـروم: ٤٨.

نَحنُ المُنزِلُون﴾[1].

السُحب الركامية:

والسُحب الركامية هي النوع الأهمّ من السُحب، لأنّها قد تمتدّ عمودياً (رأسياً) عبر (١٥) أو (٢٠) كيلومتراً، فتصل الى طبقات من الجوّ باردة جدّاً تنخفض فيها درجة الحرارة الى (٦٠) أو (٧٠) درجة مئوية تحت الصفر.

وبذلك يتكون (البَرَد) فِي أعالي تلك السحب. والمعروف علمياً أنّ نموّ البرد في أعالي السُحب الركامية يعطي انفصال شحنات أو طاقات كهربائية سالبة، وأنّه عندما يتساقط داخل السحابة ويصل في قاعدتها الى طبقات مرتفعة الحرارة فوق الصفر يذوب ذلك البرد أو يتميّع ويعطي انفصال شحنات كهربائية موجبة. وعندما لايقوى الهواء على عزلْ الشحنة السالبة العليا عن الشحنة الموجبة في أسفل يحدث التفريغ الكهربائي على هيأة برق. وينجم عن التسخين الشديد المفاجئ الذي يحدثه البرق أن يتمدّد الهواء فجأةً ويتمزّق مُحدثاً الرعد. وما جلجلة الرعد إلّا عملية طبيعية بسبب سلسلة الانعكاسات التي تحدث من قواعد السُحب لصوت الرعد الأصلي.

وقد يحدث في بعض العواصف أن يتكرّر حدوث البرق داخل السحابة ٤٠ مرّة في الدقيقة الواحدة. أمّا إذا حدث التفريغ الكهربائي بين السحابة وأيّ جسم مرتفع على سطح الأرض فإنّه يسمّى «صاعقة».

وتحدث عواصف الرعد في كافّة أرجاء الأرض ما عدا المناطق القطبية، حيث ضئالة حجم الهواء بالنسبة الى خطّ الاستواء.

وقد وجد بالحساب أنّ عدد عواصف الرعد التي تحدث في جوّ الأرض في يوم واحد يبلغ أكثر من ٤٠ ألفاً، أي بمتوسط قدره ١٨٠٠ عاصفة في الساعة. وتستهلك العاصفة في المتوسط نحو (٢ / ٢) مليون كيلو وات ساعة[2].

(١) الواقعة: ٦٨ و ٦٩ (٢) الله والكون: ص ١٤٦ ـ ١٦١.

التبخّـر والإشباع والتكاثف

﴿ألم ترَ أنّ الله يُزجي سحـاباً ثُمّ يُؤلّف بينـه ثمّ يجعله رُكاماً فترى الودق يخرج من خلاله﴾[1].

عوامل ثـلاثة لنزول المطـر:

لحصول المطر عوامل ثلاثة لا غيرها، اذا توفّرت لا بدّ من نزول المطر، واذا نقص عامل منها فلا إمكان لحصوله، وتلك العوامل هي:

١ ـ التبخّر، وهو عملية تحوّل ذرّات الماء الى البخار، ليـؤدّي الى تكـوين سحاب.

٢ ـ وصول الهواء المتحمّل للـبخار الى درجــة الإشـباع المـختلف حسب المنـاخ.

٣ ـ التكاثف، وهو ضدّ عملية التبخّر، ليتحوّل البخار الى ذرّات الماء.

وهذا الترتيب على التعاقب ممّا لا محيص عنه لتكوين المطر ونزوله، وهو من بديهيّات العلم المقطوع به والمفروغ عنه بلا ريب. وإليـك شرح هـذه العـوامـل باختصار:

(أولاً) التبخّر، وهو عملية تحوّل ذرات الماء الى البخار، وانتقاله الى الهواء، وذلك بتأثير حرارة الشمس على السطوح المائيـة المتوسّعة، كالمحيطات والبحار

---

(١) النـور: ٤٣.

والبحيرات والمستنقعات والأنهار، بل وحتّى السطوح الثلجيـة والجـليدية، بـل وحتّى على أوراق الأشجار والنباتات وخاصّة الغابات.

(ثانياً) الإشباع، وهو استمرار التبخّر حتى يبلغ حدّاً معيّناً، ويسمّى بدرجـة التشبّع، وتختلف حسب اختـلاف المناخ. فكلـما اختلفت درجة الحرارة اختلفت درجة التشبّع اللازمـة لتكوين الأمطار. فالهواء الحارّ في درجة التشـبّع يـحوي مقداراً من البخار أعظم ممّا يمكـن أن يحويه الهواء البارد. فكميّة الرطوبة التي تكفي للتشبّع في درجـة ١٥ م مثلاً لا تكفي للتشبّع في درجـة ٢٠ م. واذا كـان الهواء متشّبعاً قيل: إنّ نسبة رطوبتـه ١٠٠ ٪.

وبعبارة أوضـح: إنّه حيثما وجد الماء والهواء فإنّه يحدث تبادلٌ بين جُزيئات أحدهما مع الآخر، فتمرّ جزيئات الماء عن طريق التبخّر الى الهـواء، كـما تـمرّ جزيئات الهواء الى الماء. ولذلك يوجد دائماً مقدار من بخار الماء في الهواء، كما يوجد مقدار من الهواء في الماء.

واذا كان مقدار البخار الذي في الهواء قليـلاً فإنّ الجزيئات البخارية التـي تتصاعد من الماء تكون أكثر من جزيئات الهواء التي تمرّ الى الماء، وعلى ذلك فإنّ عملية التبخّر تستمر. ولكـن اذا كان مقدار ما في الهواء من البخار كثيراً فإنّ تبادل الجزيئات بين الماء والهواء يكون متساوياً، وفي هذه الحالة يقال: إنّ الهواء متشبّع بالبخار المائي، أو إنّه في درجة الإشباع، أي لا يستطيع أن يحمل أكثر ممّا هو معلّق به من البخار.

فدرجة الإشباع تتوقّف على التساوي والتعادل في تبادل جـزيئات المـاء والهواء والتآلف بينهما.

ومن ناحية أُخرى ـ ذات أهمّية كبرى ـ أنّ درجة التشبّع تتوقّف على ظاهرتين طبيعيّتين أُخريين، لا بدّ منهما في وصول الهواء الى حالة الإشباع الكافي:

الظاهرة الأُولى: هي التساوي في الضغط، فلبخار الماء المـتصاعـد ضـغط كما لبخار الهواء المتشبّع ضغط، فـاذا تسـاوى الضـغطان فـالتبخّر والتكـاثف يتعادلان، وفي هذه الحالة يقال: إنّ الهواء مشبّع بالبخار الكافي. والمطر نـتيجة لازمة لهذا التعادل.

والظاهرة الثانية: هي اتّحاد الكهربائيّتين، فإنّ السُحب ذوات تكهربٍ، وكلّ سحاب يحمل نوعاً من نوعي الكهرباء السالبة والموجبة، فإذا ما تقارنت السُحب واختلف نوع الكهرباء فيها تجاذبت، وإلّا تنافرت. شأن الكهرباء عموماً يتجاذب نوعان منه ويتنافران من النوع الواحد.

واجتماع السُحب وتأليف بعضها مع بعض إنّما هو بفعل الرياح، تثير السُحب من مكان الى مكان، فإذا جمعت الرياح بـين نـوعيـن مـن الكـهربائيـة ذوات الموجبـة وذوات السالبة فعند ذلك تتجاذب بعضها الى بعض وتتقارب وتتآلف، وبذلك يحصل اللقاح الناتـج للإمطار. ﴿وأرسَلنا الرياحَ لَواقِحَ فأنزَلنا مِن السَماء ماءً فأسقَيناكُمُوهُ ومَا أنتُم له بخَازنين﴾[1].

يا ترى من ذا كان يعرف هذه الظاهرة الطبيعية يومذاك؟! أن تـقوم الريـاح الباردة فتثير سحاباً، وهي تدفع السحب المكهربـة الى لقاء بعضها مع بعض، وتلقى بالسحابة السالبة التكهرب بين أذرع سحابة أُخـرى مـوجبة التكـهرب، وبـذلك يحدث عملية اللقاح، الناتجـة للبرق والرعد ونـزول المـطر الغـزير، فـيخصب الأرض ويمهّدها للإنبات، وهي عملية أُخرى للّقاح في التربة الصالحـة، بين الماء والأرض[2].

---

(١) الحجـر: ٢٢.

(٢) فيكون تلقيح من نوع ثالث هذه المرّة. تلقيح بالمعنى الحرفي للآية الكريمة.

(ثالثاً) التكاثف، وهو عكس عملية التبخّر، ليتحوّل بخار الماء من الحالة الغازية الى حالة السيلان، فتنقلب ذرّات البخار الى قطرات مائية دقيقة، اذا كانت درجة الحرارة فوق الصفر المئوي، أو حالة جليدية بَرَداً أو ثلجاً، اذا كانت درجة الحرارة تحت الصفر، الأمر الذي يعجز الهواء عن حمله، فتتساقط القطرات مطراً.

وهذا التكاثف إنّما يحدث اذا ما تصاعد الهواء المتشبّع ببخار الماء في طبقات جوّية ذات الضغط الأعظم، فبأثر الضغط العالي يتمدّد الهواء ويفقد جزءً كبيراً من حرارته، وبذلك يبرد وتنخفض درجة حرارته، درجةً واحدةً مئويّةً كلّما ارتفع ١٧٠ متراً.

غير أنّ هذه النسبه تطّرد حتّى ارتفاع ٥ كيلومترات عن سطح البحر. وبعده تتغيّر هذه النسبة، فتأخذ بالنقص باعتبار درجة واحدة مئويّة لكل ١٠٠ متراً ارتفاعاً. وتستمّر هذه النسبة الى ارتفاع ١٢ كيلومتراً حيث توجد طبقة هوائية ثابتة الحرارة، تبلغ درجة حرارتها ٥٥ درجة مئويّة تحت الصفر.

والسُحب تنعقد على ارتفاعات لا تزيد على ٦ أو ٧ كيلومترات عن سطح البحر في الأغلب.

وعملية التبريد هذه بالتمدّد هي إحدى العوامل الفعّالة في إحداث التكاثف.

وكذلك يبرد الهواء بشعّ حرارته كلّما لامَس جسماً بارداً في الجوّ أو على

← فنحن أمام كلمة صادقة مجازاً كما حمله المفسّرون القدامى، وصادقة حرفياً كما أثبته العلم متأخّراً. وعلى أيّ صورة قلّبتها فهي تصدق معك، وهي بعدُ كلمة جديدة وغريبة، وصفة مبتكرة حينما توصف بها الرياح!.

وهي بعدُ من الناحية الجمالية الايقاعية ذروة، وفي النطق بها عذبة: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ تنطقها وتلوكها في فمك، فتستوقف السمع وتطرب الأُذن.

وكل هذا العلم التفصيلي في تكهرب السحاب وانتقال حبوب اللقاح لم يكن معلوماً أيّام نزول الاية، فتدبّر.

سطح الأرض مثل الثلج والجليد، أو اذا تقابل مع هواء أبرد. والشعّ ذو أثر فعّال في تبريد الهواء وتكاثفه، وخاصة اذا هبّت الرياح من جهة حارّة الى جهة باردة.

وفي الحقيقة ليس الهواء هو الذي يبرد بهذه الطريقة، ولكنّه (الهباء) الكثير المنتشر في الهواء، فيتّخذ البخار لنفسه مراكز من هذا الهباء، يلتفّ حولها، ويتكوّن حول كلّ مركز قطرة، فاذا اشتدّت برودة الجوّ الملبّد بالسحب استمرّ التكاثف، فتنضمّ قطرات السحب المائية الى بعضها، فيعجز الهواء عن حملها، فتتساقط أمطاراً على سطح الأرض بفعل جاذبيّتها.

* * *

فقد تبيّن أنّ المطر لا يحصل إلّا اذا توفّرت الشرائط الثلاثة متعاقبة: التبخّر فالتشبّع فالتكاثُف.

وهذا هو الذي دلّت عليه الآية الكريمة المنوّه عنها في صدر المقال، فقد جاءت بوصف موجز مدهش، ومحيّر للعقول.

* عبّرت أولاً بقوله تعالى: «يُزجِي سحاباً» إشارة الى عملية التبخير وتكوين السُحب. والإزجاء هو عملية إثارة السُحب وانتشالها بصورة أبخرة من البخار.

﴿اللهُ الذي يُرسِلُ الرياحَ فتُثيرُ سَحاباً ...﴾[1] لأنّ الرياح بهبوبها على سطح البحار هي التي تسبب التبخير والتدافع بها لتتصاعد وتتكاثف وتتكوّن سحباً.

* ثم عبّرت عن عملية التشبّع بقوله تعالى: «ثُمّ يؤَلِّف بَينَهُ» لأنّ درجة الإشباع الكافي إنّما تتوقّف على حصول التعادل وتساوي تبادل الجُزَيئات بين الماء والهواء.

وما هذا إلّا التآلف والتعاضد بين تلك الجُزَيئات.

ومن ناحية أُخرى، لايحصل التشبّع إلّا بالتعادل والتآلف بين ضغطي بخار

---

(١) الروم: ٤٨.

الماء وبخار الهواء. أو الاتّحاد بينِ نوعي الكهربائية كما سبق بيانه.

وعليه فإنّ أصدق تعبير عن هذه الظاهرة هو وصف التأليف، الذي جاء وصفه في العلم بالتشبّع.

* ثم جاءت بقوله تعالى: «ثُمّ يَجعلُه رُكاماً». وهذا أبلغ تعبير عن عملية التكاثف الذي حقّقه العلم ، إذ لا تفسير للركام سوى التكاثف وتراكم بعض الشيء على البعض مع ضغطٍ. يُقال: تراكَم الشيء أي اجتمع بعضه مع بعض بكثرة وازدحام. والركام: المتراكم بعضه فوق بعض بضغط.

وبعد، فاذا ما تحقّقت الشرائط الثلاثة فعند ذلك: «فترى الوَدقَ يَخرُجُ مِن خِلالِه» الودق: المطر.

* وقد فصل تعالى بين العمليات الثلاث بـ«ثُمّ» لأنّ كلّ عملية إنّما تحصل بتعاقب مع فترة. أمّا النتيجة ـ وهو الإمطار ـ فجاءت بالفاء: تعاقباً بلا تأخير، وهو الفور في حصول نتيجة عملية الإمطار.

فياله من دقيق تعبير، وسبحانه من عليم خبير!.

المـاء الأُجـاج

﴿لَو نشاءُ جَعَلنَاهُ أُجـاجاً﴾.

هل في سنن الكون أن يتحوّل ماء المطر ـ الذي هو أنقى المياه وأعذبها ـ إلى ماء أُجـاج لا يستساغ شربه ولا يطيب طعمـه؟

الآية قبلها تنصّ على أنّ الماء الذي يشربه الناس والدوابّ ـ وحتّى الذي يسقى به الزرع والنبات ـ هو الماء النازل من السـماء: ﴿أفـرأيـتُمُ المَـاءَ الذي تَشرَبُون * أأنتُم أنزلتُمُوهُ مِنَ المُزنِ[1] أم نحنُ المُنزِلُون * لَو نَشاءُ جَعَلنَاهُ أُجَاجاً فَلولا تشكُرون﴾[2].

* * *

إنّـك تعرف أنّ الأرض ربعها يابس وثلاثـة أرباعها ماء، هذا الماء كلّـه مالحٌ أُجاج. لـكن الله تعالى بفضله ورحمتـه يقطر للإنسان والحيوان والنبات من هذا الماء الأُجاج ماءً عذباً فراتاً سائغاً للشاربين. أمّا جهاز التقطير فليس كمثله جهاز. البحار كلّها في ذلك دسـت[3] لا يسخن من تحت، كما يفعل الانسان في تقطيراتـه التافهـة، ولكن يسخن من فوق بنار تفوق حجم الأرض بآلاف المرّات. فاذا ما تبخّر الماء بحرارة الشمس تكثف في مكثف ناهيـك من مكثف الجوّ المحيط كلّـه والجبال. والرياح مستمرّة دائبـة في حمل هذا البخار المتكاثف ونقلها إلى حيث يشاء الله. فاذا أمطرت السماء وسالت الأودية وفاضت الأنهار وحملت الخصب

---

(١) المزن: السحاب المشبّع بالمـاء.   (٢) الواقعـه: ٦٨ ـ ٧٠.

(٣) كلمة عامّية بمعنى المرجل: القدر، وهو كلّ ما يغلى فيه الماء.

والنماء الى الأقطار تبخرّ بعض الماء وامتصّت الأرض منه بعضاً وصار باقيه الى البحر الذي كان منه مصعده. لكن ليس شيء من الماء بضائع! فما تمتصّه الأرض تتفجّر به بعدُ عيوناً، ويتبخّر من الماء العذب أو يصير الى البحر، فهو في حرز حريز من الضياع، إذ مآله أن يصير مرّة أُخرى ماء يحيي به الناس والأنعام، وتحيي به الأرض بعد موتها. فالماء بين البحر والجوّ واليابسة في دورة مقدرّة متّصلة، لا انقطاع فيها ولا تنتهي أبداً، إلّا أن يشاء الله، هو ربّ كل شيء.

هكذا يتحوّل الماء من أصلٍ مالحٍ أُجاج الى مقطّرٍ عذبٍ فرات، في جهاز تقطر كهذا الجهاز العظيم في جوّ السماء.

* * *

وبعد، فهل هناك ما يحول دون هذا التحوّل في الماء فينزل من السماء أُجاجاً لا يستساغ شربه ولا يطيب طعمه؟

أجاب العلماء: نعم، إنّ في الجوّ من العوامل ما يمكنها الحؤول دون هذا التحوّل والانقلاب، لولا رحمته تعالى بالعباد، وقد جعل حواجز دون هذا الحؤول.

جاء في كتاب «سنن الله الكونية» للعلّامة محمّد أحمد الغمراوي(١):

إنّ عذوبة الماء الذي يسقيهم الله إيّاه من السحاب هي بمحض رحمته تعالى. إنّ الماء طبعاً عذب بطبيعته، وماء المطر معروف أنّه أنقى المياه، لكن طبيعة تكوّنه من السحاب تعرضه لأن ينقلب أُجاجاً لا ينتفع به الإنسان.

وذلك لأنّ الهواء خليط من عناصر عدّة تختلف نسبة وجودها مع البعض، وأهمّ تلك العناصر هو النتروجين (الآزوت)، ونسبة وجوده في الهواء تعادل (٢١ / ٧٨) بالمائة. ثمّ الأُوكسجين، ونسبة وجوده (٩٦ / ٢٠). والأرجون (٧٩٪). وثاني أُوكسيد الكاربون (٤٪).

(١) نقلاً عن كتاب بصائر جغرافية: ص ٢٢٠.

وعناصر الهواء موجودة فيه بصورة اختلاط ميكانيكي، وليست ممزوجة امتزاجاً كيماوياً. ومعنى ذلك أنّها لا تتفاعل مع بعضها، وأنّ كلّاً منها محتفظ بكيانه مستقلّاً كأن لا وجود للعناصر الأُخرى.

وفي هذا من الحكمة البالغة والنعمة السابغة ما لا يكاد يخفى، إذ لولا ذلك لاكتسب الهواء مميّزات وخواصّاً كيماوية أُخرى تختلف عن مميّزاته الحالية، فلم تكن تصلح للحياة بشكلها المعروف، وتنوّعاتها التي نشاهدها على سطح الكرة.

خذ مثلاً أنّ غاز الآزوت لا يتّحد مع غيره اتّحاداً كيماوياً إلّا بصعوبة وبشرائط ملائمة خاصّة، فيتّحد في مثل هذه الظروف مع غاز الأُوكسجين، مكوّناً ما يسمّونه بحامض الآزوتيك أو النتريك، وهو ما يعرف عند القدماء بماء الفضّة، وهو أقوى الحوامض وأضرّها على حياة الإنسان بالذات. فلو كان الغازان يمتزجان مع بعضهما امتزاجاً كيماوياً بسهولة ويُسر وبلا واسطة أعمال كيماوية، لانقلب الجوّ جهنّم سعيراً، لأنّه بذلك كان الغازان يستحيلان في الجوّ حامضاً فتّاكاً، ولأمطرت السماء ماء الفضّة بدلاً من الماء العذب الفرات، وما هو إلّا شواظ من نار ولهيب جهنّم لا يبقي ولا يذر، فسبحانه وتعالى من رؤوف رحيم.

﴿قُل بِفَضلِ اللهِ وَبرَحمَتِهِ فَبِذلِكَ فَليَفرحُوا﴾[1].

* * *

وإذ قد عرفت أنّ أربعة أخماس الهواء هو الآزوت (النتروجين) وهذا الغاز لا يكاد يتّحد في العادة بشيء ولا بالأُوكسجين الذي يكاد يتّحد بكل شيء لكن الكيماويين وجدوا أنّهم يستطيعون بالكهربائية أن يحوّلوا الآزوت غير الفعّال الى آزوت فعّال يتّحد بأشياء كثيرة في درجة الحرارة العادية. كما وجدوا أنّهم يستطيعون أن يحملوا الآزوت على الاتّحاد بالأُوكسجين بإمرار الشرر الكهربائي في مخلوط منهما. ومن هذا الاتّحاد ينشأ بعض أكاسيد للآزوت، قابل للذوبان في

(١) يونس: ٥٨.

الماء، واذا ذاب فيه اتّحد به وكوّن حمضين آزوتيين، أحدهما: حمض الآزوتيك (أو ماء النار) كما كان يسمّيه القدماء. وإليه يصير الحمض الثاني. وقليلٌ من حمض الآزوتيك في الماء كافٍ لإفساد طعمه.

وأظنّك الآن بدأت تدرك الطريق الذي يمكن أن ينقلب به ماء المطر ماءً أُجاجاً من غير خرق لنواميس الطبيعة ولا تبديل لسنّة الله التي جرت في الخلق، فهو نفس الطريق الكهربائي الذي يتكّون به المطر، وكلّ الذي يلزم أن يتعدّل التفريغ الكهربائي أو يتكرّر في الهواء تكراراً يتكوّن به مقدار كافٍ من الأكاسيد الآزوتية يذوب في ماء السحاب ويحوّله حمضياً لا يستسيغه الناس.

وهذا هو موضعٌ منّ الله على الناس، إنّه يكيّف التفريغ بالصورة التي ينزل بها المطر، ولا يؤجّ بها الماء.

إنّ شيئاً من ذينك الحمضين لا بدّ أن ينزل في ماء العواصف، وهذا ضروريّ لحياة النبات، لكن الله برحمته وحكمته قدّر تكوينه بحيث لا يتأذّى به إنسان ولا حيوان، ولو شاء الله لكثّره في ماء المطر فأفسده على الناس.

وسواء شكر الناس هذه النعمة أم كفروها فإنّ قوله تعالى: «لو نشاءُ جَعلنَاهُ أُجَاجاً» إشارة الى تلك العوامل الكهربائيـة التي يتكوّن بها المطر. يفهمها من يفقه تلك الحقائق السابقة، ومن يعرف أنّ الطريق الكهربائي هو أحد الطُرق العلمية التي يمكن بها تحويل الآزوت الجوّي إلى حمضي. فسبحان الذي أتقن صنع كلّ شيء وأحكمه إحكاماً.

﴿ والجِبالَ أوتاداً ﴾[1]

﴿وجَعلنَا في الأرضِ رَوَاسِيَ أن تَمِيدَ بِهِم﴾[2].

عبّر القرآن الكريم عن الجبال بالأوتاد، وأبان عن وجه الحكمة فيها هي محافظة الأرض دون أن تضطرب بأهلها. فكيف هذا الإيتاد؟ وكيف ذاك المَيَدان الذي حال دونه وجودُ الجبال؟

ولفهم هذا الجانب من السؤال لا بدّ من النظر في تعابير القرآن أوّلاً، ثمّ ما تعرّضه معطياتُ العلم الحديث.

جاء التعبير بالرواسي عن الجبال في تسع آيات[3]، وكانت العاشرة قوله تعالى: ﴿والجبال أرساها﴾[4].

والوتد: المسمار وكلّ ما رزّ في الحائط أو الأرض من خشب ونحوه ليمسك به الشيء كالخباء وشبهه.

قال الامام أمير المؤمنين عليه السلام : وأرّزها فيها أوتاداً[5].أي أثبت الجبال في الأرض ثبوت الأوتاد، رسوخاً وإحكاماً.

قال عليه السلام : ووتّد بالصخور مَيَدان أرضه[6]. أي ثبّتها فيها لتحول دون اضطرابها.

---

(١) النبأ: ٧. (٢) الأنبياء: ٣١

(٣) الرعد: ٣، والنمل: ٦١، والحجر: ١٩، وق : ٧، والنحل: ١٥، ولقمان: ١٠، والأنبياء: ٣١، وفصّلت: ١٠، والمرسلات: ٢٧. (٤) النازعات: ٣٢.

(٥) نهج البلاغة (صبحي الصالح): الخطبة رقم ٢١١ ص ٣٢٨.

(٦) نهج البلاغة (صبحي الصالح): الخطبة الأُولى ص ٣٩.

والمَيَد والمَيَدان: الحركة والاضطـراب ضدّ السكون والهدوء.

وفي خطبة أُخرى أوضح هذا المعنى بتفصيل أكثر، قال:

وجَبَلَ جلاميدها، ونشوز متونها وأطوادها، فأرساها في مراسيها، وألزمـها قراراتها. فمضت رؤوسها في الهواء، ورست أُصولها في الماء. فأنهد جبالها عن سهولها، وأساخ قواعدها في متون أقطارها، ومواضع أنـصابها. فأشـهق قـلالها، وأطال أنشازها. وجعلها للأرض عماداً، وأرّزها فيها أوتاداً. فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها، أو تسيخ بحملها، أو تزول عن مواضعها. فسبحان من أمسكها بعد موجـان مياهها[١].

وإليك شرح الغريب من ألفاظ الخطبة:

جلاميـد: جمع جُلمُود، وهو الصخر الصلب. وجـبل الشـيء بـمعنى خـلقه وفطره، ومنه الجِبلّة بمعنى الفطرة وأصل الخلقـة.

وأنهد الشيء: رفـع به وعظّمـه. ومنه النهد بمعنى الثدي. يقال: نهد الثديُ أي كعب وانتبر وأشرف.

والأنصاب : جمـع نَصب هي مواضع نصب الجبال.

وساخ في الشيء: غاص فيه ورسب. وساخ بالشيء: انخسف به. والموجان: الهيـاج.

* * *

وأمّا ما يستفاد من هذا الكلام الذهبي فشيء كثير، نشير الى ما يخصّ المقام من دلائل جلائل:

قوله عليه‌السلام : «ورست أُصولها» أي رسخت أُصول الجبال في أعماق الأرض حيث المياه الجوفية. ولعلّه إشارة الى جذور الجبال متّصلةً بعضها ببعض، المعبّر عنها بسلاسل جبلية محيطة بالأرض.

---

(١) نهج البلاغـة (صبحي الصالح): الخطبة رقم ٢١١ ص ٣٢٨.

قوله: «فأنهد جبالها عن سهولهـا» كأنّه إشارة الى مبدأ حُدُوث الجبال على سطح الأرض، بعد أن كان مستوياً، فتجعّد على أثر برودة القشرة، فكانت نتوءات وانخفاضات، وبذلك انقسم وجه الأرض الى مرتفعات شامخات وهضبـات، والى وديـان وسهول.

قوله: «وأساخ قواعدها في متون أقطارها ومواضع أنـصابها» أصـرح فـي الدلالة على السلاسل الجبلية المكتنفـة بالأرض من جميـع أقطارها.

قوله: «وجعلها للأرض عماداً، وأرّزها فيها أوتاداً» لأنّها هي التي حالت دون تفتّتها ودون اضطراب قشرتها، ودون خروجها عن مداراتها.

تلك ثلاث خلال، جاءت في وصف الامام عليه السلام، لبيان حكمـة نتوء الجبال وتسلسلها الماسكـة بأكناف الارض، وإليـك شرح هذا الجانب:

قال عليه السلام: «فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها، أو تسيخ بـحملها، أو تزول عن مواضعها ..» تلك ثلاث فوائـد وحكـم جاءت في كلامـه:

(أولاً) هدأت ـ رغم حركتها الانتظامية ـ من المَـيَدان والاضـطراب، فـهي تتحرّك بهدوء واتّزان، لا ترتعش ولا تميد ولا تضطـرب.

(ثانياً) هدأت واطمأنّت واستحكمت قشرتها وصَلُبت، فلا تسيخ ولا تنخسف ولا تتشقق قشـرتها، وإلّا لأصـبحت قشـرة الأرض كـلّها بـراكـيـن وفـوهات ونافورات بالموادّ المنصهرة والجلاميد المذابـة.

(ثالثاً) هدأت وانتظمت في حـركاتها الوضـعية والانـتقالية عـلى أنـحائها وأنواعها، والتي بها انتهجـت الحياة عليها منهجها الرتيب، فلاتميل عن مواضعها في دوائرها الدائرة فيها بانتظام.

هذه ثلاث حِكم بيّنها الامام عليه السلام أثراً لوجود سلاسل الجبال فـي الأرض، الأمر الذي يدعمه العلمُ باكتشافاته وبحوثه وتجاربـه.

وتوضيحـاً لهذا الجانب نقول: إنّ هذا الأثر العظيم للجبـال ـ في إمكان الحياة

على وجـه الأرض ـ إنّما يعلّله جانب صخريـة السلسلة الجبلية المنبثّة في القشرة الأرضيـة الصلبـة، والمتشابكة بعضها مع بعض كأطواق محيطة بأكناف الأرض.

ومن ثمّ فالذي يُلفت إليه كلامُ الامام عليه‌السلام في أُولى خطبة نهج البلاغـة هـو تبديل التعبير بالجبال الى التعبير بالصخور، قال: «ووتّد بالصخور مَيَدان أرضه»، تفسيراً لقوله تعالى: ﴿وجعلنا في الأرض رواسيَ أن تميدَبِهم﴾[1] وهو جانب ذو أهمّية كبيرة، حيث الأمر مرتبط بصخرية السلاسل الجبلية دون سائر جـوانـبها، الأمـر الذي يستلفت الأنظار.

وإليـك بعض الكلام عن سلسلة الصخور الجبلية، ودورها في توازن الأرض وانتظام حركتها.

* * *

إنّ لسلسلة الصخور الجبلية ـ رافعة وخافضـة ـ دورَها الخطير فـي تـوازن الأرض وتـماسـك أجـزائـها، وهكـذا ثـبات قشـرتها وصـلابتها دون تـلوّيها واضطرابها، رغم توهّج باطنها والتهاب لظاها.

ومن دَرَسَ علوم الطبيعة يعلم أنّ الأرض مطوّقـة بأطـواق مـن السـلاسل الجبلية التي جعلت الأرض أشدّ تماسكاً. وقد يعرف حكمـةُ وجهَـةِ امتدادهـا وكيفية اتّصالها مع بعضها، بحيث تكوّنت منها أطواق جبلية طوّقت الأرض تطويقاً على نظام بديع متقـن ممّا يستلفت الأنظار، فاذا نظرنا الى خارطـة عالمية طبيعية فيها التضاريس الأرضية ظاهرة ظهوراً جلياً نرى السلاسل الجبلية تمتدّ في كلّ قارّة على طولها بصورة عموميـة لا على عرضها، فتكون بمثابة عمود فقري لكـلّ منها، وحتّى اذا لاحظنا أشباه الجزائر في كلّ قارّة فلابدّ أن نرى السلاسل ممتدّة على أطول قسم منها، وكذلك الجزائر الجبلية، مهما كانت صغيرة أو كبيرة، امتدّت فيها السلاسل على طولها أيضاً.

---

(١) الأنبيـاء: ٣١.

وقد ثبت بصورة قطعيـة، وذلك عن طريق سبر قاعات البحار والمحيطات. أنّ الغالب من الجزائر ومرتفعاتها ما هي إلّا امتداداً للسلاسل الجبلية وجزءً منها، حيث انغمر قسمٌ بماء البحر وبقي القسم الآخر كجزائر ظاهرةً على سطح الماء.

فالقارّات كلّها تتّصل بعضها ببعض بسلاسل جبلية عن طريق البرّ أو البحر.

وممّا يستلفت الأنظار أيضاً وجود طوق من السلاسل تحت البحر قليلاً قرب الساحل الشمالي للقارّات الثلاث الشـمالية، يـطوّق المـحيط المـتجمّد القـطبي الشمالي تطويقاً، وقد ظهـرت منه كثير من الجزر التي تحفّ بهذا الساحل.

ويقابل ذلك من الجهة المضادّة من الأرض طوق آخر من السلاسل يطوّق القارّه القطبيـة المتجمّدة الجنوبية، وترتبط بالطوقين المذكورين ارتـباطاً وثـيقاً أطواق أُخَر لسلاسل جبلية ممتدّة في القارّات وفي المحيطات من الشـمال الى الجنوب، كأنّها إطارات تشابكـت بعضها ببعض، فاستمسكت بعرى الأرض دون التفتّت والانبثاث وتفرّق ذرّاتها هباءً في الفضاء[1].

* * *

ومن جانب آخر كانت الأرض ذات لهب في باطنها، إنّها نـارٌ مـوقدة ذات تغيّض وزفير، تكاد تميّز من الغيظ، وتحاول تحطيم القشـرة المـحيطة بـها لولا صلابتها وسمكها الثخين. وما هذه الزلازل ونافورات البراكين إلّا جانباً ضئيـلاً من تلك الثورة والفورة النارية والمتوهّجة في باطن الأرض.

إنّ صلابة القشرة الأرضية العليا ـ التي بردت منذ أحقاب من الزمان ـ هـي التي كفحـت من جماح باطنها المتوقّد، ولولا صلابتها وضخامة سمكها لتـلوّت واضطربت اضطراب الأرشيـة، ولكانت الزلازل والهزّات الأرضيـة مستمرة على أشدّها، ولعمّت وجه الأرض كلّها. هذا الى جانب أخطار خسف الأرض بأهلها وتشقّق أكنافها، لولا أنّ الله تعالى أمسكها بفضله وأسكنها برحمته. ﴿إنّ اللهَ يُمسِكُ

---

(١) بصائر جغرافيـة: ص ١٠٠ ـ ١٠٤.

السَماواتِ والأرضَ أن تَزُولا﴾[١].

هكذا قال سيّدنا الأُستاذ الطباطبائي ﵀ عند قوله تعالى: ﴿وجعلنا في الأرض رواسِيَ أن تميدَ بهم﴾: فيه دلالة على أنّ للجبال ارتباطاً بالزلازل، ولولاها لاضطربت الأرض بقشرتها[٢].

قال سيّد قطب: الآيـة تقرّر أنّ هذه الجبال الرواسي تحفظ توازن الأرض، فلا تميد بهم ولا تضطرب. وحفظ التوازن يتحقّق في صور شتّى، فقد يكون توازناً بين الضغط الخارجي على الأرض والضغط الداخلي في جوفها، وهو يختلف من بقعة الى بقعة. وقد يكون بروز الجبال في موضع معادلاً لانخفاض الأرض في موضع آخر. وعلى أيّـة حال فهذا النصّ يثبت للجبال علاقة بتوازن الأرض واستقرارها. فلنترك للبحوث العلمية كشف الطريقـة التي يتـمّ بها هذا التوازن، فذلك مجالها الأصيل[٣].

* * *

وقال الأُستاذ الطنطاوي: مرّت على الأرض أدوار ستة مقسّمة الى ٢٦ طبقة، والدور الأوّل منها كان عبارة عن الزمن الذي كُوّن فيه على الكرة الأرضية النارية قشرةٌ صوانية[٤] صلبـة، ومعلوم أنّ الأرض كانت ناراً ملتهبة فبردت قشرتها وصارت صوانية، وهي الغلاف الحقيقي لتلك الكرة النـارية، ولا تـزال الأرض تخرج لنا من أنفاسها المتضايقة ونارها المتّقدة في جوفها كلّ وقت ناراً بالبراكين. فهذه البراكين أشبه بأفواه تتنفّس بها الأرض لتخرج بعض النار من باطنها، ثـمّ يخرب ذلك البركان وينفتح بركان آخر. وهذه البراكين تخرج ناراً ومواداً ذائبة

---

(١) فاطر: ٤١. (٢) الميزان: ج ١٤ ص ٣٠٥.

(٣) في ظلال القرآن: ج ٥ ص ٥٣١.

(٤) ضرب من الحجارة فيه صلابة يتطاير منه الشرر عند قدحه بالزند، استعمله الانسان في عصر ما قبل التاريخ في صناعة أدواته البسيطة وفي آلات الصيد، وهو حجر صلد من المرو يوجد في شكل عروق بطبقات الحجر الجيري من الارض.

تدلّنا على أصل أرضنا، وما كانت عليه قبل الدهـر.

فهذه القشرة الصلبة[١] لولاها لتفجّرت ينابيع النار من سائر أطرافها كما كانت بعدما انفصلت من الشمس كثيرة الثورات والفوران. وهذه القشرة الصوانية البعيدة المغلّفة للكرة النارية هي التي نبتت منها هذه الجبال التي نراها فوق أرضنا، كما يقوله علماء طبقات الأرض.

فمن هنا ظهـر أنّ هذه الجبال جعلت لحفظها من أن تميل، لأنّ الطبقة الصوانية هي الحافظة لكرة النار التي تحتها، والكرة الصوانية هذه نبتت لها أسنان طـالت وامتدّت حتى ارتفعت فوق الأرض، فلو زالت هذه الجبال لبقى ما تحتها مفتوحاً، وإذ ذاك تثور البراكيـن آلافاً مؤلّفـة وتضطرب الأرض اضطراباً عظيماً وتزلزل زلزالاً شديداً، لأنّ البراكين وثورانها زلزلـة.

ثمّ إنّ هذه الجبال قطعة من القشرة، غاية الأمر أنّها ارتفعت، فما هي إذاً إلّا حافظة للكرة النارية التي لو تركت لشأنها لاضطربت في أقرب من لمـح البصر، فأهلكت الحرث والنسل.

هذه هي المعجزة الأُخرى للقرآن العظيم، لأنّ السابقين كانوا يؤمنون به فقط. فظهور ذلك اليوم من المعجـزات القرآنية.

ولقد أجمـع العلماء قديماً وحديثاً أنّ الجبال على الأرض لا قيمة لها بالنسبة للكرة الأرضية[٢]، فلو فرضنا أنّ الكرة الأرضية كرة قطرها ذراع لم يكن أرفـع الجبال فوقها إلّا كنحو نصف سبع شعيرة فوقها[٣]. ولو أنّ الأرض كرة قطرها مترٌ

(١) وقدر سمك القشرة الصلبة الأرضية العليا بمئات الأميال (مبادئ العلوم: ص٤٣).

(٢) يبلغ أعلى قلل جبال الأرض هملايا ٨٧٠٠ متراً. بينما قطر الأرض يـبلغ ١٢٧٥٠ كـيلو متراً. والنسبة بينهما تعادل ١ / ١٤٥٠ تقريباً، وهـي نسـبة ضـئيلة جـداً. (راجـع مـباني جغرافياي انساني لجواد صفي نژاد: ص ١٧).

(٣) الذي ذكره شارح الچغمينيّة أنّه نسبة سبع عرض شعيرة الى كرة قطرها ذراع وهو أربـعة

←

واحد لم تزد الجبال عليها مليمتراً واحداً ونصفه[1] فقط. فما هذا الجـزء اليسـير بالنسبة لتلك الكرة العظيمة حتّى يمنع ميلها وسقوطها!

نعـم، كان الناس يؤمنون بظاهره، وقد ظهرت هذه النبوءة فـعلاً فـي العـلم الحديث، ولم تظهر إلّا على يد من كفروا بدين الاسلام، والمسلمون لا يعلمون إلّا من الفرنجـة، ونحن نكتب ذلك عنهم، فمنهم وإليهـم[2].

فصدق الله وجاءت المعجزات العلميـة في القـرآن تترى كلّما تـقدم العـلم وازدهرت حقائق العلوم وتجلّت أسرار هذا الكون. ولم يعـرف تفسيـر القـرآن على وجه علميّ برهانيّ إلّا في هذا العصر، وستنكشف حقائق أُخر في مستقبل الأيّام، فلله درّه من معجزة خالدة خلود الزمان.

* * *

وتمخّض البحث بالنتائـج الثلاث التالية:

١ ـ إنّ للجبـال (أي الصخور الجبلية المكتنفة بـالأرض) أثـراً مـباشراً فـي توازن الأرض دون أن تضطرب، فتحيد عن مداراتها المنتظمة المؤثرة في تنظيم الحياة عليها.

وقد أشار إليه الامام أمير المؤمنين عليه السلام في كلامـه الآنـف: «أو تزول عـن مواضعها».

٢ ـ وهكذا حالت صلابـة القشرة وضخامة سمكها ـ وهي صخور جـبلية ـ دون زلزالها واهتزاز قشرتها، على أثر توهّج باطنها، لو كانت القشـرة هـزيلة أو ذات ليـن.

والى ذلك أشار الامام عليه السلام بقوله: «من أن تميدَ بأهلها».

← وعشرون اصبعاً، والاصبع ستة شعيرات. قال: ويلزم أن يكـون كـنسبة الواحـد الى ألف وثمانية (شرح چغميني: ص ١٢ ـ ١٣).

(١) ولعلّ هنا سهواً، والصحيح أن النسبة مليمتر واحد على كرة قطرها متر ونصف تقريباً.

(٢) تفسير الجواهر: ج ١٠ ص ١٩٨ ـ ١٩٩.

٣ ـ كما أنّ لتطويق الأرض بالسلاسل الجبلية والصخور الصلبة المحيطة بأكناف الأرض عاملاً في تماسك أشلائها وحافظاً عن تشقّقها أو تعاقب الانخسافات عليها.

وإليه أشار عليه‌السلام بقوله: «أو تسيخ بحملها».

«فسبحان من أمسكها بعد موجان»!

مسيـرة الأرض والجبـال

﴿وَتَرَى الجِبالَ تَحسَبُهَا جَامِدةً وهي تَمُرُّ مَـرَّ السَحَـابِ صُنعَ اللهِ الّذِي أتقَنَ كُلَّ شَيءٍ﴾[1].

الجمود: نقيض السيـلان، ويقال للثلج: جمد، بهذا الاعتبار. ويقال: جمدت العين اذا هدأت ولم يجر دمعها. ويـقال للأرض وللسـنـة: جـماد، اذا اصـابهما جدب، لا كـلاء ولا خصب ولا مطر.

قال الفيروز آبادي: يقال: ناقة جماد اذا كانت بطيئة في سيرها شبه الواقفة.

ومن ذلك كلّـه يعرف أنّ هذه اللفظة تستعمل في موارد، كان من طبعها السير والحركة فوقفت وقوف عارض. وصحّ إطلاق الجماد على الجبال باعتبار هُمودها في رأي العين، ومن ثَـمَّ قال المفسّرون: جامدة أي واقفـة لا حراك فيها. ويؤيّده التقابل بمرور السحاب أي حركتها في جوّ السماء.

فقوله تعالى: « وهي تَمُرّ مرّ السَحاب » أي تسير في مسيرتها الحثيثة كمسيرة السُحب في الفضاء. روي ذلك عن ابن عبّاس[2].

وليست حركة الجبال في مسير الفضاء سوى حركة الأرض الانـتقالية فـي دورتها السنوية حول الشمس، أو حركتها الوضـعية حـول نـفسها. وعـلى كـلا المعنيين فيدلّ ذلك على حركة الأرض دون وقوفها وهدوئها. وهذا بالرغم مـن الرأي السائد ذلك الحيـن القائل بسكون الأرض وكـونها فـي مـركز الأفـلاك الدائرة حولها.

---

(١) النمـل: ٨٨. (٢) مجمـع البيان: ج ٧ ص ٢٣٦.

وجاءت دلالة الآية على حركة الأرض دلالة تبعيّة، من قِبَل نسبتها الى مجموعة الجبال، فالجبال بمجموعتها تسير سيرها الحثيث، الأمر الذي لا يكون إلّا بحركة كتلة الأرض كلّها.

* * *

أمّا وما هذه الحركة وما هذه المسيرة الأرضية؟

١ ـ قال أكثر المفسّرين: إنّها تسيير الجبال نحو الفناء، إحدى علائم قيام الساعة نظير قوله تعالى: ﴿وَيَومَ نُسَيِّرُ الجبالَ وَتَرَى الأرضَ بَارزةً وَحَشَرنَاهُم فَلَم نُغَادِر مِنهُم أحداً﴾[١] وقوله: ﴿يَومَ تَمُورُ السَماءُ مَوراً * وتَسيرُ الجِبالُ سَيراً﴾[٢]. وقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ الجِبالُ فَكانَت سَرَاباً﴾[٣]. الى غيرهنّ من آيات كثيرة بنفس المضمون[٤].

قال الإمام الرازي: إعلم أنّ هذا هو العلامة الثالثة لقيام القيامة، وهي تسيير الجبال[٥].

وقال سيّدنا الطباطبائي ﷺ: بما أنّ الآية واقعة في سياق آيات القيامة، ومحفوفة بها فهي تصف بعض مشاهد ذلك اليوم الرهيب، ومن جملتها تسيير الجبال. وقوله: «وتَرى الجِبال» تمثيل لتلك الواقعة، نظير قوله: ﴿وتَرى النَاسَ سُكارى﴾[٦] أي تلك حالتها المشهودة في ذلك اليوم العصيب لو كنت شاهدها[٧].

لكن لحن الآية ذاتها تأبى هذا الحمل، ولا سيّما مع تذييلها بقوله: «صُنعَ اللهِ الّذي أتقَنَ كُلَّ شَيء». الأمر الذي يدلّ على أنّها بصدد بيان مظهر من مظاهر قدرته تعالى ولطيف صنعه. وقضية السياق موهونة ـ بعد ملاحظة ما قدّمنا في الجزء الأول ـ من أنّ ترتيب الثبت الحاضر لا يدلّ على نزولها تباعاً بلا فترة زمان.

---

(١) الكهف: ٤٧. (٢) الطور: ٩ و ١٠. (٣) النبأ: ٢٠.
(٤) مريم: ٩٠، الواقعة: ٥، الحاقّة: ١٤، المعارج: ٩، المزّمل: ١٤، المرسلات: ١٠.
(٥) التفسير الكبير: ج ٢٤ ص ٢٢٠. (٦) الحجّ: ٢.
(٧) الميزان: ج ١٥ ص ٤٤٠.

٢ ـ وقال بعضهم: إنّها الحركة الجوهرية، وإنّ ما في الوجود يسير قدماً نحو الكمال المطلق، سواء أكان إنسانا ﴿يا أيّها الإنسان إنّك كَادِحٌ إلى رَبّكَ كَدحاً فَمُلاقِيه﴾[1] أم حيواناً أم نباتاً أم جماداً ﴿كلٌّ إلينَا راجِعُون﴾[2].

قال سيّدنا الطباطبائي: قد تحمل الآية على الحركة الجوهرية، وأنّ الأشياء كلّها ـ ومنها الجبال ـ تتحرّك بجوهرها الى غاية وجودها، وهي حشرها، ورجوعها إلى الله سبحانه. قال: وهذا المعنى يناسبه التعبير بقوله: «تَحسبُها جامِدة» لأنّ الجمود هو السكون المحض، في حين أنّها في تحوّل وتنقّل، هادفة ساحة قدسه تعالى! قال: وهذا المعنى أنسب من المعنى الأوّل بإرادة قيام الساعة.

٣ ـ وقال آخرون: إنّها الحركة الطبيعية الكامنة في ذوات الأشياء، إذ كلّ موجود هو في تحوّل وتغيير دائب مستمرّ، وما من ذرّة في عالم الوجود إلّا وهي تتبدّل الى غيرها وتتجدّد حسب الآنات والأحوال، وكلّ شيء هو في كلّ آنٍ خلقٌ جديد. ﴿إنّكم لَفِي خَلقٍ جَديد﴾[3]. ﴿يَسألُهُ مَن في السَمَاواتِ وَالأرض كُلَّ يَومٍ هُوَ في شَأن﴾[4] ما هذا السؤال المستمرّ؟ إنّها مسألة الإفاضة، إفاضة الوجود من ربّ العالمين، ومن ثمَّ فهو تعالى في كلّ لحظةٍ من لحظات حياتنا في خلق جديد.

قال الأُستاذ محمّد تقي الجعفري: إنّ مَن في السماء والأرض من عالم الوجود إنما يسأله تعالى الاستمرار بالإفاضة عليه من قوى واستعداداتٍ وإبقاءٍ لوجوده خلقاً بعد خلق[5].

٤ ـ إنّها حركة الأرض الوضعية والانتقالية، ومسألة حركة الأرض أمرٌ تنبّه له

---

(١) الانشقاق: ٦. (٢) الأنبياء: ٩٣. (٣) سبأ: ٧.

(٤) الرحمن: ٢٩.

(٥) راجع الحركة والتحوّل من النظرة القرآنية: ص ٤٩ فما بعد.

كثير من العلماء الأقدمين كـ(فيثاغورث الحكيم) عاش قبل الميلاد بخمسة قرون. وتبعه على ذلك (فلوطرخوس) و (أرخميدس). وأيّده الحكيم (ارستر خوس) الذي جاء بعده بقرنين. وبعده (كليانثوس) الذي أثبت للأرض حركتين، يومية وسنوية.

لكن في هذا الأوان جاء الحكيم (بطلميوس) فأنكر حركة الأرض واعتقد سكونها وكونها مركز سائر الأفلاك. وساد هذا النظام الفلكي البطلميوسي ـ بفضل دعمه بالرأي العام ـ حتى القرن السادس عشر للميلاد، حيث نبغ الفلكي الشهير (كوبرنيك) المتوفّى سنة ١٥٤٤ م ليأخذ برأي (فيثاغورث). وهكذا توالى بعده العلماءُ مؤيّدين لهذا الرأي، بفضل المخترعات الفلكية الحديثة (المَجاهر والنظّارات المكبّرة).

وللسيّد هبة الدين الشهرستاني كلام طويل حول استظهار هذا الرأي من الآية الكريمة نذكر ملخّصه:

قال: أول من تفطّن الى هذا الاستنباط من الآية الشريفة هو الفاضل علي قلي ابن فتحعلي شاه القاجار. وجاء تأييده في (النخبة الأزهرية) ترجيحاً على تفسير القدماء للآية.

قال السيّد: وفي الآية دلائل على هذا الاستظهار:

أولاً: التعبير بالجمود «تَحسَبُها جَامِدة». ولا تهويل اذا كانت الجبال تُرى يوم القيامة في ظاهرها هامدة وساكنة في مستقرّاتها.

ثانياً: التعبير بالمرور مرّ السَحاب، وهو يدلّ على نعومةٍ في السير، وليس ممّا يهول.

وثالثاً: التشبيه بالسُحب، ولا هول في مشاهدة مسيرة السَحاب[1].

فصحّ أنّ الآية لا تتناسب وكونها من أشراط الساعة أو إشارة الى أهوال يوم

(١) الهيأة والاسلام: ص ٩٧ ـ ٩٩.

القيامة.

وقال سيّدنا الطباطبائي: حمل الآية على إرادة حركة الأرض الانتقالية معنى جيّد لولا منافاته للسياق[١].

وقد قدّمنا أنّ سياق الآية ذاتها ـ بقرينة الإشارة الى إحكام الصنع ـ تُرجِّح إرادة التفسير الأوّل المتقدّم.

دَحْـو الأرض

﴿ والأرضَ بعدَ ذٰلكَ دَحَاها ﴾[٢].

الدحو: الدحرجـة. يقال: دحا الشيء بمعنى دحرجـه، كما يُدحرج الصبيانُ المداحي، وهي أحجار صغار أمثال القرصة، يحفرون حفيرة فيدحون بها إليها. وتسمّى المسادي والمراصيع. والدحو: رمي الملاعب بالجوز وشبهه[٣].

فمعنى دحو الارض : دحرجتها وزحلقتها على بسيط الفضاء لتأخذ شكلها الكُريّ في التدوير[٤].

فدحو الأرض إذاً ليس مجرّد بسطها، كما زعمه أُناس، وإنّما هو بسط مع

---

(١) الميـزان: ج ١٥ ص ٤٤٢. (٢) النازعـات: ٣٠.

(٣) الفائق للزمخشري: ج ١ ص ٤١٨.

وقال الفيروزآبادي : مرصاع ـ كمحراب ـ دوّامة الصبيان، وكل خشبة يُدحى بها، والدوّامة لعبة من خشب يلفّ الصبي عليها خيطاً ثم ينقضه بسرعة فتدوم أي تدور عـلى الأرض. (انظر الشكل في المنجد). وعندنا في العراق كانت تسمّى (المُرصَـع) كمُلجَم. وهي تشبه البيضة وفي قطبها السافل حديدة محدّدة، بها تدور على الأرض. ولعلّ تسمية البيضة دحية في الديار المصرية كانت من جهة هذا التشابه. قال مصطفى محمود في كتابه (محاولة لفهم عصريّ للقرآن: ص ٢٥٥): الدحيـة: البيضـة.

(٤) قال الأُستاذ محمّد مصطفى الشاطر: ترجمة الدحو بمعنى البسط ضياع للمعنى الذي يؤخذ من الدحو وهو التكوير غير التامّ ـ كتكوير البيضـة ـ مع الدوران. ولا يزال أهـل الصعيـد ـ وأكثرهم من أصل عربي ـ يعبّرون عن البيض بالدحو أو الدحى أو الدح . (القول السديد: ص ٢١ ـ ٢٢).

تكوير، يشبه الدوّامة في جسمها الكُريّ يتداحى بها الصبيان في ألاعيبهم.

وهي اللفظة العربية الوحيدة التي تفيد معنى البسط والتكوير في ذات الوقت. وتكون من أدلّ الألفاظ على شكل الأرض المنبسطة في ظاهرها، المتكوّرة في الحقيقة. الأمر الذي يوافقه أحدث الآراء الفلكية عن شكل الأرض: إنّها مفرطحة من جانبي قطبيها، ومنبعجة على خطّ الاستواء. فيزيد قطرها الاستوائي عن قطرها القطبي بمقدار (٦ / ٤٢) كيلومتراً[١].

وهذا منتهى الإحكام والدقّة في اختيار اللفظ المناسب للتعبير.

---

(١) قطر الأرض الاستوائي: ٨ / ١٢٧٥٤. وقطرها القطبي: ٢ / ١٢٧١٢. (راجع بصائر جغرافية لرشيد رشدي البغدادي: ص ١٥٧).

مــدّ الظلّ وقبضه

﴿أَلَـمْ تَرَ إلى رَبِّـك كَيـفَ مَدَّ الظِلَّ وَلَو شَـاءَ لَجَعَلَهُ سَـاكِناً ثُـمَّ جَعَلنَا الشَمسَ عَلَيهِ دَليـلاً * ثُمَّ قَبَضنَاهُ إلَينَا قبضاً يَسيراً﴾[1].

إنّ الظلّ الوريف اللطيف الذي يوحي الى النفس المجهودة المكدودة بالراحة والنداوة والسكن والأمـان هو الظلّ الذي يبدأ بروحه ونسيمه فور تحوّل الشمس هبوطاً من قبّة السماء (دائـرة نصف النهار). تكاد تـمتدّ وتـنبسط نـفحتها كـلّما أخذت الشمس تقترب من أُفق مغربها. واذا هي تبزغ أشعّتها عند الصبـاح، واذا بالأظلّة تبدو على أطولها، ثمّ تأخذ في التناقص كلّما ارتـفعت الشـمس وسـط السماء.

فهذا الظلّ يتحرّك مع حركة الأرض في مواجـهة الشمس، فتتغيّر أوضـاعه وامتداداتـه وأشكاله، والشمس تدلّ عليه بضوئها وحـرارتـها وتـميّز مسـاحته وامتداده وارتداده.

وهذا المدّ والقبض إنّما هي بفعل حركـة الأرض حول محورها تجاه عـين الشمس الوهّاجـة، وهي تحصل في كلّ ٢٤ ساعة يوماً كاملاً.

وشيء آخر: إنّ محور الأرض ـ في دورتها حول نفسها ـ ينحرف قليـلاً عن مستوى فلكها (أي مدارها السنوي) ويكون انحرافـه بزاوية قدرها ٢٣/٥ درجة، الأمـر الذي يسبّب تعاقب الفصول الأربعة. وكلّما ابـتعدت الشـمس عـن خـطّ الاستواء شمالاً أو جنوباً فإنّ الظلال تختلف امتداداً وتقلّصاً، فلا يستوي الظلّ في

---

(١) الفرقان: ٤٥ و ٤٦.

الشتاء مع الظلّ في الصيف أو الخريف أو الربيع، سواء في مناطق الاعتدال أو غيرها.

وعلى أيّ تقدير، فإنّ مدّ الظلّ وقبضه قبضاً يسيراً ممّا ينبّؤك عن حركةٍ للأرض، إمّا محورية أو مدارية (وضعية أو انتقالية) او كلتيهما جميعاً.

وكيف كان فهو ظلّ النهار، يزداد وينقص، حسب الأيّام والشهور.

أمّا الليل، فهي نعمة أُخرى جاء ذكرها في الآية التالية لما سبق: ﴿وَهُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِبَاساً والنَومَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَهَارَ نُشُوراً﴾[1].

وهي رحمة إلٰهية كبرى، إذ جعل الأرض تدور حول محورها يومياً، طول سنتها التي هي ٣٦٥ يوماً. وبذلك أمكنت الحياة على وجه الأرض من كلّ جوانبها على سواء.

أمّا كرة عطارد فإنّها تدور حول محورها بنفس دورتها حول الشمس، في ٨٨ يوماً، كما حقّقه الفلكي «شيا پرلي»[2]. ومعنى ذلك أنّ طول يومها يساوي سنتها أي دورتها حول الشمس. ونتيجةً على ذلك فإنّ وجهاً واحداً منه يتّجه نحو الشمس بصورة دائمية، ولا يتّجه النصف الآخر نحوها مطلقاً.

وللسبب نفسه يكون أحد وجهيه ساخناً جدّاً، إذ تبلغ درجة الحرارة عليه نحو ٢٦٠ درجة مئوية، كما يكون الوجه المعاكس بارداً جدّاً، وتبلغ درجة البرودة فيه نحو ٨٠ درجة تحت الصفر المئوي، فهناك نهار سرمد، وليل سرمد، ولذا لا يتوقّع وجود حياة على سطح هذا الكوكب السيّار[3].

ونظير عطارد «القمر» في دورته حول الأرض. إذ تكمل دورته حول

---

(١) الفرقان: ٤٧.

(٢) راجع مبادئ العلوم: ص ٣٧، وهامش الهيأة والإسلام: ص ٦١.

(٣) مبادئ العلوم: ص ٣٦.

وهكذا قيل عن الزهرة، فدورتها حول محورها تساوي دورتها حول الشمس في ٢٢٤ يوماً من أيّام الأرض (بصائر جغرافية: ص ٢٦١).

الأرض في مدّة تساوي دورته حول نفسه في ٢٨ يوماً، ويصبح نصف سطح القمر مواجهاً للأرض أبداً، ونصفه الآخر مختفياً عن الأرض أبداً[1].

فليس من ناموس الطبيعة أن تختلف دورة كلّ كرَة دائرة حول كرة أُخرى عن دورتها حول نفسها، وإنّما هو شيء يتبع مصلحة يراها الصانع تعالى فيما يراه في الخلق والتدبير.

فانظر الى آثار رحمة الله كيف جعل الظلّ في الكوكب الأرضي متحرّكاً غير ساكن، ولم يجعله سرمداً كما جعله في كوكب عطارد، ذي الليل والنهار السرمدين.

﴿قُلْ أرَأيتُم إنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيكُمُ اللَيلَ سَرمَداً إلى يَوم القِيَامَةِ مَن إلهٌ غَيرُ اللهِ يَأتِيكُم بِضِياءٍ أفلا تَسمَعُون * قُلْ أرَأيتُم إنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيكُمُ النَهارَ سَرمَداً إلى يَومِ القِيَامَةِ مَن إلهٌ غَيرُ اللهِ يَأتِيكُم بليل تَسكُنُونَ فِيهِ أفَلاَ تُبصِرُون * وَمِن رَحمَتِه جَعَلَ لَكُمُ اللَيلَ وَالنَهارَ لِتَسكُنُوا فِيهِ وَلِتَبتَغُوا مِن فَضلِهِ وَلَعَلَّكُم تَشكُرُون﴾[2].

الحمد لله الذي جَعل لنا الأرض مهداً وسلك لنا فيها سُبلاً.

---

(١) ولمّا كان للقمر دورة ثالثة مع الأرض حول الشمس وفي هذه الدورة تدور حول محورها في ٢٨ يوماً يكون نهاره ١٤ يوماً من أيّام الأرض وليله ١٤ يوماً. ومن ثم فالليل منه قارس البرودة، والنهار منه شديد الحرّ، وعندما تصل الشمس عمودية تبلغ الحرارة فيه الى درجة الغليان. (بصائر جغرافية: ص ٢٦٠).

(٢) القصص: ٧١ ـ ٧٣.

﴿أن نُسوّيَ بنانـه﴾

﴿أيَحسَبُ الإنسَانُ أَنْ لَـنْ نَجمَعَ عِظَامَهُ *
بَلَى قَادِرِيـنَ عَلَى أن نُسوّيَ بَنَانـه﴾ [1].

هذا كـلام صدر في مقام التحدّي، مشيراً بأنّ هناك معجزة كبرى في تسويته للبنان وبعثه على صورته الأُولى يكون أكبر من إحيـاء العظام البالية، الأمـر الذي لم يُكشَف سرّه إلّا بعد نزول الآية بأكثر من ألف سنة، حينما عُرف أنّ لكلّ إنسان بصمة خاصّة رسمت على بنانه، لا يتّفق اثنان في بصمة واحدة، منذ أن خلق الله آدم حتّى التوائم. وهذا سرٌّ غريب في الخليقة أولاً، وفي إشارة القرآن إليه ثانياً. سبحانه وتعالى من عظيم القدرة وعجيب البيان!.

ولكن لماذا خصّص الله البنان دون سائر أجزاء البدن؟ وهل البنان أشدّ تعقيداً من العظام؟

لقد توصّل العلم الى سرّ البصمة في القرن التاسع عشر، وبيّن أنّ البصمة تتكوّن من خطوط بارزة في بشرة الجلد تجاورها منخفضات وتعلو الخـطوط البـارزة فتحات المسام العرقية، تتمادى هذه الخطوط وتتلوّى، وتتفرّع عـنها تـغصّنات وفروع، لتأخذ في النهاية وفي كلّ شخص شكلاً مميّزاً، وقد ثبت أنّـه لا يـمكن للبصمة أن تتطابق وتتماثل في شخصين في العالم، حتّى في التوائم المتماثلة التي أصلها من بويضـة واحدة.

يتمّ تكوّن البنان في الجنين في الشهر الرابع، وتظلّ ثابتة ومـميّزة له طـول

---

(١) القيـامـة: ٣ و ٤.

حياته، ويمكن أن تتقارب بصمتان في الشكل تقارباً، ولكنّهما لا تتطابقان البتة. ولذلك فإنّ البصمة تُعَدُّ دليلاً قاطعاً ومميّزاً لشخصية الإنسان، معمولاً به في كـلّ بلاد العالم، ويعتمد عليه القائمون على تحقيق القضايا الجنائية لكشف المجرمين واللصوص[1].

(١) مع الطـبّ: ص ٢٣.

﴿ومن كلّ شيءٍ خَلَقنَا زَوجَين﴾[1]

لم يقل من الأحياء، بل من كلّ شيء. فالكهرباء فيها الشحنة السالبة والموجبة. والمغنطيسية فيها الاستقطاب إلى قطبين. وفي الذرّه الأليكترون والبوزيترون، والبروتون والنيوترون. وفي الكيمياء العضوية: الجُزَيء اليساري والجُزَيء اليميني. ونعرف الآن المادّة والمادّة المضادّة. والثنائية والازدواجية في تركيب الأحياء والجمادات. يكشف لنا العلم أسرارها كلّ يوم[2].

ولعلّ اللقاح والتزاوج في النبات أصبح مشهوداً بعد ضرورة اللقاح والتزاوج في الأحياء (الإنسان والحيوان). قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ الثَمَرَاتِ جَعَل فِيهَا زَوجَينِ اثنَين﴾[3]. والآيات بشأن أزواج النبات كثيرة[4].

وظاهرة التزاوج واللقاح مفروضة على كلّ موجود، نباتاً كان أم انساناً، أم ممّا لا يعلمون ﴿الّذي خَلَقَ الأزوَاجَ كُلّهَا ممّا تُنبِتُ الأرضُ وَمِن أنفُسِهِم وَممّا لا يَعلَمُون﴾[5].

قال سيّد قطب: وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق في هذه الأرض ـ وربّما في هذا الكون، إذ أنّ التعبير لا يخصّص الأرض ـ قاعدة الزوجية في الخلق. وهي ظاهرة في الأحياء. ولكن كلمة «شيء» تشمل غير الأحياء أيضاً. والتعبير يقرّر أنّ الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية.

---

(١) الذاريات: ٤٩. (٢) محاولة لفهم عصريّ للقرآن: ص ٧٣.

(٣) الرعد: ٣.

(٤) الحجّ: ٥، والشعراء: ٧، ولقمان: ١٠، وق: ٧. والرحمان: ٥٢، وطه: ٥٣.

(٥) يس: ٣٦.

وحين نتذكّر أنّ هذا النصّ عرفـه البشر (المسلمون) منذ أربعة عشر قرناً، وأنّ فكرة عموم الزوجية ـ حتّى في الأحياء ولا سيّما النبات ـ لم تكن معروفة حينذاك، فضلاً عن عموم الزوجية في كلّ شيء ... حين نتذكّر هذا نجد أنّا أمام أمر عجيب عظيم ... وهو يطلعنا على الحقائق الكونية في هذه الصورة العجيبة المبكّرة كلّ التبكير!

كما أنّ هذا النصّ (القرآني المعجز) يجعلنا نرجّح أنّ البحوث العلمية الحديثة سائرة في طريق الوصول الى الحقيقة. وهي تكاد تقرّر أنّ بناء الكون كلّه يرجع الى الذرّة، وأنّ الذرّة مؤلّفة من زوج من الكهرباء: موجب وسالب! فقد تكون تلك البحوث اذاً على طريق الحقيقة في ضوء هذا النصّ العجيب[١].

* * *

وعن أكثر القدامى تفسير الزوجين هنا بالجنسين المتقابلين، كالأرض والسماء، والبرّ والبحر، والليل والنهار، والسهل والجبل، والشمس والقمر، والجنّ والإنس، والنور والظُلمة ... وما إلى ذلك. وهكذا المعنويّات كالسعادة والشقاء، والخير والشرّ، والهدى والضلال ... ونحو ذلك.

سوى ابن زيد، فإنّه فسّره بالذكر والأُنثى، وهو عجيب[٢].

قال الرازي ـ توجيهاً لما قاله الأقدمون ـ: والزوجان: امّا الضدّان فإنّ الذكر والأُنثى كالضدّين والزوجان منهما كذلك، وامّا المتشاكلان فإنّ كلّ شيء له شبيه ونظير وضدّ وندّ. قال المنطقيون: المراد بالشيء الجنس، وأقلّ ما يكون تحت الجنس نوعان، فمن كلّ جنس خلق نوعين من الجوهر، مثلاً المادّي والمجرّد، ومن المادّي النامي والجامد، ومن النامي المدرك والنبات، ومن المدرك الناطق والصامت[٣].

---

(١) في ظلال القرآن: ج ٢٧ مجلّد ٧ ص ٥٨٧ ـ ٥٨٨.
(٢) راجع مجمع البيان للطبرسي: ج ٩ ص ١٦٠.
(٣) التفسير الكبير: ج ٢٨ ص ٢٢٧.

العسل

﴿وَأوحى رَبُّـكَ إلَى النَحلِ أنِ اتّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَجَرِ وَمِمّا يَعرِشُون * ثُمّ كُلي مِنْ كُلِّ الثَمَراتِ فَاسلُكي سُبُلَ رَبّكِ ذُلُـلاً يَخـرُجُ مِنَ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ ألوانُـهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَاس﴾[1].

قال الدكتور نزار الدقر: النصوص القرآنيـة التي وردت في العسل هي أوضح وأرسخ النصوص القديمة على الإطـلاق، كما أنّها تعتبر من أوائل النصوص التي جزمت بالفائدة المطلقة، وبالخصوص العلاجيّة الثابتة لهذه المادّة القديمة[2].

ولأصحــاب النظر في الطبّ والعـلاج ـ قديماً وحديثاً ـ مقالات ضافية بشأن أهمّية العسل وفوائده الكثيرة وأنّه النافع غير الضارّ على الإطلاق، نقتطف منها ما يلي:

مكوّنات العســل:

يحوي العسل أكثر من سبعيـن مادّة مختلفة، فهو:

١ ـ أهمّ منبع للموادّ السكّرية الطبيعية، حيث اكتشفت فيه الى الآن حوالي ١٥ نوعاً من السكاكر، أهمّها: سكّر الفواكـه (فركتوز) بـنسبة ٤٠٪، وسكّـر العـنب (غلوكوز) بنسبة ٣٠٪، أمّا سكّر القصب فبنسبة ٤٪. وأنّ كيلو غراماً واحداً من

(١) النحـل: ٦٨ و ٦٩.

(٢) مع الطبّ في القرآن الكريم: ص ١٨٢ نقلاً عن كتاب «العسل فيه شفاء للناس» للـدكتور نزار الاقر.

العسل يعطي طاقة تقدّر بـ(٣٢٥٠) حريرة.

٢ ـ يقف في الصفّ الأول بين الأغذية الكاملة، من حيث احتوائه على بعض الخمائر (الأنزيمات) التي تساعد في عمليات الاستقلاب والهضم. وأهمّها: خميرة الشعير، التي تحوّل النشاء الى سكّر، والقلابين التي تقلب السكّر العادي الى سكّر عنب وسكّر فواكه، والكاتازالا، والبيوركسيداز، والليباز.

٣ ـ يحوي مجموعة من الفيتامينات، أهمّها: فيتامين ب، وب ٢، وب ٣ (أو حمض البانتوثيني)، وب ٥ (أو حمض النياسين)، وب ٦ (أو البيرودكسين)، وفيتامين ث، وآثار من البيوتين، وفيتامين ك، وفيتامين ي، وفيتامين آ.

وهذه الفيتامينات توجد بمقادير غير مرتفعة، ولكنّها مفيدة، لأنّ العسل وسط ممتاز لحفظها. أمّا نسبة وجودها فمرتبط بنسبة غبار الطلع الذي تجمعه النحلة، كراتب غذائي لها.

٤ ـ يحوي العسل أنواعاً من البروتينات والحموض الأمينية، والحموض العضوية، كحمض النحل، ومشتقّات الكلوروفيل، وعلى منشطات حيوية، وعلى روائح عطرية وغيرها.

٥ ـ الأملاح المعدنية، وأهمّها: أملاح الكلس، والصوديوم، والبوتاسيوم، والمنغنيز، والحديد، والكلور، والفوسفور، والكبريت، واليود.

وتشكّل هذه الأملاح اثنين بالألف من وزن العسل.

٦ ـ يؤكّد الكثير من الباحثين على وجود موادّ مضادّة لنموّ الجراثيم في العسل. كما يعتقد بوجود هرمون نباتي ونوع من الهرمونات الجنسية (من مشتقّات اللاستروجين).

اذاً فالعسل مادّه شديدة التعقيد، تتباين أنواعه قليلاً بتراكيبها، باختلاف الزهور التي جنيت منها.

ولعلّ السرّ في احتوائه على هذه المواد المختلفة ـ التي لم تجمع في أيّ

مادّه غذائية أُخرى على الإطلاق ـ هو جني النحل رحيق كلّ الأزهار والثمرات، استجابةً لنداء خالقها يوم أوحى لها: ﴿ثُمَّ كُلي مِن كُلِّ الثَمَرَاتِ فَاسلُكي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخرجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُختَلفٌ أَلوَانُه﴾.

ميـزات العســل:

١ ـ مقاومتـه دون تسرّب الفساد إليه الى سنين عديدة، بل أحقاب متطاولة، بشرط ابتعاده عن فعل الرطوبة به.

٢ ـ مضادّته للعفونة. وقد أكّد أكثر الباحثين أنّ الجراثيم الممرضة للإنسان لا يمكن لها أن تعيش في العسل، وأنّ العسل فعلاً مبيدٌ لهـا.

وسبب ذلك احتواؤه على حمض النحل، وهو من الموادّ المضادّة للـعفونـة. ولارتفـاع تركيز السكاكير التي تصل الى ٨٠٪ مـن تـركيب العســل، رغـم أنّ الأوساط ذات السكّريّ الخفيف تزيد نشاط الجراثيـم. وهكذا التمر الذي يحوي نسبة عالية من السكاكير لا تنمو فيه الجراثيـم.

٣ ـ وقايته لنخر الأسنان، على عكس سائر السكاكر الصناعية التي هي قابلة للتخمّر بوجود العصيّات اللبنية.

أمّا العسل ففيه قدرة واضحة في الحثّ على نموّ العظام وبزوغ الأسنان وفي التكلّس العظمي والسنّي. وبالتالي يزيد نموّ الطفل ويبعده عن خطر الكساح.

٤ ـ يزيد خضاب الدم وعدد الكريات الحمر.

وتشير الإحصائيـات إلى ندرة إصابة النحّالين بداء السـرطان بـالنسبة إلى أصحاب المهن الأُخرى.

٥ ـ يسرع التئام الجروح وينظّفها، لأنّه يزيد مـحتوى الجـروح مـن مـادّة الفلوتاثيون التي تسرع عملية التعمير والالتئام النسيجي.

٦ ـ إنّه علاج جيّد لتقرّحات الجلد المزمنـة. وخاصّة اذا طبّق المزيـج المؤلّف من ٤/٥ عسل + ١/٥ فازلين.

٧ ـ علاج جيّد للتقيّحات الجلدية.

٨ ـ يؤدّي لشفاء سريع للجروح الواهنة.

٩ ـ ضماد معقّم لعمليات تحتمل التلوّث بالجراثيم.

قال الدكتور بولمان ـ الجرّاح النسائي ـ: وعندي كلّ المعطيات الايجابية كي أُفكّر بهذه المادّة البسيطة التي تجيب على كلّ الأسئلة حول مشاكل الجروح والقروح المتقيّحة... فهي مادّة غير مخرّشة، وغير سامّة، وعقيمة بذاتها، مضادّة للجراثيم، مغذّية للجلد، رخيصة، سهلة التحصير، سهلة الاستعمال ... وفوق كلّ ذلك مادّة فعّالة[1].

فسبحانه عزّ من قائل: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾!!

١٠ ـ يساعد على الهضم بفعّالية الأنزيمات الهاضمة التي يحويها، ويخفض الحموضة المعدية الزائدة، وفعّال في معالجة استطلاق البطن (الإسهال)، ويمنع حدوث الإمساك أيضاً، كما يفيد في معظم أمراض الكبد والصفراء، وفي السلّ، والسعال، والتهاب القصبات، ومعالجة الربو وذات الرئة، والتهاب حواف الأجفان، والقرنية، وحروق العين، والنزلات الشعبية في الأنف، والتهاب اللوزات والبلعوم المزمن.

وفوق ذلك فإنّ العسل يزيد إرواء العضلة القلبية ويمدّها بالطاقة بشكل ممتاز، وغير ذلك كثير، يطول بشرحها.

فسبحانه من عظيم، حيث وكّل حشرة صغيرة لإعداد هكذا مركّب عجيب كثير الخاصّية كبير الفائدة خطير الشأن.

وتمضي الأبحاث بغزارة على العسل، والكلّ يشعر أنّه ما زال في هذا العجين الغريب، الكثير من الأسرار ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنَ العِلمِ إلاّ قَلِيلاً﴾[2].

---

(١) مع الطبّ في القرآن: ص ١٩١.

(٢) الإسراء: ٨٥.

دقائق هـي روائع في التعبير

جاء في القرآن كثير من دقائق تعبير قد لا يلمس القارئ أثناء تلاوتـه مـا يُلفت نظره إلّا اذا تدبّرها بإمعان، وتوقّف لديها متسائلاً: هل وراءها نكتـة خافية؟ أم هناك سرّ مستتر عميق؟

فإذا مالجّ فيها وتعمّق النظر فيها وجدها ظرائف ولطائف تشرف الباحث على خضمّ بحر متلاطم وفيض بحر مـوّاج. وإليـك طرفاً منها:

﴿وازدَادُوا تِسعـاً﴾:

قال تعالى: ﴿وَلَبِثُوا في كَهفِهِم ثَلاَثَ مِائَةٍ سِنينَ وَازدَادُوا تِسعاً﴾[1] هذا الذي نقرأه عن رقدة أصحاب الكـهف، كـانت ثـلاثمائة سـنة كـاملة حسب التـقويم الشمسي، الذي كان عليه العالم المتحضّر، من عدا الأُمّة العربية، حيث لم يكن لها علم بحركة الفلك الشمسي، وكان تقويمها قائماً على دورة الفلك القمري، وهـي تنقص عن دورة الشمس سنوياً بأحد عشر يوماً وربع يوم تقريباً[2]. فكان لا بدّ أن

---

(١) الكهـف: ٢٥.

(٢) أيّام السنة القمرية تتراوح بين ٣٥٣ و ٣٥٤ و ٣٥٥ يوماً. بينما أيّام السنّة الشمسية هي: ٣٦٥ يوماً و ٦ ساعات و ٩ دقائق و ٩ ثوانٍ بالضبط، إلّا شيئاً قليلاً (٥٩٥ /. الثانية) تنقص كلّ سنة.

فتزيد السنة الشمسية على السنة القمرية بمقدار ١١ يوماً وهي مـضروبة فـي (٣٠٠) تساوي (٣٣٠٠) يوماً وتساوي (٩ سنوات وثلاثة أشهر ونصفاً: ١٠٥) بالتقسيم على عدد أيّام القمرية، حساباً بالتقريب، حيث عدم انضباط السنة القمرية تماماً. فصحّ تعبير القرآن بزيادة تسعة أعوام تعبيراً بالدقّـة.

راجـع: التفهيم لأبـي ريـحان البـيروني: ص ٢٣٥، ودهـخـدا: ص ١٦٣ حـرف س.

تزيد سنوات الرقدة ـ لو حسبناها على السنين القمرية ـ بتسعة سنين بالضبط. بالأيّام والساعات والدقائق والثواني.

فقد لزم أن يقول القرآن: إنّ سنوات الرقدة تزيد تسعاً على التقويم الذي عندكم. وهذا سرٌّ ربما خفي لحدّ الآن ... معجزة باقية.

﴿قُل أنزَلَهُ الّذي يَعلَمُ السِرَّ في السَمَاواتِ وَالأرض﴾(١).

تقديم السمع على البصر:

من الدقائق في تعبير القرآن الكريم أنّك تجده يذكر السمع مقدّماً على البصر في أكثر من خمسة وعشرين موضعاً(٢). وهي مسألة يعرف سرّها الآن علماء التشريح (الفسيولوجيا) ويدركون أنّ جهاز السمع أرقى وأعقد وأدقّ وأرهف من جهاز الإبصار، ويمتاز عليه بإدراك المجرّدات كالموسيقى، وإدراك التداخل مثل حلول عدّة نغمات داخل بعضها بعضاً، مع القدرة على تمييز كلّ نغمة على انفرادها، كما تميّز الأُمّ صوت بكاء ولدها من بين زحام هائل من أصوات متداخلة، يتمّ هذا في لحظة من الزمن. أمّا العين فهي تتوه في زحام التفاصيل ولا تعثر على ضالّتها. يتوه الولد عن عين أُمّه في الزحام ولا يتوه عن سمعها. والعلم يمدّنا بألف دليل على تفوّق معجزة السمع على معجزة البصر .. ﴿سَنُرِيهم آياتنا في الآفاق وفي أنفُسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحق﴾(٣).

وقد مرّ بعض الكلام عن ذلك في الجزء الخامس(٤) ضمن دقائق ونكات رائعة من القرآن الكريم.

---

(١) الفرقان: ٦.

(٢) البقرة: ٧ و ٢٠، النساء: ٥٨ و ١٣٨، الأنعام: ٤٦، يونس: ٣١، هود: ٢٠، النحل: ٧٨ و ١٠٨، الإسراء: ١ و ٣٦، طه: ٤٦، الحجّ: ٦١ و ٧٥، المؤمنون: ٢٣، لقمان: ٢٨، السجدة: ٩، غافر: ٢٠ و ٥٦، فصّلت: ٢٠ و ٢٢، الشورى: ١١، والأحقاف: ٢٦، المجادلة: ١، الملك: ٢٣ الإنسان: ٢.

(٣) فصّلت: ٥٣.

(٤) الجزء الخامس ص ٥٤ ـ ٥٥.

﴿يسألونك عن المحيض قل هو أذىً﴾[١]:

ما أرقّه من تعبير عن حالة المرأة أيّام طمثها، لا شقاءً كشقاء أحكام اليهود بشأنها، ولا جفاءً كجفاء جاهلية العرب بحقّها. إنّه تعبير ينمّ عن واقعية هي حالة مَرَضية تعتري المرأه في محيضها، فيجب مراعاة حالها والمداراة مع ضعفها الجسمي، وهي لا تطيق ما تطيقه في حالتها العادية وقد كان اليهود يشدّدون في مسائل الحيض، كما جاء في الفصل الخامس عشر من التوراة: إنّ كلّ من مسّ الحائض في أيّام طمثها يكون نجساً الى المساء، وكلّ من مسّ فراشها يغسل ثيابه بماء ويستحمّ ويكون نجساً الى المساء، وكلّ من مسّ متاعاً تجلس عليه يغسل ثيابه ويستحمّ بماء ويكون نجساً الى المساء، وإن اضطجع معها رجل فكان طمثها عليه، يكون نجساً سبعة أيّام، وكلّ فراش يضطجع عليه يكون نجساً[٢].

وكانت العرب في الجاهلية لا يساكنون الحُيَّض، ولا يؤاكلونهنّ، كما كانت تفعل اليهود والمجوس أيضاً.

لكن القرآن دفع عنها الرجس وجعلها في إطارها الخاصّ من الرفق بحالها والعطف عليها والحنان، لا هجرها ونبذها ومتاركتها أو إحراجها بالخروج عن مساكنها، كما كانت العادة عند المجوس.

قال تعالى: «هو أذىً» أي حالة مرض يعتريها لا أكثر ولا أقلّ. والأذى، المرض الخفيف المؤونة. فهي حالة مؤذية دون إيذاء المرض والضرّ الشديد، كما في قوله تعالى: ﴿ولا جناح عليكم إن كان بكم أذىً مِن مَطَرٍ أو كُنتم مُرضى﴾[٣]. وقوله تعالى: ﴿فَمَن كانَ مِنكُم مريضاً أو بِهِ أذىً مِن رأسِهِ فَفِدية﴾[٤]. وقوله تعالى: ﴿لَن يَضرُّوكُم إلّا أذىً﴾[٥].

---

(١) البقرة: ٢٢٢.
(٢) سفر اللاويين: إصحاح ١٥ عدد ١٩ ـ ٢٤.
(٣) النساء: ١٠٢.
(٤) البقرة: ١٩٦.
(٥) آل عمران: ١١١.

وقد ورد في شريعة الإسلام جواز مراودتها دون الجماع فقط، قال ﷺ: اصنعوا كلّ شيء إلّا الجماع. وفي حديث آخر: لك ما فوق الإزار.

فالحكم الإسلامي بشأنها هو اعتزالها في المحيض فحسب، أي اعتزال موضع حيضها.

وفي ذلك أيضاً لطف بيان وإناقة كلام. بيّن أوّلاً سبب الحكم ثمّ رتّب الحكم عليه، ليكون المكلّف على بصيرة من أمره، أن ليست أحكام الشريعة تحميلاً أو مجرّد تعبّدٍ محض، بل لكلّ أمر سبب ولكلّ حكم وتكليف مصلحة، تعود الى صالح المكلّفين في نهاية الأمر.

والخلاصة: الواجب هو ترك غشيان النساء مدّة الحيض، لأنّه سبب للأذى والضرر أحياناً. وقد أثبت الطبّ الحديث مفاسد غشيانهنّ في تلك الحالة، وأنّ الوقاع في زمن الحيض ربما يؤدّي الى الأضرار التالية ـ حسبما أورده المراغي في تفسيره ـ:

آلام أعضاء التناسل في المرأة، وربما أحدث التهابات في الرحم في المبيضين أو في الحوض، تضرّ صحتها ضرراً بليغاً، وربما أدّى ذلك الى تلف المبيضين وأحدث العقم. وربما دخل موادّ الحيض في عضو التناسل عند الرجل، وذلك يحدث التهاباً صديدياً يُشبه السيلان، وربما امتدّ ذلك الى الخصيتين فآذاهما، ونشأ من ذلك عقم الرجل، وقد يصاب الرجل بالزهري اذا كانت جراثيمه في دم المرأة، وغير ذلك[١].

من بين فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً:

قال تعالى: ﴿وإنّ لكم في الأنعام لعبرةً نُسقيكم ممّا في بطونه من بين فرثٍ ودمٍ لبَناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾[٢].

---

(١) راجع تفسير المراغي: ج ١ ص ١٥٧.

(٢) النحل: ٦٦.

يقول الأُستاذ أحمد كامل ضو: إنّ الجهاز الهضمي يقوم بهضم الغذاء وامتصاص الصالح منه، وهذا الجزء الصالح منه يذهب الى الدم فيختلط به، وباستمرار دخوله في القلب وخروجه منه ثمّ مروره في أجزاء الجسم المختلفة يغذّي ما يحتاج منها الى غذاء.

فالغذاء إذاً يحوّل جزءٌ منه الى دم، وجزء منه الى فرث (ويعدّ فضولات الغذاء غير الصالحة للتغذية). فالدم يسير في أوعية، وهي الشرايين والأوردة المنتشرة في جميع أجزاء الجسم صغيرها وكبيرها، حاملاً المواد الغذائية الصالحة، الذاهبة إليه من القناة الهضمية، ليوزّعها في أنحاء الجسم لبناء الأنسجة وتعويض المستهلك أثناء تأدية الوظائف الحيوية، وهو يغذّي الغُدَد التي منها الغُدَد اللبنية (ضرع الحيوان) المنوط بها إفراز اللبن.

فالغذاء يتحوّل جزء منه الى دم، وهذا الدم يذهب الى ضرع الحيوان، حيث يغذّي الغُدَد اللبنية، فيتحوّل هذا الجزء من الدم الى اللبن.

أمّا الجزء الآخر من الغذاء غير الصالح فإنه يتحوّل الى براز وهو الفرث. فالغذاء ينشطر شطرين هما الدم والفرث ـ أي الى صالح وغير صالح ـ واللبن يخرج من بينهما خالصاً من كلّ شائبة تشوبه من أثر الطعام المهضوم ورائحته، صافياً من كلّ المواد التي كانت في الدم، ناصع البياض طاهراً، وذلك بعملية الغُدَد اللبنية التي خلقها الله سبحانه كمعمل كيمياوي يتحوّل الدم فيه الى لبن، ثمّ يصفّى بأدقّ مصفاة وأنظف أداة.

وقد جعله الله سائغاً للشاربين: سهّل المرور في حلقومهم، حلو الطعم في أفواههم، وأوجد فيه ذلك اليسر لما فيه من فوائد جمّة تعود على مخلوقات إنسية وحيوانية.

واللبن يتكوّن من ماء ودهن وسكّر وزلال وأملاح وفيتامينات، فهو يحتوي على جميع العناصر الغذائية التي يحتاج إليها الانسان والحيوان، ويعتبر بحقّ أهمّ

الأغذيـة على الإطـلاق[1].

وقال الشيخ محمّد الطاهر بن عاشور بـهذا الصـدد فـي تـفسيره «التـحرير والتنوير»:

وجه العبرة في الآيـة أنّ ما تحتويه بطون الأنعـام من العلف والمرعى ينقلب بالهضم في المدة ثمّ الكبد ثمّ غُدَد الضرع مائعاً يُسقَى، وهو مفرز من بين أفـراز فرث ودم.

والفرث: الفضـلات التي تركها الهضـم المعدي فتنحدر الى الأمـعاء فـتصير فرثاً. والدم: أفراز يفرزه الكبد من الغذاء المنحدر إليها، ويصعد الى القلب فتدفعه حركـة القلب الميكانيكية الى الشراييـن والعروق، ويبقى يدور كذلك بـواسـطة القلب.

ومعنى كون اللبن من بين الفرث والدم: أنّه إفراز حاصل في حين إفراز الدم وإفراز الفرث. وعلاقته بالفرث أنّ الدم الذي ينحدر في عروق الضرع يمرّ بجوار الفضـلات البولية والثفلية، فتفرزه غُدَد الضرع لبناً، كما تفرزه غُدَد الكليتين بولاً بدون معالجة زائدة، وكما تفرز تكاميش الأمعاء ثفـلاً بدون معالجـة[2].

---

(١) التفسير العلمي للقرآن في الميزان لأحمد عمر أبي حجر: ٤٦٥ ـ ٤٦٦ نـقلاً عـن كـتاب «القرآن الكريم والعلوم الحديثة» للاستاذ أحمد كامل ضو: ص ٥٦ ـ ٦٠ الطبعة الثانيـة.

(٢) المصدر السابـق.

أنبـــاء الـغيــب

﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت
تعلمـها أنـت ولاقـومُك من قبـلِ هـذا ﴾

ويلحق بالإعجاز العلمي «الإعجـاز الغيبي»
كلاهما إنباء عن غياهب الوجود

﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه
أحداً إلّا من ارتضى من رسـول ﴾

أنباءُ الغيــب

﴿تلك من أنباءِ الغيب نُوحيها إليك ما كنت
تعلمهــا أنت ولا قومُك من قبلِ هــذا﴾[1].

من وجوه الإعجاز للقرآن الكريم ـ حسبما ذكره العلماء ـ الإعجاز بما جاء فيه من أنباء الغيب، وهو كلّما كان غائباً عن النبي ﷺ وقومه، ممّا لم يشــهدوا حوادث الواقعة أو لم يحضر وقتها، فلم يكونوا على علمٍ بتفاصيلها.فيدخل فــي الغيب بهذا المعنى كلّ ما ورد في القرآن عن بداية نشأة الكون وما وقع منذ خلق آدم عليه السلام الى مبعث رسول الله ﷺ من عـظيمات الأُمـور ومـهمّات حـوادث التاريخ. وكذلك يشمل ما غاب عنهم في وقته من الحوادث التي كانت تـحدث وجاء الإخبار بها عـن طريق الوحــي، كـإخبار الله تـعالى بــما يكـيده اليـهود والمنافقون وما ينوون من دسائس خبيثة، كانت أو كادت تقع حينذاك. ويشمل أيضاً ما تضمّنه من الإخبار عن كائنات وحوادث ستقع في المستقبل.

وعليه فكلمــة «الغيب» تشمل كلّ هذه المعاني الثلاثـة: غيب الماضي، غيب الحاضر، غيب المستقبل. وإليــك نماذج من هذه الغيوب:

١ ـ غيــب المــاضــي:

لقد سمّى الله تعالى الإخبار عن الأُمم الماضية غيباً، وجعل ذلك دليــلاً على صدق النبوّة، وأنّ القرآن الكريم وحيٌ من الله عزّ شأنــه. فقد جاء في مواضع من القرآن ـ عند سرد قصص الأنبياء وأُممهــم ـ أنـّه من أنباء الغيب، بدليل أنـّه «ما

(١) هــود: ٤٩.

كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا» فالنبي ﷺ أمّي لم يقرأ ولم يكتب. وقومه أُمّيون ليسوا بأهل كتاب يقرأونه أو يدرسونه، فلا علم لهم جميعاً بحوادث ماضية، إذ لم يكونوا شهودها ولا قرأوها في كتاب أو درسوها في معهد.

□ قال تعالى بشأن قصّة مريم وكفالة زكريا لها:

﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنتَ لديهم إذ يُلقُون أقلامهم أيُّهُمْ يكفُلُ مريمَ وما كنت لديهم إذ يختَصِمون﴾(١).

□ وقال سبحانه بشأن قصّة نوح وقضية الطوفان:

﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومُك من قبلِ هذا﴾(٢).

□ وقال بشأن قصّة يوسف وإخوته:

﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهِم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكُرون﴾(٣).

نعم، إنّ هذه القصص مع هذه التفاصيل كانت خافية على العرب بالذات، وعلى سائر الناس حتى أهل الكتاب، ممّا جاءت جوانب من تلكم الأخبار في كتبهم محرّفة ومشوّهة، فجاء نصّها الصحيح النزيه في القرآن الكريم، دليلاً على كونها وحياً من السماء، غير مستقاة من تلكم الأساطير.

□ وهكذا قبل عرض قصّة موسى يقول تعالى:

﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحقّ لقومٍ يؤمنون﴾(٤).

وبعد انتهاء القصّة وذكر تفاصيلها وما فيها من عبر وعظات يقول:

﴿وما كنت بجانب الغربيّ إذ قضينا الى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين * ولكنّا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العُمر وما كنتَ ثاوياً في أهل مَديَنَ

---

(١) آل عمران: ٤٤. (٢) هود: ٤٩. (٣) يوسف: ١٠٢.
(٤) القصص: ٣.

تتلو عليهم آياتِنا ولكنّا كنّا مرسِلين * وما كنت بجانب الطور إذ نـادَينا ولكـن رحمـةً من ربِّك لِتُنذِر قوماً مّا أتاهم من نذيرٍ من قبلك لعلّهم يتذكّرون﴾[١].

* * *

إنّ ورود أخبار الأُمم الماضية والقرون الخالية بـهذا التـفصيل الدقـيق فـي القرآن الكريم لدليل على كونـه وحياً من عند الله علّام الغيوب، وليس من عـند البشر ذي العلم القصير، ولا سيّما من مثل محمّد ﷺ الذي نشأ في بيئةٍ لا تمكّنـه الاطّـلاع على مثل هذه الأُمور على دقائقها وظرائفها، ممّا لا سبيل الى العلم بها سوى التلقّي عن منبع أصيل ركيـن، إذ لم يكن في تلك البيئـة من يـعرف هـذه الأنباء على هذا الوجـه الدقيق النزيـه.

﴿وما كنت تتلو مـن قـبله مـن كـتابٍ ولا تـخُطّـهُ بـيمينك إذاً لارتـاب المبطِلُون﴾[٢].

* * *

وما تهمة قريش بأنّها ﴿أساطيرُ الأوّليـن اكـتتبها فـهي تُـملىٰ عـليه بكـرةً وأصيـلاً﴾[٣] إلّا هراءً عارماً، وافتراءً مفضوحاً، جاءت على خـلاف ما استيقنتها نفوسهـم من أُمّيّة الرسول ﷺ وعدم إمكان اتّصاله بذوي الثقافات الراقية فـي ذلك العهد، حيث إحاطتهم بأحواله في سفره وحضره ومـدى عـلاقاتـه بسـائر الناس.

إنّهم كانوا يحيطون علماً بأحوال الرسول ﷺ قبل البعثة، من عدم اتّـصال بأحد من أهل الكتاب،ولم تكن له أسفار علمية للبحث والتنقيب عن آثار الأُمم. لكنّهم مع ذلك قالوا ـ كذباً وزوراً ـ: لا بدّ أنه يتعلّمها من أحد فهو يمليها عليـه. لكن مَن الذي أُوتي علم الأولين والآخرين حتّى يستطيع املاءها عـلى مـثل محمّد ﷺ؟! ولماذا لم يدع هو النبوّة بـدل مـحمّد ﷺ إذا كـان هـو الأصـل

(١) القصص: ٤٤ ـ ٤٦. (٢) العنكبـوت: ٤٨. (٣) الفرقـان: ٥.

ومحمّد ﷺ الفرع ؟! لذا كانت تهمتهم هذه اعترافاً منهم بأنّ هذه الأنباء لا يمكن أن يأتي بها محمّد ﷺ من عند نفسه، ولكن تمويهاً وتضليلاً على الناس وخداعاً لأنفسهم فليلصقوها بأحد من أتباعه أو سائر آحاد الناس، ورواجاً لفريتهم هذه ليكن ذلك المملي شخصاً غريباً عن قريش، لعلّ في ذلك زيادة تضليل وتمويـه.

فليكن صهيب الرومي أو سلمان الفارسي أو بلعام الرومي وكان قيناً بمكّـة نصرانياً، أو عبداً لبني الحضرمي يقال له: يعيش أو عائش أسلم وحسن إسلامه، أو غلامين نصرانيّين كانا في الجاهلية من أهل عين تمر اسم أحدهما يسار والآخر خير. كانا صيقلين بمكّة يقرءان كتاباً لهما بلسانهم، وكان رسول الله ﷺ ربّما مرّ بهما واستمع لقراءتهما، قالوا إنّما يتعلّم منهما[1].

الأمر الذي تولّى القرآن الردّ عليه بقوله تعالى:

﴿وقال الّذين كفروا إنْ هذا إلّا إفكٌ افتراه وأعانه عليه قـومٌ آخـرون فـقد جاؤوا ظلماً وزوراً * وقالوا أساطيرُ الأوّلين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرةً وأصيلاً * قل أنزلَهُ الذي يعلم السرّ في السماوات والأرض إنّه كان غفوراً رحيماً﴾[2].

﴿ولقد نعلم أنّهم يقولون إنّما يعلِّمُهُ بشرٌ لسان الذي يُلحدِون إليه أعجميٌّ وهذا لسانٌ عربيٌّ مبيـن﴾[3].

يقول الإمام الرازي ـ بشأن دلالة القصّة على صدق الرسالة ـ: إنّ دلالتها من وجهيـن:

أحدهما: كما قال تعالى في سورة الشعراء بعد ذكر القصص: ﴿وإنّه لتـنزيلُ ربِّ العالمين * نزَل به الرُوحُ الأميـن * على قلبك لتكونَ من المُـنذِرين﴾[4]. وجـه الاستدلال أنّه ﷺ لمّا لم يتعلّم علماً ولم يقرأ كـتاباً ولم يـتتلمذ لأُسـتاذ استحال منه عادةً درايـة هذه القصص إلّا عن وحي الله وتنزيـله.

---

(١) راجـع مجمع البيان: ج ٦ ص ٣٨٦.
(٢) الفرقـان: ٤ ـ ٦.
(٣) النحـل: ١٠٣.
(٤) الشعـراء: ١٩٢ ـ ١٩٤.

والثاني: أنّه كان يذكر القصّة الواحدة مراراً مختلفة بألفاظ مختلفة. وكلّ ذلك مشابهة في الفصاحـة. مع أنّ الفصيح إذا ذكر قصّةً مرّةً واحدةً بالألفاظ الفصيحة عجز عن ذكرها بعينها مرّةً أُخرى بألفاظ فصيحة. فيستدلّ بفصاحة الكـلّ عـلى كونها من عند الله تعالى لا من البشر[1].

٢ ـ غيـب الحاضـر:

والمقصود: ما جرى على عهد رسول الله ﷺ من حوادث لم يحضرها هو ولا الخصّيصون من أصحابه، فنزل القرآن متضمّناً لها ومخبراً بحقيقة مـا جـرى. حيث لولا إخبار القرآن بها لظلّت مكتومة على المسلمين وغيرهم مـمّن غـابت عنه، ولا سيّما الدسائس الخفيّة التي كان يقوم بها المنافقون، وكـانت المـحاولة شديدة على إخفائها، فافتضحهم القرآن الكريم.

وكان في تنبيه القرآن الكريم الرسولَ ومن معه من المؤمنين عـلى الحـقيقة وتوجيههم الى ما ينبغي اتّخاذه حيال الوقائع، كان في ذلك ضمان لسلامة سـير الدعوة وتجنيبٌ لها عن الوقـوع فـيما كـان يـخطّط لهـا الأعـداء مـن الكـفّار والمنافقـين.

فالغايـة الأساسية من الغيب الحاضر هو تأييد الدعوة والأخذ بيدها والسير بها على بيّنة من أمرها، وإن كان قد يضمّ الى ذلك جانب دلالتـه عـلى صـدق الرسالة، ووجود تلك الصلة الوثيقة بينها وبين ربّ السماء والأرض العالم بغيوبهما عن أعين الناس، حيث لم يكن لصاحب الدعوة ولا لذويـه عـلم بـما دار فـي غيابهـم، وما خطّط لهم وكاد يجري تنفيذه، حتّى أماط القرآن الكريم اللثـام عنها وكشف عن واقعـها.

ولنذكر أمثلة من هذا النوع من الإعجاز الغيبي، ليظهر لنا من خلالها الهدف

---

(١) أسرار التنزيل: ص ٧ (الفرقان والقرآن لخالد العكّ: ص ٢٣٨).

الأساسي الذي رمى إليه هذا التوجيه الربّاني، والأهداف اللاحقة أو التبعية التي تستفاد من سوق الخبر أو الحادثة.

وأغلب هذه الحوادث تتعلّق بكشف خطط أعداء الله وكيدهم للقضاء على الجماعة المسلمة، وإطفاء نور الله ﴿ويأبى اللهُ إلّا أن يتمّ نورَه ولو كرِهَ الكافرون﴾[1].

فممّا جاء بشأن اليهود قوله تعالى:

﴿ومن الّذين هادوا سمّاعون للكَذب سمّاعون لقومٍ آخرين لم يأتوك يُحرِّفونَ الكَلِمَ من بعد مواضعه يقولون إن أُوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يُرِدِ اللهُ فتنَتَهُ فلن تملك له من الله شيئاً أُولئك الذين لم يرِدِ اللهُ أن يُطهّر قلوبَهم لهم في الدنيا خزيٌ ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم﴾[2].

﴿سمّاعون للكَذِب أكّالون للسُحتِ فإن جاؤوكَ فاحكُم بينهم أو أعِرض عنهم وإن تُعرض عنهم فلن يضرّوك شيئاً وإن حكمتَ فاحكُم بينهم بالقِسط إنّ اللهَ يُحبُّ المُقسطين * وكيف يُحكّمونك وعندهُمُ التوراةُ فيها حُكم الله ثم يَتَولَّونَ من بعد ذلك وما أُولئِكَ بالمؤمنين﴾[3].

روى الطبرسي عن الإمام محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام وجماعة من المفسّرين أنّ هذه الآيات نزلت بشأن امرأة من خيبر ذات شرف بينهم زنت مع رجل من أشرافهم، وهما محصَنان، فكرهوا رجمهما. فأرسلوا الى يهود المدينة أن يسألوا النبي صلى الله عليه وآله عن ذلك طمعاً في أن يأتي لهم برخصة. فانطلق قوم منهم كعب بن الأشرف وكعب بن أسيد وشعبة بن عمرو ومالك بن الصيف وكنانة بن أبي الحقيق وغيرهم، فقالوا: يا محمّد أخبرنا عن الزاني والزانية إذا أُحصنا ما حدّهما؟ فقال: هل ترضون بقضائي في ذلك؟ قالوا: نعم. فنزل جبرائيل بالرجم، فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به.

---

(١) التوبة: ٣٢. (٢) المائدة: ٤١. (٣) المائدة: ٤٢ و ٤٣.

فدعا رسول الله ﷺ عبد الله بن صوريا ـ أحد علمائهم بخيبر وكان عالماً بالتوراة ـ فقال له النبي ﷺ: إنّي أُنشدك بالله، هل تجدون في كتابكم الرجم على من أُحصن؟ قال ابن صوريا: نعم، هكذا أنزل الله في التوراة، فقال له النبي ﷺ: فماذا كان أول ما ترخّصتم به أمر الله ـ أي تهادنتم به ـ؟ قال: كنّا إذا زنى الشريف تركناه واذا زنى الوضيع أقمنا عليه الحدّ، فكثر الزنا في أشرافنا، فوضعنا الجلد والتحميم[1] وهو أن يجلد أربعين جلدة ثمّ يسوّد وجهه، ويطاف بالبلد راكباً على حمار وجهه على دبر الحمار، فجعلوا هذا مكان الرجم.

فقالت اليهود لابن صوريا: ما أسرع ما أخبرته به، وما كنت ـ لما أتيناعليك ـ بأهل، ولكنك كنت غائباً فكرهنا أن نغتابك. فقال: إنّه أنشدني بالتوراة، ولولا ذلك لما أخبرته به، فأمر بهما النبي ﷺ فرجما عند باب المسجد، وقال: أنا أول من أحيا أمر الله إذ أماتوه، فأنزل الله في ذلك:

﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولُنا يبيّنُ لكم كثيراً مّما كنتم تُخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين * يهدي به اللهُ مَنِ اتّبعَ رضوانَهُ سُبُلَ السلام ويُخرجُهُم من الظُلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراطٍ مُستقيم﴾[2].

فقام ابن صوريا ووضع يديه على ركبتي رسول الله ﷺ ثمّ قال: هذا مقام العائذ بالله وبك أن تذكر لنا الكثير الذي أمرت أن تعفو عنه. فأعرض النبي ﷺ عن ذلك. ثمّ سأله ابن صوريا مسائل كثيرة، أوردها الطبرسي في تفسيره[3].

ومن هذا القبيل ما أخبر القرآن الكريم عن أساليبهم الملتوية في إدخال الوسواس والأحزان في قلوب المؤمنين.

قال الطبرسي ـ في تفسير قوله تعالى: « ألم تَر الى الذين نُهُوا عن النجوى ثمّ

---

(١) قال ابن الأثير: في حديث الرجم «إنه مرّ بيهودي محمّم مجلود» أي مسودّ الوجه، من الحُمَمة وهي الفحمة.

(٢) المائدة: ١٥ و ١٦.

(٣) مجمع البيان: ج ٣ ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

يعودون لِمَا نُهوا عنه » ـ: نزلت في اليهود والمنافقين، كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين، وينظرون إليهم ويتغامزون بأعينهم، فإذا رأى المؤمنون نجواهم حسبوا أن بلغهم عن أقربائهم وإخوانهم الذين خرجوا الى السرايا شيء، قتل أو أسر أو هزيمة، فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم. فلمّا طال ذلك شكوا الى رسول الله ﷺ فنهاهم عن النجوى دون المؤمنين، فلم ينتهوا عن ذلك، فنزلت الآية توبيخاً وتنديداً لهم:

﴿ألم تَرَ إلى الذين نُهُوا عن النجوى ثمّ يعودونَ لِمَا نُهوا عنه ويتناجَون بالإثم والعُدوانِ ومعصية الرسول واذا جاؤوك حَيَّوك بما لم يُحيِّكَ به الله ويقولون في أنفُسِهم لولا يُعذِّبُنا اللهُ بما نقول حَسبُهُم جهنّمُ يصلونَها فبئس المصير﴾[1].

وذلك أنّ اليهود كانوا يأتون النبي ﷺ فيقولون: سام عليك، والسام الموت، وهم يوهمون أنه السلام عليك. وهكذا كانوا يحيّون سائر المسلمين. وكانوا يزعمون أن لو كان نبياً لم يكد يخفى عليه ذلك، ومن ثمّ سوف لا يعذّبهم الله على صنيعهم هذا، فافتضحهم الله بنزول الآية، وحتم عليهم العذاب وبئس المصير[2].

ثمّ قال تعالى ـ فصلاً لقوله الحقّ ـ: ﴿يا أيّها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجَوا بالإثم والعُدوان ومعصية الرسول وتناجَوا بالبرّ والتقوى واتّقوا الله الذي إليه تُحشرون * إنّما النجوى من الشيطان لِيَحزُنَ الذين آمنوا وليس بضارِّهم شيئاً إلّا بإذن الله وعلى الله فليتوكّل المؤمِنون﴾[3].

* * *

وممّا ورد بشأن المنافقين قوله تعالى:

﴿وممّن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مرَدوا على النفاق لا تعلمُهم نحن نعلمُهم سنعذّبهم مرّتين ثمّ يردّون الى عذابٍ عظيم﴾[4].

---

(١) المجادلة: ٨

(٢) مجمع البيان: ج ٩ ص ٢٤٩ ـ ٢٥١.

(٣) المجادلة: ٩ و ١٠.

(٤) التوبة: ١٠١.

والفئة الثانية التي لم يقرّ قرارها في المدينة ـ بعد مهاجرة المسلمين إليها والإخاء الحاصل بينهم وبين الأنصار من أهل المدينة ـ هم فئة المنافقين، وكان يتزعّمها عبد الله بن أُبيّ بن سلول. فكان هو وأذنابه لم يفتأوا يحاولون النيل من الإسلام ووضع بذور الشقاق والخلاف بين المسلمين، كلّما وجدوا الى ذلك سبيلاً.

ولكن آيات القرآن الكريم كانت لهم بالمرصاد، حيث كانت تكشف عن دسائسهم وعن أعمالهم الخبيثة، وعن دخيلة أنفسهم، ليكون المسلمون على بيّنة من أمرهم.

فمن الأساليب التي كان يلجأ إليها المنافقون حرب الأعصاب. ففي غزوة أُحد قام رأس النفاق بشطر الجيش وسحب أنصاره منه، وهم زهاء الثلاثمائة، يريدون بذلك إيقاع البلبلة والاضطراب في قلوب المسلمين. ولمّا أُصيب المسلمون في المعركة أبدوا شماتة الأنذال الجبناء.

والقرآن يصوّر خسّتهم القائمة على خبث ولؤم وجبن، ويبرز الحقيقة الكامنة فيهم. وهي: أنّ ألسنتهم وصدورهم إنّما تعيشان باستمرار على طرفي نقيض.

قال تعالى:

﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ولِيعلَمَ المؤمنين * وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتِلوا في سبيل الله أوِ ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للايمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون * الّذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قُتِلُوا قل فادرأوا عن أنفُسِكُمُ الموت إن كُنتم صادقين ﴾[1].

قال الطبرسي: إنّ عبد الله بن أُبيّ بن سلول والمنافقين معه من أصحابه انخزلوا يوم أُحد نحواً من ثلاثمائة رجل وقالوا: علامَ نقتل أنفسنا. وقال لهم عبد الله بن

---

(١) آل عمران: ١٦٦ ـ ١٦٨.

عمرو بن حرام الأنصاري: تعالوا قاتلوا في سبيل الله واتّقوا الله ولا تخذلوا نبيكم، أو ادفعوا عن حريمكم وأنفسكم[١].

* * *

وفي غزوة الخندق كان لنذالة المنافقين دورها، فقد حفر المسلمون الخندق حول المدينة ليكونوا في مأمن من هجوم أحزاب العرب الكافرة، ولكن المسلمين أصبحوا مع ذلك في خطر يتهدّدهم من داخل المدينة من قبل اليهود ولا سيّما بني قريظة الذين غدروا بالعهد ليطعنوا بالمسلمين من خلف. ولم يكتف المنافقون بمهمّة التثبيط حتّى قال قائلهم ـ هو معتب بن قشير ـ: كان محمّد يعدنا كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا يخشى أن يذهب الى الغائط. لم يكتفوا بهذا أيضاً بل قاموا بدور الانسحاب مرّةً أُخرى، راجعين الى بيوتهم، متذرّعين بعذر لئيم، قالوا: إنّ بيوتنا عورة ـ مكشوفة ـ معرّضةً للخطر فلا بدّ لهم أن يتولّوا حراستها والدفاع عنها بأنفسهم، علماً بأنّ الخطر لم يكن كامناً على بيوتهم، بل على الجبهة التي وقف المسلمون أمامها، ولكن خسّة الطبع زيّنت لهم هذا الغدر وسوّغته، فتركوا الميدان[٢].

وفي ذلك يقول تعالى:

﴿هنالك ابتُلِيَ المؤمنون وزُلزِلُوا زِلزالاً شديداً * وإذ يقول المنافقون والّذين في قلوبهم مرضٌ ما وعدَنا الله ورسولُه إلّا غُروراً * وإذ قالت طائفةٌ منهم يا أهل يثرب لا مُقام لكم فارجعوا ويستأذنُ فريقٌ منهمُ النبيَّ يقولونَ إنّ بُيُوتَنا عَورَة وما هيَ بعَورَة إن يريدونَ إلّا فراراً﴾[٣].

* * *

وفي غزوة تبوك يتكرّر موقف التخاذل والنذالة والانسحاب، بعد أن حاولوا

---

(١) مجمع البيان: ج ٢ ص ٥٣٣.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ٣ ص ٢٣٣، مجمع البيان: ج ٨ ص ٢٤٧.

(٣) الأحزاب: ١١ ـ ١٣.

تثبيط المسلمين عن الخروج للجهاد. وجهّز رأسهم جيشاً من المنافقين ينافس به جيش المسلمين، حتّى كان يقال: ليس عسكر ابن أُبيّ بأقلّ العسكرين. ثمّ أعلن حرب الأعصاب حين قرّر التخلّف والانسحاب، وهو يقول: يـغزو مـحمّد بـني الأصفر ـ مع جهد الحال والحرّ والبلد بعيد ـ الى ما لا قبل لديه، يحسب محمّد أنّ قتال بني الأصفر اللعـب، والله لكانّي أنظر الى أصحابه غداً مقرّنين في الحبال[١].

هذا ديدنهم في الشدائد وعند الاستعداد للمعارك، وهو أن يفرّوا من الميدان، ويبرّرون هزيمتهم هذه بأتفه المعاذير. وانظر الى عذر أحدهم ـ هو الجدّ بن قيس ـ يقول: إنّه يخشى على نفسه الفتنة من نساء الروم لجمالهنّ[٢].

وانظر إلى الآيات وهي تُعري حقائقهم:

﴿إنّما يستأذنـك الذين لايؤمنـون بالله واليوم الآخـر وارتابت قُلوبُهم فهم في رَيبهم يتردّدون * ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عُدّةً ولكن كَرِهَ اللهُ انبعاثَهم فثبّطهم وقيل اقعُدوا مع القاعدين * لو خـرجـوا فـيكم مـا زادُوكـم إلّا خـبالاً ولأوَضعوا خِلالكـم يبغونكم الفتنة وفيكم سمّاعونَ لهم والله عليمٌ بالظالمين * لقدِ ابتغَوُا الفتنةَ من قبلُ وقلّبوا لك الأُمور حـتّى جـاء الحـقُّ وظـهر أمـرُ اللهِ وهـم كارهونَ * ومنهم من يقولُ ائذن لي ولا تفتِنّي ألَا في الفـتنةِ سَـقَطوا وإنّ جـهنّم لمُحيطةٌ بالكافرين﴾[٣].

* * *

وأخيراً وبصفة عامّة يصف العرب ـ ولا سيّما البدو منهم ـ بـالنفاق العـارم، وأنّـهم لا يزالون يكيدون بالاسلام، وحتّى الذين أسلموا في ظاهر الأمـر، إنّـما يُبطنون الكفر والنفـاق.

قال تعالى بشأنهـم:

---

(١) سيرة ابن هشـام: ج ٤ ص ١٦٨.
(٢) سيرة ابن هشام: ج ٤ ص ١٥٩، مجمـع البيان: ج ٥ ص ٣٦.
(٣) التوبـة: ٤٥ ـ ٤٩.

﴿الأعراب أشدّ كفراً ونفاقاً وأجدرُ أن لا يعلموا حدودَ ما أنزلَ اللهُ على رسوله واللهُ عليمٌ حكيمٌ * ومِنَ الأعراب من يتّخذُ ما يُنفِقُ مَغرَماً ويتربّصُ بكمُ الدوائرَ عليهم دائرةُ السَّوءِ واللهُ سميعٌ عليمٌ * ـ الى قوله ـ ومِمّن حولَكم من الأعراب منافقونَ ومن أهل المدينةِ مَرَدُوا على النفاقِ لا تعلمُهُم نحنُ نعلَمُهُم سنُعذّبهم مرّتين ثمّ يردّون الى عذابٍ عظيم﴾(١).

* * *

وما ورد بشأن مسجد ضرار:

﴿والذينَ اتّخذوا مسجداً ضِراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حاربَ اللهَ ورسولَهُ من قبلُ ولَيحلِفُنَّ إن أردنا إلّا الحُسنى واللهُ يشهدُ إنّهم لكاذبون * لا تَقمْ فيه أبداً لَمَسجِدٌ أُسِّسَ على التقوى من أول يومٍ أحقُّ أن تقومَ فيه فيه رجالٌ يُحبُّونَ أن يتطهّروا واللهُ يُحبّ المطهرين * أفمن أسَّسَ بُنيانَهُ على تقوىً من الله ورضوانٍ خيرٌ أم من أسّسَ بُنيانَهُ على شفا جُرفٍ هارٍ فانهار به في نار جهنّم واللهُ لا يهدي القومَ الظالمين * لا يزالُ بُنيانُهُمُ الذي بَنَوا ريبَةً في قلوبهم إلّا أن تَقطّعَ قلوبُهُم واللهُ عليمٌ حكيم﴾(٢).

هذه الآيات نزلت بعد منصرفه ﷺ من غزوة تبوك، وكان ﷺ قد وعدهم بالصلاة في مسجدهم، فجاءت الآيات نهياً وتحذيراً، فدعا رسول الله ﷺ مالك ابن الرخشم وابن عدي وقال لهما: انطلقا الى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وحرّقاه، ففعلا(٣).

٣ ـ غيب المستقبل:

إخبار عن حوادث ستقع في مستقبل قريب أو بعيد، ولا سيّما القريبة منها

---

(١) التوبة: ٩٧ ـ ١٠١. (٢) التوبة: ١٠٧ ـ ١١٠.

(٣) سيرة ابن هشام: ج ٤ ص ١٧٤.

كانت دلائـل على صدق النبوّة، وأمّا البعيدة منها فهي ما ينتظر دورهـا والزمن كفيل بإظهار ذلك للأجيـال، الأمر الذي لا يمكـن البتّ بوقوعـه فيما يأتي لسوى علّام الغيوب.

من ذلك، التحدّي بالقرآن بالنسبة الى أجيال قادمة، ممّا يجعل القطع في مثله دلـيلاً على تداوم الإعجاز من ناحية التحدّي عبر الأيّام.

قال تعالى: ﴿وإن كُنتُم في ريـبٍ ممّا نزّلنا على عبدنا فائتوا بسورةٍ من مثله وادعُوا شهداءَكم من دون الله إن كُنتُم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ...﴾[١].

فهذه القاطعية في عدم إمكان المعارضة مدى الأجيال لدليل قاطع على صدق الرسالة، وأنّه من كلامـه تعالى العالم بما كان وما يكـون.

الانسان مهما بلغ من قدرة على الكـمال والعـلم والأدب، فـإنّه إن أمكـنه التحدّي مع أبناء زمانه ـ حيث يعرف مدى قابلياتهم ـ فإنّه عاجز عن إمكان معرفة مقدرة ذوي الفضائل في مستقبل الأيّـام.

قال تعالى: ﴿قل لئنِ اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآنِ لا يأتون بمثله ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً﴾[٢].

* * *

ومن ذلك، إخباره القاطع بظهور الإسلام وغلبة الدين عـلى الإلحـاد غـلبةً ظاهرة، وأنّ الإسلام يعلو وما يعلىٰ.

﴿هو الّذي أرسل رسوله بالهُدى ودينِ الحقِّ لِيُظهِرَهُ على الدينِ كلّه وكفىٰ بالله شهيداً﴾[٣].

﴿يريدون لِيُطفئوا نور الله بأفواههم والله مُتمّ نورهِ ولو كره الكافرون * هـو الّذي أرسل رسـوله بـالهُدى وديـنِ الحـقِّ لِـيُظهِرَهُ عـلى الديـن كـلّه ولو كـره المشركون﴾[٤].

(١) البقرة: ٢٣ و ٢٤. (٢) الإسـراء: ٨٨. (٣) الفتـح: ٢٨.
(٤) الصـف: ٨ و ٩.

﴿يريدون أن يُطفئوا نورَ الله بأفواههم ويأبى اللهُ إلّا أن يُتمّ نورِه ولو كره الكافرون * هو الّذي أرسل رسوله بالهُدى ودين الحقّ لِيُظهِره على الدينِ كلّه ولو كره المشركون﴾[1].

ففي هذه الآيات الثلاث وعدٌ حتمٌ بظهور الإسلام وغلبته على الكفر والإلحاد، رغم معارضة المناوئين الألدّاء، وهو إخبار غيبيّ عن مستقبل قادم، وقد تجلّت الحقيقة بصدق مقام الرسالة العامّة مدى القرون والأعوام.

وفي قوله «على الدين كلّه» دلالة واضحة على سطو الإسلام على سائر الأديان الراهنة في أرجاء الأرض، إمّا ظهوراً بالغلبة والإبادة، أو بسطوع البرهان القاطع. فقد ﴿جاء الحقُّ وزهَق الباطلُ إنّ الباطلَ كان زهوقاً﴾[2].

ولعلّ في ذلك إلماعة الى ظهور دولة الحقّ، على يد مهديّ آل محمّد عجّل الله فرجه، والتي تملأ بها الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً، اللهمّ عجّل فرجه وسهّل مخرجه[3].

* * *

ومن ذلك ما توعّد القرآن أُناساً معيّنين معروفين وحدّد مصيرهم في هذه الحياة الى شقاء وفي الآخرة شمول عذاب عظيم، وأنّهم سوف يموتون على الكفر ويخلدون في نار جهنّم داخرين.

قال تعالى بشأن أبي لهب:

﴿تبّت يدا أبي لهبٍ وتبَّ * ما أغنى عنه مالُه وما كسب * سيصلىٰ ناراً ذات لهب * وامرأتُه حمّالةَ الحطب * في جيدها حبلٌ من مسد﴾[4].

وقال بشأن الوليد بن المغيرة:

﴿ذرني ومَن خلقتُ وحيداً * وجعلتُ له مالاً ممدوداً * وبنينَ شهوداً *

---

(١) التوبة: ٣٢ و ٣٣.
(٢) الإسراء: ٨١.
(٣) راجع مجمع البيان للطبرسي: ج ٩ ص ١٢٧.
(٤) المسد: ١ ـ ٥.

ومهّدتُ له تمهيداً * ثمّ يطمعُ أن أزيدَ * كلّا إنّه كان لآياتنا عـنيداً * سـأُرهِقُه صَعُوداً * إنّه فكّر وقدّرَ * فقُتِلَ كيف قَدّرَ * ثمّ قُتِلَ كيف قَدّرَ * ثمّ نظرَ * ثـمّ عبسَ وبَسَرَ * ثمّ أدبرَ واستكبرَ * فقالَ إنْ هذا إلّا سِحرٌ يُؤثَر * إنْ هذا إلّا قولُ البَشر * سَأُصليهِ سَقَر﴾(١).

وبشأن أبي جهل:

﴿أرأيتَ الّذي ينهى * عبداً إذا صلّى * أرأيت إن كان على الهُدى * أو أمرَ بالتقوى * أرأيت انْ كذّبَ وتـولّى * ألم يَعلم بأنّ اللهَ يرى * كلّا لَـئِن لم يـنتَهِ لنسفعاً بالناصية * ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئةٍ * فليدعُ ناديَهُ * سنَدعُ الزبانية﴾(٢).

فلو لم يكن ذلك من علّام الغيوب ـ المحيط بالماضي والحال والمستقبل ـ لما صحّ ذلك في ما أخبر به. بل لما كان من عاقل البشر أن يضع مصير دعوتـه على شيء معيّن يحتمل خلافـه. فلو كان آمن واحد من هؤلاء الثلاثـة الذين دمغهم القرآن بـالكفر والشـقاق المـخلّد ذكـره فـي زمـرة الأشـقياء لانـطفأت شـعلة الإسلام وقامت الحجّة على القرآن ومن جاء به. مثـلاً لو آمن أبو لهبَ لما كـان لقوله تعالى: «سيصلّى ناراً ذات لهب» منصرف ولا واقع مفهوم، ولأصبحت هذه الآية ـ مثلاً ـ في وادٍ والواقع في وادٍ آخـر.

قال الدكتور مصطفى مسلم: وكيف كان محمّد صلى الله عليه وآله يقابل الناس بـها، وقـد أصبح أبو لهب من الصحابة كعمر بن الخطّاب وأحزابه من الّذين كان لهم موقف معادٍ للاسلام قبل أن يدخلوا فيه(٣).

هذه معجزة القرآن الباهرة، وأيّ معجزة أبهر وأقهر من أمرٍ لا يكلّف صاحبه أكثر من كلمة يقولها بلسانه، فيبطل بها قول محمّد صلى الله عليه وآله ويفسد أمره جميعه، ثمّ لا يقول تلك الكلمة، ولا تسمح له الحياة أن يقولها. فقد عاجلَته المنيّة قبل يوم الفتح

---

(١) المدّثّر: ١١ ـ ٢٦. (٢) العلـق: ٩ ـ ١٨.

(٣) أُنظر مباحث في إعجاز القرآن ص ٢٤٧ ـ ٢٦٥ ط جدّة.

الذي دخلت فيه قريش كلّها الإسلام واعتنقته رغم أُنوفها.فربّما كان مصير أبي جهل وأبي لهب والوليد مصير سائر صناديد قريش لو عاشوا ذلك اليوم. فلو كان لكان إسلامهم إذ ذاك هدماً للاسلام بتقويض أكبر دعامة له والعياذ بالله.

أفلا يدلّ ذلك جليّاً أنّ القرآن كلامه تعالى، كلام مَن خلق الموت والحياة، والذي بيده الآجال، ومصير كلّ شيء بيده، ومآل كلّ أمر إليه ؟! وهو الذي ضمن حفظ دينه وكتابه: ﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾(١).

﴿وما كانَ هذا القُرآنُ أن يُفترى من دون الله ولكن تصديقَ الّذي بين يديه وتفصيل الكتابِ لا ريبَ فيه من ربِّ العالمين﴾(٢).

* * *

ولو ذهبنا نتتبّع أخبار القرآن الغيبية لطال بنا المسير، وإنّما نشير الى جملة من الآيات الكريمة في هذا الشأن:

قال تعالى بشأن المشركين يوم كانوا على ذروة العزّة والشقاق وكانوا ذوي قدرة واتّفاق، فأخبر عن تفرّقهم وتبدّد جمعهم وهزيمتهم تجاه شوكة الاسلام.

﴿أم يقولونَ نحنُ جميعٌ منتصِرٌ * سَيُهزمُ الجَمعُ وُيولُّون الدُبُرَ * بل الساعةُ موعِدُهُم والساعةُ أدهى وأمرّ﴾(٣).

وهكذا أخبر عن ظهور الدعوة وغلبتها على الكفر والشقاق وانهزام المناوئين، أخبر بذلك في بكرتها إبّان إعلان الدعوة بمكّة:

﴿فاصدَعْ بما تُؤمر وأعرِض عن المشركينَ * إنّا كفيناكَ المستهزئينَ * الذينَ يجعلونَ مع الله إلهاً آخر فسوف يَعلمونَ * ولقد نَعلمُ أنّك يضيقُ صدرُك بما يقولونَ * فسبّح بحمد ربِّك وكن من الساجدين * واعبُد ربّك حتّى يأتيكَ اليقين﴾(٤).

---

(١) الحجر: ٩. (٢) يونس: ٣٧. (٣) القمر: ٤٤ ـ ٤٦.
(٤) الحجر: ٩٤ ـ ٩٩.

وعلى غرارها جاءت الآيـة الأُخرى ـ في نهاية أمره بالمدينة بعد منصرفه من حجّة الوداع ـ:

﴿يا أيّها الرسولُ بلّغ ما أُنزِلَ إليكَ من ربِّـكَ وإنْ لم تفعل فما بلّغتَ رسـالته واللهُ يعصِمُكَ من الناسِ إنّ الله لا يهدي القوم الكافرين﴾[١].

نزلت بغدير خمّ عند أمره ﷺ بنصب علي عليه السلام وليّاً على المؤمنين.

* * *

وآيات حفظ القرآن عن الضياع والإهمال وعن تـناوش أيـدي الاعـتداء والمبطلين، لدليل قاطع على كونه معجزةً قاهرةً وآيـةً باهرة:

﴿إنّا نحن نزّلنا الذِّكَر وإنّا له لَحافظون﴾[٢].

﴿ وإنّه لكتابٌ عزيزٌ * لا يأتيهِ الباطلُ من بين يديهِ ولا من خلفهِ تنزيلٌ من حكيمٍ حميد﴾[٣].

﴿إنّ علينا جمعَهُ وقُرآنـه﴾[٤].

﴿وما أرسلنا من قبلِك من رسولٍ ولا نبيٍّ إلّا إذا تمنّى ألقى الشيطانُ في أُمنيّته فينسَخُ اللهُ ما يُلقي الشيطانُ ثمّ يُحكِمُ اللهُ آياتهِ واللهُ عليمٌ حكيم﴾[٥].

﴿بل نقذف بالحقّ على الباطل فيدمَغُهُ فإذا هو زاهـق﴾[٦].

والآيات من هذا القبيل كثير ضمنت الخـلود لهـذا الديـن والبـقاء لشـريعة الإسلام مع الأبدية، وهكذا الوعد بالنصر المحتوم:

﴿إنّا لننصرُ رسُلَنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويومَ يقومُ الأشهاد﴾[٧].

﴿إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفرَ لكَ اللهُ ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ويُـتمَّ نعمتَهُ عليك ويهديَك صراطاً مستقيماً * وينصُرَكَ اللهُ نصراً عزيزاً﴾[٨].

* * *

---

(١) المائدة: ٦٧. (٢) الحجـر: ٩. (٣) فصّلـت: ٤١ و ٤٢.
(٤) القيامـة: ١٧. (٥) الحـجّ: ٥٢. (٦) الأنبيـاء: ١٨.
(٧) غافـر: ٥١. (٨) الفتـح: ١ ـ ٣.

كما جـاء الوعد بالنصر عقب صلح الحديبيـة ودخول مكّـة وعداً محقّقاً، كان فيه الظفر النهائي للاسـلام على الكفر والإلحاد:

﴿لقد رضيَ اللهُ عن المؤمنينَ إذ يبايعونَكَ تحت الشجرة فعَلِمَ ما في قُلوبهم فأنزلَ السكينةَ عليهم وأثابَهُم فتحاً قريباً * ـ (فتح خيبر أو فتح مكّـة) ـ ومغانِمَ كثيرةً يأخُذونَها وكانَ اللهُ عزيزاً حكيماً * وَعَدكُمُ اللهُ مغانِمَ كثيرةً تأخذونها ـ (مع النبيّ وستدوم بعده) ـ فعجّل لكم هذه ـ (مغانم خيبر) ـ وكفّ أيديَ النـاسِ عنكُـم ـ (حيث رأوا شوكتهم وأُبّهتكم فهابوكم) ـ ولتكونَ آيةً للمؤمنين ويَهديَكم صِراطاً مُستقيماً﴾[١].

نعم، كان تحقّق هذا النصر وتلك الغلبـة آيـةً للمؤمنين وعبرةً لمن سواهـم.

﴿لقد صَدَقَ اللهُ رسولَه الرؤيا بالحقّ لتدخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ ـ (فـي عـمرة القضاء) ـ إن شاء الله آمنينَ محلّقينَ رؤوسَكُم ومقصّرينَ لا تخافونَ فعَلِمَ مـا لم تعلموا فجعلَ من دون ذلك فتحاً قريباً * ـ (فتح مكّة ودخولها مظفّرين) ـ هو الذي أرسل رسُولَه بالهُدى ودين الحقِّ لِيُظهِرَهُ على الدينِ كلّه وكفى بالله شهيداً﴾[٢].

* * *

وكذلك وعده بالنصر والرجوع الى بلده الآمن كما كـان:

﴿إنّ الّذي فَرضَ عليك القرآن لرادُّك الى معادٍ قل ربّي أعلمُ من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مُبين﴾[٣].

قال الطبرسي: في الآيـة دلالة على صدق النبوّة، لأنه أخبر برجوعـه الى مكّة من غير شرط ولا استثناء، وجاء المخبر به مطابقاً للخبر. قال القتيبي: فعاد الرجل بلده، لأنه يتصرّف في البـلاد ثمّ يعود إليه[٤].

* * *

(١) الفتـح: ١٨ ـ ٢٠. (٢) الفتـح: ٢٧ و ٢٨. (٣) القصص: ٨٥.

(٤) مجمع البيان: ج ٧ ص ٢٦٩.

وكذلك إخباره عن اعتذارات تذرّع بها المتخلّفون من الأعراب، منها عـام الخروج الى الحديبية سنة ستّ من الهجرة والمسير الى عمرة القضاء، فاستنفر من حول المدينـة جماعات، وتثاقل عنه آخـرون.

قال تعالى بشأنهـم:

﴿سيقولُ لك المخلَّفُون من الأعراب شَغَلتنا أموالُـنا وأهـلُونا فـاستغفِر لنـا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهـم ـ الى قوله ـ بل ظننتم أن لن ينقلبَ الرسولُ والمؤمنونَ الى أهليهم أبداً وزُيِّن ذلك في قلوبكم وظننتـم ظنّ السَّوء وكنتم قوماً بُوراً﴾[١].

﴿سيقولُ المخلَّفُون اذا انطلقتم الى مغانِمَ ـ (بعد فتح خيبر) ـ لتأخذوها ذرونا نتّبعْكم يُريدونَ أن يُبدِّلُوا كلامَ الله قل لن تتبعونا كذلكم قال اللهُ من قبلُ﴾[٢].

﴿قل للمخلَّفين من الأعراب ستُدعَونَ الى قومٍ أُولي بأسٍ شديدٍ تقاتلونَهم أو يُسلِمُون﴾[٣].

قال الطبرسي: الداعي هو النبيّ ﷺ لأنّـه قد دعاهـم بعد ذلك الى غزوات كثيرة وقتال أقوام ذوي نجدة وشدّة مثل أهل حنين والطـائف ومـؤتـة وتـبوك وغيرها﴾[٤].

* * *

وهكذا الإخبـار عن قولة المشركين وغيرهم فيما سيأتي، وقد تـحقّق فـي وقت قريب دليـلاً على الإعجاز:

قال تعالى: ﴿سيقولُ السفهاءُ من الناسِ ما ولّاهم عـن قـبلتهم التـي كـانوا عليها ...﴾[٥].

وقال: ﴿سيقولُ الذين أشركوا لو شاء اللهُ ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من

---

(١) الفتـح: ١١ ـ ١٢. (٢) الفتـح: ١٥. (٣) الفتـح: ١٦.
(٤) مجمع البيان: ج ٩ ص ١١٥ ـ ١١٦. (٥) البقرة: ١٤٢.

شيءٍ كذلك كذّب الّذين من قبلهم﴾[١].

تلك قولة من سقطت حجّته واستفلس برهانه، ومن ثمّ ردّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿قل فلله الحجّة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾[٢].

* * *

ومن الإخبار بالغيب القريب ما جاء بشأن غلبة الفرس على الروم وسينقلب الأمر في وقت قريب.

قال تعالى: ﴿غُلبتِ الرومُ * في أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبهم سيغلِبونَ * في بضع سِنينَ للهِ الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ ويومئذٍ يفرحِ المؤمنون * بنصر الله ينصُر من يشاءُ وهوَ العزيزُ الرحيمُ * وعْدَ اللهِ لا يُخلفُ اللّهُ وعده ولكنّ أكثَر النـاسِ لا يَعلَمون﴾[٣].

كانت المعارك دامية بين الروم والفرس أيّام الملك «خسرو أبرويز» فكانت الحروب مستمّرة من سنة ٦٠٣م الى سنة ٦٢٧م، وكانت الكفّة راجحة لإيران في أول الأمر حتّى عام ٦٢٢م، وبعده انقلب الأمر ودارت الدائرة على إيران، وكانت الغلبة لبيزانس حيث الغلبة حالفت هرقل ملك الروم حتّى نهاية أمر خسرو أبرويز عام ٦٢٨م حيث قتل في الطامورة على يد نجباء إيران ذلك اليوم، وبدأ مُلك «شيرويه» الملِك الذي انهزم أمام جيوش الإسلام في نهاية الامر[٤].

والآيـة نزلت بمكّة، حيث كانت الغلبة للفرس على الروم، حتّى عام ٦٢٢م وهو عام الهجرة الى المدينة، فكانت الهجرة مقارنة لغلبة الروم على الفرس، تمهيداً للفتوحات التي كانت تنتظر المسلمين تجاه قوى الفرس المنحلّة بعد تلك الحروب الدامية، وقد شلّت قواهم تجاه تلك المعارك المضنية.

ولعلّ الآية نزلت في بعض فتوحات الفرس لبلاد الروم، ولا سيّما فيما قارب

---

(١) الأنعام: ١٤٨. (٢) الأنعام: ١٤٩. (٣) الروم: ٢ ـ ٦.

(٤) راجع تاريخ إيران لحسن پيرنيا: ص ٢٢٢ ـ ٢٢٧.

بلاد العرب، ولعلّه الحرب التي وقعت في صالح الفرس عام ٦١٧ م، حيث فتحوا بلاد الشام وحاولوا الهجمة على مصر والاسكندرية، وهذا قبل الهجرة بخمس سنين تقريباً، ومن ثَمَّ كان الايعاز بغلبة الروم على الفرس حوالي عشر سنين ـ أي سنة ٦٢٧ م ـ تقريباً، أي بعد الهجرة بخمس سنين ـ وبذلك كان الرجاء في ظفر المسلمين أيضاً على الفرس حينذاك قريباً، وبذلك يفرح المؤمنون.

* * *

وآخر سورة كاملة نزلت من القرآن هي سورة النصر:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم * إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً * فسبّح بحمد ربّك واستغفره إنّه كان توّاباً﴾[1].

نزلت بعد فتح مكّة وظهور الإسلام ظهوراً كاملاً، وجعلت العرب تتسابق الى الدخول في الإسلام أفواجاً أفواجاً، فجاءت السورة مبشّرة بهذا الفتح وحسن عاقبة الأمر. وقد فرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً، حيث تحقّق وعد الله بالنصر والغلبة النهائية.

لكن العبّاس بن عبد المطّلب ـ عمّ النبيّ صلى الله عليه وآله ـ لمّا سمع بها اغتمّ وبكى، فقيل له: ما يبكيك وقد استبشر المسلمون بها؟! قال: أظنّ أنّه قد نعيت الى ابن أخي نفسه الكريمة. فقيل بذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله ـ فقال: صدق عمّي، قد نعيت إليّ نفسي، وهي مقبوضة في هذا العام[2].

ذلك أنّ السورة إيعاز بكمال رسالته وإتمامها، فقد حان أوان الرحيل الى لقاء الله.

* * *

ومنها آيات وراثة الأرض للعباد الصالحين في وقت عاجل وآجل جميعاً.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعَمِلوا الصالحاتِ لَيَستَخلِفَنَّهم في

---

(١) النصر: ١ ـ ٣. (٢) راجع مجمع البيان: ج ١٠ ص ٥٥٤.

الأرضْ كما استخلفَ الّذينَ من قبلهم ولَيُمكّنَنَ لهم دينَهمُ الّذي ارتضى لهم ولَيُبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً﴾[١].

﴿ونريد أن نَمُنَّ على الّذين استُضعِفُوا في الأرض ونجعلَهم أئمّةً ونجعلَهمُ الوارثين﴾[٢].

والآيات وإن كنّ نزلن بشأن بني اسرائيل ـ في ظاهر تفسيرهنّ ـ لكن عموم القاعدة المستفادة من آية أُخرى جاءت عامّة: ﴿ولقد كتبنا في الزبور[٣] من بعد الذكر أنَّ الأرض يرثها عباديَ الصالحون﴾[٤].

إنّها سنّة إلهية جارية في الخلق، سوف يرث المستضعفون المستكبرين في الأرض ويستخلفونهم في عمارتها، وجاء تأويل مثل تلكمُ الآيات في ظهور دولة الحقّ في آخر الزمان[٥]، رزقنا الله شهودها إن شاء الله.

* * *

وهناك آيات تندّد بالعرب ممّن استسلموا ولم يُسلموا إسلاماً صادقاً، أو أسلموا ثمّ ارتدّوا على أعقابهم، فأظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر والنفاق. ولعلّ الأمر بعد وفاته ﷺ كان أبين من حالتهم التعنّتيّة، حيث نبذوا وصايا الرسول ﷺ خلف ظهورهم واتّبعوا أهواءهم.فهناك تنديد بأمثالهم أن سوف يأتي الله بقوم يكونون صادقين في إيمانهم فيغلبون العرب وتكون الدولة دائرة بيدهم، والعرب أذلّاء بين أيديهم، ولقد صدق عليهم القول وظهر وجه الحقّ.

قال تعالى:

﴿يا أيّها الّذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي اللهُ بقومٍ يحبّهم ويحبّونه أذلّةٍ على المؤمنين أعزّةٍ على الكافرين يُجاهدون في سبيل الله ولا

---

(١) النور: ٥٥. (٢) القصص: ٥.

(٣) راجع مزامير داود ـ في العهد القديم ـ فصل ٣٧. (٤) الأنبياء: ١٠٥.

(٥) راجع الصافي للفيض الكاشاني: ج ٢ ص ١٠٧ وص ١٧٨ و ص ٢٥٣.

يخافُون لومة لائم ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاءُ واللهُ واسعٌ عليم﴾[١].

وقال: ﴿إن يشأ يُذهبكم أيّها الناسُ ويأتِ بآخرينَ وكان اللهُ على ذلك قديراً﴾[٢].

وقال: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾[٣].

* * *

وقال بشأن رجوعهم القهقري: ﴿وممّن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مَرَدُوا على النفاق لا تعلمهم نُحن نعلمهم سنُعذّبهم مرّتين ثمّ يردّون الى عذابٍ عظيم﴾[٤].

﴿وما محمّدٌ إلّا رسولٌ قد خَلَت من قبله الرُسل أفإن ماتَ أو قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم ومَن ينقلب على عَقِبَيه فلن يضرّ اللهَ شيئاً وسيجزي اللهُ الشاكرين﴾[٥].

والآية وإن كانت نزلت بشأن واقعة أُحد وفرار أكثر المسلمين وفيهم المعاريف لكن اللحن عامّ يشمل ما بعد وفاته ﷺ أيضاً. حيث ارتداد بعض العرب آنذاك.

* * *

قال تعالى: ﴿وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لايكونوا أمثالكم﴾[٦].

أمّا مَن هؤلاء القوم الذين استبدلهم الله ففاقوا العرب صدقاً وثباتاً في الدين؟ فقد سئل رسول الله ﷺ عنهم، فقال ـ واضعاً يده على عاتق سلمان الفارسي ـ: هذا وذووه. ثمّ قال: لو كان الدين معلّقاً بالثريّا لتناوله رجال من أبناء فارس[٧].

* * *

أمّا وجه دلالة هذه الأنباء على صدق الرسالة فلأنّ حالة النبيّ ﷺ عند إطلاق هذه الأنباء ـ الموغلة في القدم، أو الحاضرة الخافية في صدور أهلها، أو

(١) المائدة: ٥٤. (٢) النساء: ١٣٣. (٣) الأنعام: ٨٩.
(٤) التوبة: ١٠١. (٥) آل عمران: ١٤٤. (٦) محمّد: ٣٨.
(٧) راجع مجمع البيان: ج ٣ ص ١٢٢ وص ٢٠٨ وج ٩ ص ١٠٨، والميزان: ج ٧ ص ٢٧٢.

الوعود المستقبلة التي كانت في مجاهل الغيب ـ حال الواثق المتيقّن من الأمر، من غير أن يتعتع أو يتزلزل عند تلاوتها، وهو بشر لم يطّلع على كتب السالفين، ولا يملك تصرّفاً في أُمور غائبة أو نائية في مستقبل قريب أو بعيد. وكان هو بذاته ينفي عن نفسه العلم بالغيب: ﴿قل لا أملكُ لنفسي نَفعاً ولا ضَرّاً إلّا ما شاء الله ولو كنتُ أعلمُ الغيبَ لاستكثرت من الخير وما مَسّنيَ السوء﴾[1]. فلو لم يكن مستنداً الى ركن وثيق ما أمكنه إطلاق مثل هذا، وكان قد جازف بدعوته وعرّضها للخطر، لو كان محتملاً للخلاف ولم يكن جازماً بالأمر. وهذا بالإضافة الى ما عرف عنه التعقّل والحكمة، ولم يعهد منه تسرّع في أمر أو تقوّل بلا رويّة، حتّى قبل أن يكرمه الله بالرسالة.

ولقد أدرك مشركو العرب هذه الحقيقة من خلال اختلاطهم برسول الله ﷺ والمؤمنين به، حيث صدقت الحوادث الواقعة ممّا أخبرهم به القرآن الكريم.

إنّ هذه الأنباء الصادقة التي جاء بها القرآن لدليل ظاهر وبرهان قاهر على أنّه كلام ربّ العالمين، الذي يستوي عنده علم السابق واللاحق، ولا تخفى عليه خافية. لقد ظهر صدق القرآن الكريم لكلّ ذي عينين في عشرات الحوادث التي أخبر عن وقوعها في المستقبل ووقعت بالفعل كما أخبر.

إنّ ظاهر الإخبار بالمغيّبات في القرآن الكريم وتصديق الوقائع لها وعدم تخلّف الصدق عنها في شيء لدليل على أنّه وحي ممّن خلق الأرض والسماوات العلى، أنزله على رسوله ليكون دلالةً على صدق رسالته. وهذا على غرار ما أخبر به القرآن الكريم أو أشار إليه من خفايا أسرار الوجود، وقد كشفها العلم عبر العصور، دليلاً على صدق هذا الكتاب الذي ﴿لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد﴾[2].

فعلى العلماء وأهل الاختصاص أن يعايشوا القرآن الحكيم، ويستنطقوا آياته

---

(١) الأعراف: ١٨٨. (٢) فصّلت: ٤٢.

لكشف الأستار عن الإشارات القرآنية وعن تلميحاته عن الحقائق المودعة في هذا الكون وفي سجلّ التاريخ، ولتكون بحوثهم ونتاج جهودهم وسيلة لتحقيق وعد الله سبحانه وتعالى، وظهور هذا الدين على الدين كلّه، وليعمّ وجه البسيطة على الإطلاق.

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسِهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ أوَلم يكفِ بربّك أنّه على كلّ شيءٍ شهيد﴾[1].

صدق الله العليّ العظيم، وصدق رسوله النبيّ الكريم، ونحن على ذلك من الشاهدين والشاكرين، والحمد لله ربّ العالمين.

---

(١) فصّلت: ٥٣.

٣ ـ الإعجـاز التشريعي

(معـارفُ ساميـة وشـرائـعُ راقيـة)

١ ـ المَثل الأعلىٰ في الإسلام
٢ ـ صفات المجد في القرآن
٣ ـ تقديس مقام الأنبياء والرسل
٤ ـ عقيدة اليونان الأساطيرية
٥ ـ القرآن في تشريعاته الراقية
٦ ـ لمحة عن بناية التشريع الإسلامي
٧ ـ شرائع التوراة التعنّتية
٨ ـ القوانين الرومانية
٩ ـ لا شعوبية في الإسلام
١٠ ـ الإسلام يرفض الطبقية
١١ ـ الحرّية والمساواة

الباب الثالث
في الإعجاز التشريعي

﴿ونزّلنا عليك الكتابَ تبياناً لِكلِّ شيء
وَهُدىً وَرحمةً وبُشرىٰ للمسلمين﴾[1].

معارفُ سامية وشرائعُ راقية:

كانت للإنسان ـ ولا تزال ـ مسائل عن هذه الحياة، كان يحاول الإجابة عليها: من أين أتى؟ ولِمَ أتى؟ والى أين؟ وكانت محاولاته بهذا الشأن قد شكّلت مجموعة مسائل الفلسفة الباحثة عن سرّ الوجود. ولكن هل حَصل على أجوبة كافية؟ أم كانت ناقصة غير مستوفاة لحدّ الآن؟ لولا إجابة القرآن عليها إجابة وافية وشافية كانت علاجاً حاسماً لما كان يجوش في الصدور. ﴿يا أيّها الناسُ قد جاءتكُم موعِظَةٌ من ربِّكم وشفاءٌ لِما في الصُدور وهُدىً ورَحمةٌ للمؤمنين﴾[2].

كان ما وصل إليه الإنسان من معارف حول سرّ الوجود ناقصاً وغير مقنع الى حدّ بعيد، ﴿وما أُوتيتم من العِلمِ إلّا قليلاً﴾[3] فكان مستطلعاً ومتعطّشاً الى حلّ مشاكله والإجابة على مسائله بشكل كامل ومستوفٍ جميع الجوانب ممّا يرتبط بالمبدأ والمعاد والغاية التي خلق من أجلها العباد.

نعم، كان القرآن الكريم هو الذي تعرّض لحلّ معضلة الحياة وفصّل الكلام عن بدء الخليقة والغاية عن الوجود وكشف عن سرّ الحياة، تفصيلاً مستوفىً بما لم يدع مجالاً لمسارب الشكّ في مسائل الحياة في المبدأ والمعاد. وأجاب عن

---

(١) النحل: ٨٩.　　(٢) يونس: ٥٧.　　(٣) الإسراء: ٨٥.

مسائل ممّا لم يكد يعرفه الإنسان. ﴿وربُّك الأكرمِ * الذي علّمَ بالقَلمِ * علّمَ الانسانَ ما لَم يعلم﴾[١].

الأمر الذي جعل من القرآن آيـة باهرة ومعجزة قاهرة، دلّت على أنّه ليس كلام البشر، وإنّما هو وحي أنزله الله تعالى هدىً ورحمةً للعالَمين.

* * *

كما وأتحف للبشرية جمعاءبرامج لنظم الحياة وليعيش فـي سـلامة وتُـؤَدة وهناء، ممّا لم يسبقه ـ كما لم يلحقه ـ شريعة وضعها الإنسان.

كانت الأنظمة التي وضعها الإنسان لنظم حياته غير كافلة لسعادته، فإنّها وإن كانت راقية من جانب لكنّها كانت سافلة وسحيقة من جوانب أُخر، كانت مناشئ الخسّة والدناءة عليها باديـة.

الإنسان مهما ارتقى في مدارج الكمال فإنّه لا يمكنه الانطـلاق مـن قـيود نزعاته الهابطة التي تربطه بخسائس الأرض أكثر ممّا يرتقيه الى آفاق السـماء. الإنسان لا يستطيع التخلّص من براثن الحيوانية والبهيمية التي تتحكّم في نفسه اذا لم تكن مهذّبـة تهذيباً يتناسب ومعالي الانسانية الرفيعة.

ومن ثمّ فإنّ سماته الخسيسة سوف تبدو على ما يضعه من قانون أو يعرضـه من شرائع وأنظمـة لتنظيم الحيـاة. وكلّ إناء بالذي فيه ينضح. إنّ ما يأتـي بـه الإنسان من علم ومعرفة إنّما هي ترشّحات نفسه وصفاته الباطنـة في شخصـه. إنّ فكرة الإنسان وليدة مشاعره عن هذه الحياة، إنّه يفكّر حسبما يعيش، كمايعيش حسبما يفكّر، لأنّ الإنسان وليد جامعته ونتيجه بيئتـه. والبيئة هي التـي تكـوّن شخصية الأفراد الناشئة منها، فكيف يحاول الترقية ببيئته وهو حصيلها!!

إنّ القيم الساطية على البيئات هي التي توجّه مسيرة الإنسان في مشـاعره وفي أفكاره. فلا بدّ أن يكون ما يضعه من قانون وشريعة هي مسيّرة من خارج

(١) العلـق: ٣ ـ ٥.

ذاته الإنسانية الرفيعة التي خلقه الله تعالى عليها حسب فطرته الأوّلية.

إنّ نزعات القومية والوطنية واللونية واللسانية ـ فضلاً عن القبائلية والبلدية ـ كانت قيوداً لا يستطيع الإنسان الانفلات منها ما دام رهن ميوله واتّجاهاته البشرية السافلة.

* * *

نعم، كانت الشرائع السماوية هي المتحرّرة عن كلّ هذه القيود، ومن ثمَّ جاءت صافية ونقية، ونزيهة عن كلّ دنس وخسيسة بشرية، ممّا افتقدته الإنسانية منذ قرون، حيث جاء القرآن الكريم بشرائعه طاهرة زكية.

كان الانسان في عهد نزول القرآن يعيش في ظلمات الغيّ والجهالة، وفي لفيف من أنظمة كانت صبغتها الظلم والعتوّ على صنوف الإنسان العائشة تحت سيطرة أقوام مستكبرين ومستهترين بمبادئ الإنسانية الكريمة. وكانت القوانين الحاكمة على البشرية حينذاك ضامنة للمستعلين في الأرض مصالحهم دون المستضعفين ـ وهم أكثر سكّان هذه البسيطة المظلومون ـ قد هضم حقّهم وسحقت كرامتهم وربطوا ربط المواشي والأغنام.

* * *

في هذا الجوّ المظلم والبيئة الحالكة جاء القرآن الكريم بمشاعل وهّاجة ومصابيح وضّاءة، تنقشع عن البشرية سحب الظلام وتنكشف على الإنسانية كرامة ذاته الأصيلة . فقد جاء بأنظمة وقوانين ترفع بالإنسان إلى كرامته العليا وتسعده في الحياة سعادة شاملة وكافلة لجميع البشرية العائشة على الأرض، على حدّ سواء، لا ميز لقبيلة على أُخرى، ولا لأهل بلد على آخرين، ولا للغة دون أُخرى، كلّهم بنو آدم، وآدم من تراب ﴿يا أيّها الناسُ إنّا خلقناكُم من ذكرٍ وأُنثى وجَعَلناكُم شُعوباً وقبائلَ لِتعارَفوا إنّ أكرمكم عند اللهِ أتقاكم إنّ الله عليمٌ خبير﴾[1].

---

(١) الحجرات: ١٣.

فالقرآن الكريم ـ بهذا المنطق العقلاني السليم ـ جاء بشرائعه وأنظمته، وعرضها على الإنسان، ليكون سعيداً في الحياة.

* * *

ومن جانب آخر، كانت الأنظمة التي وضعها الإنسان ذاته إنّما تنظّم جانبين من جوانب الإنسان في الحياة: جانب الفرد في ذاته، وجانبه مع بني نوعه. أي كيف يعيش في ضمان من مصالحه في الحياة ممّا يعود الى نفسه، وفي المقدار الذي يربطه بمجتمعه.

في حين أنّ للإنسان جوانب أُخر في هذه الحياة، جانب مشاعره وأحاسيسه عن نشأة الوجود، وعن حبّه وعاطفته التي قد تفوق جانب رعاية مصلحة وقتية محدودة النطاق. وكذلك حسّه المرهف عن تلك القوّة القاهرة التي تسيّر عالم الوجود، وهو ربّ العالمين. الإنسان في فطرة ذاته يشعر بوجود هكذا قدرة خارقة، ويحاول معرفتها ومعرفة مقدار علاقته بها، ووظيفته التي يجب عليه تأديتها تجاه تلك العظمة الباهرة.

إنّ أنظمة الإنسان الوضعية لتعجز على إمكان شمولها لهذه الجوانب من حياة الإنسان. نعم، كانت الشرائع الإلهية ـ والتي جاء بها القرآن الكريم ـ هي الكافلة لجميع جوانب الحياة، والتي تضمن سعادة الإنسان في النشأتين.

والخلاصة: أنَّ للانسان علاقات في هذه الحياة، تشمل علاقته بنفسه، وعلاقته مع بني نوعه ، وعلاقته مع ربّه وخالقه ومَن إليه مصيره في نهاية المطاف.

والأنظمة الوضعية إنّما تكفل ضمان العلاقتين الأوّلتين بشكل ناقص، وإنّما يضمن العلاقات أجمع وبشكل كامل، الشرائع الإلهية، ولا سيّما شريعة الإسلام التي جاء بها القرآن.

* * *

فالرابطة بين أفراد المجتمع الإسلامي رابطة الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين:

إنّ الأساس الذي يبنى عليه هيكل المجتمع الإسلامي هو : أنّ رابطة العقيدة هي التي تشكل الآصرة التي تربط الأفراد في المجتمع. وليس للرابطة الوطنية أو القومية أو القبلية أو الجنس أو اللون أو اللسان أيّ أثر في المجمع الإسلامي. وارتباط المسلم بالوطن والقوم إنّما هو بمقدار ارتباط هذا الوطن وأهله بالاسلام. فولاء المسلم لعقيدته أولاً وآخراً هو الذي يربطه بأخيه وبقومه وذويه وجميع ما يليه[1].

لذا نجد القرآن الكريم ندّد بمن آثر الوطن والمسكن والأهل والأقارب على العقيدة، وامتدح الذين ضحّوا بكلّ ذلك في سبيل عقيدتهم وأذابوها في بوتقة الاسلام.

يقول تعالى: ﴿لا تجدُ قوماً يُؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ اللهَ ورسولَه ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أُولئك كَتَبَ في قلوبهمُ الإيمان وَأيّدهم بروحٍ منه ويدخلهم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضيَ اللهُ عنهم ورَضُوا عنه أُولئك حزب الله ألا إنّ حزب الله هُمُ المفلحون﴾[2].

* * *

نعم،إنّ التشريعات الإسلامية التي جمعت بين الروح والمادّة ـ فأشبعت كلّاً منهما في الانسان بما يناسبها ووفّرت السعادة والطمأنينة في الحياة الدنيا وأزالت القلق عن النفوس من المستقبل مع مراعاة الفطرة والتلاؤم معها ـ لدليل على أنّ أحداً من البشر لا يستطيع أن يدرك هذه المجالات أو يحيط بها. وهي برهان ساطع على أنها منزّلة من خالق الانسان الذي أودع فيه هذه الطاقات والقدرات والاستعدادات، فأنزل ما ينظّمها جميعاً ويوجّهها لعبادة الخالق سبحانه وتعالى.

---

(١) راجع الفرقان والقرآن لخالد العكّ: ص ٢١٨.
(٢) المجادلة: ٢٢.

وتكون الدلالة أوضح والبرهان أظهر عندما تعلم أنّ الذي نزلت عليه كان أُمّيّاً لـم يتلقّ العلم على يد أحد من البشر ولم يعرف بتجواله في الآفاق بحثاً عـن النظريات والدساتير الاصلاحية.

يقول الشيخ محمّد أبو زهرة: إنّ ما اشتمل عليه القرآن مـن أحكـام تـتعلّق بتنظيم المجتمع وإقامة العلاقات بين آحاده على دعائـم مـن المـودّة والرحـمة والعدالة لم يسبق به في شريعة من الشرائع الأرضية. واذا وازنّا ما جاء في القرآن بما جاءت به قوانين اليونان والرومان وما قام به الاصلاحيون للقوانين والنـظم وجدنا أنّ الموازنة فيها خروج عن التقدير المنطقي للأُمور، مع أنّ قانون الرومان أنشأته الدولة الرومانية في تجارب ثلاثمائـة سنة وألف، من وقت إنشاء مـدينة روما الى ما بعد خمسمائـة من الميلاد. ومع أنـّه قانون تعهّده علماء قـيل إنـهم ممتازون، منهم: سولون الذي وضع قانون أثينا، ومنهم: ليكورغ الذي وضع نظام اسبرطـة.

فجاء محمّد ﷺ ومعه القرآن الذي ينطق بالحقّ عن الله سبحانه وتعالى من غير درسٍ دَرَسـه، وكان في بـلد أُمّـي ليس فـيه مـعهد ولا جـامعة ولا مكـان للتدريس، وأتى بنظام للعلاقـات الاجتماعية والتنظيـم الانساني لم يسبقـه سابق ولم يلحق به لاحق[1].

﴿لَقد منَّ اللهُ على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفُسهم يتلو عليهم آياتـه ويُزكّيهم ويُعلّمهم الكتابَ والحِكمـة وإن كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبين﴾[2].

هكذا جاء القرآن بشرائـع راقية ـ فاق بها شرائع وضعتها البشرية ـ شـاملة كاملة وكافلة لسعادة الإنسان في الداريـنَ. فكانت معجزة خارقة، ودليـلاً واضحاً على صدق رسالة الله في الأرض.

---

(١) المعجزة الكبرى: ص ٤٥٥، وراجع الفرقان والقرآن لخالد العكّ: ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.
(٢) آل عمـران: ١٦٤.

فالآيـة المعجزة في القرآن الكريم، أنّه أتى بمعارف تسمو معارف البشرية، وجاء بشرائـع تتعالى عن خسائس الشرائع الوضعية، وبذلك كانت معارف القرآن وشرائعـه ممتازة عن سائر الشرائع والأديان بحيث لا تشابه بين شريعة الإسـلام ما كان عليه الإنسان المتحضّر في ذلك العهد. إذاً فكيـف يزعم بـعض أصـحاب العقول الضعيفة: أنّ القرآن ـ بل الإسلام أخذ شرائـعه من شرائع وضعية كان قد وضعها الرومان، أو أخذ معارفه من معارف فرضية كان قد فـرضها اليـونان، أو غيرهما من أُمـم بائدة قد أكل الزمان عليها وشرب؟! حاش القـرآن أن يـنتهج منهجاً كان معوجّاً في أساسـه غير قويـم.

﴿فأقِم وجهكَ للدِينِ حنيفاً فطرةَ اللهِ الّتي فَطَرَ الناسَ عليها لا تبديلَ لخلقِ الله ذلك الدينُ القيّم ولكنّ أكثر الناسِ لا يعلَمون﴾ [1].

---

(١) الروم: ٣٠.

المَثَـل الأعلى في الإسـلام

عنوان عنون به سيّد مير علي الهندي مقاله بهذا الشأن، فلنترك القلم بيده[1].

قال: والمبادئ الأساسية التي أُنشئ النظام الإسلامي على أساسها هي:

١ ـ الإيمان بالوحدانية، ولا ماديّة الخالق وقدرته ورحمتـه وحبّـه الشامل.

٢ ـ المحبّة والإخاء بين الجنس البشري.

٣ ـ قهر الشهوة وكسر صولتها والضبط من جموحهـا.

٤ ـ تدفّق الشكر المتواصل من القلب، لواهب النِعَم والآلاء.

٥ ـ مسؤولية الإنسان ومحاسبته على ما قدّمت يداه في الدنيا والآخرة.

والحقّ أنّ المفاهيم الرفيعة النبيلة ـ التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ـ فيما يتعلّق بقدرة الخالق ولطفـه وإنعامه لخلقـه تفوق أيّة مفاهيم أُخرى مـن نـوعها وردت في أيّة لغـة أُخرى.

فوحدانية الله ولا ماديّته وجلاله ورحمتـه تشكّـل الموضوع الثـابت الذي لاينتهى لأفصـح عبارة في آيات تستثير الروح وتهيج الوجدان. ويظلّ فيها تدفّق الحياة والروح زاخراً لا ينقطع جريانه. وليس في ذلك أيّ أثر للتحكّم أو الجمود ضمن قواعد محدّدة. فالدعوة موجّهـة الى الضمير الداخلي للإنسـان وحده، وهو الذي تناشده دعوة محمّد ﷺ.

ولإدراك واقـع الحال علينا أن نقلب بعض صفحات التـاريخ. فـلنلتفت الى

---

(١) من كتابه روح الإسـلام: ص ١٥٧ ـ ١٥٨ مع شيء من التغيير والتعديل.

الماضي التفاتـة قصيرة لنرى المبادئ الدينية التي كانت قائمة آنذاك، أي عندما جاء نبيّ الإسلام مبشّراً برسالته.

ولنبدأ بفكرة الربوبيـة:

كانـت هذه تختلف بين العرب الأقوياء، وفقاً لثقافـة الفرد أو القبيلة. فـهي ترتقي عند بعضهم الى درجة الإلوهيـة أو تأليـه الطبيعة، بينما هي عـند بـعضهم الآخر تنحدر الى مجرّد عبادة الأوثان وتقديس قطعة من العـجيـن أو عـصاً أو حجـر.

كان بعضهم يؤمـن بالحياة الأُخرى، أمّا البعض الآخر فليست لديهم أيّة فكرة عنها من أيّ نوع كان.

وكذلك فإنّ العرب قبل الإسلام كانوا يـعبدون غـاباتهم الصـغيرة وأشـجار الوحي فيها ـ حسب زعمهم ـ وكان لهم كاهناتهم مثل فنيقي سوريا.

هكذا كان عالم الأعراب سابحاً في دوّامـة من المبادئ التي لا يكاد يصدّقها العقل حول مثاليـة الإلـه سيّد الجميع.

* * *

أمّا اليهود ـ الذين حافظوا بعض الشيء على فكرة التوحيد ـ فإنّهم أنفسهم قد شوّهوا مقداراً من تلك الفكرة ومسخوها مسخاً[١]. كان اليهود قد وفدوا الى شبـه جزيرة العرب على عـدّة فـترات، ولا شـكّ أنّ الصـفات المـميّزة التـي قـادت الاسرائيليين مراراً الى الميل ثمّ التردّي في عبادة الأوثان في ديارهـم الأصلية قد ازدادت عند هجرتهم الى الجزيرة بتأثّرهم بوثنيـة إخوانهم العرب، وكان ذلك طبيعياً، وقد كان لدى اليهود فكرة ربّ إبراهيـم أن يضمّوا إليـها مـفهوماً مـادّياً للخالق. وكانت عبادة الناموس منحرفة الى درجة الوثـنية بـين آخـر مـجموعة

---

(١) ﴿وقالت اليهود عُزيرٌ ابنُ الله وقالت النـصارى المسـيحُ ابـنُ الله ذلك قـولُهم بأفـواهـهم يُضاهِئون قولَ الذينَ كفَروا من قبلُ قاتَلَهُمُ اللهُ أنّى يُؤفكُون﴾ (التوبة: ٣٠).

يهودية وفدت الى الجزيرة. وكانوا يحترمون الكتبة والأحبار ويقدّرونهم الى حدّ تقديسهم[١]. وكان هؤلاء الأحبار ينظرون الى أنفسهم علىاعتبار أنّهم صفوة الشعب وأنّهم صلة الوصل بالله وأكثر الناس قربى من الله.

وبالاضافة الى ذلك، فإنّ الجماهير اليهودية لم تترك عبادة التيرافيم، وهي عبارة عن آلهة كانوا يحتفظون بها في بيوتهم، قد صنعوها على شكل بني البشر، وكانوا يستشيرون هذه الآلهة في كلّ المناسبات، على اعتبار أنّها آلهتهم الخاصّة التي تتلقى الوحي من الله. ولا بدّ أن تكون هذه العبادة قد تعزّزت وارتفع شأنها عن طريق الاتّصال مع الوثنيين العرب.

ونحن نرى أنّ الفلسفة الكلدوزرادشتية قد تركت أثرها الذي لا يمحى على التقاليد اليهودية من جهة، ومن جهة أُخرى فقد كان أعظم مفكّريهم ـ حين يحاولون ادخال الاعتقاد بالعلّة الأُولى الى آراء وتصانيف فلاسفة اليونان والرومان ـ يُشرّبون مدارس الفكر الاسكندرانية بمبادئ وأفكار لا يمكن أن تتّفق مع مذهبهم التوحيديّ الأصل.

وبالاضافة الى هؤلاء كان هنالك الهندوس مع الحشد الضخم من آلهتهم وإلإهاتهم، والزرادشتيون مع توأم آلهتهم اللذين يتخاصمان دوماً في سبيل الغلبة والسيادة.

ولن يغيب عن بالنا اليونان والرومان والمصريون، مع هياكلهم التي تتراكم فيها الآلهة بأخلاقها التي لا ترقى الى مستوى أخلاق عبدتها المنحلّين.

* * *

هكذا كان حال العالم المتحضّر في إبّان نشر دعوة المسيح عليه السلام.

وكان السيّد المسيح بالرغم من كلّ بشاراته وتعاليمه واتّجاهات فكرته فإنّه

---

(١) ﴿اتّخذوا أحبَارَهُم ورُهبانَهم أرباباً مِن دونِ اللهِ والمسيحَ بن مريم وما أُمِرُوا إلّا ليعبُدوا الله إلهاً واحداً لا إله إلّا هوَ سبحانه عمّا يُشرِكُون﴾ (التوبة: ٣١).

لم يدّع أنّه «متمّم لله» أو أنّه «جوهر الله وذاته» إطلاقاً. ومن المؤسف حقّاً أنّه حتّى المسيحية الحديثة قد ظلّت عاجزة عن انتزاع نفسها وتحريرها من الأساطير القديمة التي تركتها لها العصور الغابرة. ذلك لأنّ أتباع المسيحية كانوا يتخلّصون جيلاً بعد جيلٍ من كلّ ما هو بشري، في تاريخ المسيح حتّى ضاعت شخصيّته في خضمّ الأساطير.

وها هو «العهد الجديد» ذاته ـ بما تفرّع عنه خلال قرن كامل ـ يترك المسيح تلك الشخصية الجليلة غامضة يلفّها ضباب الشكّ والأُسطورة أكثر ممّا ينيرها اليقين والتحقيق، وهكذا مع كلّ يوم يمرّ. كانت فكرة «ذاتٍ وُلدت في قلب الأزلية» تكتسب قوّة تظلّ تتزايد، حتّى تحوّلت الى عقيدة في صلب الدين.

وقد كانت تعاليم المسيح حَرِيَّةً بأن ترقى الى مفهوم عن الله أشدّ نقاءً وأعظم مجداً، غير أنّ قروناً ستة قد مضت على عيسى عليه السلام ظلّت تلفّه طوالها هذه الخزعبلات التي تتعارض مع رسالته، فكان أن أضفت عليه صفة الإلوهية. وهكذا فإنّ العبد قد احتلّ مكان مولاه في تقديس البشر.

ولمّا كانت جمهرة العامّة عاجزة عن أن تستوعب ـ أو حتّى تدرك ـ المزيج العجيب للفلسفات الفيثاغورية الجديدة والافلاطونية واليهودية الهيلينية، وكذلك تعاليم المسيح، فقد عبدته كما لو كان إلهاً أصيلاً، أو انقلبوا الى عبادة الآثار وآلهة منحوتة تمثل أُمّه البتول.

وحين كان المدى قد طال على هذه الخزعبلات فإنّ المسيحيين قد ابتعدوا كثيراً عن بساطة تعاليم المسيح عليه السلام. حتّى لقد أصبحت عبادة الصوَر والقدّيسين والآثار جزءً لا يتجزأ من ديانة يسوع. وكذلك فانّنا نرى أنّ الشرور التي شجبها عيسى عليه السلام نفسه والطقوس التي أنكرها قد أخذت تدخل في صلب دينه، واحدة تلو أُخرى.

* * *

وبعْد، فإنّنا نرى ضدّ كلّ هذه السخافات التي كانت سائدة طول عصور والتي ظلّت مستحكمة البنيان ذلك العهد كان هدف نبيّ الإسلام في حياته موجّهاً ومركّزاً على أُسس قويمة يدعمها العقل والفطرة السليمة. فهو إذ يخاطب الناس يخاطبهم بحقّ، وهو متأثّر باتصال وثيق مع الله، الله الذي خلق الكون جملةً وتفصيلاً. ولم يحد محمّدٌ ﷺ عن طريق العقل الرشيد. ورغم قيام عبدة الأوثان ـ من أبناء القبائل العربية من جهة، وأتباع المسيحية واليهودية الممسوختين من جهة أُخرى ـ بمحاولة إغرائه، فقد ظلّ يخاطبهم حتّى جعلهم يخجلون من فظاعة معتقداتهم.

وهكذا، فإنّ نبي الإسلام ـ الذي كان يسمّى بحقّ «سيّد القائلين» و «سيّد المرسلين» والداعي الى وحدانية الله ـ قد صمد، كما يحدّثنا التاريخ، في صراع نبيل واجهته به أوّل الأمر، ثمّ فرضته عليه بعد ذلك محاولات الإنسان الرجعية الرامية الى إشراك مخلوقات أُخرى مع خالق الكون. غير أنّ الدعوة قد غلبت الجميع، وظهر الدين كلّه على الشرك كلّه. فقد ﴿جاءَ الحقّ وظهَر أمـرُ الله وهُم كارهون﴾[1].

وليس أوضح ولا أجزم من الآيات التالية التي وردت في القرآن الكريم في تفسير وحدانية الله إنّه يقول:

﴿وَإلهُكُم إلـهٌ واحِدٌ لا إلهَ إلّا هُوَ الرَحمن الرَحِيم * إنّ في خَلقِ السَمواتِ وَالأرضِ واختلافِ الليلِ وَالنهار وَالفُلكِ الّتي تجري في البَحر بما ينفعُ الناسَ وَما أنزلَ اللهُ منَ السماءِ من ماءٍ فأحيا بِهِ الأرضَ بَعدَ موتِها وَبَثّ فيها مِن كلّ دابّةٍ وتصريفِ الرياحِ والسَحابِ المسخّر بينَ السَماءِ وَالأرض لآياتٍ لِقومٍ يَعقِلُون * ومنَ الناسِ مَن يَتّخذُ مِن دونِ اللهِ أنداداً يُحبُّونَهم كَحُبِّ الله وَالذينَ آمَنوا أشدُّ حُبّاً لله وَلَو يَرَى الّذِينَ ظَلَمُوا إذ يرَوْنَ العَذابَ أنّ القوّةَ للهِ جميعاً وأنّ اللهَ شديدُ العَذاب﴾[2].

(١) التوبة: ٤٨.
(٢) الرعد: ١٢ ـ ١٦.

فأيّ عطف عميق تعرضه هذه الكلمات على أُولئك الذين في الجهالة يعمهون؟!

ثمّ هذه الآيات، حيث قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿هُوَ الّذي يُريكُمُ البَرقَ خَوفاً وَطَمَعاً وينشئُ السَحابَ الثِقالَ * وَيُسَبِّحُ الرَعدُ بحمدِهِ وَالملائـكَةُ مِن خِيفَتِهِ وَيُرسِلُ الصَواعقَ فَيُصِيبُ بهَا مَن يَشاءُ وَهُم يُجادِلُونَ في اللهِ وَهُوَ شَديدُ المِحال * لَـهُ دَعوةُ الحقِّ وَالّذينَ يَدعُونَ مِن دُونِه لاَ يَستَجيبُونَ لَهمُ بشيءٍ إلّا كباسِطِ كَفَّيهِ إلَى المَاءِ لِيبلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ ببَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الكافِرينَ إلّا ضَلاَلٍ * وَللهِ يَسجُدُ مَن في السَماوَاتِ وَالأرضِ طَوعاً وكَرهاً وَظِلالُهُم بِالغُدُوِّ وَالآصَالِ * قُل مَن رَبُّ السَماوَاتِ وَالأرض قُلِ اللهُ قُل أَفَاتّخذتُم مِن دُونِهِ أولياَءَ لا يَملِكُونَ لأنفُسِهِم نَفعاً وَلا ضَرّاً قُلْ هَل يَستوي الأعمى وَالبَصيرُ أم هَل تَستَوي الظُلُماتُ والنُورُ أم جَعَلُوا للهِ شُركاءَ خَلَقُوا كخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلقُ عَلَيهِم قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ وَهُوَ الواحِدُ القَهّار﴾[1].

وقوله جلّ شأنه:

﴿خَلَقَ السَمَاواتِ وَالأرضَ بِالحقِّ تَعَالى عمّا يُشرِكُونَ * خَلَقَ الإنسانَ مِن نُطفَةٍ فَإذا هُوَ خَصيمٌ مُبينٌ * وَالأنعَامَ خَلَقَها لَكُم فِيهَا دِفءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنهَا تأكُلُونَ * وَلَكُم فِيها جَمَالٌ حِينَ تُريحُونَ وَحِينَ تَسرَحُونَ * وَتَحمِلُ أثقالَكُم إلى بَلَدٍ لَم تَكُونُوا بَالغِيهِ إلّا بِشِقِّ الأنفُسِ إنَّ رَبَّكُمْ لَرؤوفٌ رَحيمٌ * وَالخيلَ وَالبِغَالَ وَالحَمِيرَ لِتَركَبُوهَا وَزِينةً وَيخلُقُ مَا لا تَعلَمُونَ * وَعَلَى اللهِ قَصدُ السَبيلِ وَمِنهَا جَائِرٌ وَلَو شَاءَ لَهدَاكُم أجمَعينَ * هُوَ الذي أنزَلَ مِنَ السَماءِ مَاءً لَكُم مِنهُ شَرابٌ وَمِنهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسيمُونَ * يُنبتُ لَكُم بِهِ الزَرعَ وَالزَيتُونَ والنَخِيلَ وَالأعنَابَ وَمِن كُلِّ الثَمَرَاتِ إنّ في ذَلِكَ لآيةً لِقَومٍ يَتَفَكّرُونَ * وَسَخّرَ لَكُمُ اللَيلَ وَالنَهارَ وَالشَمسَ وَالقَمرَ وَالنُجومُ

(١) البقرة: ١٦٣ ـ ١٦٥.

مُسخّراتٌ بأمرِه إنّ في ذَلِكَ لآياتٍ لقومٍ يعقلون * وما ذرأ لكم في الأرض مُختلفاً ألوانُه إنَّ في ذلك لآيةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرونَ * وَهُوَ الّذي سَخّر البَحرَ لِتأكُلوا مِنهُ لَحماً طَرِيّاً وَتَستَخرِجُوا مِنهُ حِليَةً تَلبَسُونَهَا وَتَرَى الفُلكَ مَوَاخِرَ فيهِ وَلِتَبتَغُوا مِن فَضلِهِ وَلَعلّكُم تَشكُرُونَ * وَألقَى في الأرضِ رَوَاسِيَ أن تَميدَ بِكُم وأنهاراً وَسبُلاً لَعلّكُم تَهتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَجمِ هُم يَهتَدُون * أفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لا يَخلُقُ أفَلاَ تَذَكّرون * وإن تَعُدّوا نعمَةَ اللهِ لا تُحصُوها إنّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحيمٌ * وَاللهُ يَعلَمُ ما تُسِرّونَ وَمَا تُعلِنُونَ * والَّذِينَ يَدعُونَ مِن دونِ اللهِ لا يَخلُقُونَ شَيئاً وَهُم يُخلَقُونَ * أمَواتٌ غَيرُ أحيَاءٍ وَمَا يَشعُرُونَ أيّانَ يُبعَثُونَ﴾[1].

و: ﴿اللهُ لاَ إلهَ إلّا هُوَ الحَيُّ القَيّومُ لاَتَأخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَومٌ لَهُ ما في السَمَاوَاتِ وما في الأرضِ مَن ذَا الذي يَشفَعُ عِندَهُ إلّا بإذنِهِ يَعلَمُ مَا بَينَ أيدِيهِم وَمَا خَلفَهُم وَلَا يُحيطُونَ بِشيءٍ مِن عِلمِهِ إلّا بما شَاءَ وَسِعَ كُرسيُّهُ السَمَاواتِ وَالأرضَ وَلا يَؤودُهُ حِفظُهُما وَهُوَ العَليُّ العَظِيم﴾[2].

وكذلك: ﴿إنّ رَبّكُمُ اللهُ الّذي خَلَقَ السَمَاوَاتِ وَالأرضَ في سِتّةِ أيّامٍ ثُمّ استَوى عَلَى العَرشِ يُغشِي اللَيلَ النهارَ يَطلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَمسَ وَالقَمَرَ والنُجُومَ مُسَخّرَاتٍ بأمرِهِ ألاَ لَهُ الخَلقُ وَالأمرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمين﴾[3].

وكذلك «سورة الإخلاص»:

﴿قُل هُوَ اللهُ أحَدٌ * اللهُ الصَمدُ * لَم يَلِدْ وَلَم يُولَدْ * وَلَم يَكُنْ لَهُ كُفُواً أحد﴾[4].

وسورة الفاتحة:

﴿بِسمِ اللهِ الرَحمنِ الرَحيمِ * الحمدُ للهِ رَبِّ العَالَمينَ * الرَحمنِ الرَحيم * مَالِكِ يَومِ الدِينِ * إيّاكَ نَعبُدُ وَإيّاكَ نَستَعينُ * اهدِنَا الصِراطَ المُستَقِيمَ * صِراطَ

(١) النحل: ٣ ـ ٢١. (٢) البقرة: ٢٥٥. (٣) الأعراف: ٥٤.
(٤) الإخلاص: ١ ـ ٤.

الّذِينَ أنعمتَ عَلَيهِم غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِم وَلاَ الضَالّين﴾[١].

﴿قُل لِمَن مَا في السَمَاوَاتِ وَالأرضِ قُل للهِ كَتَبَ عَلَى نَفسِه الرَحمة لَيجمَعَنَّكُم إلى يَومِ القِيامَةِ لا رَيبَ فِيهِ الّذينَ خَسِرُوا أنفُسَهُم فَهُم لا يُؤمِنُون﴾[٢].

﴿وَعِندَهُ مَفَاتحُ الغَيبِ لاَ يَعلَمُها إلاّ هو وَيَعلَمُ مَا في البَرّ وَالبَحرِ وَمَا تَسقُطُ مِن وَرَقَةٍ إلاّ يَعلَمُها وَلاَ حَبَّةٍ في ظُلمَاتِ الأرضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابسٍ إلاّ في كِتابٍ مُبينٍ * وَهُوَ الّذي يَتَوَفّاكُم باللَيل وَيَعلَمُ مَا جَرحتم بالنَهارِ ثُمّ يَبعثُكُم فيهِ لِيُقضَىٰ أجَلٌ مُسمّى ثُمّ إليهِ مرجِعُكُم ثُمّ يُنَبّئُكُم بما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾[٣].

وفي مجال بيان توحيد الله سبحانه والاستدلال عليه من خلال مخلوقاته وإثار الإبداع في خلقه، وهي الطريقة الفطرية للإقناع والإتباع، يقول تعالى:

﴿إنَّ اللهَ فَالِقُ الحَبِّ والنَوى يُخرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ومُخرِجُ المَيِّتِ مِن الحيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأنّى تُؤفَكُونَ * فَالِقُ الإصبَاحِ وَجَعَلَ اللَيلَ سَكَناً والشَمسَ وَالقَمَر حُسبَاناً ذلِكَ تَقدِيرُ العَزيزِ العَلِيم * وَهُوَ الّذي جَعَلَ لَكُمُ النُجُوم لِتهتَدُوا بِها في ظلُماتِ البَرِّ والبَحر قَد فَصَّلنَا الآياتِ لِقَومٍ يَعلَمُونَ * وَهُوَ الّذي أنشأكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدةٍ فَمُستَقَرٌّ وَمُستَودَعٌ قَد فَصَّلنَا الآياتِ لِقوم يَفقَهُونَ * وَهُوَ الّذي أنزَلَ مِنَ السَماءِ مَاءً فَأخرَجنَابهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيءٍ فَأخرَجنَا مِنهُ خَضِراً نُخرِجُ مِنهُ حَبّاً مُتراكِباً وَمِنَ النَخلِ مِن طَلعِها قِنوَانٌ دانيةٌ وَجَنّاتٍ مِن أعنابٍ وَالزَيتُونَ وَالرُمّانَ مُشتَبِهاً وَغَيرَ مُتَشابِهٍ انظُروا إلى ثَمرِهِ إذَا أثمرَ وَيَنعِهِ إنّ في ذَلِكُم لآياتٍ لِقومٍ يُؤمِنونَ * وَجَعلُوا للهِ شُرَكاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُم وَخَرَقُوا لَه بَنينَ وَبَنَاتٍ بِغَيرِ علِم سُبَحانَهُ وَتعالَى عمّا يصِفُونَ * بَديعُ السَمَاوَاتِ وَالأرضِ أنّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمَ تَكُن لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلّ شَيءٍ وَهُوَ بِكُلّ شَيءٍ عَليمٌ * ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لاَ إلهَ إلاّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شيءٍ فَاعبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ وَكيلٌ * لا تُدرِكُهُ الأبصَارُ وَهُوَ يُدرِكُ الأبصَارَ وَهُوَ اللَطيفُ الخبيرُ * قَد جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَبِّكُم فَمَن أبصَرَ فَلِنَفسِهِ وَمَن عَمِيَ

(١) الفاتحة: ١ ـ ٧. (٢) الأنعام: ١٢. (٣) الأنعام: ٥٩ و ٦٠.

فَعَلَيها وَمَا أَنَا عَلَيكُم بِحفِيظٍ﴾[١].

﴿قُل إنّ صَلاتي وَنُسُكي وَمحيَايَ وَمَمَاتي للهِ رَبِّ العَالَمين﴾[٢].

﴿أَلَم تَرَ أَنَّ اللهَ يُسبِّحُ لَـهُ مَن في السَمَاوَاتِ وَالأَرضِ وَالطَيرُ صَافّاتٍ كُـلٌّ قَد عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسبيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بما يَفعَلُونَ * وَللهِ مُلكُ السَمَاوَاتِ وَالأَرضِ وإلى اللهِ المَصير﴾[٣].

﴿اللهُ الّذِي خَلَقَ السَمَاوَاتِ والأرضَ وَمَا بَينَهُمَا في سِتّةِ أيّامٍ ثُمّ استَوى عَلَى العَرشِ مَا لَكُم مِن دُونِهِ مِن وَليٍّ وَلا شَفيعٍ أفَلَا تتذكّرُونَ * يُدبِّرُ الأمرَ مِنَ السَمَاءِ إلى الأرضِ ثُمّ يَعرُجُ إليهِ في يَومٍ كَانَ مِقدَارُهُ ألفَ سَنَةٍ مِمّا تَعُدّونَ * ذَلِكَ عَالِمُ الغيبِ وَالشَهَادَةِ العَزِيزُ الرَحيمُ * الّذي أحسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلقَ الإنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِن مَاءٍ مَهين* ثُمَّ سَوّاهُ وَنَفَخَ فيهِ مِن رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَمعَ وَالأبصَارَ وَالأفئِدَةَ قَليلاً مَا تَشكُرُون﴾[٤].

﴿قُل يَا أيّهَا النَاسُ إنّي رَسُولُ اللهِ إليكُم جَميعاً الّذي لَـهُ مُـلكُ السَّـمَاوَاتِ وَالأرضِ لَا إلَهَ إلّا هُوَ يُحيي وَيُميتُ فآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النبيِّ الأُمّيِّ الّذي يُؤمِنُ باللهِ وَكلِماتِه وَاتّبِعُوهُ لَعلّكُم تَهتَدُون﴾[٥].

﴿قُل هُوَ الّذِي أنشَأكُم وَجَعَلَ لَكُـمُ السَـمعَ وَالأبـصارَ والأفـئِدَةَ قَـليلاً مَـا تَشكُرُون * قُل هُوَ الّذِي ذَرَأكُم في الأرضِ وَإليهِ تُحشَرُون﴾[٦].

﴿وَهُوَ الّذي جَعَلَ لَكُمُ اللَيلَ لِبَاساً وَالنَومَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَهارَ نُشوراً﴾[٧].

﴿غَافِرَ الذَنبِ وَقَابِلَ التوبِ ..... ذِي الطَوْلِ لَا إلهَ إلّا هُوَ إليهِ المَصير﴾[٨].

﴿لَا شَريكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرتُ وَأنا أوّلُ المُسلِمين﴾[٩].

﴿أمَّن خَلَقَ السَمَاوَاتِ وَالأرضَ وَأنزَلَ لَكُم مِنَ السَمَاءِ مَاءً فَأنبَتنَا بِهِ حَدَائِقَ

---

(١) الأنعام: ٩٥ ـ ١٠٤. (٢) الأنعام: ١٦٢. (٣) النور: ٤١ و ٤٢.
(٤) السجدة: ٤ ـ ٩. (٥) الأعراف: ١٥٨. (٦) الملك: ٢٣ و ٢٤.
(٧) الفرقان: ٤٧. (٨) غافر: ٣. (٩) الأنعام: ١٦٣.

ذَاتَ بَهجَةٍ مَا كان لَكُم أن تُنبتُوا شَجَرَهَا أَإلهٌ مَعَ اللهِ بَل هُم قَومٌ يَعدِلُون * أَمَّن جَعَلَ الأرضَ قَراراً وَجَعَل خِلالَهَا أنهاراً وَجَعَلَ لَها رَواسيَ وَجَعَلَ بَينَ البَحرين حَاجِزاً أَإلهٌ مَعَ اللهِ بَل أكثَرُهم لا يَعلَمُون * أَمَّن يُجيبُ المضْطَرَّ إذَا دَعَاهُ وَيَكشِفُ السُوءَ وَيَجعَلُكُم خُلَفَاءَ الأرض أَإلهٌ مَعَ اللهِ قَليلاً مَا تَذَكَّرُون﴾[1].

﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفساً إلّا وُسعَهَا لَها مَا كَسَبَت وَعَليها مَا اكتَسَبت ربّنَا لا تُؤاخِذنَا إن نَسِينَا أو أخطأنا رَبّنَا ولاَ تَحمِل عَلَينَا إصراً كما حَملتَهُ عَلَى الّذينَ مِن قَبلِنا رَبّنَا وَلا تُحمِّلنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعفُ عنّا وَاغفِر لَنَا وَارحمنا أنتَ مَولانَا فَانصُرنَا عَلَى القَومِ الكافِرين﴾[2].

﴿عَالِمُ الغيبِ وَالشَهَادَةِ الكبيرُ المُتعَالِ * سَوَاءٌ منكُم مَن أسَرَّ القَولَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَن هُوَ مُستَخفٍ بالليلِ وَسَارِبٌ بالنَهارِ * لَهُ مُعَقِّباتٌ مِن بَينِ يَديهِ وَمِن خَلفِهِ يحفَظُونَهُ مِن أمر اللهِ إنّ اللهَ لا يَغيِّرُ مَا بقومٍ حَتّى يُغَيِّرُوا مَا بِأنفُسِهِم وَإذا أرادَ اللهُ بِقومٍ سُوءً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾[3].

﴿اللهُ نُورُ السَمَاوَاتِ وَالأرضِ مَثَلُ نُورِهِ كمِشكَاةٍ فِيهَا مِصبَاحٌ المِصبَاحُ فـي زُجَاجَةٍ الزُجَاجَةُ كأنّها كَوكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجرَةٍ مُبَارَكَـةٍ زَيتُونَةٍ لا شَرقِيّةٍ وَلا غَربِيّةٍ يكادُ زَيتُها يُضِيءُ وَلَو لَم تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهدي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشاءُ وَيضرِبُ اللهُ الأمثالَ للناس وَاللهُ بكلّ شَيءٍ عَليمٌ * في بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أن تُـرْفَعَ وَيُذكَرَ فِيهَا اسمُهُ يُسَبحُ لَهُ فِيهَا بِالغُدُوِّ وَالآصَال * رِجَالٌ لا تُلهيهِم تِجارَةٌ وَلا بَيعٌ عَن ذِكرِ اللهِ وَإقامِ الصَلاةِ وَإيـتاءِ الزَكَـاةِ يَـخَافُونَ يَـوماً تَـتقَلَّبُ فِـيهِ القُـلوبُ وَالأبصَارُ * لِيَجزيَهُمُ اللهُ أحسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزيدَهُم مِن فَضلِهِ وَاللهُ يَرزُقُ مَن يَشاءُ بِغيرِ حِساب * وَالذينَ كَفَرُوا أعمالُهمُ كَسَرَابٍ بَقيعَةٍ يَحسَبُهُ الظَمْآنُ مَاءً حَتّى إذَا جَاءَهُ لَم يَجدهُ شَيئاً وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَـوَفّاهُ حِسَـابَهُ وَاللهُ سَـريعُ الحِسَـابِ * أو كَظُلُماتٍ في بحرٍ لُجِّيٍّ يَغشَاهُ مَوجٌ مِن فَوقِهِ مَوجٌ مِن فَوقِهِ سَحَابٌ ظُلُماتٌ بَعضُها

---

(١) النمـل: ٦٠ ـ ٦٢.　(٢) البقـرة: ٢٨٦.　(٣) الرعـد: ٩ ـ ١١.

فَوقَ بَعضٍ إذَا أخرَجَ يَدَهُ لَم يَكَد يَرَاهَا وَمَن لَم يَجعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ * أَلَم تَرَ أَنَّ اللهَ يُسبِّحُ لَهُ مَن في السَمَاوَاتِ وَالأرضِ وَالطيرُ صَافّاتٍ كُلٌّ قَد عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسبيحَهُ وَاللهُ عَليمٌ بِما يَفعَلُونَ * وَللهِ مُلكُ السَمَاوَاتِ وَالأرض وَإلَى اللهِ المَصيرُ * أَلَم تَرَ أنّ اللهَ يُزجي سَحَاباً ثمّ يُؤَلِّفُ بَينَهُ ثُمّ يَجعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى الوَدقَ يَخرُجُ مِن خِلالِهِ وَيُنزِّلُ مِنَ السَمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصرِفُهُ عمّن يَشاءُ يَكادُ سَنَابَرقِهِ يَذهَبُ بالأبصَارِ * يُقَلِّبُ اللهُ اللَيلَ وَالنَهارَ إنّ في ذَلِكَ لَعِبرَةً لأُولي الأبصَار﴾[1].

وفي سورة الرحمن أنصع دليل على ذلك التقدير الكبير الّذي كان يشعر به محمّد نحو ضرورة تبصير قومه بمجالي الطبيعة المشرقة، وفي شكل جعل الغربيين يطلقون على تلك السورة اسم «جمال الطبيعة في القرآن».

فهو يقول:

﴿الشَمسُ وَالقَمَرُ بِحُسبَانٍ * وَالنَجمُ وَالشَجَرُ يَسجُدَانِ * وَالسَمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيزَان * أن لا تَطغَوا في المِيزَانِ * وَأقيمُوا الوَزنَ بالقِسطِ وَلاَ تُخسِرُوا المِيزَانَ * وَالأرضَ وَضَعَها لِلأنَام * فِيَها فَاكِهَةٌ وَالنَخلُ ذَاتُ الأكمام * وَالحبُّ ذُو العَصفِ وَالرَيحان * فَبِأيِّ آلآءِ رَبِّكُمَا تكَذِّبَان * خَلَقَ الإنسَانَ مِن صَلصَالٍ كالفَخّارِ * وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَارجٍ مِن نارٍ ... رَبُّ المشرِقَينِ وَرَبُّ المغربين ... مَرَجَ البَحرَينِ يَلتَقِيَانِ * بَينَهُما بَرزَخٌ لاَّ يَبغِيانِ ... يَخرُجُ مِنهُمَا اللُؤلُؤ والمَرجَانِ ... وَلَهُ الجَوارِ المُنشَآتُ في البَحرِ كالأعلاَم ... كُلُّ مَن عَلَيهَا فَانٍ * وَيَبقَى وَجهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإكرَام ... يَسألُهُ مَن في السَمَاوَاتِ وَالأرضِ كُلَّ يَومٍ هُوَ في شَأنٍ * فَبِأيِّ آلآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَان﴾[2].

وكذلك الآيات البيّنات التالية:

﴿وَكُلَّ إنسَانٍ ألزَمنَاهُ طَائِرَهُ في عُنُقِهِ وَنُخرِجُ لَهُ يَومَ القِيَامَةِ كِتَاباً يَلقَاهُ

(١) النور: ٣٥ ـ ٤٤. (٢) الرحمن: ٥ ـ ٣٠.

مَنشُوراً﴾[١].

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوّاهَا * فَألْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقوَاهَا * قَد أفلَحَ مَن زَكّاهَا﴾[٢].

﴿الّذي خَلَقَ سَبعَ سَمَاواتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى في خَلقِ الرَحمنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارجِعِ البَصَرَ هَل تَرَى مِن فَطُورٍ * ثُمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَينِ يَنقَلِب إلَيكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِير﴾[٣].

﴿وَمِن آيَاتِهِ أن تَقُومَ السَمَاءُ والأرضُ بأمرِهِ ثُمَّ إذَا دَعَاكُم دَعوَةً مِنَ الأرضِ إذا أنتُم تَخرُجُونَ﴾[٤].

ومتى يا ترى؟ إنّ الجواب على ذلك ظاهر في سورة التكوير، حيث قال الله تعالى:

﴿إذَا الشَمسُ كُوِّرَت * وَإذَا النُجُومُ انكَدَرَت * وَإذَا الجِبَالُ سُيِّرَتَ * وَإذَا العِشَارُ عُطِّلَت * وَإذَا الوُحُوشُ حُشِرَت * وَإذَا البِحارُ سُجِّرَتَ * وَإذَا النُفُوسُ زوِّجَت * وَإذَا المَوْؤدَةُ سُئِلَت * بأيِّ ذَنبٍ قُتِلَت * وَإذَا الصُحُفُ نُشِرَت * وَإذَا السَمَاءُ كُشِطَت * وَإذَا الجَحِيمُ سُعِّرت * وَإذَا الجَنّةُ أُزلِفَت * عَلِمَت نَفسٌ مَا أحضَرَت * فَلا أُقسِمُ بِالخُنَّس * الجَوَارِ الكُنَّس * وَاللَيلِ إذَا عَسعَسَ * وَالصُبحِ إذَا تَنَفَّسَ * إنّهُ لَقولُ رَسُولٍ كَريمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العَرشِ مَكينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أمين * وما صَاحِبُكم بمَجنُونٍ * ولقد رآه بالأُفُقِ المُبينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الغَيبِ بضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَولِ شَيطَانٍ رَجيمٍ * فَأينَ تَذهَبُونَ * إنْ هُوَ إلّا ذِكرٌ لِلعَالَمِينَ * لِمَنَ شَاءَ مِنكُم أن يَستَقيمَ * وَمَا تَشَاؤونَ إلّا أن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ العَالَمين﴾[٥].

ويسألونك يا محمّد عن الساعة، فقل: ﴿عِلمُهَا عِندَ رَبِّي في كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾[٦].

وقد سبق أن ﴿كَذّبَت ثَمُودُ بِطغْواها﴾[٧] فأنكرت يوم القيامة وعقر أشقاها

(١) الإسراء: ١٣. (٢) الشمس: ٧ ـ ٩. (٣) الملك: ٣ و ٤.
(٤) الروم: ٢٥. (٥) التكوير: ١ ـ ٢٩. (٦) طه: ٥٢.
(٧) الشمس: ١١.

الناقة، وقال لهم رسولُ الله ﴿نَاقةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا﴾[1] فلم يستجيبوا له ﴿فَدَمدَمَ عَلَيهِم رَبُّهم بِذَنبِهِم﴾[2] وسوى بلدهم بالأرض بعد أن أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية. وبحقٍّ.

﴿وَالضُحَى * وَاللَيلِ إذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلاخِرةُ خَيرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى * وَلَسَوفَ يُعطِيكَ رَبُّكَ فَتَرضَى * أَلَم يَجِدْكَ يَتيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدى * وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأغْنَى * فَأمّا اليَتيمَ فَلا تقهَرْ * وَأمّا السَائِلَ فَلا تَنهَر * وَأمّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّث﴾[3].

وربّما ظنّ المشركون أنّ الله قد خلقهم لهواً وهزؤاً فبلّغهم يا محمّد إنّهم مخطئون في ظنّهم، وإنّ إلينا النشور، وحينئذٍ ننبئهم بكلّ ما فعلوا. أمّا أنت وأصحابك فقولوا: ﴿رَبَّنا لا تُؤاخِذنَا إن نَسينَا أو أخطَأنَا﴾[4] واغفر لنا ذنوبنا واعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا إنّك أنت الغفور الرحيم.

وثِقوا جميعاً أنّه لن تحمل «وازرةٌ وِزرَ أُخرى»[5] فكلّ نفس بما كسبت رهينة. وأنّ ربّكم لن يعذّب أحداً كما أنّه لم يعذب من قبل إلّا بعد أن يرسل رسولاً .. واذكروا:

﴿وَمَا كُنّا مُعذِّبينَ حَتّى نَبعَثَ رَسُولاً﴾[6].

وهكذا يمضي هذا الكتاب الرائع، مناشداً أنبل مشاعر الانسان، وضميره الداخلي وإدراكه العقلي، عارضاً ثمّ مبرهناً على بشاعة المعتقدات الوثنية وانحطاطها. وقلّما تخلو سورة من سوَر القرآن من عبارة بليغة متألّقة عن قدرة الله وعطفه ووحدانيّته . ومع هذا فقد أساء الكتّاب المسيحيّون إدراك المفهوم الإسلامي لقدرة الذات الإلهية، فجعلوا يصوّرون إله المسلمين على أنه «عديم الشفقة، طاغية يلعب بمقدرات الإنسانية كما يلعب المرء بحجارة الشطرنج».

---

(١) الشمس: ١٣. (٢) الشمس: ١٤. (٣) الضحى: ١ ـ ١١.
(٤) البقرة: ٢٨٦. (٥) ذكرت في القرآن في خمسة مواضع.
(٦) الإسراء: ١٥.

وقالوا: «إنّه يقوم بما يقوم به دون أيّ اعتبار لتضحيات البشر». هكذا زعموا، فلنر ما اذا كان هذا التقدير صحيحاً.

إنّ إله المسلميـن هو القويّ العليم العـدل ربّ العـالمين، فـاطر السـموات والأرض، وهو الذي ذرأ الحياة، وكتب الموت، بيده السيطرة على كلّ شيء، وهو الأوّل والآخر، وصاحب القوّة التي لا تقاوم، وهو العظيم القويّ الذي استوى على العرش. إنّ الله هو القويّ، الرحيم، العليّ، الخالق، الصانع، المصمّم، العاقل، العادل، الحقّ، السريع الحساب. إنّـه هو الذي يعرف مثقال الذرّة من خير أو شـرّ عـمله الإنسان، وهو الذي لا يضيـع أجر من أحسن عملاً. والحقّ أنّ هذا الرحيم العادل هو أيضاً الملكُ القدّوس السلام المؤمـن المهيمنُ الحارسُ على مصالح عـباده. وهو كذلك ملجأ العاجز ومرشد الضالّ، والمـعطي الوهّـاب، صـديق المـحروم، ومستشار المظلوم، في يده كلّ الخير، وهو السيّد الكريم، الغفور، السميع، القريب، الشفوق، الرحيـم، الذي يحبّ الإنسان أكثر من حبّ الطير لصغاره.

إنّ رحمة الله لَهي من أوسع المواضيـع التي تضمّنها القرآن، وكلمة (الرحمـن) التي تتفتّح بها كلّ سورة من سوَر القرآن الكريم في البسملة والتي تدلّ على إله رحيم إنّما تعبّر تعبيراً عميقاً عن ذلك الحبّ الذي يكنّـه خالق السماوات والأرض لعباده.

إنّ ما تعرّض له أتباع الفئتين سالفتي الذكر (اليهود والمسيحيين) من تحقير خلقي، قد اعتصر قلب الرسول، ثمّ تحوّل هذا الألم الى شجب للمعتقدات الخرافية التي كانوا يمارسونها خلافاً لتحذيرات رسـولهـم. إنّ نـار الغـيرة الديـنية التـي اشتعلت في صدر أشعيا وجرميا قد عادت واشتعلت في صدر رجـل آخـر أعظم منهما . وقد شجب هذا الرجل ولكـن دون نواح، صيحات اليأس والكمد حـول تقليل قيمة الانسانيـة، وأسمعهم صوت الأمل والعقـل.

وقد عنف القرآن اليهود بشـدّة عـلى عـبادتهم آلهـة مـزيّفة مـن الأوثـان،

ولمبالغتهم في الاعتماد على ذاكرة عزرا. كما لام القرآن المسيحيين لتأليههم عيسى وأُمِّه مريم كما هو مبيّن في الآيات التالية:

﴿أَلَم تَرَ الَى الّذينَ أُوتُوا نَصيباً مِنَ الكِتَابِ يُؤمِنُونَ بالجِبتِ وَالطّاغُوتِ وَيَقُولُونَ للّذينَ كَفَرُوا هَؤلاءِ أهدَى مِنَ الّذينَ آمَنُوا سبيلاً * أُولَئِكَ الّذينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَن يَلعَنِ اللهُ فَلَن تَجِد لَهُ نَصيراً﴾[1].

﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيزٌ ابْنُ الله وَقَالَتِ النَصَارَى المَسيحُ ابنُ اللهِ ذَلِكَ قَولُهُم بأفَواهِهِم يُضَاهِئُونَ قَولَ الّذينَ كَفَرُوا مِن قَبلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أنّى يُؤفَكُونَ * اتّخذُوا أحبَارَهم وَرُهبَانَهُم أربَاباً مِن دُونِ اللهِ وَالمَسيحَ بنَ مَريمَ وَمَا أُمِرُوا إلّا لِيَعْبُدُوا إلهاً وَاحداً لا إلَه إلّا هُوَ سُبْحانَهُ عَمّا يُشرِكُونَ * يُريدُونَ أن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأفْواهِهِم وَيَأبَى اللهُ إلّا أن يُتمَّ نورَهُ وَلَو كَرِهَ الكَافِرُون﴾[2].

﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ والنَصَارى نَحنُ أبنَاءُ اللهِ وأحِبّاؤهُ قُل فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبكُم بَل أنتُم بَشَرٌ مِمّن خَلَقَ يَغفِرُ لمنَ يَشَاءُ وَيُعذِّبُ مَن يَشَاءُ وَللهِ مُلك السَمَاوَاتِ والأرضِ وَمَا بينَهما وإليهِ المَصِير﴾[3].

﴿يَا أيّها الّذينَ آمَنُوا عَلَيكُم أنفُسَكُم لا يَضُرُّكُم مَن ضَلَّ إذَا اهتَدَيتُم إلَى اللهِ مرجِعُكُم جَميعاً فينَبِّئكُم بِما كُنتُم تَعمَلُون﴾[4].

والآيات التالية تظهر الشعور الذي اعتبر به هذا المعتقد الديني:

﴿يَا أهلَ الكِتاب لا تَغلُوا في دينِكُم وَلا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إلّا الحَقَّ إنّمَا المَسيحُ عِيسَى بنُ مَريَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ ألقَاهَا إلى مَريَمَ وَرُوحٌ مِنهُ فآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيراً لَكُم إنّما اللهُ إلَهٌ وَاحِدٌ سُبحَانَهُ أن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا في السَمَاوَاتِ وَمَا في الأرضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكيلاً﴾[5].

﴿وَإنَّ مِنهُم لَفَريقاً يَلْوُونَ ألسنَتَهُم بالكِتَابِ لتَحسَبُوهُ مِنَ الكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ

---

(١) النساء: ٥١ و ٥٢. (٢) التوبة: ٣٠ ـ ٣٢. (٣) المائدة: ١٨.
(٤) المائدة: ١٠٥. (٥) النساء: ١٧١.

الكِتَابِ وَيُقولُونَ هُوَ مِن عِندِ اللهِ وَمَا هو مِن عِندِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُم يَعلَمُونَ * مَا كَانَ لِبَشَرٍ أن يُؤتِيَهُ اللهُ الكِتَابَ والحُكمَ والنُبوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَاسِ كونُوا عِبَاداً لي مِن دُونِ اللهِ وَلكِن كُونُوا رَبّانِيِّينَ بِمَا كُنتُم تُعلِّمُونَ الكِتَابَ وَبِما كُنتُم تَدرُسُونَ * وَلا يَأمرَكُم أن تتّخِذوا المَلائِكَةَ والنَبيِّينَ أربَاباً أيأمُرُكم بِالكُفرِ بَعدَ إذ أنتُم مُسلِمُون﴾[1].

﴿أن دَعَوا للرَحمنِ وَلَداً * وَمَا يَنبَغي للرَحمنِ أنَ يتّخذَ وَلَداً * إن كُلُّ مَن في السَمَاوَاتِ وَالأرضِ إلّا آتي الرَحمنِ عَبداً * لَقَد أحصَاهُم وَعَدَّهُم عَدّاً﴾[2].

إنّ الكراهية الملتهبة المشتركة التي يكنّها كلّ من اليهود والمسيحيين والحروب الضارية واضطهاد القبائل الذي لا معنى له والفلسفة الجوفاء عند الكنيسة البيزنطية كانت أبداً تلقى الشجب من رسالة محمّد كما يتّضح من الآيات التالية:

﴿ضُرِبَتَ عليهِمُ الذِّلَّة أينَما ثُقِفُوا إلّا بحبلٍ مِنَ اللهِ وَحَبلٍ مِنَ النَاسِ وَبَاؤوا بِغَضَبٍ مِن اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيهِمُ المَسكَنَةُ ذَلِكَ بأنّهم كَانُوا يَكفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأنبياءَ بِغيرِ حَقٍّ ذِلكَ بِمّا عَصَوا وَكَانُوا يَعتَدُونَ * لَيسُوا سَوَاءً مِن أهلِ الكِتابِ أُمَّةٌ قَائِمةٌ يَتلُونَ آياتِ اللهِ آناءَ اللَيلِ وَهُم يَسجُدُونَ * يُؤمِنُونَ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ وَيَأمُرُونَ بِالَمعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَيُسارِعُونَ في الخيرَاتِ وَأُولئكَ مِنَ الصَالِحِين﴾[3].

ويختلف الذين أُوتوا الكتاب في إبراهيم فليسمعوا:

﴿وَإذْ يَرفَعُ إبَراهيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيتِ وَإسمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقبَّلْ مِنّا إنّك أنتَ السَميعُ العَليمُ * رَبّنَا وَاجعَلنَا مُسلِمَينِ لَكَ وَمِن ذُرّيتِنَا أُمّةً مُسلِمَةً لَكَ وَأرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُب عَلَينا إنّكَ أنتَ التَوّابُ الرَحِيم﴾[4].

---

(١) آل عمران: ٧٨ ـ ٨٠. (٢) مريم: ٩١ ـ ٩٤. (٣) آل عمران: ١١٢ ـ ١١٤.
(٤) البقرة: ١٢٧ و ١٢٨.

ولقد ذهب إبراهيم وإسماعيل، وسيجازيهم ربّهم بأعمالهم، فـ﴿كُلّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتَ رَهينَة﴾[١] ﴿وَلا تَزرُ وَازِرَةٌ وِزرَ أُخرَى﴾[٢] فدعوهم لربّهم هو أعلم بهم، و ﴿هُوَ أعلَمُ بِمَنْ اهتَدَى﴾[٣]، إنّه ذلك ﴿الّذي يُؤتي مَالَهُ يَتزكّى * وَمَا لأحَدٍ عِندَهُ مِن نِعمَةٍ تُجزَى * إلاّ ابتِغَاءَ وَجهِ رَبِّهِ الأعلَى * وَلَسَوفَ يَرضَى﴾[٤].

هؤلاء الأخيار الذين يقدّمون الحسنة:

﴿وَيُطعِمُونَ الطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسكِيناً وَيَتيماً وأسِيراً * إنّما نُطعِمُكُم لِوَجهِ اللهِ لَا نُريدُ مِنكُم جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾[٥].

فيا أيّها النبيّ وأصحابه، اعبدوا الله وأطيعوه: وكونوا رحماء بينكم. أمّا بشأن معاملة الفرد مِنكم لوالديه فليخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة ﴿وَقُل رَبِّ ارحَمهُما كَما رَبَّياني صَغيراً﴾[٦].

ويا أيّها المسلمون، اقلعوا عن عادات الجاهلية الشائنات وتحلّوا بالفضائل الزكية ﴿وَلا تَقتُلُوا أولادَكُم خَشيَةَ إملاقٍ نَحنُ نَرزُقُهُم وإيّاكُم﴾[٧]. واذا سألك أصحابك عن الصراط السويّ يا محمّد، والطريق التي تنجيهم من عذاب يوم عظيم، فقل لهم:

﴿فَكُّ رَقبةٍ * أو إطعَامٌ في يومٍ ذِي مَسغَبةٍ * يَتيماً ذَا مَقرَبَةٍ * أو مِسكِيناً ذَا مَترِبَةٍ * ثُمّ كانَ مِنَ الّذينَ آمَنُوا وَتَواصَوْا بِالصَبرِ وَتَواصَوْا بِالمَرحَمَةِ﴾[٨].

فمن يفعل ذلك يكن شأنه شأن من سبقه من رجالنا المخلصين الذين كان منهم إبراهيم، حيث:

﴿فَغَفَرنَا لَـهُ ذَلِكَ وَإنَّ لَـهُ عِندَنَا لَزُلفَى وَحُسنَ مَآبٍ﴾[٩].

ولا يجوز أن يكون الإحسان حبّاً في التظاهر والتعاظم على المحتاج، فإنّ

---

(١) المدّثر: ٣٨. (٢) الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧، النجم: ٣٨.
(٣) النجم: ٣٠. (٤) الليل: ١٨ ـ ٢١. (٥) الانسان: ٨ و ٩.
(٦) الإسراء: ٢٤. (٧) الإسراء: ٣١. (٨) البلد: ١٣ ـ ١٧.
(٩) ص: ٢٥.

ذلك يمحق الحسنات كما أنَّ فيه إذلالاً للنفس البشريـة، وهي عند الله أكرم من أن يتسامح في إذلالها، فاذا فعلتم أيّها المسلمون حسنة فلا يـجعل الواحـد مـنكم شماله تعلم ما قدّمت يمناه. أمّا اذا أخذه الزهو فإنّ عمله يكون كسقوط المطر على صخرة ملساء مكشوفة ما عليها تراب، فيهطل المطر، ولكنَّه يتساقط على أطرافها، فلا تنتفع منه شيئاً . أمّا ذلك الذي يقصد ربّه بعمله فهو كبستان على ظهر رابـيـة يتقاطر عليها الغيث فتمرع، ويصوبها الندى فَتتفتح أزاهيرها.

وعلى محمّد أن يفصل فيما يعترض قومه من مشـكلات: فاذا حكم فليحكـم كما فعل داود: ﴿يَا دَاوُدُ إنّا جَعَلنَاكَ خَليفَةً في الأرضِ فَاحكُم بَينَ النَاسِ بِالحَقِّ ولا تَتّبِعِ الهَوى فَيُضِلّكَ عَن سَبيل اللهِ إنّ الّذين يَضِلُّونَ عَن سَبيلِ اللهِ لَهُم عَـذَابٌ شَدَيدٌ بَما نَسُوا يَومَ الحِسَابِ﴾[١].

ولربّما آتاك الله بسطة في المال وسعة في العيش فلا تمنن بأنعم الله، أمّا اذا حاول الشيطان أن يوسوس في فؤاد أيٍّ من أصحابك فقل له: ارجع الى الله.

وإيّاك أن تتعاظم نفسك فربّك أكبر منـك.

﴿وَلا تَمشِ في الأرضِ مَرَحاً إنّكَ لَن تَـخرِقَ الأرضَ وَلَـن تَـبلُغَ الجِـبالَ طُولاً﴾[٢] وحذّر قومـكَ من :

﴿إذَا بُشِّرَ أحدُهُم بالأُنثَى ظَلّ وَجهُهُ مُسوداً وهُوَ كَظيم﴾[٣] وربَّما قتل تلك المولودة فإيّاك وأصحابك أن يفعل أحدكم هذه الكبيرة:

﴿وَلاَ تَقتُلُوا النَفْسَ الّتي حَرَّمَ اللهُ إلّا بِالحَقّ﴾[٤].

والموؤدة نفس سيحشرها ربّها يوم القيامة: ﴿وَإذَا المَوؤدَةُ سُئلَتْ * بِأيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾[٥].

ألم تلدكم أُناث يا هؤلاء؟ فاحترموا أرحاماً ولدَتكـم: ﴿وَلاَ تَقرَبُوا الزنا إنّه

---

(١) ص : ٢٦. (٢) الإسـراء: ٣٧. (٣) النحـل: ٥٨.
(٤) الأنعـام: ١٥١. (٥) التكوير: ٨ و ٩.

كانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبيلاً﴾(١).

ومن هذا القبيل يتوجّـب:

﴿قُل لِلمُؤمنِينَ أن يَغُضُّوا مِن أبصَارِهِم﴾(٢).

وللمؤمنـات ﴿وَلاَ تَبَرَّجنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَةِ الأُولَى﴾(٣)، وعليهنّ أن لا يبدين زينتهن إلّا لبعولتهنّ أو ذوي أرحامهنّ من المحرميـن.

ولا تغرّنكم الحياة الدنيا يا أصحاب محمّد، واعلموا أنّـه:

﴿وَمَا الحَياةُ الدُنيَا إلّا مَتَاعُ الغُرُور﴾(٤) وما مثلها إلّا كزرع استوى على سوقه يعجب الزرّاع نباته ثمّ يهيج فتراه مصفرّاً، وكذلك يصرّف الله الآيات لقومٍ يعقلون.

واعملوا أنّـه:

﴿قَد أَفْلَحَ المُؤمِنُونَ * الّذينَ هُم في صَلاتِهِم خَاشِعُونَ * وَالّذينَ هُم عـن اللَغوِ مُعرِضُونَ * وَالّذينَ هُمَ لِلزكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالّذينَ هُم لِفُرُوجِهِم حَافِظُونَ * إلّا عَلَى أزوَاجِهِم أو مَا مَلَكَت أيمانُهُم فَإنَّهم غَيرُ مَلُومِين﴾(٥).

أمّـا:

﴿مَنِ ابتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولئكَ هُم العَادُون﴾(٦).

بخـلاف:

﴿الّذينَ هُمِ لأِماناتهم وعهدهم راعـون * أُولئك هم الوارثون﴾(٧).

وماذا يرثـون؟

﴿الّذينَ يَرِثُونَ الفِردَوسَ هُم فِيهَا خَالِدُون﴾(٨).

وكيف تعاملون والديكم يا أصحاب محمّد؟

﴿وَقَضى رَبُّكَ أنْ لَا تَعبُدُوا إلّا إيّاه وَبِالوَالِدَين إحسَاناً إمّا يَبلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أحَدُهُما أو كِلَاهُما فَلا تَقُل لَهُما أفٍّ وَلا تَنهَرهُمَا وَقُل لَهُما قَولاً كَريماً﴾(٩).

---

(١) الإسراء: ٣٢. (٢) النـور: ٣٠. (٣) الأحـزاب: ٣٣.
(٤) آل عمران: ١٨٥. (٥) المؤمنـون: ١ ـ ٦. (٦) المؤمنـون: ٧.
(٧) المؤمنون ٨ ـ ١٠. (٨) المؤمنون: ١١. (٩) الإسـراء: ٢٣.

ولا تطمعوا في أموال قرباكـم بل:

﴿وَآتِ ذا القُربَى حَقَّهُ وَالمِسكينَ وَابنَ السَبيلِ وَلاَ تُبَذِّر تبذِيراً﴾[١].

والزموا العدل في إنفاق أموالكـم:

﴿وَلا تَجعَل يَدَكَ مَغلُولةً إلى عُنُقِكَ وَلا تَـبْسُطها كُـلَّ البَسـطِ فَـتَقعُدَ مَـلُوماً مَحسُوراً﴾[٢].

وكذلك العدل في أقوالكـم:

﴿وَقُل لِعبَادي يَقُولُوا الّتي هِيَ أحسَنُ إنّ الشَيطَانَ يَنزَغُ بينَهُم إنّ الشيطَانَ كانَ للإنسَانِ عَدُوّاً مُبيناً﴾[٣].

وأنت يا محمَّد:

﴿إدفَع بالّتي هِيَ أحسَنُ السيّئةَ نَحنُ أعلَمُ بما يَصِفُونَ﴾[٤].

وسيندم أُولئك الذين يظنّون أنّ الله غافل عمّا يفعلون إذ أنّه:

﴿نُفِخَ في الصور فاذا هُم من الأجداثِ الى ربِّهم يَنسِلون﴾[٥].

وحينئـذٍ:

﴿وَنَضَعُ المَوازينَ القِسطَ ليومِ القِيامَةِ فَلاَ تُظلَمُ نَفْسٌ شَيئاً وَإن كانَ مِثقَالَ حَبّةٍ مِن خَردَلٍ أتَينَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبين﴾[٦].

وعليك يا محمّد أن تقول لأصحابك ممّن اهتدوا الى سواء السبيل:

﴿وَاستَغفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إلَيهِ إنّ رَبِّي رَحيمٌ وَدُود﴾[٧].

ولن يبخل الله عليكـم فهو:

﴿غَافِرِ الذَنبِ وَقَابلِ التَوب﴾[٨].

وهو يبلغـكم:

﴿قُل يَا عِبَادِيَ الّذينَ أسرَفُوا عَلَى أنفُسِهِم لاَ تَقنَطُوا مِن رَحمَةِ اللهِ إنّ اللهَ يَغفِرُ

---

(١) الإسراء: ٢٦. (٢) الإسراء: ٢٩. (٣) الإسراء: ٥٣.
(٤) المؤمنون: ٩٦. (٥) يـس: ٥١. (٦) الأنبياء: ٤٧.
(٧) هـود: ٩٠. (٨) غافر: ٣.

الذُنُوبَ جَميعاً إنّه هُوَ الغَفُورُ الرَحِيم﴾[١].

واذكروا يا أصحاب محمّد أنّـه:

﴿مَن كانَ يُريدُ العِزَّةَ فَللهِ العِزَّةُ جَميعاً إلَيهِ يَصعَدُ الكَلِمُ الطَيِّبُ وَالعَمَلُ الصَالِحُ يَرفَعُهُ وَالّذينَ يَمكُرُونَ السَيِّئاتِ لَهُم عَذَابٌ شَديدٌ وَمَكرُ أُولئكَ هُوَ يَبُور﴾[٢].

واذا سألك المؤمنون عمّا حرّم الله فأجبهم:

﴿قُل إنّما حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحشَ مَا ظَهَرَ مِنهَا وَمَا بَطَنَ وَالإثمَ وَالبَغيَ بِغَير الحقِّ وَأن تُشركُوا بِاللهِ مَا لَمْ ينزِّل بِهِ سُلطَاناً وأن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعلَمُون﴾[٣].

فمـن واجبـكم أن:

﴿ادعُوا رَبّكُم تَضرُّعاً وَخُفيةً إنّهُ لا يُحِبُّ المُعتدينَ * وَلا تُفسِدُوا في الأرضِ بَعدَ إصلاحِهَا وَادعُوهُ خَوفاً وَطَمَعاً إنّ رَحمَةَ اللهِ قَريبٌ مِنَ المُحسنِينَ * وَهُوَ الّذي يُرسِلُ الريَاحَ بُشراً بَينَ يَدَي رَحمَتِهِ حَتّى إذَا أَقَلَّتَ سَحَاباً ثِقَالاً سُقنَاهُ لِبَلَدٍ مَـيِّتٍ فَأنزَلنا بِهِ المِاءَ فأخرَجنَا بِهِ مِن كُلّ الثمرات كذلكَ نُخرجُ المَوتَى لعلّكُم تَذَكَّرُونَ * وَالبَلَدُ الطَيِّبُ يَخرُجُ نَبَاتُهُ بإذنِ رَبِّهِ وَالّذي خَبُثَ لَا يَخرُج إلّا نكِداً كَذلِكَ نَصرِفُ الآيَاتِ لِقومٍ يَشكُرُون﴾[٤].

ومن الشكر:

﴿ وصَّينَا الإنسَانَ بِوَالِدَيهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهنٍ ﴾[٥].

فحين يشبّ يغدو من واجبه أن يقول:

﴿رَبِّ أوزِعني أن أشكُرَ نِعمَتَكَ الّتي أنعمتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيّ﴾[٦].

ولكن الشكر لذينك الوالدين لا يجعله في حلّ من أن يعصي ربّه من أجلهما:

﴿وَإن جَاهَدَاكَ عَلَى أن تُشرِكَ بي ما لَيسَ لَكَ بِهِ عِلمٌ فَلا تُطِعهُمَا وَصَاحِبهُمَا في الدُنيَا مَعرُوفاً﴾[٧].

(١) الزمر: ٥٣. (٢) غافـر: ١٠. (٣) الأعـراف: ٣٣.
(٤) الأعـراف: ٥٥ ـ ٥٨. (٥) لقمـان: ١٤. (٦) النمـل: ١٩.
(٧) لقمـان: ١٥.

ولكنّك في حلٍّ من العصيـان لأنّ:

﴿اللهَ يَغفِرُ الذُّنُوب جَميعاً﴾[1] إلّا ﴿أن يُشرَكَ بـِهِ﴾[2].

واضرب يا محمّد للمخلصين من أتباعك مثلاً وقل لهم:

﴿مَثَلُ الّذينَ يُنفِقُونَ أموَالَهمُ في سَبيلِ اللهِ كَمَثَل حَبّةٍ أنبَتَت سَبعَ سَنَابِلَ في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عليمٌ * الّذينَ يُنفِقُونَ أموَالَهُم في سَبيلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتبِعُونَ مَا أنفقُوا مَنّاً وَلا أذىً لَهُم أجرُهُم عِندَ رَبِّهم وَلا خَوفٌ عَلَيهِم وَلا هُم يَحزَنُونَ * قَولٌ مَعرُوفٌ وَمَغفِرَةٌ خَيرٌ من صَدَقةٍ يَـتبَعُها أذىً وَاللهُ غَنيٌّ حَليم﴾[3].

وليس في هذا على المؤمنين رهق ولا تعجيز إذ أنـّه:

﴿لا يُكلِّفُ اللهُ نَفساً إلّا وُسعَهَا لَها مَا كَسَبَت وَعَلَيهَا مَا اكتَسَبَت رَبَّنَا لا تُؤَاخِذنَا إن نسِينَا أو أخطَأنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحمِل عَلَينَا إصراً كَما حَمَلتَهُ عَلَى الّذينَ مِن قَبلِنَا رَبّنَا وَلا تُحَمِّلنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا به وَاعفُ عَنّا وَاغفِر لَنَا وَارحَمنَا أنتَ مَولانَا فَانصُرنَا عَلَى القَومِ الكَافِرين﴾[4].

هؤلاء القوم هم الّذين تردّد ألسنتهم وتطفح قلوبهم بحبّ الله فيظلّ دعاؤهـم:

﴿الّذين يَقُولُونَ ربّنا إنّنَا آمنّا فَاغفِر لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَار﴾[5].

و ﴿ربّنا إنَّكَ مَن تُدخِلِ النَارَ فَقَد أخزَيتَهُ وَمَا لِلظَالمينَ مِن أنصَار﴾[6].

واعلموا يا أصحاب الرسول أنّ:

﴿مَن يَشفَع شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَهُ نَصيبٌ مِنهَا وَمَن يَشفَعْ شَفَاعَةً سيِّئَةً يَكُن لَـهُ كِفلٌ مِنهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كلّ شيءٍ مُقيتاً﴾[7].

و ﴿يَا أيّها الّذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامِينَ بالقِسطِ شُهداءَ للهِ وَلَو عَلَى أنفُسِكُم أو الوالدينِ وَالأقربين إن يَكُن غنيّاً أو فَقيراً فَاللهُ أولى بِهِمَا فَلا تَتّبعُوا الهوَى أن تعدِلُوا وَإن تلووا أو تُعرِضُوا فإنَّ اللهَ كانَ بَما تَعمَلُونَ خَبيراً﴾[8].

---

(١) الزمر: ٥٣. (٢) النســاء: ٤٨ و ١١٦. (٣) البقـرة: ٢٦١ ـ ٢٦٣.
(٤) البقرة: ٢٨٦. (٥) آل عمران: ١٦. (٦) آل عمران: ١٩٢.
(٧) النســاء: ٨٥ (٨) النســاء: ١٣٥.

فهل تقصر دعوة ابن الصحراء العربي، أو الرسول الى العالم كافّة، في مخاطبته ضمائر الناس من قومه السابقين والإنسانية جمعاء من اللاحقين، عن دعوة المسيح الرقيقة!!

لقد كان يتيماً فقيراً عائلاً حرَمتهُ الأيّام حنان أعزّ الأقربين إليه في طفولته، وتمزّقت نياط قلبه في صباه، ثمّ اعتصرهُ الألم والحسرة على ضلالة قومه في رجولته. وكان عليه أن يقارع الجهالة والحقد وعمى البصيرة طوال حياته، ومع هذا تدفّق من قلبه ذلك الينبوع الصافي فسمت إنسانيته، وهبط عليه وحي ربّه يهديه ليهدي غيره، ويدلّه على صراطٍ سويّ ترتفع به النفس البشرية من مسارب العالم المادّي الى عالم الروح وإن كانت تظلّ تنظر الى وجودها الأصيل في عالم المادّة.

هكذا كان نبيّ الاسلام، وهكذا كانت رسالته، رسالة نور وهداية للعقل البشري في مختلف الحقب والعصور.

﴿رَبّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخزِنَا يَومَ القِيَامَةِ إنّك لاَ تُخلِفُ الميعَاد﴾[1].

وهل أغفلهم ربّهم؟ أنّه:

﴿استجَابَ لهُم رَبُّهم أنّي لاأُضيعُ عَمَل عَامِلٍ مَنكُم مِن ذَكَرٍ أو أُنثى بَعضُكُم مِن بَعضٍ فَالّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخرِجُوا مِن دِيَارِهم وَأُوذُوا في سَبيلي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنهُم سَيّئَاتِهم وَلأُدخِلَنَّهُم جَنّاتٍ تَجري مِن تَحتِهَا الأنهارُ ثَوَاباً مِن عِندِ اللهِ وَاللهُ عِندَهُ حُسنُ الثَوَاب﴾[2].

فيا أيّها المؤمنون اتلوا مع رسولكم:

﴿يا أيّها الناسُ اتّقُوا رَبّكُمُ الّذِي خَلَقَكُم مِن نَفسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنهَا زَوجَها وَبَثَّ مِنهَا رِجالاً كثيراً وَنسَاءً واتّقُوا اللهَ الّذي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأرحَامَ إنّ اللهَ كَانَ

(١) آل عمران: ١٩٤. (٢) آل عمران: ١٩٥.

عليكُم رَقيباً﴾[١].

وإيّاك يا محمّد وأصحابك أن تقعوا في نكاح المقت:

﴿وَلا تنكِحُوا مَانَكَحَ آبَاؤكُم مِنَ النِسَاءِ إلاّ مَا قَد سَلَفَ إنّه كانَ فَاحِشَةً وَمَقتاً وَسَاءَ سَبيلاً﴾[٢].

وكذلك لا تحقدوا على ذوي البسطة فيكم واقنعوا بما رزقكم ربّكم:

﴿وَلاَ تَتَمنَّوا مَا فضَّل اللهُ به بعضَكُم عَلَى بَعضٍ للرجَالِ نَصِيبٌ ممّا اكتَسَبُوا وَلِلنسَاءِ نَصِيبٌ ممّا اكتَسَبْنَ وَاسألُوا اللهَ مِن فَضلِهِ إنّ اللهَ كانَ بكُلِّ شَيءٍ عَليماً﴾[٣].

﴿وَاعُبدُوا اللهَ وَلاَ تُشرِكُوا بِهِ شَيئاً وَبالوَالِدَين إحسَاناً وَبِذِي القُربَى واليَتَامَى وَالمَسَاكِينَ وَالجَارِ ذِي القُربَى وَالجَارِ الجُنُبِ وَالصَاحِب بَالجَنبِ وابنِ السَبيلِ وَمَا مَلَكَت أيمانُكُم إنّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كانَ مُختالاً فَخُوراً﴾[٤].

وخاطب قومه وحذّرهم برفق أن يقترفوا مآثم كانوا يرتكبونها في الجاهلية، وأمرهم بإقامة العدل والإحسان والوفاء بالعهد:

﴿إنّ العهد كان مسؤولاً﴾[٥].

﴿قُل تعالَوا أتلُو مَا حَرّمَ رَبُّكُم عَلَيكُم أن لاَ تُشرِكُوا بِهِ شَيئاً وَبالوَالِدَينِ إحسَاناً وَلا تَقتُلُوا أولاَدَكم مِن إملاَقٍ نَحنُ نُرزُقُكُم وَإيّاهُم وَلاَ تَقربُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنها وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقتُلُوا النَفْسَ الّتي حَرّمَ اللهُ إلاّ بالحَقِّ ذَلِكُم وَصّاكُم بِهِ لعلّكم تَعقِلُونَ * وَلا تَقربُوا مَالَ اليَتِيمِ إلاّ بالّتي هِيَ أحسَنُ حَتّى يَبلُغَ أشُدَّهُ وَأوفوُا الكَيل وَالمِيزَانَ بالقسطِ لاَ نُكلِّفُ نَفساً إلاّ وُسعَهَا وَإذَا قُلتُم فاعدِلُوا وَلَو كانَ ذَا قُربَى وَبِعهدِ اللهِ أوفُوا ذَلِكُم وَصّاكُم بِهِ لَعَلّكُم تَذَكَّرُون﴾[٦].

ثمّ قال: ﴿وأنَّ هَذا صِرَاطي مُستَقيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُبُل فَتَفَرَّقَ بِكُم عن سَبيلِهِ ذَلِكُم وَصّاكم بِهِ لَعَلّكُم تَتَقُون﴾[٧].

---

(١) النسـاء: ١. (٢) النسـاء: ٢٢. (٣) النسـاء: ٣٢.
(٤) النسـاء: ٣٦. (٥) الإسـراء: ٣٤. (٦) الأنعـام: ١٥١ و ١٥٢.
(٧) الأنعـام: ١٥٣.

صفات المجـد في القرآن

جاءت صفات المجد لله تعالى في القرآن صافية زاهيـة، ونزيهة وطاهرة، هي صفات الجلال والجمال في تقديس وإكبار:

﴿هو اللهُ الّذي لا إله إلاّ هو عالمُ الغيبِ والشهادةِ هو الرحمن الرحيم * هو اللهُ الذي لا إله إلاّ هو المَلِكُ القدوسُ السلامُ المؤمنُ المهيمنُ العزيزُ الجبّارُ المـتكبّرُ سُبحانَ اللهِ عمّا يُشرِكون * هو اللهُ الخالِقُ البارئُ المصوّرُ لَهُ الأسـماءُ الحُسـنى يُسبِّحُ لَهُ ما في السماواتِ والأرضِ وهو العزيزُ الحكيـم﴾[1].

فهوا للهُ، لا إله غيره، ولا معبود سواه. لا شريك له، تعالى الله عمّا يشركون.

عالم الغيبِ والشهادة، لا يعزب عن علمه شيء، عـالم السـرّ وأخـفى، هـو الرحمنُ الرحيم. قل لمن ما في السماوات والأرض، قـل لله كـتب عـلى نـفسه الرحمة . هو الله الّذي لاإله إلاّ هو الملك، المسيطر على الخلق كلّه، ملك النـاس والمالك يـوم الدين.

القدّوسُ، المترفّع عن الدنائس والخسائس، العليّ العظيم.

السلامُ، الّذي ضمن على الخلق سلامتهم في عافية وهنـاء.

المؤمنُ، الّذي كفل الأمن والطمأنينة على الناس في الحياة.

المهيمنُ، المسيطر على مقدّرات الخلق، ربّ العالمين.

العزيزُ، الّذي لا يغالب في تدبيره وتنفيذ إرادته. إنّما أمـره إذا أراد شـيئاً أن

---

(١) الحشـر: ٢٢ ـ ٢٤.

يقول له كن فيكون.

الجبّارُ، النافذ إرادته، الغالب على أمره فيما يشـاء.

المتكبرُ، الّذي تلبّس بالعزّ والكبرياء.

﴿أيبتغون عندهم العزّة فإنّ العزّةَ لله جميعاً﴾(١).

﴿من كان يُريدُ العزّة فلله العزّة جميعاً إليه يَصعَدُ الكَلِمُ الطِّيبُ والعملُ الصالحُ يرفَعُه﴾(٢).

﴿ولله العزّةُ ولرسولهِ وللمؤمنين ولكنّ المنافقين لا يَعلَمون﴾ (٣).

* * *

والآيات من هذا النمط كثير في القرآن الكريم، جاءت لتمجّد الربّ تـعالى تمجيداً لائقاً بمقام عظمته عزّ شأنه، وتنزيهاً متناسباً لمـوضع كـبريائه، سـبحانه وتعالى عمّا يصفـون.

أمّا الذي جاء في الكتب المحرّفـة ـ وكانت متداولة حينذاك ـ مثل العهدين، فإلى الإهانـة أقرب منها الى الاحترام بشأنـه تعالى، ولنشر الى نماذج منها:

خديعة آدم وحوّاء، خشيـة أن يخلدا في الحياة!

إلـه التوراة يكذب في نصيحته لآدم وحوّاء، وإبليس يصادقهما القول!

إلـه يجهل مكانهما، ويخشى أن يعرفا الخير من الشرّ ويصبحا عاقلين!

هكذا جاء في التوراة المحرّفة، في الإصحاح الثالث من سفر التكويـن:

«كانت الحيّة أحيل جميع حيوانات البرّية، فقالت للمرأة: أحقّاً قـال الله: لا تأكلا من كلّ تمر الجنّة؟ فقالـت المرأة للحيّة: وأمـّا ثمر الشجرة التي في وسـط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمسّاه لئـلّا تموتا. فقالت الحيّة للمرأة: لن تموتا. بـل الله عالم أنـّه يوم تأكلان منـه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين للـخير والشرّ. فأخذت المرأة من ثمرها وأكلت وأعـطت رَجُـلها أيـضاً مـعها فأكـل.

(١) النسـاء: ١٣٩. (٢) فاطـر: ١٠. (٣) المنافقـون: ٨.

فانفتحت أعينهما، وعلما أنّهما عريانان، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر، وسمعا صوت الربّ الإله ماشياً في الجنّة عند هبوب ريح النهار. فاختبأ آدم وامرأته من وجه الربّ الإله في وسط شجر الجنّة. فنادى الربّ الإله آدم وقال له : أين أنت؟ فقال آدم: سمعتُ صوتك في الجنّة فخشيت لأنيّ عريان فاختبأت، فقال الربّ: من أعلمك أنّك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟[1].

وقال الربّ الإله: هوذا الإنسان قد صار كواحد منّا عارفاً للخير والشرّ، والآن لعلّه يمدّ يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا الى الأبد، فأخرجه الربّ الإله من جنّة عدن، فطرد الإنسان، وأقام شرقي جنّة عدن الكروبيم، ولهيب سيف منقلب، لحراسة طريق شجر الحياة[2].

* * *

إله التوراة يخاف من بني آدم وحدتهم وائتلافهم، ولذلك يفرّق بينهم ويبلبل ألسنتهم، هكذا جاء في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين:

وكانت الأرض كلّها لساناً واحداً، ولغةً واحدة. وحدث في ارتحالهم (ارتحال بني الإنسان) شرقاً أنهم وجدوا بقعةً من أرض شنعار[3] وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض: هلمّ نصنع لبناً ونشوّيه شيّاً. فكان لهم اللبن مكان الحجر، وكان الحُمَر[4] مكان الطين. وقالوا: هلمّ نبني لأنفسنا مدينةً وبرجاً رأسه في السماء، ونصنع لأنفسنا اسماً لئلّا نتبدّد على وجه كلّ الأرض. فنزل الربّ لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما، وقال الربّ: هو ذا شعب واحد، ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمنع عليهم كلّ ما ينوون أن يعملوه، هلمّ ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتّى لا يسمع بعضهم لسان بعض.

---

(١) العدد: ١ ـ ١٢. (٢) العدد: ٢٢ ـ ٢٤.

(٣) أرض شنعار: هو ما بين النهرين (دجلة والفرات) بالعراق، وهي أرض بابل قرب مدينة الحلّة اليوم بالعراق. (٤) الحُمَر: ضرب من القار كانوا يطلون به الحيطان كالملاط.

فبدّدهم الربّ هناك على وجه كلّ الأرض، فكفّوا عن بنيان المدينة[١].

هكذا يعارض إله التوراة حضارة الإنسان، ويعرقل في سبيل مدنيّته، وبذلك يكون قد كافح واقع الحياة وعارض متطلّباتها التي جعلها هو في ذات الإنسان. إن هذا إلّا تضادّ عارم يتحاشاه ربّ العالمين وإله الخلق أجمعين.

* * *

هذا، بينما القرآن يجعل من الإنسان أكرم خليقته ويفضّله على كثير ممّن خلق، ويعلّمه الأسماء كلّها ليجعله خليفته في الأرض، ويوكّله عمارة الأرض ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾[٢]. وعلّمه ما لم يعلم[٣] ﴿ويزكّيكم ويعلّمكم الكتاب والحكمة ويعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾[٤].

---

(١) العدد: ١ ـ ٩.

(٢) هود: ٦١.

(٣) إشارة الى قوله تعالى: ﴿ علّم الانسان ما لم يعلم ﴾ (العلق: ٥).

(٤) البقرة: ١٥١.

تقديس مقام الأنبياء والرسل وتفخيم شأنهم

ويتعرّض القرآن لذكر الأنبياء فيصفهم بكلّ جميل ينبغي أن يوصفوا به، وينسب إليهم كلّ مأثرة كريمة تلازم قداسة النبوّة، ونزاهة السفارة الإلهية.

﴿الّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النبيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدونَه مَكتُوباً عِندَهُم فِي التَّوراةِ وَالإنجِيلِ يَأمُرُهُم بِالمَعرُوفِ وَيَنهاهُمْ عَنِ المُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُم الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيهِمُ الخَبَائِث﴾[1].

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنهُم يَتلُوْ عَلَيهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِم وَيُعَلِّمُهُم الكِتَابَ وَالحِكمَةَ وَإِن كانُوا مِن قَبْلُ لَفي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾[2].

﴿وَإِنَّ لَكَ لأجراً غَيرَ مَمنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم﴾[3].

﴿إِنَّ اللهَ اصطَفى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إبراهِيمَ وَآلَ عِمرانَ عَلَى العَالَمينَ﴾[4].

﴿وَإِذْ قَالَ إبراهِيمُ لأَبِيهِ وَقَومِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعبُدُونَ * إِلّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهدِينِ﴾[5] ﴿وَكَذلِكَ نُرِي إبراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماوَاتِ وَالأرضِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ﴾[6].

﴿وَوَهَبنَا لَهُ إسحَاقَ وَيَعقُوبَ كُلاًّ هَدَينَا وَنُوحاً هَدَينَا مِنْ قَبلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسلَيمانَ وَأَيّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسىَ وَهَرُونَ وَكَذَلِكَ نَجزِي المُحسِنِين * وزَكَرِيّاً وَيَحيى وَعِيسى وَإلِيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإسمَاعِيلَ وَاليَسَعَ وَيُونُسَ

---

(١) الأعراف: ١٥٧. (٢) الجمعة: ٢. (٣) القلم: ٣ و ٤.

(٤) آل عمران: ٣٣. (٥) الزخرف: ٢٦ و ٢٧. (٦) الأنعام: ٧٥.

وَلُوطاً وكُـلّاً فَضَّلنَا عَلىَ العَالَمِينَ * وَمِن آبائِهِم وَذُرِّيَاتِهِم وَإخوَانِهم وَاجتَبَينَاهُم وَهَدَينَاهُم إلىَ صِرَاطٍ مُستَقيم﴾[1].

﴿وَلَقَد آتَينَا دَاوُدَ وَسُلَيمانَ عِلمَاً وَقَالاَ الحَمدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلىَ كَثِيرٍ مِـن عِبَادِهِ المُؤمِنِين﴾[2].

﴿وَاذكُر إسمَاعِيلَ وَاليَسَعَ وَذَا الكِفلِ وَكُلٌ مِنَ الأخيَارِ﴾[3].

﴿أُولئِكَ الَّذِينَ أنعَمَ اللهُ عَلَيهِم مِن النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّن حَمَلنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إبراهِيمَ وَإسرائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَينَا وَاجتَبَينَا إذَا تُتلَى عَلَيهِم آياتُ الرَّحمٰنِ خَرَّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾[4].

هذه جملة من الآيات التي جاء بـها الكـتاب العـزيز فـي تـنزيه الأنـبياء وتقديسهم، وإظهارهم على حقيقتهم من القداسـة والنزاهة وجميل الذكر.

أمّا كتب العهدين فقد تعرّضت أيضاً لذكر الأنبياء ووصـفتهم، ولكـن بـماذا وصفتهم؟! وبأيّ منزلة وضيعة أنزلت هؤلاء السفرة الأبرار[5].

أبـرام يحتـال :

جاء في الإصحاح ١٢ من سفر التكوين : انحدر أبرام الى مصر، وحدث لمّا قرب أن يدخلها أنه قال لساري امرأته: قد علمت أنـّكِ حسنة المنظر، فيكون اذا رآكِ المصريّون فيقولون إنها امرأته، فيقتلونني ويسـتبقونك. قـولي إنّك أُخـتي، ليكون لي خير بسببك، وتحيا نفسي من أجلك.

ولمّا دخلوا مصر ورآها المـصريّون أنـها حسـنة جـدّاً وصـفوها لفـرعون، فأُخذت الى بيت فرعون، فصنع الى أبرام خيراً بسببها وصار له غنم وبقر وحميـر وعبيد وإماء وأُتـن[6] وجمال.

---

(١) الأنعـام: ٨٤ ـ ٨٧. (٢) النمـل: ١٥. (٣) ص : ٤٨.

(٤) مريـم: ٥٨. (٥) البيـان: ص ٦٠ ـ ٦١.

(٦) الأُتـن: جمـع أتان بمعنى حمارة.

وحينما علم فرعون أنّها امرأة أبرام وليست أُخته دعا أبرام ووبّخه وقال له: ما هذا الّذي صنعت بي، لماذا لم تخبرني أنّها امرأتك ؟ فردّها عليه .

أفهل يعقل من نبيّ عظيم أن يعرّض بزوجه للفحشاء بغية حفظ نفسه أو طلباً في المال؟!

قال سيّدنا الأُستاذ دام ظلّه: وحاشا إبراهيم ـ وهو من أكرم أنبياء الله ـ أن يرتكب ما لا يرتكبه فرد عاديّ من الناس[١].

لوط وابنتاه :

جاء في الإصحاح ١٩ من سفر التكوين : وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه، وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا، هلمّ نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلاً.

ففعلتا ذلك من غير أن يشعر أبوهما بفعلتهما الشنيعة، فحملتا منه، فولدت البكر ابناً ودعت اسمه (موآب ـ وهو أبو الموابيين). والصغيرة أيضاً ولدت ابناً وسمّته (بن عمّي ـ وهو أبو بني عمّون).

يعقوب يخدع أباه إسحاق :

جاء في الإصحاح ٢٧ من سفر التكوين : كان إسحاق عندما كبر وشاخ أمر ابنه الأكبر (عيسو) أن يذهب الى الصيد فيأتيه بطعام يأكله، ووعده أن يعطيه مواريث النبوّة ويبارك له. فسمعت (رفقة) أُمّ يعقوب ـ وهو الولد الأصغر ـ ذلك فأسرعت الى يعقوب تقول له: اصنع لأبيك طعاماً حتى يبارك لك بدل (عيسو). فقال يعقوب: كيف وإنّي أملس وأخي أشعر؟! فدبّرت له شعراً ولبّس الأمر على أبيه إسحاق، فظنّه (عيسو).

---

(١) البيان: ص ٦٣.

فدخل يعقوب على أبيه وقال: يا أبي! فقال: ها أناذا، من أنت يا ابني؟ فقال يعقوب لأبيه: أنا عيسو بكرك.

فقال إسحاق: ما هذا الّذي أسرعت يا ابني؟ فقال: إنّ الربّ إلهك فقد يسّر لي.

فقال إسحاق ليعقوب: تقدّم لأجسّك يا ابني أأنت هو ابني عيسو أم لا.

فتقدّم يعقوب الى إسحاق أبيه فجسّه وقال: الصوت صوت يعقوب. ولكن اليدين يدا عيسو. ولم يعرفه لأنّ يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه، فباركه وقال: هل أنت هو ابني عيسو. فقال: أنا هو، فدعا له وقال: ليستعبد لك شعوب، وتسجد لك قبائل، كن سيّداً لإخوتك.

ولمّا رجع عيسو ودخل الى أبيه وتهيّأ ليبارك له قال له إسحاق أبوه: من أنت؟ فقال: أنا ابنك بكرك عيسو. فارتعد إسحاق ارتعاداً عظيماً جداً وقال: فمن هو الذي باركته قبل مجيئك؟!

فلمّا سمع عيسو ذلك صرخ صرخةً عظيمةً ومُرّةً جدّاً وقال لأبيه: باركني أنا أيضاً يا أبي. فقال قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك.

فقال عيسو: أما أبقيت لي بركة؟ فأجاب إسحاق: إنّي قد جعلته سيّداً لك ودفعت إليه جميع إخوته عبيداً فماذا أصنع إليك يا ابني؟!

هكذا، وبهذا الأُسلوب الشيطاني يصف التوراة كيفية انتقال مواريث النبوّة من نبيّ الى نبيّ.

قال سيّدنا الأُستاذ دام ظلّه: أفهل يعقل انتهاب معالم النبوّة؟ وهل يمنح الربّ تعالى النبّوة لمخادعٍ كذّاب، ويحرم منها أهلها المستحقّ لها؟!

قال: ولعلّ سكرة الخمر دعت الى وضع هذه السخافة، والى نسبة شرب الخمر الى نبيّ الله إسحاق عليه السلام[1].

---

(١) البيان: ص ٦٤.

يهوذا يزني بأرملة ابنه:

جاء في الإصحاح ٣٨ من سفر التكوين: أنّ يهوذا بن يعقوب لمّا مات ابنه الأكبر (عِيـر) أرسل أرملتـه (ثامار) الى بيت أبيها، واتّفق أنّ يهوذا صعد الى نمنة، فأخبرت ثامار بذلك، فتلفّفت ببرقع وقعدت في طريقه، فنظرها يهوذا وحسـبها زانيـة، فمال إليها وقال: هاتي لأدخل عليك، لأنه لا يعرف أنّها كنّته، فقالت: ماذا تعطيني؟ قال: جدي معزى من الغنم، قالت: حتّى آخذ رهناً. فأعطاها خـاتمـه وعصابته وعصاه، فدخل عليها وحبلت منه، ثمّ قامت ومضـت. ولمّا أرسل إليها الجدي لم يجدوها، وبعد ثلاثة أشهر أخبر يهوذا بأنّ ثامار قد زنـت وهي حبلى، فقال: أخرجوها فتحرق، فلمّا أُخرجت قالت: أنا حبلى مـن الرجـل الذي هـذه العصا والعصابة والخاتم منه، فقال يهوذا: هي أبرّ منّي. فولدت توأمين: فـارَص وزارَح.

وفارص هذا ينتهي إليه نسب المسيح وداود وسليمان عليهم السلام على ما صرّح به إنجيل متّى في الاصحاح الأول.

هذا، وقد قال تعالى بشأن خاتم النبيّين صلى الله عليه وآله: ﴿وتقلّبك في الساجدين﴾[1] قال الإمام باقر العلوم عليه السلام: أي في أصـلاب النبيّين نبيّ بعد نبيّ حتّى أخرجه من صلب أبيه، عن نكـاح غير سفاح من لدن آدم عليه السلام[2].

وفي زيارة الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام: «أشهد أنك كنت في الأصـلاب الشامخة والأرحام المطهّرة...».

وهذه هي عقيدتنا في آباء الأنبياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام وأُمّـهاتهم، لم يزالوا ينتقلون من صلبٍ طاهر الى رحمٍ مطهّر، من لدن آدم فإلى حين ولادتهم،

---

(١) الشعـراء: ٢١٩.

(٢) تفسير الصافي: ج ٢ ص ٢٢٨، وراجـع الدرّ المنثور: ج ٥ ص ٩٨.

من نكاح غير سفاح.

قصّة داود وأُوريا:

جاء في الإصحاح ١١ و ١٢ من صموئيل الثاني أنّ داود ـ حاشاه من نبيّ كريم ـ زنى بامرأة أُوريا في غياب منه، لانّه كان في قتال مع الكفّار، فحبلت منه، وخشي داود الفضيحة وأراد تمويه الأمر، فكتب الى رئيس جنده أن يجعل اوريا في مقدّمة الجيش، فقتل أُوريا. فضمّ داود امرأة أُوريا الى بيته وصارت امرأته.

سليمان يعبد أوثاناً:

جاء في الإصحاح ١١ من الملوك الأول أنّ نساء سليمان ـ وكنَّ سبعمائة امراة ـ أملن قلبه وراء آلهة أُخرى (عشتورث آلهة الصيد ونبين وملكوم...).

المسيح يحضر مجلس خمر!

جاء في الإصحاح ٢ من إنجيل يوحنا أنّ عيسى المسيح حضر مجلس عرس، فنفد خمرهم، فعمل لهم ستة أجران من الخمر بطريق المعجزة.

وفي إنجيل متّي ١١ ولوقا ٧ أنّ المسيح كان يشرب الخمر كثير الشرب لها.

هذا مع العلم أنّ الخمر كانت محرّمة في جميع الأديان السماوية، وصرّح بتحريمها كتب العهدين[1].

هكذا تطيح تعاليم العهدين بشأن الأنبياء العظام وتحطّ من كرامتهم وتطعن في أنسابهم، وتنزلهم الى مرتبة سفلى من الابتذال والارتذال، حاشاهم من عباد الله المخلصين وأوليائه المكرمين.

* * *

(١) راجع لاويين ١٠ ولوقا ١.

هارون هو الّذي صنـع العجل لا السامري:

وقال موسى لهارون: ماذا صنع بك هذا الشعب حتّى جلبت عليه خطية عظيمة؟! فقال هارون: لا يحم غضب سيّدي، أنت تعرف الشعب أنّه في شرّ، فقالوا لي: اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأنّ هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه، فقلت لهم: من له ذهب فلينزعه ويعطني. فطرحته في النار فخرج هذا العجل[1].

موسى يهدّد الربّ تعالى بالاستعفاء من الرسالة:

وكان في الغدّ أنّ موسى قال للشعب: أنتم قد أخطأتم خطيّة عظيمة، فأصعد الآن الى الربّ العلي أُكفّر خطيّتكم. فرجع موسى الى الربّ وقال: آه قد أخطأ هذا الشعب خطيّة عظيمة، والآن إن غفرت خطيّتهم، وإلّا فامحُني من كتابك الذي كتبته[2].

يعقوب يصارع الربّ تعالى:

ثمّ قام يعقوب في تلك الليلة وأخذ امرأتيه وجاريتيه وأولاده الأحد عشر وعبر مخاضة يبّوق، أخذهم وأجازهم الوادي، وأجاز ما كان له، فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسانٌ حتّى طلوع الفجر. ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حُقّ فخذه، فانخلع حُقّ فخذ يعقوب في مصارعته معه. وقال: أطلقني لأنه قد طلع الفجر، فقال: لا أُطلقك إن لم تباركني، فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب. فقال: لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب، بل إسرائيل. لأنّك جاهدت مع الله والناس

---

(١) سفر الخروج ١: الإصحاح ٣٢ع ٢١ ـ ٢٤.
(٢) سفر الخروج ١: الإصحاح ٣٢ع ٣٠ ـ ٣٣.

وقدرت وسأل يعقوبُ وقال: أخبرني باسمك، فقال: لماذا تسأل عن اسمي، وباركه هناك[١].

تكريم مقام الإنسان:

القرآن يرى من الانسان المخلوق المفضّل، الذي وقع موقع التكريم والتفخيم في كثير من آيات الذكر الحكيم:

﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهُم في البرّ والبحر ورزقناهُم من الطيّبات وفضّلناهم على كثيرٍ ممّن خلقنا تفضيلاً﴾[٢].

﴿يا أيّها الناس إنّا خلقناكُم من ذكرٍ وأُنثى وجعلناكُم شُعوباً وقبائلَ لِتعارفوا إنّ أكرمَكم عند الله أتقاكم﴾[٣].

﴿وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة ... وعلّم آدم الأسماء كلّها ... فتلقّى آدمُ من ربّه كلماتٍ فتابَ عليه﴾[٤].

﴿ألَم ترَوا أنّ اللهَ سخّر لكُم ما في السماواتِ وما في الأرض﴾[٥].

﴿وسخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً﴾[٦].

﴿وهو أنشأكُم من الأرض واستعمركُم فيها﴾[٧].

﴿ثمّ أنشأناه خلقاً آخر فتبارك اللهُ أحسَنُ الخالقين﴾[٨].

هكذا يجد الانسان نفسه الجوهرة الفريدة والدرّة اليتيمة في عالم الوجود وفي وصف القرآن كلام ربّ العالمين، على عكس ما جاء في العهد العتيق، حسبما عرفت.

* * *

---

(١) سفر التكوين: الإصحاح ٣٢ع ٢٢ ـ ٢٩.
(٢) الإسراء: ٧٠.
(٣) الحجرات: ١٣.
(٤) البقرة: ٣٠ ـ ٣٧.
(٥) لقمان: ٢٠.
(٦) الجاثية: ١٣.
(٧) هود: ٦١.
(٨) المؤمنون: ١٤.

شمول الدعوة وعموم الرسالة

الى كافّة الناس على طول الدهر

القرآن يحمل رسالة الله الى كافّه الخلائق، رسالة عامّة لا تخصّ أُمّة دون أُخرى ولا جيلاً دون جيل، ولا هي محدودة بفترة ولا برقعة من الأرض دون ما سواها.

﴿هذا بيانٌ للناس﴾[(١)].

﴿هذا بلاغٌ للناس﴾[(٢)].

﴿بصائرَ للناس﴾[(٣)].

﴿هدىً للناس﴾[(٤)].

﴿يا أيّها الناس قد جاءتكُم موعظةٌ من ربّكم وشفاءٌ لما في الصُدور﴾[(٥)].

﴿وأرسلناك للناس رسولاً﴾[(٦)].

﴿وما أرسلناك إلّا كافةً للناس﴾[(٧)].

﴿قل يا أيّها الناس إنّي رسولُ الله إليكم جميعاً﴾[(٨)].

﴿هو الّذي أرسل رسولَه بالهُدى ودينِ الحَقِّ لِيُظهِرَهُ على الدينِ كلّه﴾[(٩)].

﴿قل يا أيّها الناس إنّما أنا لكم نذيرٌ مبين﴾[(١٠)].

الى غيرهنّ من آيات، فضلاً عن دلائل جاءت في صحيح الروايات، وهي كثيرة، دلّتنا على عموم رسالة الإسلام، وشمول دعوة القرآن.

* * *

(١) آل عمران: ١٣٨. (٢) إبراهيم: ٥٢. (٣) القصص: ٤٣.
(٤) البقرة: ١٨٥. (٥) يونس: ٥٧. (٦) النساء: ٧٩.
(٧) سبأ: ٢٨. (٨) الأعراف: ١٥٨. (٩) الصف: ٩، التوبة: ٣٣.
(١٠) الحج: ٤٩.

هذا، ولكن الدعوة ـ في العهد القديم ـ موجّهة الى شعب إسرائيل، وكانت الشريعة خاصّة ببني إسرائيل، شعب الله المختار[1] ـ حسبما يزعمون ـ!!

سوى أنّ القرآن الكريم يفنّد من تلك المزعومة، ويصرّح بأنّ دعوة النبيّين من قبل أيضاً كانت عامّة لجميع شعوب العالم، ولا سيّما أُولي العزم ـ كنوحٍ، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، مضافاً الى خاتم النبيّين ـ صلوات الله عليهم أجمعين.

والى ذلك تشير الآية الكريمة: ﴿وإذ أخذنا من النبيّين ميثاقهم ومنك ومن نوحٍ وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾[2].

﴿وإذ أخذ الله ميثاق الّذين أُوتوا الكتابَ لتبيّنه للناس﴾[3].

وبشأن دعوة موسى عليه السلام: ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدىً للناس﴾[4].

وبشأن التوراة والإنجيل معاً: ﴿وأنزل التوراةَ والإنجيلَ * من قبلُ هدىً للناس﴾[5].

إذاً فلم يعرف وجهٌ لمزعومة الاختصاص.

انظر الى هذه الأحكام التشريعية جاءت في التوراة (العهد القديم) خاصّة ببني اسرائيل:

«لا تكن زانيةٌ من بنات اسرائيل ... ولا يكون مأبونٌ من بني اسرائيل ...».

---

(١) جاء في سفر التثنية (١ ص ٢٦ ع ١٨ و ١٩): هذا اليوم قد أمرك الربّ إلهك أن تعمل بهذه الفرائض والأحكام ... وواعدك الربّ اليوم أن تكون له شعباً خاصّاً ... وأن يجعلك مستعلياً على جميع القبائل، التي عملها في الثناء والاسم والبهاء ... وأن تكون شعباً مقدّساً للربّ إلهك.

وفي (١ ص ٢٧ ع ٩): ثمّ كلّم موسى والكهنة اللاويّون جميع إسرائيل، قائلين: انصت واسمع يا إسرائيل **اليوم صرت شعباً للربّ إلهك ...**».

وفي (١ ص ٢٨ ع ٢): «اليوم يجعلك الربّ إلهك مستعلياً على جميع قبائل الأرض...».

(٢) الأحزاب: ٧. (٣) آل عمران: ١٨٧.

(٤) الأنعام: ٩١. (٥) آل عمران: ٣ و ٤.

« لا تُقرض أخاك بربا، ربا فضّة أو ربا طعام أو ربا شيءٍ مّا ممّا يقرض بربا... للأجنبي تُقرض بربا، ولكن لأخيك لا تُقرض بربا، لكي يباركك الربّ إلهك »[1].

ودليلاً على هذا التخصيص نجد حكماً آخر ناصّاً على التعميم:

« لا تظلم أجيراً مسكيناً وفقيراً من إخوتك، أو من الغرباء الذين في أرضك »[2].

(١) سفر التثنية: الإصحاح ٢٣ ع ١٨ ـ ٢٠ (العهد القديم: ص ٣١٦). والمقصود بالأخ هم بنو إسرائيل.

(٢) سفر التثنية: الإصحاح ٢٤ ع ١٤.

عقيدة اليونان الأساطيرية

كانت ليونان القديمة آلهـة لا يحصرها عدٌّ، حسب تنوّعها وتفرّق أفرادهـا. وكان لكلّ إله من الآلهـة أُسطورة متّصلة به تشرح سبب وجوده في حياة المدنيّة، أو تفسّر الطقوس التي تقام تكريماً له. وقد أصبحت هذه الأساطير التـي نشأت نشأة تلقائيـة ممّا في المكان وممّا لدى الناس من معارف، أو كانت مـن وضـع الشعراء الدوارين وزخرفهم. أصبحت هذه الأسـاطير عـقيدة اليـونان الأوّليـن وفلسفتهم وآدابهم وتاريخهم جميعاً. فمنها استمدّوا الموضوعات التي زيّنوا بها مزهريّاتهم، وهي التي أوحـت الى الفنّانين ما لا يحصى من الرسوم والتـماثيل والنقوش، وقد ظلّ الناس الى آخر أيّام الحضارة الهيلينية يخلقون الأساطير، بل يخلقون الآلهـة أنفسها، رغم ما انتجتـه بحوثهـم الفلسفية، ورغم محاولات عدد قليل منهم دعوة الناس الى التوحيد.

لقد كان في وسع رجال ـ من أمثال هرقليس ـ أن يعدّوا أمثال هذه الأساطير مجرّد مجازات وتشابيه، وفي وسـع آخـرين ـ أمـثال أفـلاطون ـ أن يـعدّلوها ويوّفقوا بينها وبين ما تقبله العقول، وفي مقدور رجال ـ أمـثال زنـو فـانير ـ أن يندّدوا بها وينبذوها. غير أنّ پوزيناس ـ حين طاف ببلاد اليونان بعد خمسة قرون من عهد أفلاطون ـ وجد الخرافات والأساطير التي كانت تثير الحميّة في قلوب الأهلين في عصر هومر لا تزال حيّة قويّة .

وإليك بعض التفصيل عن ذلك الحشد الكبير من الآلهة المصطنعة:

تنقسم آلهة يونان الأساطيرية إجمالياً الى سبع مجموعات: آلهة السماء، وآلهة الأرض، وآلهة الخصب، والآلهة الحيوانية، وآلهة ما تحت الأرض، وآلهة الأسلاف أو الأبطال، والآلهة الأُولمبية. وأما أسماؤها جميعاً فمّمّا يشقّ على الإنسان ذكرها لكثرتها وتشعّبها .

وقد أورد ول ديورانت شطراً من قصص هؤلاء الآلهة في كتابه «قصّة الحضارة» ممّا يطول[1].

* * *

أمّا العبادات، فلم تكن الطقوس الدينية اليونانية أقلّ تنوّعاً واختلافاً من الآلهة التي كانت تحتفل بها وتعظّمها: فقد كانت للآلهة الأرضية طقوس حزينة يُسكَّن بها غضبها ويتّقى شرّها. وكان للآلهة الأُولمبية طقوس سارّة كلّها ترحيب بها وثناء عليها. ولم تكن هذه وتلك تحتاج الى كهنة يقومون بها، فقد كان الأب يقوم مقام الكاهن في الأُسرة، وكان الحاكم الأكبر يقوم مقامه في الدولة.

أمّا مكان العبادة فيمكن أن يكون هو موقد النار أو موقد البلدية القائم في قاعة المدينة العامّة، ويمكن أن يكون شقّاً من الأرض يسكنه إله أرض أو هيكلاً لإله أُولمبي . وكان حرم الهيكل مكاناً مقدّساً، لا يعتدى عليه، يجتمع فيه العابدون، ويجد فيه اللاجئون مكاناً أميناً يجتمعون فيه ولو كانوا ممّن ارتكبوا أشنع الجرائم.

ولم يكن الهيكل مكاناً لاجتماع المصلّين بل كان بيت الإله، يُنصب فيه تمثاله، ويوقد أمامه ضوء لا ينطفئ أبداً. وكثيراً مّا كان الناس يعتقدون أنّ الإله هو التمثال نفسه، ولذلك كانوا يعنون بغسله وكسوته وإحاطته بكثير من ضروب الرعاية. وكانوا أحياناً يؤنّبونه اذا أهمل أمرهم. وكانوا يقصّون على من يستمع إليهم كيف تصبّب التمثال عرقاً في بعض الأحايين أو كيف بكى أو أغمض عينيه.

وكان الاحتفال الّذي يقام في تلك الهياكل يتألّف من موكب وأناشيد وقربان

---

(١) راجع قصّة الحضارة: ج ٦ ص ٣١٧ ـ ٣٤٧.

وأدعية، يضاف إليها في بعض الأحيان وجبة مقدّسة. وقد يشمل الموكب سحراً ومقنعات وجماهير من الممثّلين يعملون مجتمعين، ومسرحية تمثيلية ... الى آخر التفاصيل الذي ذكرها ول ديورانت[1].

* * *

وأمّا الخرافات، فقد كان بين قطبي الدين اليوناني العلوي والسفلي، الأُولمبي والأرضي، بحر يزخر بالسحر والخرافات والأباطيل. وكان من وراء عباقرة معروفين، وكان من ورائهم جمهرة الشعب من الفقراء والسذّج الذين لم يكن الدين في نظرهم إلّا شراكاً من الخوف لا سلّماً للآمال. ولم يكن اليوناني العادي يكتفي بتصديق القصص التي تروي المعجزات، كصعود منسيوس من بين الموتى ليحارب في مرثون. أو تحويل الماء الى خمر على يد ديونيس، بل أنّ في وسع الانسان أن يذهب الى أبعد من هذا، فيتغاضى عن حرص أثينة على أن تأوى فيها عظام ثسيوس، وحرص اسپارطة على ان تستردّ من تيجيا عظام ارستيز. فقد يكون ما يعزوه الحكّام لهذه الآثار من قدرة على فعل المعجزات، جزءً من فنّ الحكم وأساليبه. أمّا الذي كان ينيخ بكلكله على اليوناني الصالح فهو الأرواح المحتشدة من حوله التي يعتقد أنها متأهّبة على الدوام لأن تعرف محباته، وأن تتدخّل في شؤونه وتلحق به الأذى. وأنّ في مقدورها أن تفعل به هذا كلّه. وكانت هذه الشياطين (الارواح الخبيثة) لا تنفكّ تعمل لأن تتقمّصه، وكان عليه أن يحذرها ويتّقي أذاها على الدوام، وأن يقيم الاحتفالات السحرية ليطردها بها.

* * *

وأوشكت هذه الخرافات أن تكون علماً من العلوم الطبيعية، وكانت الى حدٍّ مّا سوابق لنظرية الجراثيم التي نعرفها اليوم. فقد كان معنى الأمراض جميعها عند اليوناني أنّ المريض قد حلّ فيه روح غريب. وأنَّ من يلمس الشخص المريض

(١) راجع قصّة الحضارة: ج ٦ ص ٣٤٨ ـ ٣٥٣.

يعدى بقذارته أو «يلبسه ذلك الروح الغريب نفسه». وليست المكروبات والبكتريا إلّا صوراً جديدةً شائعةً لما كان اليونان يسمّونه كريس أو الجنّ الصغيرة. ومن ثمّ كان الميّت «نجساً» لأنّ الجنّي قد استحوذ عليه كلّ الاستحواذ. وكان اليوناني اذا خرج من بيت فيه ميّت رشّ نفسه بالماء من إناءٍ يوضع لهذا الغرض عند باب البيت. وذلك لكي يطرد من جسمه الروح الذي غلب الميّت على أمره.

وكان الجماع من أسباب النجاسة، كولادة الطفل أو القتل (ولو كان غير متعمّد). وكان الطفل المولود نفسه نجساً، ولم يكن الجنون إلّا حلول روح غريب في جسم المصاب به، وكان يقال: إنّ المجنون قد خرج عن نفسه. وكان لا بدّ في هذه الحالات من القيام باحتفال يطهر فيه الشخص النجس.

وكانت المنازل والهياكل والمدن بأجمعها في بعض الأحيان تطهر بالماء أو الدخان، وكان وعاء به ماء نظيف يوضع عند مدخل كلّ هيكل، حتّى يطهر به نفسه كلّ قادم للتعبّد، أو لعلّ هذا الدعاء كان رمزاً يوحي الى الناس بضرورة التطهّر.

وكان الكاهن نفسه خبيراً بأُصول التطهير، وكان في مقدوره أن يطرد الأرواح الشرّيرة من الأجسام بالضرب على إناء من البرنز، أو بقراءة العزائم، أو بالسحر أو الصلاة. وحتّى قاتل النفس عمداً كان يمكن تطهيره اذا أُجريت له الطقوس والمراسم الملائمة. ولم تكن التوبة ضرورة محتومة في مثل هذه الأحوال، بل كلّ ما كان يحتاجه المتطهّر هو أن يتخلّص من الشيطان الشرّير الذي تقمّصه، وذلك لأنّ الدين لم يكن أمر أخلاق عند اليونان بقدر ما كان فنّاً لمعالجة أُمور الأرواح.

* * *

يقول ثيموفراستوس في كتابه «الأخلاق»: يبدو أنّ الإيمان بالخرافات ضرب من الجبن وخور العزيمة أمام القوّة الإلهية. إنّ الرجل المخرفّ لا يخرج من داره أو النهار إلّا بعد أن يغسل يديه ويرشّ نفسه بالماء من العيون التسع، ويضع

في فمه قطعة من ورقة شجرةٍ في معبدٍ، فاذا ما اعترضت طريقه قطّة لم يواصل السير حتّى يمرّ به إنسان آخر، أو يقذف بثلاثة أحجار في الشارع. واذا أبصر أفعى في بيته وكانت من النوع الأحمر استنجد بديونيسس. أمّا اذا كانت أفعى مقدّسة فإنّه يقيم لها ضريحاً من فوره في البقعة التي أبصرها فيها. واذا مرّ بحجارة ملساء مقامة في مفترق الطرق صبّ عليه الزيت من قنّينته ولم يواصل السير في طريقه إلّا بعد أن يركع له ويتعبّد. واذا قرض فأر جعبة طعامه توجّه الى الساحر وسأله ماذا يفعل. واذا وقعت عينه على رجل مصاب بالجنون أو بالصرع ارتجف ويصق على صدره..![1].

... إلى غيرها من خرافات وأوهام كانت تعتور حياة اليونان في عهد طويل، ولا تزال حتّى ظهور الإسلام في الجزيرة باقية على قوّتها وسيطرتها على النفوس.

---

(١) قصّة الحضارة: ج ٦ ص ٣٥٤ ـ ٣٥٧.

القـرآن في تشريعاته الراقية

قد أسلفنا أنّ تشريعات القرآن جاءت متوافقة مع الفطرة السليمة ومتلائمـة مع العقل الرشيد، لا تشوهها نزعات بشرية هابطة ولا تكدرها خسائس إنسانية مبتذلة.

﴿فأقم وجهكَ للدينِ حنيفاً فطرةَ اللهِ الّتي فَطَرَ الناسَ عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدينُ القيّم ولكن أكثر الناس لايَعلمون﴾[1].

وقد ثبت في علم الكـلام أنّ الأحكـام الشرعية ألطاف في الأحكام العقلية. ومعنى ذلك أنّ ما حكم به الشرع فقد حكم به العقل، أي إنّما يحكم الشرع بما كان العقل حاكماً بذاته لو خلّي وطبعه.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: إنّما جاءت الأنبياء ليثيروا دفائن العقول. أي ليبدوا ما كان مختبئاً في زوايا العقول.

قال عليه السلام: «فبعث فيهم رُسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم مـيثاق فـطرته ويذكّروهم منسيَّ نعمتـه، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ. ويثيروا لهم دفائن العقول»[2].

وهكذا ذكر الإمام الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام: أنّ لله حجّتين، حجّة ظاهرة وحجّة باطنة، فأمّا الظـاهرة فـالرسل والأنـبياء والائـمـة عليهم السلام، وأمّـا البـاطنة فالعقول[3].

---

(١) الـروم: ٣٠. (٢) نهج البلاغـة: الخطبـة الأُولى.

(٣) الكافي: ج ١ ص ١٦ ح ١٢ من كتاب العقل.

فالشريعة إنما جاءت بما يحكم بـه العـقل الرشـيد، ويـتوافـق مـع الفـطرة السليمـة.

* * *

ومن جهـة أُخرى ، كانت القوانين الإلٰهية جامعة وشاملة للجوانب الثلاثة في حياة الانسان، والمرتبطة بعضها مع البعض ـ حسبما مرّت الاشارة إليه ـ وهـي: جانب الفرد ذاته. وجانب المجتمع الذي يعيش فيه. وجانب حقّ الله في الخلق، والذي ضمن للانسان كرامتـه في الحياة، وحبّب إليه عواطفه النبيلة مع بني نوعه العائش معهم ، تلك جوانب الحياة الانسانية الراقية، التي ضمنتها القوانين الإلٰهية، والتي اعوزتها أو افتقدتها سائر القوانين.وإليك بعض الأمثلة على ذلك:

قال تعالى بشأن شريعة القصاص:

﴿يا أيّها الّذين آمنوا كُتبَ عليكم القِصاصُ في القتلى الحرُّ بالحرِّ والعبدُ بالعبدِ والأُنثىٰ بالأُنثىٰ فمن عُفيَ لَـهُ من أخيه شيء فاتّباعٌ بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسانٍ ذلك تخفيفٌ من ربِّـكم ورحمةٌ فمن اعتدى بعد ذلك فلهُ عذابٌ أليم * ولكم في القِصاص حياةٌ يا أُولي الألبابِ لعلّكـم تتّقون﴾[1].

في هذه الآية ـ بل في هذا التشريع العادل ـ نكات ودقائق ظريفة:

أولاً : إنّ في شريعة القصاص ضماناً للحياة وإبقاءً عليها، وليس تكثيراً فـي القتل كما يتوهّمه القاصرون.

ثانياً: ضمان العدالة الاجتماعية في التعادل بين أصناف الإنسان، فلا يُـقتل حرّ بعبدٍ، ولا ذكر بأُنثى إلّا بعد دفع التفاوت، وفي شرائط خاصّة محرّرة في الفقه.

ثالثاًـ وهو عمدة النظر هنا ـ: جانب رعاية الاخوّة الانسانية الكامنة وراء كلّ تشريع إلهي عرضه الاسلام. فالقانون ـ مهما كان ـ لا مرونة فيه ولا عطوفة، إلّا إذا كان ناشئاً عن واقع الانسان النابع عن كرامتـه وفضيلته في هذه الحياة.

---

(١) البقرة: ١٧٨ و ١٧٩.

والذي نجده في قوانين الشريعة التي عرضها القرآن: أنّ لأولياء الدم حقّ مطالبة القصاص، ولكن لا في جفاء ﴿ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً فلا يُسرف في القتل إنّه كان منصوراً﴾[1]. وله العفو عن القصاص تنازلاً الى الدية، وهذا تخفيف من الله ورحمةٌ بالعباد.

والنكتة هنا أنه تعالى جعل العفو منسوباً الى الأخ، وقد عبّر عن وليّ الدم ـ وهو الثائر بأحاسيسه دفاعاً عن حقّ المقتول ـ بالأخ الكريم، إثارة لعواطفه الانسانية النبيلة، فلا يثور مثار العدوّ اللدود، وإنّما هو أخٌ وابن أخٍ كريم. ثمّ لا يذهب عن القاتل، أنّ الذي عفا عنه إنّما هو أخوه، وإنّما عفا عنه لمكان أخوّته، فلا يجفونّ بشأنه في أداء الدية إليه بإحسان. كما لا يَجفو وليّ الدم في مطالبة الديه، وإنما يطالبه عن رفق ومداراة، لأنّه إنّما عفا عنه لأنه أخوه.

فهنا جاءت قضية الاخوّة الانسانية فضلاً عن الاخوّة الاسلامية، هي الفاصلة في الأمر والمستدعية لانتهاء الأمر بسلام، فلا خصومة بعد ذلك ولا تجافي عن الحقوق.

والقرآن في هذا المجال كأنما أخذ موضع الحياد من القضية، وإنّما أوكلها الى جانب من حياة الانسان الرقيقة، هي جانب اخوّته وكرامته وفضيلته، فهو الذي يحدو به الى هذا المجال من الكرامة الانسانية النبيلة وإن كان القرآن هو الذي أثار فيه هذه العاطفة، وساقه الى هذا السبيل الرشيد.

فمتى قبل وليّ الدم الدية بدل القصاص ورضيه فيجب إذاً أن يطلبه بمعروف ورضاً ومودّة. ويجب على القاتل أن يؤدّيه بإحسانٍ وإجمالٍ وإكمال، تحقيقاً لصفاء القلوب، وشفاءً لجراح النفوس، وتقويةً لأواصر الأخوّة بين البقيّة الأحياء.

* * *

وقال بشأن اليتامى:

---

(١) الإسراء: ٣٣.

﴿وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدّلوا الخَبيث بالطيّب ولا تأكلوا أموالهـم الى أموالِكم إنه كان حوباً كبيراً ـ الى قوله: ـ وابتلوا اليتامى حتّى اذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رُشداً فادفعوا إليهم أموالَهم ولا تأكُلوها إسرافاً وبِداراً أن يكبروا ومن كان غنيّـاً فليستعفِف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً ـ الى قوله: ـ وليخش الذين لو تَركوا من خلفهم ذريّةً ضِعافاً خافوا عليهم فليتّقوا الله وليقولوا قولاً سديداً * إنّ الّـذين يأكـلون أموالَ اليتامى ظُلماً إنّما يأكُلون في بطونهم ناراً وسيَصلَونَ سعيراً﴾[1].

انظر الى دقـة تعابير القرآن الواردة في هذه الآيات:

إنّها توصيات مشدّدة بما كان واقعاً في الجاهلية العربية من تضييع لحـقوق الضعاف بصفة عامّة، والأيتام والنساء بصفة خاصّة. هذه الرواسب التي ظلّت باقية في المجتمع المسلم حتّى جاء القرآن يذيبها ويزيلها، وينشئ في الجماعة المسلمة تصوّرات جديدة ومشاعر جديدة وعرفاً جديداً وملامـح جديدة.

« وآتوا اليتامى أموالَهم ولا تتبدّلوا الخبيث بالطيّب ».

أُعطوا اليتامى أموالهم التي تحت أيديـكم، ولا تعطوهم الرديء في مـقابل الجيّد، كأن تأخذوا أرضهم الجيّدة وتبدّلوهم مـنها مـن أرضـكـم الرديـئـة، أو ماشيتهم أو اسهمهم أو نقودهم، أو أيّ نوع من أنواع المال فيه الجيّد والرديّ.

وكذلك لا تأكلوا أموالهم بضمّها الى أموالكـم، كلّها أو بعضها، إنّ ذلك كان ذنباً كبيراً، والله يحذّركـم من هذا الذنب الكبير.

فقد كان هذا كلّه يقع إذاً في البـيئـة التـي خـوطبت بـهذه الآيـة أول مـرّة. فالخطاب بشيء بأنه كان موجّهاً الى مخاطبين فيهم من يقع منه هذه الأُمور. وهي من أثر مصاحب من آثار الجاهلية، وفي كلّ جاهلية يقع مثل هذا.

قال سيد قطب: ونحن نرى أمثاله في جاهليتنا الحاضرة في المدن والقرى،

---

(١) النسـاء: ٢ ـ ١٠.

وما تزال أموال اليتامى تؤكـل بشتّى الطرق وشتّى الحيل، ومن أكثر الأوصياء بل الأولياء، على الرغم من كلّ الاحتياطات القانونية، ومن رقابة الهيئات الحكومية المخصّصة للإشراف على أموال القصّر، بل الغيّب أيضاً.

فهذه المسألة لا تفلح فيها التشريعات القانونية، ولا الرقابة الظاهرية كلا، لا يفلح فيها إلّا أمر واحد وهو التقوى من الله، فهي التي تكفل الرقابـة الداخلية على الضمائر، فتصبـح للتشريـع قيمته وأثره.

كما وقع بعد نزول هذه الآيات، إذ بلغ التحرّج من الأوصياء أن يعزلوا مال اليتيم عن أموالهم، ويعزلوا طعامهم عن طعامهم، مبالغةً في التحرّج والتوقّي من الوقوع في الذنب العظيم.

إنّ هذه الأرض لاتصلح بالتشريعات والتنظيمات ما لم يكن هناك رقابة من التقوى في الضمير لتنفيذ التشريعات والتنظيمات. وهذه التقوى لا تجيش ـ تجاه التشريعات والتنظيمات ـ إلّا حيـن تكون صادرة من الجهة المطّلعة على السرائر، الرقيبة على الضمائر، عندئـذٍ يحسّ الفرد ـ وهو يهمّ بانتهاك حرمة القانون ـ أنّه يخون الله ويعصي أمره ويصادم إرادته! وأنّ الله مطّلع على إرادته وعلى نيّته هذه وعلى فعله وعمله هذا، وعندئذٍ تتزلزل أقدامـه وترتجف مفاصله وتجيش تقواه.

إنّ الله أعلم بعباده وأعرف بفطرتهم وأخبر بتكوينهم النفسي والعصبي ـ وهو خلقهم ـ ومن ثمّ جعل التشريع تشريعه والقانون قانونه والنظام نظامه والمـنهج منهجـه، ليكون له في القلوب وزنـه وأثره ومخافته ومهابته، وقد علم سبحانه أنه لا يُطاع أبداً شرع لا يرتكن الى هذه الجهة التي تخشـاها وتـرجـوها القـلوب، وتعرف أنها مطّلعة على خفايا السرائر وخبايا القلوب. وأنّه مـهما أطـاع العـبيد تشريع العبيد تحت تأثير البطش والإرهاب والرقابة الظاهرية التي لا تطّلع على الأفئدة فإنّهم متفلّتون منها كلّما غافلوا الرقابة، وكلّما واتتهم الحيلة مع شعورهم دائماً بالقهر والكبت والتهيّؤ للانتقاض.

« وليخش الّذين لو تركوا منِ خلفهم ذريّـةً ضِـعافاً خـافوا عـليهم فـليتّقوا الله ... ».

وهكذا تمسّ اللمسة الأُولى شغاف القلوب، قلوب الآباء المرهفة الحسّاسة تجاه ذرّيتهم الصغار. بتصّور ذرّيتهم الضعاف مكسوري الجناح، لا راحم لهم ولا عاصم، كي يعطفهم هذا التصوّر على اليتامى الذين وكّلت إليهم أقدارهم، بعد أن فقدوا الآباء. فهم لا يدرون أن تكون ذرّيتهم غداً مـوكولة الى مـن بـعدهم مـن الأحياء، كما وكّلت إليهم أقدار هؤلاء.

مع توصيتهم بتقوى الله فيمن ولّاهم الله عليهم من الصغار، لعلّ الله أن يهيّئ لصغارهم من يتولّى أمرهم بالتقوى والتحرّج والحنـان.

* * *

« إنّ الّذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنّما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلَون سعيراً ».

وهذه هي اللمسة الأُخرى، صورة مفرغـة، صورة النار في البطون، وصورة السعير في نهاية المطاف. إنّ هذا المال. نار، وإنّهم ليأكلون هذه النار، وإنّ مصيرهم لإلى النار. فهي النار تشوي البطون وتشوي الجلود، هي النار من باطن وظاهر، هي النار مجسّمة حتّى لتكاد تحسّها البطون والجلود، وحتّى لتكاد تراها العيون، وهي تشوي البطون والجلود.

ولقد فعلت هذه النصوص القرآنية ـ بايحاءاتها العنيفة العـميقة ـ فـعلها فـي نفوس المسلمين، خلّصتها من رواسب الجاهلية. هزّتها هزّة عنيفة ألقت عنها هذه الرواسب، وأشاعت فيها الخوف والتحرّج والتقوى والحذر مـن المسـاس ـ أيّ مساس ـ بأموال اليتامى . كانوا يرون فيها النار التي حدّثهم الله عنها فـي هـذه النصوص القويّة العميقة الإيحاء. فعادوا يجفلون أن يمسّوها، ويبالغون في هـذا الإجفال.

قال ابن عبّاس: لمّا نزلت هذه الآيـة انطلق من كان عنده يتيم، فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابـه، فجعل يفضل الشيء، فـيحبس له حـتّى يأكـله أو يفسد. فاشتدّ ذلك عليهم. فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله :

﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاحٌ لهم خيرٌ وإن تُخالطوهم فإخوانكم واللهُ يعلم المُفسِدَ من المُصلح ولو شاء اللهُ لأعنَتَكم﴾.

فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهـم[1].

وكذلك رفع هذا المنهج القرآني هذه الضمائر الى ذلك الأُفق الوضيء وطهّرها من غبش الجاهلية ذلك التطهير العجيب.

عبـادات الإسـلام:

لقد أضاف الإسلام الى مفاهيمه عنْ الوجود وعن المبدأ والمـعاد واجـباتٍ دينية عملية، هي فرائض وعبادات وطقوس دينية، بغية المحافظة على تلك الروح الدينية الوقّادة عند المسلمين. وأهمّ هذه الواجبات أو أركان الإسلام العبادية هي: الصلاة والصيام والحجّ والزكـاة أو الصدقات بعمومها.

إنّ وعي النفس البشرية وإدراكها لوجود قوّة عظيمة شاملة، وشعور الانسان بعجز وقصور في نفسه، الى جنب غريزة الميل الى الكمال، كلّ ذلك يجعل العاطفة متدفّقة من قلبه على شكل كلمات وتعابير طافحة بالحبّ والشكـر ـ إن سـاعده الحظّ ـ أو بالندم والحسرة على ما فرّط منه، نحو تلك القدرة الكاملة ذات العطف والرحمة الشاملة.

هذه طبيعة الانسان الجائشـة بالحبّ والحنان.

وما الصلوات والأدعية والأذكار سوى صوَر مُجسّدة لتلكمُ العواطف النبيلة

---

(١) راجع مجمع البيان للطبرسي: ج ٢ ص ٣١٧ عند تفسير الآية رقم ٢٢٠ من سورة البقرة، وجامع البيان للطبري: ج ٢ ص ٢١٧.

التي تفعم القلب البشري، وما كلّ هذه العواطف والأحاسيس إلّا نتيجة لسموٍّ أعلى. ولهذا نرى أنّ كلّ دين فيه بعض العناصر العضوية قد عرف ـ بشكل أو آخر ـ أهمّية الصلاة والدعاء وفعاليتهما. ويطغى العنصر اللاهوتي الغيبي على العنصر المادّي في أكثر الديانات.

فالعبادة القديمة عند الهندوس مثلاً كانت مؤلّفة من مجموعتين من الأفعال: الطهارة والقرابين، ترافقهما مجموعة معقّدة من الأدعية والاستثارات.

أمّا الزرادشتي فكان يعيش في جوّ من الأدعية الكثيرة. فالزرادشتي الورع يكون يصلّي عندما يعطس أو يقلّم أظفاره أو يقصّ شعره، وهو يتعبّد عندما يعدّ وجبات طعامه سواء في الليل أو في النهار. وعند إشعال الفوانيس...إلخ[1].

وجاءت شريعة موسى، فكانت خلواً من كلّ حدود تتعلّق بموضوع الأدعية والصلوات. أمّا واجبات الشريعة ونواهيها فهي تخصّ ضرورة دفع الأعشار الى الكهّان. وضرورة الرزانة والوقار أثناء تقديم نتاج الحيوان الأول للإله (أي في أول عجل تلده البقرة وأول جدي من نتاج الشاة وغيرها). وكانت لتلك الحفلة دعاء خاصّ يتضمّن الاعتراف بمتطلّبات الناموس . وكانت التقاليد والأعراف ـ لعدم وجود أيّة تعليمات عن ذلك في الناموس ـ هي التي جعلت اليهود متأخّراً قوم صلاة ودعاء، ومن ثمّ كانت مجرّد تلفظ بعبارات فارغة لا روح فيها ولا خشوع. وكان بيع بركة الله والمتاجرة بغفرانه على أيدي الكهّان متعارفاً بين اليهود، والقرآن الكريم يوبّخ اليهود توبيخاً شديداً لأنهم كانوا يبيعون آيات الله[2].

وجاء المسيح عليه السلام فكانت تعاليمه تمثّل طوراً أحدث وتطوّراً في الغريزة الدينية عند الإنسان، ولذلك قدّرت طبيعة الدعاء واعترفت بالصلاة اعترافاً كاملاً. وقد كرّس جهوده على ذلك بأن جعل نفسه المثال الأول، وكان تلاميذه الأولون

---

(١) روح الإسلام للسيّد مير علي الهندي: ص ١٨٨.

(٢) راجع: الآية ٤١ و ٧٩ من سورة البقرة، والآية: ٧٧ و ١٩٩ من سورة آل عمران، والتوبة: ٩، والنحل: ٩٥، وغيرها.

خضوعاً لروح معلّمهم الأكبر، يشدّدون على التعلّق بالله والاعتراف بفضله وشكره عليه. ولكن عدم وجود قاعدة محدّدة لإرشاد العامّة تركهم مع مرور الزمن يبتعدون ابتعاداً كاملاً عن هدى معلّمهم، كما جعلهم يضلّون الطريق فيما يختصّ بجميع قيم الصلوات.

ومن ثّم تولّد من ذلك الخضوع الى الكهّان، فاحتكر هؤلاء في أيديهم وظيفة تحديد عدد الصلوات وطول الأدعية وكلماتها. ومن هنا نتجت تلك العبادات الميكانيكية للرهبان الفاقدة للروح. كما تولّد ذلك الزحف العارم الى الكنائس والأديرة في يوم واحد من الاسبوع بغية المزيد من الغذاء الروحي، ولكن من غير جدوى.

* * *

كلّ هذه المساوئ والمفاسد العبادية قد تراكمت بعضها فوق بعض في مطلع القرن السابع للميلاد، حين أخذ نبيّ شبه الجزيرة العربية يدعو قومه ويبشّر بدين معدّل جديد.

وقد سنّ نبيّ الإسلام الأدعية وفرض على أتباعه الصلوات بصورة نزيهة وطاهرة ومصفّية للنفوس، وبذلك نراه قد اعترف بذلك الشوق الروحي في الانسان لكي يفيض حبّها المتدفّق وتعبّر عن امتنانه لله بأجلى الكلمات وأحلى التعابير.

وبجعل الإسلام الممارسة الدينية لدى المسلمين ذات فترات محدّدة نجده قد عمّق تأثير الطبيعة النظامية فيهم. وترك للمتعبّد أوسع مجال لأن يفيض عواطفه وأحاسيسه العميقة، ويظهر ذلّه وخضوعه أمام الوجود الكامل والمؤثر الأول في الخليقة.

وقد جعل من الصلاة قيمتها كوسيلة للسموّ الأخلاقي وسبيلاً سويّاً لتطهير القلب البشري من أدرانه. وقد حظيت بتقدير كبير وحفاوة في القرآن الكريم:

﴿مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ...﴾[١].

﴿إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولَذكرُ الله أكبر﴾[٢].

﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غَسَقِ الليل وقرآن الفجر إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً﴾[٣].

﴿ومن الليل فتهجّد به نافلةً لك عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً﴾[٤].

﴿إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾[٥].

﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾[٦].

﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنّها لكبيرةٌ إلّا على الخاشعين﴾[٧].

﴿وأقم الصلاة طَرَفَيِ النهار وزُلَفاً من الليل إنّ الحسنات يذهِبن السيّئات ذلك ذكرى للذاكرِين﴾[٨].

والصلاة قبل كلّ شيء طهارة للقلب من الأدران والقذارات:

قال رسول الله ﷺ: لو كان على باب دار أحدكم نهر فاغتسل في كلّ يوم منه خمس مرّات أكان يبقى في جسده من الدرن شيء؟ ... قال: فإنّ مثل الصلاة كمثل النهر الجاري، كلّما صلّى العبد صلاةً كفّرت ما بينهما من الذنوب[٩].

وفي الصلاة ممارسة العبودية والتذلّل لله تعالى والاعتراف بعظيم سلطانه .

قال الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام: إنّ علّة الصلاة أنّها إقرار بالربوبية لله عزّوجلّ، وخلع الأنداد، وقيام بين يدي الجبّار جلّ جلاله بالذلّ والمسكنة والخضوع والاعتراف، وطلب للإقالة من سالف الذنوب، ووضع الوجه على الأرض كلّ يوم خمس مرّات إعظاماً لله عزّوجلّ وأن يكون ذاكراً غير ناسٍ ولا

---

(١) البيّنة: ٥. (٢) العنكبوت: ٤٥. (٣) الإسراء: ٧٨.
(٤) الإسراء: ٧٩. (٥) النساء: ١٠٣. (٦) البقرة: ٢٣٨.
(٧) البقرة: ٤٥. (٨) هود: ١١٤.
(٩) الوسائل: ج ٤ ص ١٢ حديث ٣ (طبعة مؤسّسة آل البيت).

بطرٍ، ويكون خاشعاً متذلّلاً راغباً، طالباً للزيادة في الدين والدنيا، مع ما فيه من الايجاب والمداومة على ذكر الله عزّوجلّ بالليل والنهار، لئلّا ينسى العبد سيّده ومدبّره وخالقه، فيبطر ويطغى، ويكون في ذكره لربّه وقيامه بين يديه زجراً له عن المعاصي، ومنعاً له عن أنواع الفساد[١].

وفي ذلك يقول الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: ذلك أنّ الناس لو تركوا بغير تنبيه ولا تذكير للنبي صلى الله عليه وآله بأكثر من الخبر الأول وبقاء الكتاب في أيديهم فقط لكانوا على ما كان عليه الأوّلون، فإنهم قد كانوا اتّخذوا ديناً، ووضعوا كتباً، ودعوا أُناساً الى ما هم عليه. فدرس أمرهم وذهب حين ذهبوا، وأراد الله تعالى أن لا ينسيهم ذكر محمّد صلى الله عليه وآله ففرض عليهم الصلاة، يذكرونه في كلّ يوم خمس مرّات، ينادون باسمه ...وتعبّدوا بالصلاة وذكر الله لكي لا يغفلوا عنه فينسوه فيُدرس ذكره[٢].

* * *

إنّ الإسلام لا يعترف بطبقة الكهنوت، ولا يسمح باحتكار المعرفة، وهو لا يرتضي بالقداسة الخاصّة تتوسّط في العبادة بين العبد وربّه. فروح كلّ فرد كفء لأن تناجي باريها، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد. ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطىٰ وقوموا لله قانتين﴾[٣].

إنّ الإسلام يحيل القيم العليا في عباداته متجسّدة في الروح دون الهيكل الجسدي الفارغ.

﴿ليس البرّ أن تولّوا وجوهَكم قِبَل المشرقِ والمغرِب ولكنَّ البرَّ من آمنَ بالله واليوم الآخر والملائكةِ والكتاب والنبيّين وآتى المال على حبّه ذوي القُربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى

(١) الوسائل: ج ٤ ص ٩ حديث ٧.
(٢) المصدر السابق: حديث ٨.
(٣) البقرة: ٢٣٨.

الزكاة والمُوفُون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فـي البأسـاء والضـرّاء وحـين البأس أُولئك الذينَ صدقوا وأُولئك هم المتّقون﴾[١].

وقد أعلن أنّ الصلاة دون حضور القلب لا جدوى منها، وأنّ كلمات الله التي وجّهها الى الناس كافة لا الى شعب بمفرده يجب أن تتمّ دراستها بالقلب والشفتين في انسجام تامّ، وأن يصدّقه العمل الصالح في وئام. ومن ثمّ اعتبر طهارة الثوب والبدن ـ الى جنب طهارة النفس بالوضوء والاغتسـال ـ والتقرّب الى رضوانـه تعالى، الأمر الذي يختلف تمام الاختلاف عن الصلوات في سائر الأديـان.

* * *

أمّا تشريع الصيام فقد وجد بأشكال أُخر بين سائر الأُمم. بيدَ أنه يمكن القول بأنه طوال التاريخ القديم ظلّت فكرة الصيام تقوم على أسـاس النـدم ومـعاقبة النفس، لا على أساس الترفّع عن مهابط المادّة، كما في الاسلام. نعـم، ظلّ الميل الى قبول فكرة الصيام على أنها كبت لشهوات النفس متأخّراً، وكانت طائفـة من اليهود (الاسينيّون) ـ نتيجةً لاتّصالهم بالفيثاغوريين، وعن طريق هؤلاء اتّـصلوا بزهد الشرق الأقصى ونسـكه ـ استطاعت أن تدرك العنصر الأخـلاقي في مبدأ الصيـام.

كما أنّ الفكرة السائدة في المسيحية فيما يتعلّق بالصيام فكرة عامّة تعود في أصلها الى العقوبة والتكفير. وقد ظلّ التعذيب الجسـدي التـطوّعي يـتكرّر فـي الكنيسة المسيحية كما هو في الكنائس الأُخرى. ولكـن ميل هذا الأذى كان يتّجه دائماً نحو تحطيم الطاقات الجسدية والملكات العقلية من أجل تغذية الصـوفية الحالمة والزهد الخانـع الذليل[٢].

أمّا تقرير فرض الصيام في الإسلام فهو على النقيض من ذلك.

إنّ الهدف الأساسي من تشريعه هو كبح جماح الشهوات، والترفّع لفترة معيّنة

---

(١) البقـرة: ١٧٧. (٢) راجـع روح الإسلام لسيد مير علي: ص ١٩٦.

من الوقت عن جميع لذائذ الحواس، وكذا توجيه حصر النشاطات البهيمية في النفس البشرية نحو تصعيد سليم. إنّ إنزال الأذى غير الضروري والّذي لا طائل تحته بالجسد مكروه في نظر الاسلام، بل إنّه محرّم، والصيام مفروض على الأصحّاء القادرين، كوسيلة لتقييد الروح بفرض حدود معيّنة للجسد.

﴿يا أيّها الذين آمنوا كُتِب عليكم الصيام كما كُتب على الّذين من قبلكم لعلّكم تتّقون * أيّاماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفرٍ فعدّةٌ من أيّامٍ أُخر وعلى الذين يُطيقونه فديةٌ طعامُ مسكينٍ فمن تطوّع خيراً فهو خيرٌ له وأن تصوموا خيرٌ لكم إن كُنتم تعلمون * شهرُ رمضانَ الذي أُنزِلَ فيه القرآن هدىً للناس وبيّناتٍ من الهُدى والفُرقان فمن شَهِدَ منكمُ الشهرَ فليصُمهُ ومن كان مريضاً أو على سفرٍ فعِدّةٌ من أيّامٍ أُخَر يُريدُ اللهُ بكُمُ اليُسرَ ولا يُريدُ بكُمُ العُسرَ ولِتُكمِلُوا العِدَّةَ ولتُكبِّروا اللهَ على ما هداكُم ولعلّكم تشكُرون﴾[1].

فالصوم إنّما شرّع لأجل زرع فضيلة التقوى في النفوس، في أيّام معدودات، سوى المريض والمسافر، ولسوى من يبلغ غاية طاقته. نعم، الصوم تطوّع بالخير، فمن تطوّع خيراً فهو خيرٌ له، خيرٌ لنفسه وخيرٌ لمجتمعه وخيرٌ للناس أجمع. إنّ الله لايريد عسراً بالعباد ولا زجراً للنفوس، وإنّما هو تكميل لمراتب كمال النفس وتربيتها على التروّض عن مهابط اللذائذ الخسيسة، وإكبار وإعظام لمقامه تعالى، شكراً على جزيل نعمائه.

نعم، لا شكّ أنّ أُولئك الذين قد اطّلعوا على شيء من تبذّل الاغريق والرومان والفرس وعرب الجاهلية وإغراقهم في إشباع شهواتهم وترديهم في رذائلهم، سيقدّرون قيمة الصيام ويدركون حسن تكييفه في شريعة الاسلام. ولا بدّ للمنصفين فيهم أن يعترفوا بحكمته طريقاً للحدّ من الغرائز الحيوانية عند الانسان، الأمر الذي امتاز به الإسلام على سائر الأديان.

---

(١) البقرة: ١٨٣ ـ ١٨٥.

وليس هنالك دين قبل الإسلام في العـالم، كـرّس الصـدقة، وإعـالة اليـتيم والأرملة والعاجز الضعيف، بأن شرّع مبادئه فجعل تلك الأعمال إيجابية أساسية في أركانه.

لقد كانت أعياد «الأغابـي» أو ولائم الصدقة بين المسيحييـن تعتمد عـلى مشيئة الأفراد ـ كيف يقيمونها وينفقون على الضعفاء ـ ومن ثمّ كان تأثيرها غير منتظم ولا شافياً. وكانت قضية تحوّل هذه الأعياد غير المنتظمـة الى لا شيء ثمّ اندثارها وزوالها بعد اشتراعها بفترة وجيزة، قضيـة زمن لا أكثر.

وذلك على خلاف ما جاء في الاسلام، حيث يكون كلّ فرد مسلم ثريّ نسبيّاً ـ بحكم القاعدة الشرعيـة ـ ملزماً بأن يساهم بقدر معيّن في قسط من أمواله في مساعدة إخوانه الفقراء. هذا بالاضافة الى ما يخرجه ربّ الأُسرة في كل يوم عيد الفطر من الزكاة عن أهله بقدر معيّن من الطـعام والأرزاق الى الفـقراء. وهكـذا الفريضة السنوية في أرباح المكاسب، وغير ذلك ممّا فرضه الله في أموال الأغنياء لمساعدة الفقراء.

قال سيّد مير عليّ الهندي: بهذا زها مجد الإسلام، حين جسّد مشاعر المسيح وكساها لحماً ودماً بأن جعلها قوانين صارمة محدّدة[1].

* * *

أمّا الحكمة التي تتضمّنها تلك العادة التي أرساها الزمن ـ وهي عادة الحجّ السنوي ـ فقد ظهرت في الإسلام نوعاً من الرأفة الأخوية الحرّة في الدين، بالرغم من اختلاف الشيع والطوائف والانشقاقات. وحيـن تكون جميع العيون متّجهة نحو بقعة مركزية هي مكّة المكّرمة والبيت العتيق فإنّ تلك الحالة تبقى متوهّجة في فؤاد كلٍّ منهم في ظلال ذلك النور المقدّس الذي بدّد ظلمات التاريخ في ذلك القرن.

والحقّ أنّ الإسلام لم يعرف أيّة عبادة من شأنها أن تشوّش الفكر فيما يتعلّق

(١) روح الاسـلام: ص ١٩٨.

بوحدانية الله، كما أنه لم يعرف أيّ تشريع من شأنه أن يعيق تطوّر ضمير الانسانية أو يخالف فطرته. ليس الدين نظرية غريبة، شأنها إدخال الرضا والسرور في نفوس أصحاب العقول الحالمة. إنّ الدين قانون للحياة، وهكذا ينبغي أن يكون. أمّا غرضه فهو الارتقاء بالانسانية الى مدارج الكمال الذي هو غاية الوجود.

ولهذا السبب فإنّ الدين الذي يقيم المبادئ الخلقية الرئيسية على أساس قواعد راسخة منظّمة، كما ينظّم العلاقات الاجتماعية ووشائج القرابة الانسانية، والذي يقرب الانسان أكثر فاكثر ـ عن طريق تمشّيه مع تطوّر العقل ـ نحو الانسان الكامل، ذلك الدين لا شكّ أنه خليقٌ بأن يحظى بالتقدير والاحترام، وهو دين الاسلام.

وإنها لطبيعة مميّزة في الإسلام ـ كما دعا إليه صاحب الشريعة ـ إنّه يضمّ في ذاته أنبل المظاهر في الديانات العقلية السماوية، وخصوصاً تلك التي تتّفق مع العقل والتهذيب الأخلاقي في الانسان. وليس الإسلام مجرّد نظام ذي قواعد أخلاقية إيجابية تقوم على أساس الإدراك الصحيح للتقدّم البشري فحسب، بل أنه تقرير بضعة مبادئ رفيعة، وتأكيد على أشكال سليمة من التصرّف، وترقية خيّرة لطاقة العقل التي هي الضمير الحيّ في الانسان.

أمّا قابلية المفاهيم الاسلامية للتكيّف حسب العصور والأُمم، وانسجام تلك المفاهيم المتساوقة مع روح العقل، وانعدام القواعد الغامضة التي تلقى ظلّاً مشبوهاً على الحقائق المتضمّنة في قلب الانسان، فكلّ ذلك يثبت أنّ الإسلام مثّل أحدث وأرقى تطوّر في الغريزة الدينية عند الانسان.

ولا نعدو الحقيقة حين نجزم بأنّ شريعة الإسلام وحدها بين جميع الشرائع الأُخرى تجمع ما بين المفاهيم التي ساعدت على تكوين السلوك القويم في النفس البشرية في مختلف العصور، وبين قيمة النفس الإنسانية التي كانت تحظى بتقدير كبير في الفلسفات القديمة.

والحقيقة أنّ الاعتقاد بمحاسبة الانسان على كلّ عمل يأتيه ﴿ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يَظلمُ ربُّك أحداً﴾[1].

إن هذه العقيدة تدفع المسلم الى الاتّزان في سلوكه، كما يعمّق في نفسه جذور العاطفة وحبّ الخير العام.

أمّا الاعتقاد بالعناية الربّانية والرحمة والحبّ وقدرة الله المطلقة فهو يؤدّي به الى الخضوع أمام ربّه العليّ القدير، ويجعله يمارس تلك الفضائل البطولية التي نشأ عنها ما يرمي به المتعصّبون ضدّ الإسلام من أنه دين زهد وتقشّف، وكذلك قولهم: إنه يعتمد على الصبر والاعتزال والشدّة في تجربة النفس، والإسلام يجعل المرء يحاسب ضميره بشدّة وقلق، ويلزمه أن يدرس الدوافع التي تتحفّز في نفسه بكلّ عناية وحذر. إنّه يجعله أن لايثق في قوّته الشخصية، بل يعتمد على عون الله في الصراع الذي ينشب بين الخير والشرّ في نفسه «لا حول ولا قوّة إلّا بالله» «بحول الله وقوته أقوم وأقعد» كلام يقوله متكرّراً في صلاته اليومية.

هكذا جاء القرآن بهكذا مفاهيم رقيقة، هي منسجمة مع فطرة الانسان وذهنيّته عن الدين وعن شريعة السماء.

لقد كانت مفاهيم سائر الأديان ـ التي كانت رائجة ودارجة عهد نزول القرآن ـ والفروض التي نشأت عنها خالية من كلّ معقولية تجعلها قابلة للتطبيق، كما وأنها ناقصة الاطّلاع والإحاطة بطبيعة البشر وذات فطرته الأُولى، فأدّى بها ذلك الى أن تضمّ بين جوانحها كثيراً من حماس الحالمين وغموضهم. وكان من ذلك أن بقيت تلك المفاهيم وفروضها عديمة الجدوى في تجارب الحياة العادية وممارستها.

وإنّها لقاعدة سليمة، تلك التي تقول: إنّ الطبيعة العملية في دينٍ مّا، وتأثيره

---

(١) الكهف: ٤٩.

الدائم على العلاقات العامّة بين البشر وشؤون الحياة اليوميّة، وقدرته على السيطرة على الجماهير، كلّ ذلك هو المحكّ الصحيح للحكم فيما اذا كان ذلك الدين عالميّاً أم لا، الأمر الذي لا نجده في أيّ دين من الأديان الراهنة سوى الدين الإسلامي، حسبما جاء به القرآن الكريم.

انظر الى هذه التعابير الرقيقة التي جاءت في القرآن ـ وكم لها من نظير ـ تنسجم مع روح المثالية والانسانية العليا في البشرية:

﴿وعبادُ الرحمن الّذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبَهُمُ الجاهلون قالوا سلاماً * والّذين يبيتون لربّهم سُجّداً وقياماً * والّذين يقولون ربّنا اصرف عنّا عذابَ جهنّم إنّ عذابها كان غراماً * إنّها ساءت مستقرّاً ومُقاماً * والّذين اذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يَقتُروا وكان بين ذلك قَواماً * والذين لا يدعُون مع الله إلهاً آخَرَ ولا يقتُلون النفسَ التي حرّم اللهُ إلّا بالحقّ ولا يزنُونَ ومن يفعل ذلك يَلقَ أثاماً * يُضاعَف لهُ العذابُ يوم القيامة وَيَخلُدْ فيه مُهاناً * إلّا من تابَ وآمنَ وعمِل عملاً صالحاً فأُولئك يبدّلُ اللهُ سيّئاتهم حسناتٍ وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً * ومن تابَ وعمِل صالحاً فإنّه يتوبُ الى الله مَتاباً * والّذين لا يشهدون الزورَ وإذا مرُّوا باللغوِ مرُّوا كِراماً * والّذين إذا ذُكّروا بآيات ربِّهم لم يخِرُّوا عليها صُمّاً وعُمياناً * والّذينَ يقولونَ ربَّنا هب لنا من أزواجنا وذرّياتنا قرّة أعيُنٍ واجعلنا للمتقّين إماماً * أُولئك يُجزَون الغُرفةَ بما صبَروا ويُلقَّونَ فيها تحيّةً وسلاماً * خالدين فيها حَسُنتْ مستقرّاً ومُقاماً﴾[1].

هذه هي الحياة السعيدة الّتي يرسمها الإسلام لا في عالم الخيال، بل منسجماً مع حبّ الفضيلة في الانسان. إنّها الحياة التي يحبّ الإنسان أن يعيشها، وقد مهدها له الاسلام، وبالفعل قد تحقّقت، وهي صالحة للتحقّق مهما حاول الإنسان البلوغ إليها عن جدٍّ ونشاط.

---

(١) الفرقان: ٦٣ ـ ٧٦.

إنّه دين العمل الرشيد والتفكير الصائب والكلمة الصالحة، كلّ ذلك مقاماً على صرح الحبّ المقدّس والخير الإنساني العامّ. أمّا تـاجه الرفـيع فـعدالة وحـرّية ومساواة، إنّه مساواة الانسان بالانسان في نظر الخالق المتعالي.

﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقـناهم مـن الطـيّبات وفضّلناهم على كثيرٍ ممّن خلقنا تفضيـلاً﴾[١].

* * *

قال سيّد مير علي: كان نجاح الإسلام في القرن السابع من الفترة المسيحية وانتشاره السريع المذهل على سطح المعمورة يعودان في أصله الى حقيقة بسيطة، لقد اعترف بالحاجات الضرورية لطبيعة الإنسان. فإلى عالم يمزّقه الصراع بـين المذاهب والطوائف، عالم كانت الكلمة فيه أكثر أهمّيةً من الفعل، تقدّم الإسـلام بأوامر إيجابية محضـة. ومن بين الحطام الاجتماعي الذي ولد فيه الإسلام طلع يهدف الى تقوية عبادة «إرادة ، وذات» ليعيد الإنسـانية الى ضـرورة مـلاحظة واجب من شأنه وحدِه أن يقود الى تطوّر روحي. ونجح الاسلام، وبفضل نجاحه في رفع الشعوب الدنيا الى مستوى خلُقي رفيـع، برهن ذلك الدين للعالم عـلى حاجته الى نظام إيجابي. لقد علم أقوامه الاعتدال والاحسان والعدل والمساواة، وقال: إنّ هذه أوامر الله. وكان تشديده على مبدأ المساواة بين المرء وأخيه وميوله الاعتداليـة تمثّل الطور الفكري الذي تـنفّس عـلى شـطئآن بـحيرة طـبريا فـي الجليل[٢].

﴿هو الّذي أرسل رسولَه بالهُدى ودين الحقّ ليُظهره على الدينِ كلّه ولو كره المشركون﴾[٣].

﴿هو الّذي أرسل رسولَه بالهُدى ودين الحقّ ليُظهِرَهُ على الدين كلّه وكفى بالله شهيداً﴾[٤].

---

(١) الإسراء: ٧٠.
(٢) روح الاسلام: ص ٢٠٩ ـ ٢١٠.
(٣) التوبـة: ٣٣، الصفّ: ٩.
(٤) الفتـح: ٢٨.

لمحة خاطفة عن بناية التشريع الإسلامي
في ضـوء النظريـة القرآنيـة [1]

لعلّ من الواضح التأكيد على أنّ الحياة الانسانية ـ بدون منهج لائح وتقنينٍ شامل ـ تقع في التخبّط والفوضى والاضطراب، ويـبقيها ذلك أسـيرةً للـتجارب المتعثّرة والمبعثرة التي تعتمد غالباً على ما يفرزه الواقع (واقع التجربة) من خطأ وصواب. وفي ذلك كما لا يخفى إهدار كبيرٌ لفرصِ البـناء الحـقيقي، والنـهضة والرقي، فضلاً عمّا يستلزمه (انعدام التقنين الصالح) من تضحياتٍ لا مبرّرَ لها. ولقد كان في مقدّمة أسباب إخفاق التجارب البشرية ـ في هذا المجال ـ إغفالها لأهمّية العلاقـة بين الروح والجسد في الحياة الانسانية، وما استتبع ذلك مـن الإهـمال للفعّاليّات والأنشطة الروحية ودورها في الحياة الاجتماعية.

إنَّ تشخيص حقيقة وطبيعة العلاقة بين الروح والمادّة وحلّ هذا الإعـضال كان القرآن قد سبق إليها، فتصدّى الى رسم المنهج، وتحديد أبـعاده فـي تـقنين الحياة الإنسانية آخذاً بنظر الاعتبار أبعاد الإنسان في الزمان والمكان، مراعـياً طبيعته الازدواجية في تركيبه الداخلي، ليختزل بذلك المعاناة التي يتعرّض إليها المجتمع البشري عِبرَ تجارب الخطأ والصواب.

قال تعالى: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإمّا ياتينّـكم مني هُدىً فمَن تبِعَ هداي فلا خوفٌ عليهم ولا هُم يحزنون﴾[2].

---

(١) مقتطفات عن كتاب «بحوث في القرآن الكريم» تأليف الدكتور عبد الجبار شرارة.

(٢) البقـرة: ٣٨.

ويظهر هنا أنّ القرآن الكريم قد شخّص الحقيقة الموضوعية القائلة بأنّ الانسان بصفته خاضعاً لظروف الزمان والمكان، وينبعث دائماً في تقييماته وآرائه من نزعاته وأهوائه لذلك.فمن الطبيعي سيادة حالة التظالم والخصومات والاعتداء، كما أشار الى ذلك القرآن قائلاً: ﴿قال اهبِطوا بعضُكم لبعضٍ عدوٌ ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاعٌ الى حين﴾[1].

واستناداً الى ذلك فالإنسان عندما يتصدّى لوضع القواعد القانونية سيكون تحت تأثير تلك النزعات والأهواء، ومن هنا اتّجه القرآن الكريم الى بيان الشريعة العامّة، وتكفّل بتحديد القواعد والمبادئ والأحكام العادلة والملائمة للانسان، كما نبّه الى ذلك في قوله تعالى: ﴿ثمّ جعلناك على شريعةٍ من الأمرِ فاتّبعها ولا تتّبع أهواءَ الذين لا يَعلمون﴾[2]، ولقد تضمّنت تلك القواعد والأحكام الحلول والمعالجات لإشكاليات الحياة الإنسانية، كما أنها وفت بحاجات الإنسان الروحية والمادّية على حدٍّ سواء.

إنَّ الهدف من هذه الدراسة هو الكشف عن التصوّر القرآني العامّ ـ أي نظرية القرآن ـ في تقنين المجتمع، وذلك بتحديد الأُسس والمنطلقات التي تقوم عليها النظرية. ثمّ تبيّن الجوانب الأساسية فيها من القواعد الملزمة في نطاق الأُسرة، بصفتها المجتمع المصغّر، وفي ميدان الفعّاليات والعلاقات بين أفراد المجتمع.

* * *

إنَّ القرآن الكريم في نظريته لتقنين المجتمع ينطلق أولاً من حقيقةٍ مفادها أنّ تغيير المجتمع الإنساني وتطويره باتّجاه الكمال والرقيّ والصلاح لا يتحقّق ما لم يتمّ تغيير المحتوى الداخلي للانسان، فكراً ونفسيةً وقناعاتٍ وسلوكاً، وقد أشار القرآن الى ذلك بقوله ﴿إنَّ الله لا يُغيِّرُ ما بقومٍ حتّى يُغيِّرُوا ما بأنفسهم﴾[3]، والتغيير هنا أشمل وأعمّ.

---

(١) الأعراف: ٢٤. (٢) الجاثية: ١٨. (٣) الرعد: ١١.

واستناداً الى ذلك يتّجه القرآن الكريم في إطار تقنين المجتمع الى وضع المنهج الشامل لضبط التفكير والفعّاليات العقلية، وهذا له أولويته في التصوّر القرآني ـ كما نعتقد ـ لمدخلية ذلك أصلاً في انضباط الإنسان داخل المجتمع بلحاظ أنه ما لم ينفتح وجدانه على القواعد القانونية لا يتحقّق تفاعله الإيجابي معها. لاحظ قوله تعالى: ﴿ويتفكّرون في خلق السماوات والأرض ربّنا ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾[1]. فالتكفير الصحيح يقود الى الاستنتاج الصحيح، والاستنتاج الصحيح يقود الى الاعتقاد السليم، والاعتقاد السليم يقود الى الانقياد الى الحقّ، وفيه السلامة والنجاة.

ويتّجه القرآن الكريم بعد ذلك الى ضبط الفعّاليات داخل نطاق الأُسرة بصفتها (الوحدة الاجتماعية المصغّرة)، بلحاظ أنّ الأُسرة تمثّل بيئة الإنسان ومهدِه وأجواء تنشئته، وهو ينشدُّ إليها لأكثر من اعتبار.

لقد كان تدخّل القرآن الكريم في تنظيم العلاقات وتقنينها داخل نطاق الأُسرة تدخّلاً واسعاً وتفصيلياً، إذ أخضعها إليه تكويناً وصياغةً وإنشاءً، وأحكمها وفق ضوابط معيّنة، وحُدِّد بدقةٍ الحقوق والواجبات حفاظاً عليها من الانحلال، آخذاً بنظر الاعتبار طبيعة الإنسان، وما يمكن أن يحدث من إشكاليات، وما يحتمل من طوارئ بما في ذلك انحلال الزواج وما قد ينشأ عنه من آثار تستدعي المعالجة الحاسمة، فقال تعالى مثلاً: ﴿أسكنوهُنَّ من حيث سكنتم من وُجدكم ولا تضارّوهنَّ لتضيّقوا عليهنَّ وإن كنَّ أُولات حملٍ فأنفقوا عليهنَّ حتّى يضعن حملَهُنَّ﴾[2].

ثمّ نجدُ القرآن الكريم بعد إنجاز هذه المهمّة يتّجه الى ضبط الفعّاليّات الاجتماعية المتنوّعة بتقنين العلاقات المختلفة الناشئة من الأنشطة الاقتصادية أو غيرها، وما ينشأ أيضاً من التزامات بحكم الفعل والتصرّف.

---

(١) آل عمران: ١٩١. (٢) الطلاق: ٦.

ومن هنا نجدُ العناية بالحقوق الخاصّة والعامّة، وإذا كان هذا ما يمكن ملاحظته وتسجيله من خلال عملية استقراء لمقاصدَ القرآن وأهدافه وغاياته، وما يمكن تلمّسه بوضوح في مواد كثيرة ـ كما سيتّضح ـ فكلّ ذلك يُشكّل في نظرنا الملامح العامّة لاتجاهات التقنين في القرآن الكريم.

إنَّ المعالم الأساسية أو الهيكل العامّ للنظرية القرآنية يمكن تصويره كما يأتي: يبدأ القرآن ويهتمّ أولاً برسم المنهج السليم للتفكير، أي عملية التقنين تبدأ من تقنين الفعّالية العقلية والفكرية ثمّ يتمُّ التدرّج الى تقنين الفعّاليات والعلاقات في داخل الأُسرة، ثمّ يتمُّ التحوّل الى تقنين العلاقات في إطار المجتمع.

* * *

إنَّ أهمَّ ما يمكن الاعتماد عليه في شمولية هذه النظرة هو ما يأتي:

أولاً: النصوص القرآنية الصريحة التي تؤكّد شمولية القرآن الكريم في معالجته لكلّ شيء، وعنايته بكلّ شيء، وعدم تفريطه بشيءٍ من الأشياء له علاقة بالانسان، ومن تلك الموارد والآيات قوله تعالى: ﴿ما فرّطنا في الكتاب من شيءٍ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ونزّلنا عليك الكتابَ تبياناً لكلّ شيء﴾[2] وقوله تعالى: ﴿الّر كتابٌ أُحكمت آياته ثّم فُصّلت من لَدُن حكيمٍ خبير﴾[3] وقوله تعالى: ﴿أفغيرَ اللهِ أبتغي حَكَماً وهو الذي أنزل إليكُمُ الكتابَ مفصَّلاً والذين آتيناهُمُ الكتابَ يَعلَمون أنه منزّلٌ من ربِّك بالحقّ فلا تكونَنَّ من الممترين﴾[4].

فهذه النصوص صريحة في كفالة القرآن لجميع المتطلّبات، ووفائه للحاجات الإنسانية التي من أخصّها العناية بتنظيم شؤون الحياة المختلفة.

ثانياً: التأكيدات التي وردت في القرآن الكريم على أنه ـ أي القرآن ـ جاء ليُخرج الناس جميعاً من الظلمات الى النور، ومن الظلم والتظالم الى العدل

---

(١) الأنعام: ٣٨. (٢) النحل: ٨٩. (٣) هود: ١.
(٤) الأنعام: ١١٤.

والتراحم، ومن الفوضى والتداعي الى النظام والتماسك، وفي هذا الصدد نجد مجموعة من الآيات المباركة تصرّح بذلك، وتشير إليه.

قال تعالى: ﴿آلر كتابٌ أنزلناه اليك لِتُخرج الناسَ من الظلمات الى النور﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأُولئك هم الظالمون﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليكَ بالحقّ وما اللهُ يريدُ ظُلماً للعالمين﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وهذا كتابٌ مصدّقٌ لساناً عربياً ليُنذرَ الذين ظَلَموا وبُشرى للمحسنين * إنَّ الذين قالوا ربُّنا اللهُ ثمّ استقاموا فلاخوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جيمعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتُم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذَكم منها كذلك يبيّنُ اللهُ لكم آياته لعلّكم تهتدون﴾[٥].

والى هذا المعنى كانت فاطمة الزهراء عليها السلام قد أشارت في خطبتها قائلةً: وكنتم على شفا حُفرةٍ من النار مُذقة الشاربِ ونُهزةَ الطامع، وقُبسةَ العَجلان، وموطئ الأقدام ... أذلةً خاسئين تخافون أن يتخطّفكم الناس من حولِكم فأنقذكم الله بمحّمدٍ صلى الله عليه وآله بَعدَ اللتيا والتي[٦].

ثالثاً: التحذيرات الشديدة من مخالفة الأحكام والأوامر الإلهية كما في قوله تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنةً أو يصيبهم عذابٌ أليم﴾[٧] وقال تعالى: ﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل اللهُ إليك﴾[٨].

---

(١) إبراهيم: ١. (٢) المائدة: ٤٥. (٣) آل عمران: ١٠٨.

(٤) الأحقاف: ١٢ و ١٣. (٥) آل عمران: ١٠٣.

(٦) راجع الخطبة في كتاب بلاغات النساء لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور ت ٢٨٠ هـ انتشارات الشريف الرضي ـ قم المقدّسة. (٧) النور: ٦٣.

(٨) المائدة: ٤٩.

وكذلك نجد القرآن الكريم ينعت الذين لا ينصاعون الى أحكام الله المـنزلة بالفسق مرة وبالكفر أُخرى وبالظلم ثالثة. قال تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأُولئك هم الفاسقون﴾(١). ﴿ومن لم يحكم بما أنزلَ الله فأُولئك هم الكافرون﴾(٢). ﴿ومن لم يحكم بماأنزل الله فأُولئك هم الظالمون﴾(٣).

ولازمُ هذا أن يكون الله تعالى قد أنزلَ هذه الأحكام، وأن تكون مثل هـذه الأحكام مستوعبةً كلَّ مجالات الحياة، وكلّ الشؤون التي تهمّ البشر ليصحَّ لهـم عدم المخالفة باللجوء الى الأحكام غير الإلهية، وإلّا لكانت الحجّة لهم لا عليهم. وقد قال تعالى ﴿فللهِ الحجّة البالغة﴾(٤).

هذا وقد قال تعالى في هذا السياق: ﴿أفلا يتدبّرون القرآن أم عـلى قـلوبٍ أقفالها﴾(٥).

وقال تـعالى: ﴿كـتابٌ أنـزلناه إليك مـباركٌ ليـدّبّروا آيـاته وليـتذكّر أُولو الألباب﴾(٦). وقال تعالى: ﴿ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكِر﴾(٧).

ثّم أوكل لرسوله الكريم نبينا محمّد ﷺ وأهل بيته الطاهرين ـ بلحاظ أنّهم من الراسخين في العلم الذين يعلمون التنزيل، ويعلمون المحكم والمتشابه ـ أوكل إليهم البيان والإيضاح.

ومن هنا يكون قد قطع العذرَ عـلى كـلّ أحـد ﴿وتـمّت كـلمةُ ربّك صـدقاً وعدلاً﴾(٨).

رابعاً: لقد نهانا الله تعالى عن الاحتكام الى الطاغوت، أو الى الأهواء، قـال تعالى: ﴿يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به﴾(٩)، وقال تعالى: ﴿ولئنِ اتّبعتَ أهواءَهـم مـن بـعد مـا جـاءَك مـن العـلم إنّـك إذاً لمـن

(١) المائدة: ٤٧. (٢) المائدة: ٤٤. (٣) المائدة: ٤٥.
(٤) الأنعام: ١٤٩. (٥) محمّد: ٢٤. (٦) ص : ٢٩.
(٧) القمـر: ٢٢. (٨)الأنعام: ١١٥. (٩) النسـاء: ٦٠.

الظـــالمين﴾[١]. وقـــال تـــعالى: ﴿وأنِ احكـم بـينهم بـما أنـزل الله ولا تـتّبع أهواءهـم﴾[٢].

والطاغوت «هو كلّ رئيس في الضلالة، وكل من يُـعْبَد مـن دون الله،وكـل شيطان، وكل كافر»[٣]، استناداً الى هذه المجموعة من الآيات، فلو لم يكن القرآن الكريم قد تعهّد وتكفّـل بالوفاء بكلّ ما يحتاجه البشر، ولو لم يشتمل ويـتضمّن حلّاً ومعالجـةً للخصومات والنزاعات، وفق أحكام محدَّدةٍ، لما كان معنىً للنهي عن الاحتكام الى الآخرين، بـالأخصّ وأنَّ الإطـلاق الوارد فـي النـهي عـن الاحتكام الى الطاغوت، ينصرف الى مطلق الأحكام غير الإلهية، يؤيّد ذلك ما جاء عن الامام الصادق عليه‌السلام كما في رواية أبي بصير أنه قـال: مـن حَكَـم فـي درهمين بغير ما أنزل الله عزّوجل فهو كافر بالله تعالى[٤].

إنَّ ما استظهرناه من هذه الشمولية والاستيعاب، والأُسس التي اعتمدناها في ذلك، استفدناه أيضاً ومباشرةً ممّا نبّـه إليه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام، فقد جاء عن الرسول الأعظم صلى‌الله‌عليه‌وآله أنه قال عن القرآن الكـريم: كتابُ الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بـينكم. هـو الفـصل ليس بالهزل. هو الذي من تركه من جبّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله. فهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنـة، ولا يشبع منه العلماء[٥].

وجاء عن أمير المؤمنين علي عليه‌السلام في معرض ذمّه للاختلاف في كتاب الله، قال: تَرِدُ على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه، ثمّ تردُ تلك

---

(١) البقـرة: ١٤٥. (٢) المائدة: ٤٩.

(٣) فخر الدين الطريحي: مجمع البحرين ١: ٢٧٦ بـاب الألف أوله طـاء، وراجـع الكشـاف للزمخشري ١: ٥٢٥.

(٤) وسائل الشيعة : ب ٥ من أبواب صفات القاضي ح ٦ ج ١٨ ص ١٨.

(٥) مجمع البيان ج ١: ص ١٥ من المقدّمة (دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤١٢ هـ).

القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلاف قوله، ثمّ يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيصوّب آراءهم جميعاً، وإلههم واحد! ونبيّهم واحد! وكتابهم واحد! أفأمرهم الله سبحانه بالاختلاف فأطاعوه ؟ أم كانوا شركاء له فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى ؟! أم أنزل الله ديناً تامّاً فقصّرَ الرسول ﷺ عن تبليغه وأدائِه ؟ والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ما فرّطنا في الكتاب من شيء﴾[1]. وفيه تبيانٌ لكلّ شيء وذكر أنَّ الكتاب يُصدّق بعضُه بعضاً، وأنه لا اختلاف فيه، فقال سبحانه: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[2].

وقال عليه السلام في موضع آخر: ألا وإنَّ فيه علم ما يأتي، والحديثَ عن الماضي، ودواءَ دائكم، ونظمَ أمركم[3].

وهنا لا بدَّ من التنبيه الى أنّ القرآن الكريم قد خوّل النبيّ الأكرم ﷺ ليس فقط وظيفة البيان والتبيين لآيات الكتاب العزيز وأحكام القرآن المجيد كما نصّ في قوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبيّنَ للناس ما نزل إليهم ولعلّهم يتفكّرون﴾[4]، وإنّما خوّله أيضاً بما أوحى إليه وبما علّمه وهداه «التشريع»، كما صرّحت الآية المباركة: ﴿وما آتاكمُ الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[5].

وهنا لا بدَّ أن نفترض أنّ وقت النبيّ الأكرم لم يكن يسعه لبيان كلّ الأحكام والتشريعات لمجموع الناس وعامّتهم، ولذا اختصَّ بهذا الأمر من هو منه[6]، يبلّغ عنه ـ أعني عليّ بن أبي طالب عليه السلام ـ لينهضَ بهذه المسؤولية، ويكمل هذا الدور.

ولدينا على الأمرِ شواهدُ وأدلّة وأرقام كثيرة نوردُ منها ما يعزّزُ هذا الرأي ويدعمه.

---

(١) الأنعام: ٣٨. (٢) النساء: ٨٢.

(٣) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٥٨: ضبط الدكتور صبحي الصالح.

(٤) النحل: ٤٤. (٥) الحشر: ٧.

(٦) راجع مسند الإمام أحمد بن حنبل: ج١ ص٣ (طبعة دار صادر. في قصة تبليغ سورة براءة) وراجع الكشّاف للزمخشري: ج٢ ص٢٤٢، والرواية في صحيح الترمذي: ج٥ ص٥٩٤.

لقد جاء عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: كنتُ إذا سألتُ النبي صلى الله عليه وآله أعطاني، وإذا سكتُّ ابتدأني [١].

وفي حديث طويل تحدّث الامام علي عليه السلام في هذا الصدد قائلاً: ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله آيةٌ إلّا أقرأنيها وأملاها عليّ، فكتبتها بخطّي، وعلّمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وخاصّها وعامّها، ودعا الله لي أن يعطيني فهمها وحفظها، فما نسيتُ آيةً من كتاب الله تعالى وعلماً أملاهُ عليَّ وكتبته منذ دعا الله لي بما دعا، وما ترك رسول الله علماً علّمه الله من حلالٍ ولا حرامٍ، ولا أمرٍ ولا نهي كان أو يكون إلّا علّمنيه وحفظته، ولم أنسَ حرفاً واحداً منه [٢].

وقد أخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود قال: إنَّ القرآن أُنزل على سبعة أحرف، ما منها حرفٌ إلّا وله ظهرٌ وبطن وإنَّ عليّ بن أبي طالب عنده من الظاهر والباطن [٣].

وورد عن ابن عبّاس أنَّ النبي صلى الله عليه وآله عهد الى علي سبعين عهداً، لم يعهد الى غيره [٤].

وذكر السيوطي أنّ معمر روى عن وهب بن عبد الله عن أبي الطفيل قال: شهدتُ عليّاً يخطبُ وهو يقول: سلوني، فوالله لا تسألونني عن شيءٍ إلّا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آيةٍ إلّا وأنا أعلمُ أبليل نزلت أم بنهارٍ أم في سهلٍ أم في جبلٍ [٥].

---

(١) التاج الجامع للأُصول من أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله للشيخ منصور ناصف: ج ٣ ص ٣٣٥. (طبعة مصوّرة، باموق، اسطنبول).

(٢) نهج البلاغة: خطبة رقم ٢١٠ ضبط الدكتور صبحي الصالح.
وراجع بحار الأنوار للمجلسي: ج ٩٢ ص ٩٩ (طبعة طهران).

(٣) نقله السيوطي: في الإتقان ج ٤: ص ٢٢٤ (الطبعة المحققة).

(٤) حلية الأولياء ج ١: ص ٦٨ (طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٥).

(٥) الإتقان: ج ٤ ص ٢٢٤، وراجع طبقات ابن سعد: ج ٢ ص ٣٣٨ (دار الكتب العلمية، بيروت).

ومن هنا يتّضح لدينا أنَّ القرآن الكريم قد تكفّل بتقديم الحلول والمعالجات لسائر الشؤون الانسانية، وفي مختلف المـجالات، وأن هـذه تـغطي المسـاحة الكبيرة والأساسية للتشريع الإسلامي.

ومصدر استكشاف هذا النوع من التشريعات هو الرجوع الى القرآن الكريم مباشرةً أو الى سنّة نبيّه ﷺ أو الى خلفائه المعصوميـن الذين يمثّلون امـتداده التشريعي»[١].

* * *

وممّا لا شكّ فيه أنَّ الحاجة الى منهج في التفكير لضبط العمليات والأنشطة العقليه المتنوّعـة أمرٌ على غايةٍ من الأهمّية والخطورة، ليس على مستوى تجنيب الانسان حالة التخبّط والفوضى والاضطراب فحسب ـ وهذا أمرٌ يُشكّل مرتكزاً مهمّاً في أيّ بناءٍ حضاريّ ـ وإنّما لما لذلك المنهج من دور خطيرٍ أيضاً ينعكس على ضبط الفعاليات الاجتماعية والأنشطة الأُخرى، وله انعكاساته الجدّية أيضاً على المسيرة العلمية والتطوّرية باتجاه الترقّي والبناء (عمارة الكون) ومن هنا كان اهتمام القرآن جدّياً وأساسياً في دعوة الانسان الى امتلاك منهجٍ صحيح وسليم في التفكير.

إنَّ هذا الأمر لا يطرحه القرآن على أنـّه موعظـة، بل هو يجعل التفكير فريضةً على كلّ مُسلمٍ. فامتلاك منهـج التفكير الصحيح والوصول الى الحقائق لم يُوكله القرآن الى نخبةٍ أو الى طبقةٍ معيّنة ـ كما حصل مثل هذا في عملية استنباط الحكم الشرعي، إذ أوكل العملية في هذا المجال الى المتخصّصين من الفقهاء.وفي هـذا قيمة حضارية وهي احترام ذوي الاختصـاص ـ وإنّما جعل مهمّة التفكير الفلسفي وامتلاك المنهج وظيفة كلّ فردٍ على التعيين. والقرآن هنا وإنْ قَرّرَ ذلك وأكـّـده مراراً إلّا أنه لم يترك الانسان نهباً للمناهج غير السليمة أو المنحرفة تتناهبه ذات

(١) مصدر التشريع للسيد الهاشمي : ٧٠.

اليمين وذات الشمال، بل وضع أمامَهُ المنهج المستقيم محدّداً أبعادَه ومعالمَه، مبيّناً عناصره وآفاقه، وكما يأتي:

(أولاً) الدعوة الى التفكير:

إنَّ الدعوة الى التفكير وامتلاك المنهج تأخذ بُعدين في نظر القرآن الكريم.

أولهما: دعوة الانسان الى تدبّر آيات الكون وصفحات الوجود وآفاقه، وذلك من خلال الكشف عن حقائقه المذهلة، وعرض تجلّيات القدرة الخلاقة، وصور الإبداع في هندسة الوجود، وهذا يعني الحثّ على التأمّل الجدّي، وتعقّل ما وراء ذلك.قال تعالى: ﴿إنَّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفُلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل من السماء من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وبثَّ فيها من كلِّ دابةٍ وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآياتٍ لقومٍ يعقلون﴾[١]، فهنا دعوة الى النظر والاستقصاء والتعقّل.

والبُعد الثاني: إنه يحدّد وظيفة الفرد المسلم على التعيين بضرورة التفكير ويأمره صراحةً بذلك. قال تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثمّ الله ينشئ النشأة الآخرة ...﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ويتفكّرون في خلق السماوات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض﴾[٤]

وهنا النظر والتدبّر على سبيل الوجوب، واستناداً الى ذلك ذهب علماء الملّة الإسلامية الى (وجوب النظر)[٥] أي الاستدلال وتحصيل البرهان في

---

(١) البقرة: ١٦٤. (٢) العنكبوت: ٢٠. (٣) آل عمران: ١٩١.

(٤) يونس: ١٠١.

(٥) راجع: عقائد الإمامية، للامام الشيخ محمّد رضا المظفر، المطبعة الحيدرية النجف، انتشارات الشريف الرضي ـ قم ط ٢ سنة ١٤٠٨ هـ

المسائل الاعتقادية.

إنَّ القرآن الكريم عندما يعرض أمامنا صفحات الكون والوجـود، ويُـطلعنا على الهندسة العجيبة، وعلى آثار قدرة الله تعالى المنبثة في كلّ شيء من حولنا، بل وفي أنفسنا ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيَّنَ لهم أنّه الحق..﴾[١]، إنه عندما يعرض أمامنا ذلك، فإنما يدعونا الى استخلاص الحقائق، واكتشاف القوانين العامة التي تحكم الوجود، ومن هنا نفهم قول الامام علي عليه السلام أيضاً «استدلوه ـ أي القرآن ـ على ربّكم»[٢].

(ثانياً) طريقة التفكير واسلوبه :

إنَّ القرآن الكريم لم يكتف بالدعوة الى اعتماد منهج سليم للتفكير، واعتبار ذلك وظيفة الفرد المسلم فحسب، بل يضع بأيدينا أيضاً الطريقة السليمة العلمية للوصول الى الحقائق ويُعرّفنا ـ في هذا المجال وضمن إطار الفهم العميق لأسرار الوجود ـ أساسيات المنهج وأبعاده، فهو منهج يقوم أول ما يقوم على البرهان الوجداني، قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليَقولُنَّ الله﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخّر الشمسَ والقمر ليقولُنَّ الله﴾[٤].

إذاً القرآن هنا يستحثُ الوجدان ويستنطقه، ويدعو الانسان الى القيام برحلة داخلية مع نفسه (حوار مع الذات) فيه الصراحة المتناهية. وإنَّ هذا الحوار الداخلي هو الآخر يجب أن يتمَّ بصيغة أسئلة يحكمها المنطق، ليكون هناك اتّساق بين الوجدان والعاطفة من جهة، وبين المنطق والعقل من جهة أُخرى، أي أن يكون هناك تناغمٌ. والقرآن هنا ـ كما هو في منهجه العام ـ يحرصُ دائماً على عدم

(١) فصّلت: ٥٣.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة رقم ١٧٦ ضبط الدكتور صبحي الصالح.

(٣) الزخرف: ٨٧. (٤) العنكبوت: ٦١.

تغييب العقل والتعقّل، على الرغم من اهتمامه بالمعرفة التي مصدرها الوجدان الداخلي والإدراك الخاصّ، قال تعالى: ﴿أفي الله شكٌّ فاطر السماوات والأرض...﴾(١).

وهكذا نجدُ أنَّ القرآن عندما يفرغ من عملية استنهاض وحثّ منطق الوجدان في أيةِ عمليةِ تأمّل نجده أيضاً في عين الوقت يدعو الى اعتماد الأدلّة والبراهين الفلسفية والعلمية في إثبات المطالب.

إنّ القرآن يقدّم لنا أيضاً عيّنةً من هذه البراهين، ويترك مساحةً مناسبةً لحركة العقل والاستعانة بالحواس. وهذا أساس آخر من أُسس المنهج:

قال تعالى: ﴿إنَّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأُولي الألباب﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرضَ مَهداً وسلك لكم فيها سُبلاً وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نباتٍ شتّىٰ * كُلوا وارعَوا أنعامكم إنَّ في ذلك لآياتٍ لأُولي النهىٰ﴾(٣) أي لذوي العقول.

وقال تعالى: ﴿ويتفكّرون في خَلْق السماوات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً﴾(٤).

إنَّ القرآن الكريم من خلال ذلك كلّه يريد أن يقول لنا: إنَّ البحث والتأمّل في الآفاق وفي الأنفس وفي ما حولنا يجب أن يلتزم البرهان والدليل ويتوسّل بالحسّ والتجربة كلّما أمكن ذلك، قال تعالى: ﴿سنريهم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسِهم﴾(٥).

ولكن ماهي الخطوات التي يمكن أن تتبع للوصول الى الحقائق وتأسيس القناعة المطلوبة فيكون المنهج الذي يحدّده القرآن ويضعه بين أيدينا منهجاً علمياً منتجاً.

---

(١) إبراهيم: ١٠. (٢) آل عمران: ١٩٠. (٣) طه: ٥٣ و٥٤.
(٤) آل عمران: ١٩١. (٥) فصّلت: ٥٣.

إنّ القرآن الكريم يدعو الى عملية التأمّل أولاً، والتأمّل هنا عملية التـفكير، يمكن أن تتمّ بانفراد، وهذا هو الشائع، ويمكن أن تتمَّ بـصورة مشـتركة، وهـذه التفاتـة بارعة من القرآن الكريم في التنبيه الى أهمّية البحث والتفكيرالمشـترك، قـال تـعالى: ﴿قـل إنـما أعِـظكم بـواحـدة أن تـقوموا لله مـثنى وفـرادى ثـمّ تتفكّروا...﴾[1].

ثمّ يتّجه القرآن الكريم الى الدعوة لطرح الافتراضات الممكنة ﴿أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾[2]. ثمّ يصعد الى مرحلة اختبار الافتراض و تقليب الوجوه في المسألة، قال تعالى: ﴿أفرأيتم ما تُمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾[3]، وقال تعالى: ﴿أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾[4].

إذاً هكذا في خطوات علمية: فرض، واختبار الفرض، واستنتاج مبنيّ على المنطق والتجربـة والعقل، يرسم القرآن الكريم أبعاد المنهج، ويدعو الى التمسّك به في سائر المجالات، قال تعالى: ﴿ألم ترَ أنَّ الله أنزل من السماء ماءً فسـلكه ينابيع في الأرض ثمّ يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثمّ يهيج فتراه مصفرّاً ثمّ يجعلُه حُطاماً إنّ في ذلك لذكرى لأُولي الألباب﴾[5].

وأخيراً، ولمّا كان الحوار أساساً مهمّاً سواء مع الذات أو مع الآخرين أو في عملية التفكير والبحث المشترك ـ كما دعا إليه القرآن ـ فإنه يـدلّنا (أي القـرآن) على أُسلوب المحاورة العلمية الرصينة، فهو يُعلّمنا أن ننطلق أولاً من مُسلّمةٍ لدى الطرفين، أو من افتراض مقبول، وهو ما صرّح به القرآن قائلاً ﴿وإنّا أو إيّاكم لعلى هدىً أو في ضلالٍ مبيـن﴾[6]، ثمّ لتبدأ المحاورة بعد ذلك ولكن على شـرط أن يقدّم كلّ واحد دليلاً على ما يقوله، قال تعالى: ﴿قل هاتوا برهانكـم﴾[7]، وهـو

---

(١) سبأ: ٤٦. (٢) الطـور: ٣٥. (٣) الواقعـة: ٥٨ و ٥٩.
(٤) الواقعـة: ٦٣ و ٦٤. (٥) الزمـر: ٢١. (٦) سبـأ: ٢٤.
(٧) البقرة: ١١١، الأنبياء: ٢٤، النمل: ٦٤.

يشترط في الدليل أيضاً أن يكون علماً أي أمراً يقينياً، لأنَّ غير العلم لا يجدي ولا ينتج المطلوب، قال تعالى: ﴿وإنَّ الظنَّ لا يغني من الحقّ شيئاً﴾(١).

ثمّ إذا استقرّ الحقّ وثبت الأمر بالبرهان والدليل القاطع فلا بدّ حينئذٍ من التصديق به واعتماده، والإقرار به، قال تعالى: ﴿فماذا بعد الحقّ إلّا الضلال﴾(٢)، وهنا لفتةٌ بارعة في ضرورة استثمار الحقيقة والانصياع اليها.

وهكذا، فإنَّ القرآن الكريم عندما يضع بين أيدينا مثل هذا المنهج ويدعونا الى التمسّك به فلكي ينتهي الانسان الى حالة الاطمئنان (الطمأنينة الداخلية) فيزيح عن نفسه وعن عقله كلَّ وهمٍ وخرافةٍ وشكّ، فيعيش حينئذٍ هادى البال يسهمُ في البناء والتقدّم في الحياة الانسانية غير مضطربٍ ولا مشدود الأعصاب، وعند ذاك يكون القرآن قد أرسى مرتكزاً أساسياً من مرتكزات البناء الحضاري وفي تخليص الانسان من الهواجس والظنون من خلال التأكيد على اعتماد المنهج العلمي في التفكير، فضلاً عمّا يعنيه ذلك أيضاً من تعميم المعرفة وشموليّتها وعدم اقتصارها على قطّاع أو طائفةٍ أو طبقةٍ معيّنةٍ، وهذه قيمة حضارية كبرى وميزة عظيمة ينفرد بها القرآن الكريم في إطار نظريته في المنهجة والتقنين.

* * *

إنَّ القرآن الكريم يتّجه فعلاً ـ وفي سبيل إثبات مصداقيّته في وفائه بالحاجات الأساسية، وتنظيم العلاقات داخل الإطار الاجتماعي ـ الى تقديم اطروحته فيحدّد القواعد الملزمة والمناهج العملية في هذا الإطار بشكل قوانين حقوقية أو جزائية وما شاكل.

والقاعدة القانونية باعتبارها قاعدة سلوك ونظام يتحتّم الخضوع لها. أمّا مضمون القاعدة من الناحية العملية فهو تخويل الفرد حقّاً أو فرض واجب عليه(٣).

---

(١) النجم: ٢٨. (٢) يونس: ٣٢.

(٣) مبادئ القانون للدكتور عبد المنعم فرج الصدّة: ٦ (دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٧ م).

وقد مُثّل لذلك بالقاعدة التي تقضي بأنّ العقود المنشأة على الوجه القانوني تلزم المتعاقدين.

ولتصوير هذه المسألة في القرآن فإننا نجد النصَّ على لزوم الوفاء بالعقد المُنشأ على الوجه الشرعي. يتبين ذلك في قوله تعالى: ﴿أوفوا بالعقود﴾[١]، والآية تتضمّن صفة الإلزام. وهي بضميمة قوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالَكم بينكُم بالباطل﴾[٢] التي مقتضاها النهيعن الأكل بالباطل، بمعنى إجراء العقد على خلاف الشرع[٣]، فيتحصّل لدينا نصٌّ قانونيٌّ محدّد . وقد ذهب الفقهاء الى أصالة اللزوم في العقود.

ثمّ إنّ القانون ـ في تنظيمه لسلوك الأفراد وعلاقاتهم في المجتمع ـ إنّما يفعل ذلك ببيان حقوقهم وواجباتهم. والقاعدة القانونية بلحاظ انّها قاعدة اجتماعية تفرض نظاماً معيّناً، وهي ذاتُها التي تخوّل الحقّ فتضع بين يدي الشخص سلطة تمكّنه من أن يعمل على وجه معيّن، في علاقته بغيره، أو تفرض عليه واجباً في هذا السبيل.

وهنا يلزم التنبيه الى أمرٍ مهم، وهو أنَّ القرآن الكريم وإن اعتنى عنايةً مباشرة بعملية التقنين والتشريع في نطاق الأُسرة والمجتمع، ولكنه أوكل جانباً من ذلك الى النخبة المتخصّصة(أي الفقهاء) كما أشار الى ذلك في قوله تعالى: ﴿فلولا نفرَ من كلّ فرقةٍ منهم طائفةٌ ليتفقَّهوا في الدين وليُنذِروا قومهم إذا رجعوا إليهم ...﴾[٤]. وهي قيمة حضارية كبرى ينبّهُ إليها القرآن العظيم، وهي احترام ذوي الاختصاص وهم الفقهاء، في هذا الصدد، أي في سَنّ القوانين ليكون في مجال ما اصطلح عليه بمنطقة الفراغ.

---

(١) المائدة: ١. (٢) البقرة: ١٨٨.

(٣) الكشاف للزمخشري: ج ١ ص ٢٣٣ (طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٩٨٧).

(٤) التوبة: ١٢٢.

تقنين الأُسرة:

إنَّ الأُسرة في نظر القرآن الكريم تُعدُّ اللبنة المهمة في البناء الاجتماعي، وعلى مدى سلامتها ومتانة العلاقات القائمة في داخلها يتوقّف سلامة البناء برمّته. ولقد أشارت الآية المباركة الى هذه الحقيقة ﴿يا أيُّها الناس اتَّقُوا ربَّكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وخَلَق منها زوجَها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً...﴾[١]. كما أشار القرآن الى أمر له مدخلية في استقامة البناء الأُسري، قال تعالى: ﴿خَلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجَعلَ بينكم مودّةً ورحمةً...﴾[٢]. فالسكن هنا والمودّة والرحمة عناصر أساسية في التماسك. ثمّ لفت القرآن النظر الى أنّ الزواج ـ وفق قواعد الشرع ـ يتّسق ويتناغم مع سائر الوجودات الأُخرى التي هي من بدائع صنع الله تعالى، فقال تعالى: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها ممّا تُنبِت الأرض ومن أنفسهم وممّا لا يعلمون﴾[٣]. إذ فيها تنبيه الى أنَّ ظاهرة الزوجية تحكم الموجودات كلّها، وأن هذه الموجودات تجري على نواميس وقوانين لا تحيد عنها. قال تعالى: ﴿وخلق الله السماوات والأرض بالحقّ﴾[٤]. وقال تعالى: ﴿وأنبتنا فيها من كلّ شيء موزون﴾[٥]. وقال تعالى: ﴿والشمسُ تجري لمستقرٍ لها ذلك تقديرُ العزيز العليم﴾[٦]. وفي كلّ ذلك تنبيهات وإشارات واضحة الى تحكّم القوانين في كلّ أنحاء الوجود وأجزائه[٧]. وبناءً على ذلك، فإنّ الأُسرة يجب أن تتكون وتتشكّل وفق قانون، وإنها يجب أن تنضبط فعاليّاتها وفق قانون، وأن تنشأ العلاقات وتتوزّع الحقوق والواجبات أيضاً وفق قانون.

---

(١) النساء: ١. (٢) الروم: ٢١. (٣) يس: ٣٦.
(٤) الجاثية: ٢٢. (٥) الحجر: ١٩. (٦) يس: ٣٨.
(٧) الميزان: ج ٥ ص ٣٠، وأيضاً ج ١٧ ص ٨٨ ـ ٩١.

لقد جعل القرآن الكريم قيام الأُسرة على أساس المودّة والرحمـة، كما أُشير في الآية المذكورة، وألزم الزوج بـالمعاشرة بـالمعروف كـما فـي قـوله تـعالى ﴿وعاشروهنّ بالمعروف﴾[١]. والأمر هنا ليس (وعظيـاً) بل هو يـتضمّن صـفة الإلزام[٢]، وهنا أصل عظيم ومرتكز مهم في بناء الأُسرة وسـلامتها. لقـد أوكـل القرآن الكريم إنشـاء العلاقة الزوجية الى الطرفين (الذكر والأُنثى) ونـبّه الى أن تكون هناك قناعة لكلّ واحدٍ بالآخر، ثمّ طلب إجراء العقد شكلاً وغايةً أي في الصيغة والمقصد استناداً الى قواعد إجرائية معيّنة. وقد قال تعالى في هذا الصدد: ﴿فانكِحوا ما طاب لكم مـن النسـاء﴾[٣]. وقـال تـعالى: ﴿وأنكـحوا الأيـامىٰ منكم...﴾[٤]. والأيم يطلق على الرجل والمرأة غير المتزوّج. وقال تعالى: ﴿ولا تُمْسِكوهنَّ ضراراً﴾[٥].

إنَّ القرآن حدّد بادي ذي بدء من يجوز للانسان أن يقترن بها، ومن لا يجوز سواء كان ذلك على سبيل التأبيد أو التأقيت[٦] فقال تعالى: ﴿ولا تَنكحُوا ما نكحَ آباؤكـم من النساء إلّا ما قد سلف إنَّـهُ كان فاحشةً ومقتاً وساء سبيلاً * حُرِّمَت عليكم أُمّهاتُكم وبناتُكم وأخواتُكّم وعمّاتكم وخـالاتُكم وبـناتُ الأخ وبـناتُ الأُخت وأُمّهاتُكم اللاتي أرضعنَكم وأخواتُكم من الرَضـاعة وأُمّـهاتُ نسـائكم وربائبُكم اللّاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتُم بـهنَّ فـإن لم تكـونوا دخلتُم بهنّ فلا جُناح عليكم وحلائلُ أبنائِكُم الّذين من أصلابكم وأن تجمَعوا بين الأخـتين إلّا مـا قـد سـلفَ إنَّ اللهَ كـانَ غـفوراً رحـيماً * والمـحصنات مـن النساء...﴾[٧].

(والقاعدة الآمرة)[٨] هنا في حرمة الأصناف التي ذكرت في الآيات المباركة

(١) النسـاء: ١٩. (٢) زبدة البيان للأردبيلي : ٦٠٧.
(٣) النسـاء: ٣. (٤) النور: ٣٢. (٥) البقرة: ٢٣١.
(٦) زبدة البيان للأردبيلي : ٥٢٢ ـ ٥٢٣. (٧) النساء: ٢٢ ـ ٢٤.
(٨) مبادئ القانون للدكتور عبد المنعم فرج الصدّة : ٥٤.

روعي فيها احترام إنسانية الإنسان وفطرته من وجه، واجتناب تداخل الحقوق والواجبات من وجه آخر.

وعلى أية حال فالقرآن يقرّر أنّهُ إذا تمَّ عقد الزواج وفق القواعد المذكورة أخذ صفة الإلزام استناداً الى كلّية ﴿أوفوا بالعقود﴾[١]. ويترتب الأمر الشرعي ويجب المهر بالدخول[٢] قال تعالى: ﴿وآتوا النساء صدُقاتِهِنَّ نِحلة﴾[٣]. ثمّ يبدأ سريان الالتزامات المتقابلة. فالزوج يلزمه المعاشرة بالمعروف، ويلزمه الإنفاق على الزوجة، وأداء الاستحقاقات المطلوبة، قال تعالى: ﴿وعلى المولود له رزقُهُنَّ﴾[٤]. والزوجة يلزم أن تطيع الزوج ولا تخلَّ بمقتضى العقد، وبما بينها وبين زوجها قال تعالى: ﴿ولهُنَّ مثلُ الّذي عليهنّ﴾[٥]. وقال تعالى: ﴿فالصالحاتُ قانتات حافظاتٌ للغيبِ بما حفظ الله﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿فإن أطعنَكُم فلا تبغُوا عليهنَّ سبيلاً﴾[٧]. وعندما يحصل الإنجاب ويرزقان الولد كما أشار اليه تعالى: ﴿يهبُ لِمن يشاءُ إناثاً ويهبُ لِمَن يشاءُ الذكور﴾[٨] فحينئذٍ تتّسع دائرة الالتزامات وتنشأ حقوق جديدة. فيثبت النسب، وينشأ حقّ البنوّة وحقّ الأُبوّة، قال تعالى: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاقٍ﴾[٩].

وفي نطاق الحقوق التي تنشأ من العلاقات بين أفراد الأُسرة الواحدة نجد القرآن الكريم يولي اهتماماً خاصّاً، فيوجب على الأبناء حُسن معاملة الآباء ووجوب النفقة لهما، وعدم التضجّر منهما مهما كانت الظروف والأحوال. والقواعد هنا كلّها من قبيل (القواعد الآمرة) كما يصطلح عليها في القانون. أي لا يجوز مخالفتها قال تعالى: ﴿وقضى ربّك أن لا تعبدوا إلّا إيّاه وبالوالدين إحساناً إمّا يبلغنَّ عندكَ الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أُفٍّ ولا تنهرهما﴾[١٠].

(١) المائدة: ١. (٢) زبدة البيان: ٥١٠. (٣) النساء: ٤.
(٤) البقرة: ٢٣٣. (٥) البقرة: ٢٢٨. (٦) النساء: ٣٤.
(٧) النساء: ٣٤. (٨) الشورى: ٤٩. (٩) الأنعام: ١٥١.
(١٠) الإسراء: ٢٣.

قال الأردبيلي في بيانه لمعنى الآيـة:

ولقد بالغ الله سبحانه وتعالى في التوصية لهما حيث شفّع الإحسان لهما بتوحيده تعالى ... ثمّ لم يرخّص في أدنى كلمة تنفلِت من المتضجّر ... ثمّ أمر بالخضوع والتذلّل لهما بقوله تعالى: ﴿واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة﴾[١]. ولم يقتصر الأمر في الإحسان والمعروف في حالة كونهما مسلمين، بل حتى لو كانا مشركين، قال تعالى: ﴿ووصّينا الإنسان بوالديه حُسناً وإن جاهداك لتُشركَ بي ما ليس لك به عِلمٌ فلا تطعهما...﴾[٢]. وفي سورة أُخرى ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به عِلمٌ فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾[٣]. وفي الكشّاف قال في التفسير: وإن كنت مأموراً بحسن مصاحبتهما في الدنيا ثم اليَّ مرجعُكَ ومرجعُهما فأُجازيك على إيمانك وأُجازيهما على كفرهما، علم بذلك حكم الدنيا ...[٤].

ونظراً لما يتميّز به القرآن الكريم من الواقعية ومعرفة خصائص البشر وطبيعتهم، ونظراً لكونه الشريعة الخالدة لكلّ البشر في جميع الأزمان، فقد أخذ في حسابه وقوع الافتراق بين الزوجين، وأعطى هذا الأمر مشروعيةً في الحالات الموجبة، ولكنّه تدخّل في هذه المسألة، ووضع جملةً من القواعد الملزمة والإجراءات المناسبة، تقليصاً لما ينتج عنه من آثار، ورعايةً لحقّ المرأة من جهة أُخرى، قال تعالى: ﴿إذا طلّقتُم النساءَ فطلّقوهنّ لعدّتهنَّ وأحصُوا العِدّة واتّقوا الله ربّكم لا تُخرجُوهنَّ من بُيوتِهنَّ ولا يَخرُجنَ إلّا أن يأتينَ بفاحشةٍ مُبيّنةٍ وتلك حُدودُ الله ومن يتَعدَّ حُدُودَ الله فقد ظَلَم نفسَه﴾[٥].

والظاهر هنا كما يقول الأردبيلي:إنه لا بدّ من وقوع الطلاق في وقت خاصّ صالح للعدّة، وإنَّ ذلك واجبٌ وشرط الصحّة لأنها واردة لبيان تعليم الطلاق[٦]،ثمّ

(١) الإسـراء: ٢٤. (٢) العنكبوت: ٨. (٣) لقمـان: ١٥.
(٤) الكشّاف للزمخشري: ج ٣ص ٤٩٤. (٥) الطـلاق: ١.
(٦) زبدة البيان للأردبيلي: ٥٩١.

ينتقل القرآن الى أمر آخر يتّصل بالسابق فيقول: ﴿وإذا طلّقتمُ النساءَ فبلَغنَ أجلَهُنَّ فأمسكُوهُنَّ بمعروفٍ أو سَرِّحُوهنَّ بمعروف﴾[١]. ثمّ يقول لاحقاً: ﴿وإذا طلّقتُمُ النساءَ فبلغنَ أجلَهُنَّ فلا تعضِلوهُنَّ أن ينكِحن أزواجَهُنَّ إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾[٢]. والعضل يعني الحبس والتضييق.

ثمّ يبيّن التعليمات الأخرى فيما يتعلّق بمسألة العدّة فيقول[٣]: ﴿يا أيُّها الّذين آمنوا إذا نكحتُمُ المؤمنات ثمّ طلّقتموهُنَّ من قبل أن تَمَسُّوهنَّ فمالكم عليهنَّ من عِدَّةٍ تعتدُّونها فمتِّعُوهنَّ وسرّحوهنَّ سَراحاً جميلاً﴾[٤].

والمراد بالنكاح هنا العقد، وبالمسّ الدخول بهنّ[٥]. أي تخلية من غير ضرار. كما قرّر في قوله تعالى: ﴿ولا تُمسِكُوهنَّ ضراراً﴾[٦].

ثمّ بيّن القرآن الكريم عدد التطليقات الممكنة فقال: ﴿الطلاق مرّتان فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسان﴾[٧].

وتتضمّن الآية أيضاً «تخيير الأزواج بعد أن علّمهم كيف يطلّقوهنَّ بين أن يمسكوا النساء بحسن المعاشرة والقيام بحقّه الواجب عليهنَّ وبين أن يسرّحوهنَّ السراح الجميل الذي علّمهم»[٨]. ولم يكتف القرآن بذلك التدخّل الواسع والتفصيلي في هذا الميدان، بل بيّن أيضاً أنواع انحلال عقد الزواج، فقد يتمّ الانحلال والفرقة بغير الطلاق، كما اصطلح عليه الفقهاء مثلاً بالخلع والمباراة. قال تعالى: ﴿ولا يحلُّ لكم أن تأخذوا ممّا آتيتموهنَّ شيئاً إلّا أن يخافا أن لا يُقيما حُدودَ الله فإن خِفتم أن لا يقيُما حُدودَ اللهِ فلا جناحَ عليهما فيما افتدت به تلك حُدودُ الله فلا تعتدوها ومن يَتعدَّ حُدودَ اللهِ فأُولئكَ هُم الظالمون﴾[٩]. وهناك ما اصطلح عليه بالظهار، وهو كما لو أقدم الإنسان على عدم مراعاة الحدود الشرعية وسمّى

---

(١) البقرة: ٢٣١. (٢) البقرة: ٢٣٢. (٣) زبدة البيان: ٥٨٨.
(٤) الأحزاب: ٤٩. (٥) زبدة البيان: ٥٩٧. (٦) البقرة: ٢٣١.
(٧) البقرة: ٢٢٩. (٨) زبدة البيان: ٦٠٠. (٩) البقرة: ٢٢٩.

الأشياء بغير أسمائها كمن قال لزوجته: «أنت عليَّ كظهر أُميّ» وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم﴾[١]. فهذا قولٌ منكرٌ وباطلٌ في نظرية القرآن الكريم، ولذا حرّم القرآن الزوجة هنا على الزوج ما لم يقدم الكفّارة أي الغرامة[٢].

وهناك نوع آخر من انحلال الزواج يُسمّى بالإيلاء كمن حلف أن لا يقرب زوجته قال تعالى: ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربّص أربعة أشهر فإن فاؤوا فإنَّ الله غفورٌ رحيم * وإن عزموا الطلاق فإنَّ الله سميع عليم﴾[٣].

ثمّ هناك الخيانة الزوجية وهي موجبة للافتراق، وأخيراً الارتداد،وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿ولا تُمسِكوا بعِصَم الكوافر)[٤].

أمّا إذا انحلَّ الزواج بالموت فتنشأ هنا التزامات وحقوق من نوع آخر، فتجب على المرأة عدّة المتوفّى عنها زوجها، وإليه أشارت الآية المباركة ﴿والذين يُتَوفّونَ منكم ويَذَرونَ أزواجاً يتربّصن بأنفُسهِنَّ أربعةَ أشهُرٍ وعشراً﴾[٥].

ثمّ ذكرت الآيات المباركة أنّه ﴿فإذا بلغنَ أجلَهُنَّ فلا جُناحَ عليكُم فيما فعلنَ في أنفُسهنَّ بالمعروف﴾[٦]. أي إذا انقضت عدّتهنّ فلا مانع من التعرّض للخطبة، والخطاب بالتزويج بالوجه الذي لا ينكر شرعاً[٧].

وإذا حصل الموت فهنا يتمُّ التوارث، وتوزّع التركة وفق الموازين والأنصبة والأسهم التي تكفّلت بها منظومة المواريث، كما أشارت الآية المباركة: ﴿للرجال نصيبٌ ممّا تركَ الوالدان والأقربون وللنساءِ نصيبٌ ممّا تركَ الوالدان والأقربون ممّا قلَّ منه أو كثُر نصيباً مفروضاً﴾[٨].

---

(١) المجادلة: ٢. (٢) زبدة البيان للأردبيلي : ٦١٠.
(٣) البقرة: ٢٢٦ و٢٢٧. (٤) الممتحنة: ١٠. (٥) البقرة: ٢٣٤.
(٦) البقرة: ٢٣٤. (٧) زبدة البيان للأردبيلي : ٦١٠.
(٨) النساء: ٧.

وهناك ملحظ آخر :

إنَّ القرآن الكريم في سعة تدخّله بوضع اللوائح القانونية ـ أعني التفصيلات الوافية ـ في نطاق الأُسرة أخذ بضرورة وضع الاحتياطات المناسبة والضرورية في عدم ترك العلاقات بين أفراد الأُسرة الواحدة عرضة للاجتهاد، فالأحكام هنا يجب أن تكون قطعية واضحة ومحدّدة، كما لاحظناه في مسائل الطلاق ومسائل الإرث مثلاً، وأخذ الاحتياطات هنا بلحاظ أنّ المجتمع قد ينفلت من الخضوع للقواعد والأحكام التي أرادها الشرع، إذا كان فيها مجال للاجتهاد والتأويل، وكما وقع ويقع مثلاً، في نطاق التعامل التجاري والمالي، إلّا أنّ ذلك قد لا يؤدّي الى خراب شامل، لأنّ المجتمع حينئذٍ قد يتعارف ويتواضع على أساليب وأُصولُ في التعامل وإن كانت غير مشروعة في نظر الشرع. وهذا أمرٌ لا يؤدّي الى انفراط عقد المجتمع، ولا الى فوضى الحقوق والواجبات، وهو ربما يمكن تلافيه وإصلاحه. بينما لو قدّر أن يحدث مثل هذا الانفلات في نطاق الأُسرة لأدّى ذلك الى الانهيار الشامل الذي لا اصلاح بعده، ولا استدراك لما يمكن أن ينشأ من جرائه. ومن هنا نلاحظ تكرار مثل قوله تعالى: ﴿تلك حدودُ الله فلا تعتدوها﴾[1] ونحو ذلك.

الحقوق الخاصّة والحقوق العامّة :

يهدف القرآن الكريم ـ في عملية تقنين المجتمع ـ الى ضبط الفعّاليّات الاجتماعية المتنوّعة، سواء في نطاق التعامل المالي أو غيره، ويرمي أول ما يرمي الى الحيلولة دون نشوء حالة النزاع والخصومة، وذلك بإقرار الحقوق والواجبات، كما يستفاد مثلاً من قوله تعالى ﴿ولهنَّ مثل الذي عليهن﴾[2] إذا أعطينا صفة التعميم لهذه القاعدة. وبحاكمية نفي الضرر[3]، بمعنى أنه ـ أي القرآن ـ في الوقت

(١) البقرة: ٢٢٩. (٢) البقرة: ٢٢٨.

(٣) راجع في حاكمية قاعدة الضرر كتاب فرائد الأُصول: ص ٢٩٦ الطبعة القديمة ـ قم.

الذي يقرّ للإنسان حقّاً يفرض عليه واجباً فالانسان في ممارساته لحقّه في التصرّف الشرعي مثلاً يلزم أن لا يُلحق بالغير ضرراً، وهذا ما يستفاد مثلاً من قوله تعالى ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يُضارّ كاتبٌ ولا شهيد﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ولا تُمسكُوهنّ ضِراراً﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿من بعد وصيةٍ يوصىٰ بها أو دَينٍ غيرَ مُضارٍّ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿لا تضارّ والدةٌ بولدها ولا مولودٌ له بولده﴾[4].

ومع كل ذلك فإنّ وقوع النزاع والتخاصم أمرٌ لا مفرّ منه، ولذا اتّجه القرآن في هذا الصدد الى وضع لائحة النظام القضائي، كما سنشير إليه في محلّه.

(أولاً) الحقوق الخاصّة:

أسبغنا الحديث عن حقوق الأُسرة، وهي تدخل ضمن هذا القسم أصلاً، ولكن أفردنا بالبحث لأهميّته.وهنا نتحدّث عن الحقوق المدنية أولاً، ثمّ الحقوق الجنائية ـكما اصطلح عليها ـ.

١ ـ الحقوق المدنية:

الالتزامات:

أ : اعتبرالقرآن كلَّ فعل ضارٍّ بالغير موجباً لمسؤولية الفاعل أو المتسبّب بالتعويض عن الضرر[5] ولو كان عن خطأ. قال تعالى: ﴿ومن قَتَل مؤمناً خطأً فتحرير رقبةٍ مؤمنةٍ ودِيَةٍ مسلّمةٍ إلى أهله﴾[6].

وإذا كان عن عمدٍ وقصد فقد أوجب العقوبة.قال تعالى: ﴿ولكُم في القصاص حياةٌ يا أُولي الألباب﴾[7]. وقال تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا كُتبَ عليكم

---

(١) البقرة: ٢٨٢. (٢) البقرة: ٢٣١. (٣) النساء: ١٢.
(٤) البقرة: ٢٣٣. (٥) المدخل الفقهي العام: ج ١ ص ٣٤.
(٦) النساء: ٩٢. (٧) البقرة: ١٧٩.

القِصاص في القتلى﴾[١].

وهناك التزامات تنشأ بإرادة الفرد كالوصية مثلاً، كما أشار القرآن ﴿إنْ ترَكَ خيراً الوصيَّة﴾[٢].

ب ـ في العقود: أقرّ القرآن في العقود الأُسس الآتية:

أولاً: العقد المشروع ملزم لعاقده دون غيره، كما أنَّ إقرار الشخص لا يسري إلّا على نفسه[٣] قال تعالى: ﴿أوفُوا بالعقود﴾[٤].

ثانياً: الشروط العقدية ملزمة للعاقدين[٥] إلّا ما يخالف النظام العامّ والآداب، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَأوفوا بالعهد﴾[٦]. وإنما يلزم الوفاء بالعقد وبالشرط إذا لم تخالف أُصول الشريعة ومبادئها استناداً الى قوله تعالى: ﴿لا تأكلوا أموالَكُم بينكُم بالباطل﴾[٧].

ثالثاً: العقود كلّها رضائية[٨]، أي أنها تنعقد بالتراضي، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿إلّا أن تكونَ تجارةً عن تراضٍ منكم﴾[٩].

رابعاً: الالتزام بحسن النيّة في العقد، ويقصد به خلوّه من الغبن والغشّ والتغرير والتدليس ونحو ذلك[١٠]. وهذه الأُمور يعتبرها الشرع أكلاً للمال بالباطل، وقد جاء قوله تعالى: ﴿لا تأكلوا أموالَكُم بينكم بالباطل﴾[١١].

٢ ـ الحقوق الجنائية:

أ ـ كلّ فعل ممنوع يعتبر ارتكابه جريمة، وكلّ جريمة لها عقوبة. قال تعالى:

---

(١) البقرة: ١٧٨.
(٢) البقرة: ١٨٠.
(٣) المدخل الفقهي العام: ج ١ ص ٤٢.
(٤) المائدة: ١.
(٥) زبدة البيان للأردبيلي: ص ٤٦٢، وراجع الميزان للطباطبائي: ج ٥ ص ١٠٨.
(٦) الإسراء: ٣٤.
(٧) النساء: ٢٩.
(٨) زبدة البيان للأُردبيلي: ص ٤٦٢.
(٩) النساء: ٢٩.
(١٠) المدخل الفقهي العام: ج ١ ص ٤٢.
(١١) النساء: ٢٩.

﴿ولا تعتدوا إنَّ اللهَ لا يُحبُّ المعتدين﴾[١].

وقال تعالى: ﴿فمنِ اعتدىٰ عليكُم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدىٰ عليـكُم﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وجزاءُ سيّئةٍ سيّئةٌ مثلُها﴾[٣].

ب ـ حدّدت الشريعة في القرآن الكريم جرائم معيّنة أوجبت عليها نوعاً من العقوبة. وقد أطلق على هذه الجرائم جرائم الحدود، وهي:

ـ حدّ الزنا ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كلَّ واحدٍ منهُما مائة جلدة﴾[٤].

ـ ثمّ حدّ السرقة ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديَهما﴾[٥].

ـ ثمّ جريمة قطع الطريق والسلب وحدّها القتل.قال تعالى: ﴿إنمّا جزاءُ الذين يحاربونَ الله ورسوله ويسعَون في الأرض فساداً أن يُقتّلوا ...﴾[٦].

ـ ثمّ جريمة القذف، أي رمي المحصنات بالزنا ونحوه. قال تعالى: ﴿والّذين يرمون المُحصَنات ثمّ لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جَلدةً ولا تَقبَلوا لهم شهادةً أبداً﴾[٧]. إلّا أنّ القرآن هنا أجاز العفو لوليّ الدم[٨] قال تعالى: ﴿فمَن عُفيَ لَهُ من أخيه شيء﴾[٩]. وقال تعالى: ﴿وجزاء سيّئةٍ سـيّئةٌ مـثلُها فـمَن عـفا وأصلح فأجره على الله إنّه لا يُحبُّ الظالمين﴾[١٠].

وقد يكون من المناسب أن نورد هنا جملة من المبادئ والقواعد القانونية في إطار القانون الجنائي، ومنها:

١ ـ لا عقوبة إلّا بنصٍّ خاصّ أو عامّ. قال تعالى: ﴿ وما كنّا معذّبين حتى نَبعثَ رسولاً﴾[١١].

٢ ـ العقوبة على الجاني فقط مباشراً أو متسبّباً. قال تعالى: ﴿ولا تزرُ وازرةٌ وِزرَ أُخرى﴾[١٢].

---

(١) البقرة: ١٩٠. (٢) البقـرة: ١٩٤. (٣) الشورى: ٤٠.
(٤) النـور: ٢. (٥) المائدة: ٣٨. (٦) المائدة: ٣٣.
(٧) النور: ٤. (٨) زبدة البيان: ٦٦٧. (٩) البقـرة: ١٧٨.
(١٠) الشورى: ٤٠. (١١) الإسراء: ١٥. (١٢) ذكرت في خمسة مواضع.

٣ ـ مبدأ المعاملة بالمثل يعتبر ساري المفعول. قال تعالى: ﴿وجزاء سيّئةٍ سيّئةٌ مثلُها﴾[١].

٤ ـ جواز الأخذ بمبدأ العفو في جريمة القتل بالنسبة لوليّ الدم. قال سبحانه: ﴿فمَن عُفي له من أخيه شيء﴾[٢].

(ثانياً) قسم الحقوق العامّة:

١ ـ الحقوق الدستورية:

أقرّت الشريعة والقرآن الكريم ثلاثة مبادئ أساسيــة هي:

أ ـ الحرّية التامّة للناس دون إخلال بالنظام العامّ والآداب أو التجاوز على حدود حرّية الغير، وفي هذا الصدد نجد:

ـ قوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشدُ من الغيّ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿أفأنتَ تُكرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿ولا تعثَوا في الأرض مفسدين﴾[٥].

ب ـ المساواة أمام القانون، فلا امتياز لنسب ولا لطبقة من الناس، قال تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكــم﴾[٦]. وقال تعالى: ﴿خَلقَكم من نفسٍ واحدةٍ﴾[٧].

ج ـ قيام الحكم على أساس الشورى، ونعني به إعطاء الأُمة دور الحكم أو الرقابة والإشراف.

قال تعالى: ﴿وأمرُهم شُورىٰ بـينهم﴾[٨]. وقــال تـعالى: ﴿وشـاورهم فـي الأمـر﴾[٩].

٢ ـ الناحية الإدارية:

وقد أشار القرآن الكريم الى أنَّ لوليّ الأمر فـي الدولة صـلاحيات إداريـة

(١) الشورى: ٤٠. (٢) البقرة: ١٧٨. (٣) البقرة: ٢٥٦.
(٤) يونس: ٩٩. (٥) البقرة: ٦٠. (٦) الحجرات: ١٣.
(٧) الأنعام: ١٨٩. (٨) الشورى: ٣٨. (٩) آل عمران: ١٥٩.

تنفيذية وأنَّ في يده جميع السلطان. قال تعالى: ﴿أطيعوا الله وأطـيعوا الرسـول وأُولي الأمر منكـم﴾[١].

٣ ـ في الناحية المالية العامّة:

حدّد القرآن أنّ الأموال في واقعها هي للأُمّة، وإنّما الحاكم له النيابة فيها.

قال: الامام علي عليه‌السلام: «لو كان المال لي لعدلت فكيف وهو مال الله»؟[٢].

وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿وأنفقوا ممّا جعلكم مستخلفين فيه﴾[٣].

وقـال تـعالى: ﴿فـإنَّ لله خُـمُسَهُ وللـرسولِ ولذي القُـربى واليَـتامى والمساكين ...﴾[٤].

أمّا في مجال الحقوق الخارجية ـ أي في نطاق العـلاقات مـع المـجتمعات الأُخرى ـ فقد أقرَّ القرآن المبادئ والقواعد الآتية:

١ ـ الشعوب متساوية في الحقوق الانسانية:

قال تعالى: ﴿وجـعلناكـم شـعوباً وقـبائلَ لتـعارفوا إنَّ أكـرمَكم عـند اللهِ أتقـاكم﴾[٥].

٢ ـ المعاملة يجب أن تقوم على أساس العـدل:

قال تعالى: ﴿لا ينهاكمُ الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يُخرِجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم﴾[٦]. وقال تعالى: ﴿لا يجرمنّـكم شَنَآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقربُ للتقوى﴾[٧].

٣ ـ المعاهدات محترمة بين الأُمم والدول وهي ملزمـة:

وقال تعالى: ﴿الّذين يُوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾[٨].

---

(١) النساء: ٥٩.
(٢) نهج البلاغة: خطبة رقم ١٢٦ ضبط الدكتور صبحي الصالح.
(٣) الحديد: ٧.
(٤) الأنفال: ٤١.
(٥) الحجـرات: ١٣.
(٦) الممتحنة: ٨.
(٧) المائدة: ٨.
(٨) الرعد: ٢٠.

وقال تعالى: ﴿وَأوفوا بالعهد إنَّ العهد كان مسؤولاً﴾[١].

وقد ذكر العلّامة الطباطبائي أنّ الوفاء بالعهد يشمل الفردي والاجتماعي[٢].

٤ ـ المعاملة بالمثل جائزة، ولا يجوز المحاربة بدون إنذار:

قال تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ولا تعتدوا إنَّ الله لا يحبّ المعتدين﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم﴾[٥].

والى هنا نكون قد بيّنّا الملامح العامّة للنظرية القرآنية، في تقنين المجتمع، على سبيل الاختصار. ويشفع لنا في هذا الإيجاز أننا إنما نريد أن نرسم صورة كلّية. وقد اكتفينا بهذا القدر، ونعتقد أنَّ فيه كفاية إن شاء الله.

والحمد لله ربّ العالمين.

---

(١) الإسراء: ٣٤.

(٢) راجع الميزان: ج ٥ ص١٥٨ ـ ١٦١.

(٣) البقرة: ١٩٤.

(٤) المائدة: ٨٧.

(٥) البقرة: ٨٤.

شـرائـع التوراة التعنّتية

هذا ما كان من أمر التشريع الإسلامي الراقي الـذي جـاء مـثلاً أعـلى فـي التشريع والذي كان يوافق الفطرة السليمة والعقل الرشيد.

وإليك الآن نمادج من تشريعات جاءت في التوراة وكانت تعنّتية يـرفضها العقل وتنبو بها الفطرة، ويتجافاها واقع الحياة، فهناك نفرة ومجافاة، لم يسمح بها خالق الكون ولا رسالاته السمحة السهلة المتلائمة مع واقع الانسـان.

* تشريع التوراة يفرض شريعة الحدّ على البهائـم المهاجمة:

«واذا نطح ثور رجلاً أو امرأةً فمـات يرجم الثـور ولا يـؤكـل لحـمه. وأمـا صاحب الثور فيكون بريئاً. ولكن إن كان ثوراً نطّاحاً من قبلُ وقـد أُشـهد عـلى صاحبه ولم يضبطه فقتل رجـلاً أو امرأةً فالثور يرجم وصاحبه أيضاً يُقتل»[1].

* إله التوراة يكره ذوي العيوب الجسدية أن يقدّموا قرباناً، فيجعل فرقاً بين السليم والسقيم في عبادته.

«وكلّم الربّ موسى قائلاً: كلّم هارون قائلاً: اذا كان رجل مـن نسـلك فـي أجيالهم فيه عيب فلا يتقدّم ليقرّب خُبزَ إلٰهه، لأنّ كلّ رجل فيه عيب لا يتقدّم، لا رجل أعمى ولا أعرج ولا أفطس ولا زوائدي. ولا رجل فيه كسر رجلٍ أو كسر يدٍ. ولا أحدب ولا أكثم ولا من فـي عـينه بـياض ولا أجـرب ولا أكـلف ولا مرضوض الخُصَى. كلّ رجل فيه عيب من نسل هارون الكاهن لا يتقدّم ليـقرب وَقَائِدَ الرب، فيه عيب لا يتقدّم ليقرب خبز إلٰهه. خبز إلٰهـه من قدس الأقـداس ومـن القدس يأكل. لكن الى الحجاب لا يأتي والى المذبح لا يقترب، لأنّ فـيه

---

(١) سفر الخروج: ١ ص ٢١ ع ٢٨.

عيباً، لئلّا يدنّس مقدسي. لأني أنا الربّ مقدسهم. فكلّم موسى هارون وبنيه وكلّ بني اسرائيل»[١].

فتشريع التوراة يحبل من ذوي العيوب الخَلقية أرجاساً وأدناساً، ويتعالى قدسه تعالى عن مقاربة هؤلاء.

تشريع التوراة يفرّق بين ولادة أُنثى وولادة ذكر، فالأُمّ الوالدة نجسة الى اسبوعين اذا ولدت أُنثى، والى اسبوع اذا ولدت ذكراً[٢].

شريعة التوراة تجعل من ذوي العاهات أنجاساً:

«اذا كان انسان في جلد جسده ناتئ أو قوباء أو لمعة تصير في جلد جسده ضربة برص يؤتى به الى هارون الكاهن الى أحد بنية الكهنة. فمتى رآه الكاهن يحكم بنجاسته»[٣].

«واذا كان رجل أو امرأة فيه ضربة في الرأس أو في الذقن يحكم الكاهن بنجاسته، أنها قَرَع في الرأس أو الذقن»[٤].

أحكام قاسية في التوراة

* من مسّ ميّتاً يكون نجساً سبعة أيّام:

«من مسّ مَيّتاً ميتة إنسانٍ مّا يكون نجساً سبعة أيّام. يتطهّر به في اليوم الثالث وفي اليوم السابع يكون طاهراً. وإن لم يتطهّر في اليوم الثالث ففي اليوم السابع لا يكون طاهراً».

«هذه هي الشريعة، اذا مات انسان في خيمة فكلّ من دخل الخيمة وكلّ من كان في الخيمة يكون نجساً سبعة أيّام».

«وكل اناء مفتوح ليس عليه سداد بعصابة فانه نجس».

«وكلّ من مسّ قتيلاً أو ميتاً أو عظم انسان أو قبراً يكون نجساً سبعة أيّام»[٥].

---

(١) سفر لاويين: ١ ص ٢١ ع ١٦ ـ ٢٤.
(٢) لاويين: ١ ص ١٢ ع ١ ـ ٧.
(٣) لاويين: ١ ص ١٣ ع ١ ـ ٣.
(٤) لاويين: ١ ص ١٣ ع ٢٩.
(٥) سفر العدد: ١ ص ١٩ ع ١١ ـ ١٦.

* المرأة الطامث نجسـة ونجس كلّ ما تليه:

«واذا كانت امرأة لها سيل وكان سيلها دماً في لحمها فسبعة أيّام تكون فـي طمثها، وكلّ من مسّها يكون نجساً الى المساء، وكل ما تضطجـع عليه في طمثها يكون نجساً، وكلّ ما تجلس عليه يكون نجساً، وكلّ من مسّ فراشها يغسل ثيابه ويستحمّ بماءٍ ويكون نجساً الى المســاء».

«وان اضطجـع معها رجل فكان طمثها عليه يكون نجساً سبعة أيّـام. وكـلّ فراش يضطجـع عليه يكون نجساً»[1].

* «كلّ انسان سبّ أباه أو أُمّـه فانه يُقتل،قد سبّ أبـاه أو أُمّـه دمه عليه»[2].

* «واذا كان في رجـل أو امـرأة جـانٌّ أو تـابعة فـإنّـه يُـقتل، بـالحجارة يرجمونه»[3].

* الشعوبية بادية على شريعة التوراة الحاضرة:

* الجثّة (الميتة وكلّ ما ذبح على غير الطريقة الشرعية) لا يأكلها إسرائيلي، بل يدفعها الى الأجنبي الغريب، ذلك أنَّ الاسرائيلي شعب مقدّس يترفّع عن أكل الجث.

«لا تأكلوا جثةً ما. تعطيها للغريب الذي في أبوابك فيأكلها أو يبيعها لاجنبي. لأنـك شعب مقدّس للربّ إلٰهك...»[4].

* اذا عسر على أخيك الاسرائيلي أداء دَينه فابرأه،لكن الأجنبي تطالبه بشدّة.

«لا يُطالب صاحبه ولا أخاه، لأنه نودي بإبراء للربّ. الأجنبي تطالب. وأمّا ما كان لك عند أخيك فتبرئـه يَدَكَ منه»[5].

* المملوك العبراني يطلق سراحـه بعد ستّ سنين[6].

* تحريم الزنا واللواط خاصّ بالاسرائيلي[7].

---

(١) لاويين: ج ١ ص ١٥ع ١٩ ـ ٣٤. (٢) لاويين: ١ ص ٢٠ ع ٩.
(٣) لاويين: ١ ص ٢٠ ع ٢٧. (٤) التثنية: ١ ص ١٤ ع ٢١. (٥) التثنية: ١ ص ١٥ ع ٣.
(٦) التثنية: ١ ص ١٥ ع ١٢. (٧) التثنية: ١ ص ٢٣ ع ١٧.

القوانين الرومانية

هناك زعمٌ زعمه البعض: أنّ التشريعات الإسلامية أساسها التشريع الروماني القديم. لأنّه هو الأساس لسائر التشريعات البشريّة في العالم المتمدّن، سواء في الشرق أم الغـرب. ومنها التشريع الإسلامي، أيضاً مأخوذ من تشريعات الرومان، الموروثة حينذاك ..

قال ول ديورانت: كان القانون أخصّ خصائص الروح الرومانية، وأبقى مظهر من مظاهرها، وكانت رومـا مضرب المثل في النظام .. ولقد أورثـتنا شـرائـعها وتقاليدها الإدارية لتكون هي أُسس النظام الاجتماعي، كما أورثتنا بلاد اليونان الديمقراطية والفلسفة اللتين كانتا أساس الحرّية الفردية. وأهمّ مـا يـجب عـلى الساسة ورجال الحكم . هو أن يجمعوا بين هذين التراثين المختلفين المتنافرين ويوحّدوا بينهما، ويؤلّفوا من نغماتهما المتعارضة المنشطة نغماً مؤتلفاً منسجماً[1].

قلت: كلامه هذا وإن كان صحيحاً فيما يعود الى بلاد اروبا (الغـرب) فإنَّ جلّ تشريعاتهم وقوانينهم متشعّبة من قوانين وأنظمة الرومان ومأخوذة منها لا محالة حيث لم يكن هناك أيّ تشريع سواها، ولم يتسّرب إليها قانون ولا نظام من غير زاوية الرومان .

أمّا الشرق وبلاد آسيا ـ ولا سيّما الشرق الأوسط ـ فكان منبعث التشريعات والقوانين والأنظمة، سواء البشرية منها والسماوية .

---

(١) قصّة الحضارة: ج ١٠ ص ٣٥٨ باب ١٨ (القانون الروماني).

وكان الشرق الأوسط قد سبق العالم كلّه في التشريع وسنّ القوانين، ولا موجب لاستناد التشريعات الآسيوية ـ سواء البعيدة منها أو المتوسّطة ـ الى تشريع الرومان المتأخّر، والبعيد عنها أُفقاً وثقافةً وفي سائر أبعاد الحياة.

هذا، ولا سيّما التشريع الإسلامي المترفّع كلّ الترفّع عن أيّ تشريع بشري، رومانياً كان أم غيرها. وإليك طرفاً من التشريع الروماني البعيد عن روح التشريعات الإسلامية كلّ البُعد:

* * *

كان الكهنة وحدهم الذين يعرفون القوانين والسنن التي لا يكاد يستطاع عمل شيء مشروع إلّا باتّباعها، وكانوا في روما هم المستشارين القانونيين. وكانوا هم أول من يبدي الرأي القانوني في مهامّ الأُمور. وكانت القوانين تسجّل في كتبهم، وكانوا يحتفظون بهذه الكتب بعيدة عن متناول العامّة. وبلغ من حرصهم عليها أن اتّهموا في بعض الأحيان بتغيير نصوص القوانين لكي تتّفق مع أغراض الأشراف أو رجال الدين[1].

ومن ثمّ كانت الخطوة التي خطاها مجلس العامّة في سبيل نيل حقوقهم أن طالبوا بأن تكون القوانين المدنية واضحة محدودة مدوّنة. وعارض مجلس الشيوخ في هذه المطالب الجديدة معارضة طويلة، ولكنّه وافق في آخر الأمر (عام ٤٥٤) على أن يرسل الى بلاد اليونان لجنة مؤلّفة من ثلاثة من الأشراف، لدراسة شرائع صولون وغيره من المشرّعين، وكتابة تقرير عنها. فلمّا عاد الأعضاء اختارت الجمعية عشرة رجال لوضع قانون جديد، وخوّلتهم أعلى سلطة حكومية في روما مدى سنتين. وكان رئيس اللجنة رجلاً رجعياً قويّ الشكيمة يدعى: ابيوس كلوديوس.

وكانت نتيجة أعمالها أن حوّلت قوانين روما القديمة القائمة على العادة

(١) قصّة الحضارة: ج ٩ ص ٦٨.

والعرف الى الاثنتي عشرة لوحة، وعرضت على الجمعية فوافقت عليها بعد أن عدّلتها بعض التعديل، وعرضتها في السوق العامّة لمن يريد أن يقرأها[١].

* * *

وكانت مجموعة القوانين التي تحتويها الألواح الاثنا عشر من أشدّ القوانين التي شهدها التاريخ، ذلك أنها كانت تحتفظ بالسيطرة الأبويّة الكاملة القديمة التي كانت للأب في المجتمعات الزراعية العسكرية. فكان يسمح للأب ـ بمقتضاها ـ أن يجلد ابنه أو يربطه بالأغلال أو يسجنه أو يبيعه أو يقتله. وكلّ ما قيّد به سلطة الأب أن يحرّر الابن من سيطرة أبيه اذا بيع هذا الابن ثلاث مرّات .

واحتفظ القانون بما بين الطبقات من فروق، بتحريم الزواج بين الأشراف والعامّة. وكان للدائنين على المدينين حقوق مطلقة من كلّ قيد. كما كان للمُلّاك الحرّية الكاملة في أن يتصرّفوا في أملاكهم عن طريق الوصيّة. وكانت حقوق الملكية تبلغ من القداسة حدّاً يجعل السارق الذي يضبط متلبّساً بجريمة السرقة عبداً للمسروق منه.

* * *

وكانت العقوبات تتفاوت، من الغرامة البسيطة الى النفي أو الإسترقاق أو الإعدام. ومنها ما يجري بطريق القصاص. وكثيراً مّا كانت الغرامات تحدّد تحديداً دقيقاً حسب طبقة المعتدى عليه. كانت عقوبة كسر عظام الحرّ ٣٠٠ آس[٢]، وكسر عظام العبد ١٥٠ آساً. وكان القذف، والرشوة، والحنث في الأيمان، وسرقة المحصولات الزراعية، وإتلاف غلّات الجار ليلاً، وخديعة المحامي للمتقاضيين، وممارسة السحر، ودسّ السمّ في الطعام، والاغتيال، والاجتماع في المدينة ليلاً لتدبير الفتن والمؤامرات ...كانت هذه كلّها يعاقب عليها بالإعدام، وكان الابن

---

(١) قصّة الحضارة: ج ٩ ص ٥٠ ـ ٥١.

(٢) الآس عملة رومانية من النحاس كانت قوة شرائها في عام ١٩٤٢ تساوي ٦/١٠٠ من الريال الأمريكي (الدولار الأمريكي). قصّة الحضارة: ج ٩ ص ٥٧.

الذي يقتل أباه يوضع في كيسٍ ـ ومعه في بعض الأحيان ديك أو كلب أو قرد أو أفعى ـ ويلقى في النهر [١].

وظلّ الزنا من الجرائم الصغرى اذا ارتكبه الرجل، أمّا اذا ارتكبته المرأة فكان يعدّ من الجرائم الكبرى ضدّ أنظمة الملكية والميراث. ولكن الزوج لم يبق له وقتئذٍ حقّ قتل زوجته اذا ضبطها متلبّسة بجريمة الزنا، بل أُعطي هذا الحقّ لأبيها اسماً وللمحاكم فعلاً. وكان عقابها هو النفي.

وكان القانون يعترف بالتسرّي بديلاً من الزواج لا مصاحباً له. ولم يكن يجيز للرجل أن تكون له خطبتان في وقت واحد. ولم يكن أبناء السرايا يعدّون أبناء شرعيين أو يجعل لهم حقّ الإرث. ومن أجل ذلك كان اتّخاذ السراري أمراً محبّباً كلّ الحبّ للرجال الذين يتكالب عليهم من يسعون لأن يوصى لهم بأملاكهم [٢].

وكان القانون يحرم على كلّ روماني يملك مائة ألف سسترس (ما يعادل ١٥٠٠٠ دولار أمريكي) أو أكثر أن يوصي بأيّ جزء من ثروته لامرأةٍ [٣].

* * *

كان الشخص الأول في القانون الروماني هو المواطن. وكان تعريفه عندهم هو الشخص الذي ضمّ الى إحدى القبائل الرومانية بحكم المولد أو التبنّي أو العتق أو المنحة من قبل الحكومة.

وكان الذي ينطبق عليهم هذا التعريف ينقسمون إلى ثلاث درجات:

١ ـ المواطنون الكاملون الذين يتمتّعون بالحقوق الأربعة: حقّ الاقتراع، وحقّ التوظّف، وحقّ الزواج من حرّة بمولدها، وحقّ الدخول في تعاقد تجاري يحميه القانون.

٢ ـ المواطنون الذين لا حقّ لهم في الاقتراع. وهم يتمتّعون بحقّ الزواج

---

(١) قصّة الحضارة: ج ٩ ص ٧٠.

(٢) المصدر السابق: ج ١٠ ص ٣٦٩.

(٣) المصدر السابق: ج ١٠ ص ٣٧٥.

والتعاقد، لكنهم لا حقّ لهم في الاقتراع ولا في تولّي المناصب.

٣ ـ المعاتيق الذين يتمتّعون بحقّ الاقتراع وحقّ التعاقد. ولكنهم لا حقّ لهم في الزواج بحرّة أو في تولّي المناصب.

وكان للمواطن الكامل المواطنية ـ فضلاً عن حقوقه السالفة الذكر ـ حقوق يضمنها له القانون الشخصي ولا يشاركه فيها سواه، كحقّ الأب على أبنائه، والزوج على زوجته، والمالك على مماليكه، وحقّ الرجل الحرّ على غيره اذا تعاقد معه.

وكان ثمّة نوع آخر من الحقوق، هو حقّ المواطنية الإمكانية أو حقّ الدخول في الحظيرة اللاتينية، تمنحه روما للأحرار من سكّان المدن أو المستعمرات المفضّلة، ويعطيهم حقّ التعاقد، ولكنه لا يعطيهم حقّ التزاوج بالرومانيات[1].

وكان عنوان «الشخص» لا يطلق على العبيد إطلاقاً، ومن ثمّ لم تكن تشملهم قوانين الأحوال الشخصية.

قال ول ديورانت: أمّا العبد فلم تكن له حقوق قانونية على الإطلاق، وكان القانون يتردّد في أن يطلق عليه لفظ الشخص، وأخيراً سمّاه إنساناً غير شخص. وكان يعدّ من قبيل المتاع، فلم يكن له حقّ أن يمتلك أو يرث أو يورّث، ولم يكن يستطيع أن يتزوّج زواجاً شرعيّاً. وكان أبناؤه كلّهم يعدّون أبناءً غير شرعيين، كما أنّ أبناء الجارية كانوا يعدّون كلّهم عبيداً، ولو كان أبوهم من الأحرار[2].

ولم يكن في مقدور العبد أن يقاضي من يؤذيه أمام المحاكم، إنما كان ذلك لسيّده.

وكان للسيّد أن يضرب عبيده أو يسجنهم أو يحكم عليهم أن يقاتلوا الوحوش في المجتلد، ويعرّضهم للموت جوعاً أو يقتلهم لسبب أو لغير سبب. واذا أبق العبد

---

(١) قصّة الحضارة: ج ١٠ ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧.
(٢) المصدر السابق: ص ٣٧٠ ـ ٣٧١.

ثمّ قبض عليه كان في مقدور السيّد أن يكويه بالنار أو يصلبه. واذا ما استفزّ العبد فقتل سيّده قضى القانون بأن يقتل جميع عبيد المقتول[١].

وكانت القوانين تحكم على السارق الذي يُضبط بالضرب، ثمّ يجعل بـعدئذٍ عبداً لمن سرق منه. فاذا كان السارق عبداً ضرب ثمّ اُلقي به من فوق صخرة.

ثمّ خفّف القانون هذه العقوبات القاسية بأن فرض عليه أن يردّ الى المسروق منه ضعفَي ما سرقه أو ثلاثة أضعافه أو أربعة أضعافه[٢].

وكان القانون يحرّم قتل الأبناء إلّا اذا كانوا مشـوّهين أو مـصابين بـمرضٍ مستعصٍ على العلاج. وكان عقاب من يجهض حاملاً أن يـنفى مـن البـلاد وأن تصادر أملاكـه.

وكان الأبناء أيّاً كانت سنّهم يبقون تحت سلطان أبيهم إلّا اذا بـاعهم عـبيداً ثلاث مرّات.

وكان الابن اذا تزوّج في حياة أبيه كانت ولاية أبنائه لجدّهم[٣].

وكان الطفل يجد نفسه وقد اندمج كلّ الاندماج في أخصّ النظم الرومـانيـة الأساسيّة وأقواها أثراً وهو نظام الأُسرة الأبويّة. وتكـاد سـلطة الأب فـي هـذه الأُسرة أن تكون سلطة مطلقة من كلّ القيود، كأنما الأُسرة قد نظمت لتكون وحدة عسكرية من جيش في حرب دائمـة. وكان الأب وحده دون سائر أفراد الأُسرة هو الذي له حقوق قانونية في عهد الجمهورية الأول، فهو وحده الذي كان من حقّه أن يشتري المُلك ويحتفظ به أو يبيعه، وأن يتعاقد باسمه، وحتى بـائنة الزوجـة كانت في ذلك العهد مُلكاً له. واذا ما اتّهمت زوجته بجريمة اُحيلت إليه ليحاكمها ويعاقبها بنفسه، وكان في مقدوره أن يحكم عليها بالإعدام اذا خانته أو سـرقت مفاتيح خزائن خمره.

---

(١) قصّة الحضارة: ج ١٠ ص ٣٧٠ ـ ٣٧١.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٧٧.

(٣) المصدر السابق: ص ٣٧٠.

وكان له على أبنائه حقّ الحياة والموت أو بيعهم في الأسواق بيع الرقيق. وكان كلّ ما يكسبه الابن يصبح في نظر القانون مُلكاً خالصاً لأبيه. ولم يكن من حقّه أن يتزوّج من غير موافقة والده. وكانت البنت اذا تزوّجت بقيت تحت سلطان أبيها، إلّا اذا سمح لها أن تتزوّج زواجاً يسلّمها الى يد زوجها أو وضعها تحت سلطانه. وكان له على عبيده سلطة لا حدّ لها، فكان هو وزوجته وأبناؤه مُلك يده.

وكان يحرم على المرأة أن تظهر في دار المحكمة[1] ولو كانت شاهدة. واذا مات زوجها لم يكن لها أن تطالب بأيّ حقّ لها في ماله، وكان له اذا شاء أن يحرمها من أن ترث شيئاً من هذا المال. وكانت في كلّ أدوار حياتها تحت رقابة رجل ـ أبيها أو أخيها أو زوجها أو ابنها أو وصيّ عليها ـ لا تستطيع أن تتزوّج أو تتصرّف في مالها بغير رضاه.

لكنها كان من حقّها أن ترث، وإن حُدّد هذا الميراث بما لا يزيد على مائة ألف سسترس (أي نحو ١٥/٠٠٠ دولار أمريكي). أمّا التملّك فلم يكن مقيّداً بحدٍّ أقصى[2].

* * *

هذا طرف من قانون الأحوال الشخصية الذي سنّه التشريع الروماني ذلك العهد، وقد عمّ أرجاء بلاد الغرب الى وقت قريب.

غير أنّه يتنافى كلّ التنافي مع روح القوانين الإسلامية في جميع مجالات التشريع، منذ بدء تكوينه فإلى الأبد، ولنذكر نماذج منه:

---

(١) قصّة الحضارة: ج ٩ ص ١١٩.

(٢) المصدر السابق: ص ١٢٠.

لا شعوبية في الإسلام

﴿يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثى وجلعناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنّ الله عليمٌ خبير﴾[1].

جاء الخطاب عامّاً لجميع الناس، لايخصّ أُمّةً دون أُخرى، ولا شعباً دون شعب، بل الناس كلّهم سواء في هذا النداء.وهذه السواسية جاءتهم من قبل الولادة، كلّهم من نسلٍ واحد ومن أصلٍ واحد، من ذكرٍ وأُنثى هما: آدم وحوّاء.

الناس من جهة التمثال أكفاء ... أبوهم آدم والأُمّ حوّاء

وإنّما اختلفوا شعوباً وقبائل، حسب اختلاف المناطق التي ارتحلوا إليها، واختلاف عاداتهم ورسومهم، واختلاف ثقافاتهم، ومن ثمّ اختلاف ألسنتهم وبيئتهم التي يعيشونها. وإنّ هذا الاختلاف كان نتيجة رحلاتهم في أرجاء الأرض بسبب تكثّرهم وازدحام مطاليبهم في الحياة، ومن ثمّ تفرّقوا في البلاد لطلب الميرة واكتساب الأرزاق، فكانت تلك الاختلافات نتيجة تلكمُ الرحلات.

لكن هذا الاختلاف في البيئة والثقافة وستتبعاتهما هل يستدعي اختلافاً في النسب والأصالة الذاتية، الكائنة في كلّ أبناء آدم وحوّاء ؟ كلّا ثمّ كلّا .

نعم،إنّ الذي يفيده هذا الاختلاف في المعيشة وأسبابها وسائر أنحاء الاختلاف إنّما يفيد تعارفاً وتفاهماً بين الشعوب، فتتعرّف كلّ أُمّة ما اكتسبته أُمّة

---

(١) الحجرات: ١٣.

أُخرى من علوم ومعارف وفنون، وآداب وأخلاق وسلوك، فيختاروا أحسنها وأنسبها بالحالة التي هم عليها. ﴿فبشّر عباد * الذين يستمعون القولَ فيتّبعون أحسنه﴾[1].

فلا فضل لأُمّة على أُختها ولا شعب على آخر، إلّا بمقدار تعهّداتها في الحياة، ورعايتها للكرامة الانسانية العليا. لاشرف إلّا بالتقوى وهو التعهّد بمبادئ الانسانية الكريمة، على شرط أن لا يفخر المتفضّل على غير، وإنّما يترحّم عليه لينتشله ويأخذ بيده صُعُداً على مدارج الكمال.

قال سيد قطب: القرآن يهتف بالانسانية جميعها على اختلاف أجناسها وألوانها، ليردّها الى أصل واحد، والى ميزان واحد، هو الذي تقوم به تلك الجماعة المختارة الصاعدة الى ذلك الأُفق السامق.

يا أيّها الناس المختلفون أجناساً وألواناً، المتفرقون شعوباً وقبائل، انكم من أصل واحد. فلاتختلفوا ولا تتفرقوا ولا تخاصموا ولا تذهبوا بدداً.

«يا أيّها الناس» والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم «من ذكر وأُنثى» وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم «شعوباً وقبائل» إنها ليست التناحر والخصام، إنّما هي التعارف والوئام. فأمّا اختلاف الألسنة والألوان واختلاف الطباع والأخلاق واختلاف المواهب والاستعدادات فتنوّع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات. وليس للّون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله. إنّما هناك ميزان واحد تتّحد به القيم، ويعرف به فضل الناس: «إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم» . والكريم حقّاً هو الكريم عند الله ، وهو يزنكم عن علم وخبرة بالقيم والموازين. «إنّ الله عليمٌ خبير».

وهكذا تسقط جميع الفوارق، وتسقط جميع القيم، ويرتفع ميزان واحد بقيمة

(١) الزمر: ١٧ و١٨ .

واحدة، والى هذا الميزان يتحاكم البشر، والى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان.

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض، وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس، ويظهر سبب ضخم واضح للأُلفة والتعاون: أُلوهية الله للجميع، وخلقهم من أصل واحد.

كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته: لواء التقوىٰ في ظلّ الله.

وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبيّة للجنس، والعصبية للأرض، والعصبية للقبيلة، والعصبية للبيت. وكلّها من الجاهلية وإليها، تتزيّا بشتى الأزياء، وتسمّى بشتى الأسماء. وكلّها جاهلية عارية من الاسلام.

وقد حارب الإسلام هذه العصبية في كلّ صورها وأشكالها، ليقيم نظامه الانساني العالمي في ظلّ راية واحدة: راية الله، لا راية الوطنية، ولا راية القومية، ولا راية البيت، ولا راية الجنس. فكلّها رايات زائفة لا يعرفها الاسلام.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كلّكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب. ولينتهينّ قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونوا أهون على الله تعالى من الجعائل»..

وقال صلى الله عليه وآله عن العصبية الجاهلية: «دعوها فإنها منتنة».

وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي، المجتمع الانساني العالمي، الذي تحاول البشرية في خيالها المحلّق أن تحقق لوناً من ألوانه فتخفق، لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد المستقيم، الطريق الى الله، ولأنها لا تقف تحت الراية الواحدة المجمعة: راية الله[1].

* * *

وروي: أنّ النبي صلى الله عليه وآله خطب الناس يوم فتح مكّة، وهو على راحلته، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله. ثمّ قال:

---

(١) تفسير في ظلال القرآن: ج ٢٦ ص ١٤١، مجمع البيان: ج ٧ ص ٥٣٧.

«أيّها الناس إنّ الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظّمها بآبائهم. فالناس رجلان: رجل برّ تقيّ كريم على الله، ورجل فاجر شقيّ هيّن على الله تعالى. إنّ الله عزّوجلّ يقول: ﴿يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. ثم قال: أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم»[1].

وفي رواية أُخرى: خطبهم فقال:

«يا أيّها الناس إنّ الله قد أذهب عنكم بالإسلام نخوة الجاهليّة وتفاخرها بآبائها. إنّ العربية ليست بأبي والدٍ وإنّما هو لسان ناطق، فمن تكلّم به فهو عربيّ. ألا إنكم من آدم، وآدم من التراب، وإنّ أكرمكم عند الله أتقاكم»[2].

---

(١) تفسير المراغي: ج ٩ ص ١٤٤ والآية ١٣ من سورة الحجرات.

(٢) تفسير الصافي للمولى الفيض الكاشاني: ج ٢ ص ٥٩٤ ـ ٥٩٥.

الإسلام يرفض الطبقية

الناس جميعاً تجاه القانون الإسلامي سواء، لا فرق بين شريف ووضيع، ولا يفضل أمير على سوقي أمام المحاكم القضائية ولا في الأحوال الشخصية وغيرها في الحقوق والجزاء، فالحقوق سواء والعقوبات سواء.

وهذا النظام الطبقي الذي سنّه قانون الرومان ـ وعلى غراره سائر القوانين ولا يزال ـ مرفوض في نظام الإسلام العادل. وليس لأيّ مواطن في ظلّ الحكم الإسلامي فضيلة ولا رفعة على مواطن آخر، من الوجهة القانونية بوجه عام.

وقد مرّ عليك حديث: «إنّ العربيّة ليست بأبي والدٍ وإنّما هو لسان ناطق». قاله الرسول الأعظم ﷺ يوم غلّب الإسلام كلّه على الشرك كلّه، يوم فتح مكّة المكرّمة.

فليست الرومانية ولا الفارسية ولا العربية بذات أصالة في قاموس الاسلام، لأنّ الرومانية والفارسية والعربية وغيرها من لغات الأقوام إنما هي ألسنة ولغات، فمن تكلّم بها صار من ذويها، سواء أكانت ولادته في نفس البلاد أم في خارجها، بعد أن كانت هذه أُمور اعتبارية محضة وليست بذات أصالة.

فلا فضل لعربيّ على عجميّ، ولا لأبيض على أسود، إذ لا فضل للغة على لغة ولا للون على لون، لأنها اعتباريّات.

إذاً لا يعترف القانون ـ فضلاً لأحد على آخر ـ من أيّ امّة كان وبأيّ لغة تكلّم.

كما أنّ في ظلّ الحكم الإسلامي كان الجميع سواء في الاقتراع والتزاوج والتوظف والتجارة وسائر الشؤون الاجتماعية، السياسية والانتظامية والاقتصادية والثقافية، وغيرها.

قال رسول الله ﷺ في خطبة خطبها:

«انّ الناس من آدم الى يومنا هذا مثل أسنان المُشط، لا فضل للعربي على العجمي، ولا للأحمر على الأسود إلّا بالتقوى».

قالها على أثر قولة بعض الصحابة حيث رأى من النبي والمسلمين تجليلاً بمقام سلمان فقال: مَن هذا العجميّ المتصدّر فيما بين العرب. فسمعها رسول الله ﷺ وخطب خطبته تلك.

ثمّ قال ـ تعقيباً عليها ـ: سلمان بحر لاينزف، وكنز لا ينفد. سلمان منّا أهل البيت وسلسل يمنح الحكمة ويؤتي البرهان[١].

---

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٣٤٨ رقم ٦٤ عن اختصاص المفيد: ص ٣٤١، نفس الرحمان في فضائل سلمان: ص ٢٩.

الحرّيــة والمســاواة
في ظلّ الاســلام

الإسلام يرى أنّ الناس كلّهم جميعاً خُلقوا أحرار، وليعيشوا أحراراً، وليتمتّعوا بحقوق الانسانية جميعاً سـواء قال علي عليه السلام: النـاس كلّهم أحرار[1].

لكلّ إنسان حقّ الانتخاب، وحقّ الرأي والنظر في الأُمور العامّة وكـذا فـي الشؤون الخاصّة، على سواء، ليس هناك سادة ولا رعـايا، بـما تـحويه هـاتان الكلمتان من معنى في الأعراف القديمة، وربما لايزال.

فكل إنسان له حقّ وعليه حقوق، سواء الذكر والأُنثى، والسادة والسوقة، وما الى ذلك من فوارق في الجنسية أو في الصنف والوصف، ممّا لا يوجب ميزاً في القانون الإسلامي بين أفراد بني الانسان.

الإسلام يرى بني نوع الانسان أعضاء بـدن واحـد وأشـلاء جسـد واحـد ﴿بعضكم من بعض﴾[2].

الإسلام لا يفضل حرّاً على عبد، ففي الحديث: من قتل عبده قـتلناه، ومـن جدع عبده جدعناه، ومن أخصى عـبده أخـصيناه[3]. أنـتم بـنو آدم وآدم مـن تراب[4].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله فيما روي عنه:

---

(١) الوسائل: ج ٢٣ ص ٥٤ باب ٢٩ كتاب العتق رقم ١. (٢) النسـاء: ٢٥.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي (راجع شبهات حول الاسلام: ص ٣٣).

(٤) رواه مسلم وأبو داود (راجع المصدر السابق).

ألا لا فضل لعربيّ على أعجميّ، ولا لأعجميّ على عربيّ، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلّا بالتقوى[١].

وفي حديث: أنّه ﷺ رأى رجلاً ركب وخلفه عبده يجري فقال له: احمله خلفك فانه أخوك وروحه مثل روحك[٢].

وفي ذلك يقرّر أنّ العلاقة بين السادة والعبيد ليست علاقة الاستعلاء والاستعباد، أو التسخير والتحقير، وإنّما هي علاقة القربىٰ والاخوّة، فالسادة أهل للجارية يستأذنون في زواجها:

﴿فممّا ملكت أيمانكم من فتياتكمُ المؤمنات بعضكم من بعض فانكحوهنّ بإذن أهلهنّ وآتوهن أُجورهنّ بالمعروف﴾[٣].

ففي الحديث: لا يقل أحدكم: هذا عبدي هذه أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي[٤].

* * *

انظر الى هذه الرأفة والشفقة بشأن العبيد والإماء ذلك العهد الذي كان يئنُّ المماليك منه تحت ضغط الموالي ولا يرون للعبيد شأناً في الحياة ولا كرامةً في الانسانية . وقد كانت الأمم الأُخرى كلّها تعتبر الرقيق جنساً آخر غير جنس السادة، إنّما خُلق ليُستعبد ويُستذلّ ويُستحقر، فكانوا يعاملونهم معاملة الأمتعة الرذيلة لا الثمينة . ومن ثمّ كانت ضمائرهم لا تتألّم من قتل العبيد أو تعذيبهم ـ كما مرّ عليك في قانون الرومان ـ وهكذا كان الهنود يعتقدون أنّ الرقيق خُلقوا من قدم الإله، ومن ثمّ فَهُمْ بخلقتهم حقراء مهينون، ولا يمكن أن يرتفعوا عن هذا الوضع المقدّر لهم[٥].

* * *

(١) أخرجه الطبري في آداب النفوس (راجع المصدر السابق: ص ٣٤).

(٢) المصدر السابق.

(٣) النساء: ٢٥.

(٤) شبهات حول الاسلام: ص ٣٤.

(٥) المصدر السابق: ص ٣٥.

أمّا مسألة الرقّية فلم يعترف بها الإسلام ـ منذ أوّل يومـه ـ كما كانت عـليه الأُمم حينذاك. كان العالم المتمدّن يومذاك يرى من اللون والجنسية دليـلاً على الرقّية، وإنّ ذا اللون الأسود أو المتغيّر أو العائش في بلاد نـائية عـن الأوسـاط المتمدّنة إنّما خلق ليكون مملوكاً للانسان الأبيض العائش في أوسـاط البـلاد. فالافريقيّ بطبعه حرّ وخُلق حرّاً وليكون سيداً مالكاً، أمّا الافريقيّ، فهو بذاته قنّ وعبد مملوك وخُلق لخدمة الأحرار، وربما لا يستحقّ إطلاق اسم الانسان عليه.

ومن ثمّ كانت أفواج الافريقيّين تساق الى بلاد حوزة البحر المتوسط، وتباع هناك بأثمان بخـس. وكان الافريقيّون يصادون كما يصاد الحيوان الوحش لأجل الاستخدام والعرض في أسواق العالم.

هكذا كان قسط كبير من عالم الانسان، يهان به ويعتبر أخسّ من الحيوان بل النبات والجماد، فلا يعتبر إنساناً أصلاً.

هكذا كان يفعل العالم المتمدّن يومذاك، ويسيء العمل بين نوعه، لا لشيء إلّا لقضية اللون والبُعد عن أوساط البلاد.

الإسلام لم يعترف بـهكذا اسـترقاق، وبـهكذا عـمل وحشـي مـلؤه الظـلم والاستكبار المقيت.

ومن ثمّ نراه ـ في كثير من مجالات الشريعة ـ فتح الباب بـمصراعـيه أمـام تحرّر المماليك بشكل مطّرد.

* * *

قام الإسلام بالتحرّر الروحي ـ في الأرقّاء ـ قبل قيامه بتحرّرهم الجسمي، فقد جعلهم متساوين مع السادة في الروح والانسانية وسائر الحقوق، هذا أولاً. ثمّ مهّد السبيل لتحرّرهم الواقعي بشتّى أنحائه الممكنة يومذاك. فقد قرّر صرف قسط كبير من الصدقات في سبيل تحرير الأرقّـاء:

﴿إنما الصدَقاتُ للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قـلوبُهم وفـي

الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضةٌ من الله والله عليمٌ حكيم﴾[1].

كما حثّ على إعتقاهم في سبيل الله وجعله من البرّ الذي يستدعيه الإيمان بالله واليوم الآخر:

﴿ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيّين وآتى المال على حُبّهِ ذوي القُربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وَأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضرّاء وحين البأس أُولئك الذين صدَقوا وأُولئك هم المتّقون﴾[2].

قال الطبرسي: قوله تعالى: «وفي الرقاب» فيه وجهان، أحدهما: عتق الرقاب بأن يشتري ويعتق، والآخر: في رقاب المكاتبين. والآية محتملة للأمرين، فينبغي أن تُحمل عليهما[3].

فمعنى قوله: «وفي الرقاب» هو صرف المال في سبيل الإعتاق بأيّة وسيلة كانت .

وقال تعالى: ﴿فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فكّ رقبة * أو إطعامٌ في يومٍ ذي مسغبة * يتيماً ذا مقربة * أو مسكيناً ذا متربة * ثمّ كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة * أُولئك أصحاب الميمنة﴾[4].

العقبة كناية عن ركوب الصعاب، والمراد هنا: المشقّة على النفس، وذلك ببذل المال في سبيل الله، الذي هو دليل الإيمان الصادق .

فأول ما بدأ به فكّ الرقاب. قال العلّامة الطباطبائي: لكمال عناية الدين بفكّ الرقاب[5].

وأيضاً فمن العناية بشأن فكّ الرقاب جعله كفّارة لبعض الآثام، كقتل الخطأ

---

(١) التوبة: ٦٠. (٢) البقرة: ١٧٧. (٣) مجمع البيان: ج ١ ص ٢٦٣.
(٤) البلد: ١١ ـ ١٨. (٥) الميزان: ج ٢٠ ص ٣٢٢.

والحنث في الأيمان والإفطار في شهر رمضان ونحو ذلك، ممّا ينبؤك عن حرص الإسلام على فكّ الرقاب بأيّة وسيلة متاحة وفي أيّة فرصة ممكنة، وذلك تمهيداً للقضاء على قضية الاسترقاق نهائياً.

فممّا جاء في قتل الخطــأ قوله تعالى:

﴿وما كان لمؤمنٍ أن يَقتُل مؤمناً إلّا خطأً ومن قَتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنــة وديةٌ مُسلّمةٌ الى أهله إلّا أن يصّدّقوا فإن كان من قوم عدوٍّ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنــةٍ وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاقٌ فدية مسلّمة الى أهله وتحريرُ رقبة مؤمنةٍ فمن لم يجد فصيامُ شهرين متتابَعين توبةً من الله وكــان اللهُ عليماً حكيماً﴾[1].

انظر الى هذا التأكيد والتكرار في مسألة تحرير الرقاب، وجعلها أول ما بدئ به من كفّارة القتل.

وكفّارة قتل العمد ـ ولو كان المقتول مملوكاً له أو لغيره ـ هــي الجــمع بــين الخصال: تحرير رقبة، وصيام شهرين متتابعين، وإطعام ستين مسكيناً[2].

* * *

حتى لقد ورد: أنّ من ضرب مملوكــه ـ ولو بحقّ ـ فعليه أن يعتقه، كفّارة لذنبه الذي ارتكبه[3].

وفي كفّارة حنث الأيمان:

﴿لا يؤاخذكمُ الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذ كم بما عـقدتم الأيــمان فكفّارته إطعام عشرة مساكيــن من أوسط ما تُـطعِمون أهــليكم أو كِســوتهم أو تحرير رقبــةٍ فمن لم يجد فـصيام ثـلاثةُ أيّـام ذلك كـفّارةُ أيـمانكم اذا حــلفتم

(١) النســاء: ٩٢.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٢٢ ص ٣٩٨ باب ٢٨ من أبواب الكفّارات. وص ٤٠٠ بــاب ٢٩ مـنها (طبعة مؤسســة آل البيت).

(٣) المصدر السابق: باب ٣٠ ص ٤٠١.

واحفظوا أيمانكم كذلك يبيّن اللهُ لكم آياته لعلّكم تشكرون﴾[١].

قال الطبرسي: أي كفّارة ما عقدتم اذا حنثتم . واستغنى عن ذكره لأنّه مدلول عليه، لأنّ الأُمّة قد اجتمعت على أنّ الكفّارة لا تجب إلّا بعد الحنث، وهكذا ورد في الحديث[٢].

وهكذا في كفّارة خلف النذر، فإنها ككفّارة حنث اليمين[٣].

وكذلك كفّارة شقّ الثوب في المصاب أو جزّ الشعر أو نتفه[٤].

وفي كفّارة الظهار:

﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثمّ يعودون لما قالوا فتحرير رقبةٍ من قبل أن يتماسّا ذلكم توعَظون به واللهُ بما تعملون خبير * فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسّا فمن لم يستطع فإطعام ستّين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذابٌ أليم﴾[٥].

انظر الى هذا التأكيد والإصرار في فكّ الرقاب، وقد عدل بصوم شهرين وإطعام ستين مسكيناً ، فهو عدل عبادة وإسداء خدمة للخلف المحتاج .

ومن ثمّ فإن الإعتاق عبادة توجب التقرّب بها الى الله.

ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «لا عتق إلّا ما أُريد به وجه الله تعالى»[٦].

* * *

وكذا كفّارة الإفطار عمداً وبلا عذر، في شهر رمضان. فعن كلّ يوم: عتق نسمة

---

(١) المائدة: ٨٩.

(٢) مجمع البيان: ج ٣ ص ٢٣٨.وراجع الوسائل: ج ٢٢ ص ٣٨٩ باب ١٩ من أبواب الكفّارات (طبع مؤسسة آل البيت).

(٣) وسائل الشيعة: ج ٢٢ ص ٣٩٢ باب ٢٣ من أبواب الكفّارات .

(٤) الوسائل: ج ٢٢ ص٤٠٢ باب ٣١ من أبواب الكفّارات .

(٥) المجادلة: ٣ ـ ٤.

(٦) وسائل الشيعة: ج ٢٣ ص ١٤ باب ٤ من أبواب العتق .

(أو) صيام شهرين (أو) إطعام ستّين مسكيناً.

هكذا ورد في الحديث عن الامام محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله[(١)].

* * *

على أنّ هناك في الشريعة الإسلامية حثاً بليغاً على تحرير الأرقّاء، عملاً مندوباً إليه في كثير من الأحاديث وفي كثير من المناسبات.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أعتق مسلماً أعتق الله العزيز الجبّار بكلّ عضوٍ منه عضواً من النار.

وفي الحديث عن الامام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام في الرجل يعتق المملوك، قال: يعتق الله عزّوجلّ بكلّ عضوٍ منه عضواً من النار.

ولقد أعتق الامام أمير المؤمنين عليه السلام ألف مملوك لوجه الله عزّوجلّ كان قد اشتراهم من كدّ يمينه.

وعن الامام الصادق عليه السلام: أربع من أتىٰ بواحدة منها دخل الجنّة: من سقى هامة ظامئة، أو أشبع كبداً جائعة، أو كسا جلدة عارية. أو أعتق رقبة عانية[(٢)].

وفي الحديث عن الامام الصادق عليه السلام: يستحبّ للرجل أن يتقرّب الى الله عشيّة عرفة ويوم عرفة بالعتق والصدقة[(٣)].

وعنه عليه السلام أيضاً: من كان مؤمناً فقد عُتق بعد سبع سنين، أعتقه صاحبه أو لم يعتقه ولا يحلّ خدمة من كان مؤمناً بعد سبع سنين. والحديث صحيح الاسناد،

---

(١) وسائل الشيعة: ج ١٠ ص ٤٦ من أبواب ما يمسك عنه الصائم ح ٥ (طبع مؤسّسة آل البيت).

(٢) وسائل الشيعة: ج ٢٣ ص ١٢ باب ١ من أبواب العتق حديث ٧ و١ و٦ و٩.

(٣) المصدر السابق: ص ١٢ باب ٢.

وحمل على استحباب عتقه[١].

* * *

كما أنّ هناك أسباباً قهرية للانعتاق:

منها: ما اذا ملك الانسان أحداً من آبائه أو أولاده أو إحدى النساء المحرّمات عليه. ويستحبّ عتق ما اذا ملك أحد الأقارب غير المحرّمات[٢]. وأنّ حكم الرضاع في ذلك حكم النسب[٣].

ومنها: أنّ من أعتق نصيبه في مملوك كلّف شراء باقيه وإعتاقه أجمع. فإن كان معسراً استسعى المملوك بنفسه للانعتاق[٤].

ومنها: أنه اذا مَثّل بعبده أو نكل به انعتق ..[٥].

ومنها: أنه اذا عمى المملوك أو أقعد أو جذم انعتق [٦] وكانت نفقته على مولاه اذا لم يجد حيلة[٧].

ومنها: أنّ من أعتق شيئاً (النصف أو الربع أو نحو ذلك) من مملوكه، أصبح المملوك حرّاً طلقاً. قال الامام أمير المؤمنين عليه السلام فيمن اعتق بعض غلامه: هو حرّ كلّه، ليس لله شريك[٨].

ومنها: ما اذا حملت الأمة من مولاها فإنّه لا يجوز له بيعها ولا نقلها الى غيره، فتبقى لتتحرّر بعد موت سيّدها من إرث ولدها[٩].

---

(١) وسائل الشيعة: ج ٢٣ ص ٥٩ باب ٣٣.
(٢) وسائل الشيعة: ج ٢٣ ص ١٨ باب ٧ من أبواب العتق ص ٢٨ وباب ١٣ منها.
(٣) المصدر السابق: ص ٢٢ باب ٨ منها.
(٤) المصدر السابق: ص ٣٦ باب ١٨ منها.
(٥) المصدر السابق: ص ٤٣ باب ٢٢ منها.
(٦) المصدر السابق: ص ٤٤ ب ٢٣ منها .
(٧) المصدر السابق: ص ٣٠ باب ١٤ منها.
(٨) المصدر السابق: ص ١٠٠ باب ٦٤ منها.
(٩) المصدر السابق: ص ١٦٨ باب ١ من أبواب الاستيلاد.

وبعد، فقد جاء الإسلام ليردّ على الأرقّاء إنسانيّتهم المفقودة طيلة قرون وفي أوساط العالم المتمدّن يومذاك. جاء ليقول للسادة عن الأرقّاء: بعضكم من بعض، ومن قتل عبداً قتلناه، ومن جدع عبداً جدعناه، ومن لطم عبداً اقتصصنا منه مثلاً بمثل، وأن لا فضل لسيّد على عبده لمجرّد أنّ هذا سيّد وهذا عبد، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، جاء ليقرر وحدة الأصل ووحدة المنشأ والمصير.

وإنّ السادة ليسوا أصحاب فضل حين ينفقون على عبيدهم، لأنهم جيمعاً في وضع واحد، في كنف الله وتحت حمايته، وهو رازق الجميع على سواء: السادة والعبيد.

﴿واللهُ فضّل بعضكم على بعضٍ في الرزق فما الذين فضّلوا برادّي رزقهم على ما ملكتْ أيمانهم فهم فيه سواء﴾[١].

وإنّ على السادة أن يحترموا مواضع العبيد لأنهم إخوانهم في الدين ومتساوون معهم في الإنسانية، فيحترموهم كما يحترموا الوالدين والأقربين بالمعروف:

﴿وبالوالدين إحساناً وبذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين والجار ذي القُربىٰ والجار الجُنُب والصاحب بالجَنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إنّ الله لا يُحبّ من كان مختالاً فخوراً﴾[٢].

فالإحسان بالمملوك كالإحسان بالوالدين والجيران، من لوازم الإيمان الصادق، وكان التمرّد عن هذا القانون السماوي العادل انخراطاً في حزب الشيطان وخيلاءً وافتخاراً بغيضاً يبغضه الإسلام.

فقد أصبح الرقيق في ظلّ الحكم الإسلامي ـ في ذلك العهد المظلم ـ كائناً إنسانياً له كرامته يحميه القانون، ولا يجوز الاعتداء عليه بالقول ولا بالفعل.

فقد رفع الإسلام بالرقيق الى مستوى الاخوّة الكريمة، لا في عالم المُثُل

---

(١) النحل: ٧١. (٢) النساء: ٣٦.

والأحـلام، بل في عالم الواقع، ومنحـه إنسانيته وكـرامـتـه التـي خُـلق عـليها متساوياً مع السادة الأحرار.

* * *

وهذا هو التحرير النفسي للأرقّاء، قام به الإسلام خرقاً لسائر النُظم التي كانت سائدة ذلك العهد .

وهذا تمهيد في سبيل الوصول الى تحريرهم الواقعي الذي كان يبدو ممتنعاً ذلك الوقت، غير أنّ تمهيد السبيل إليه أصبح ممكناً، وقد قام به الإسلام بكلّ جهده.

لقد كانت هذه الخطوة التي خطاها الإسلام ـ وكانت ناجحـة ـ هي في الواقع كانت تحريراً روحياً للأرقّاء، يردّ إليهم الانسانية، ويعامل معهم على أنهم بشر لا يفترقون عن السادة من حيث الأصل والنسب الانساني الكريم. وأنّ الرقّية كانت حصيلة ظروف وأعراف طارئـة، عارضـت سبيل الحرّية الخارجـيـة للأرقّـاء، ولا بدّ أن تزول يوماً والإسلام من ورائـه.

والذي عمله الإسلام ذلك الوقت هو أنه لم يكتف بذلك التحرير الروحي، بل تجاوزه الى تحرير واقعي (خارجـي) وبنى قـاعدته الأسـاسية العـظمى وهـي: المساواة الكاملة بين البشر، وهو تحرير كامل لكلّ البشر. ولذلك عمل فعلاً على تحرير الأرقّاء بوسيلتين كبيرتين: هما العتق والكتابـة ـ على ما مرّت عليـك ـ.

وبذلك كان الإسلام قد خطا خطوات فعلية واسعة في سبيل تحرير الأرقّاء.

لكن لماذا لم يخط خطوته النهائيـة، ولم يقل كلمته الأخيرة حينذاك؟

ومن ثمّ قد يخطر بالبال: اذاكان الإسلام قد خطا هذه الخطوات كـلّها نـحو تحرير الأرقّاء، وقد سبق العالم كلّه متطوّعاً غير مضطرّ ولا مضغوط عليه، فلماذا لم يخط الخطوة الحاسمـة الباقيـة، فيعلن بصراحـة كاملة إلغاء الرقّ من حـيث المبدأ، وبذلك يكون قد أسدى للبشرية خدمةً كبرىٰ، فيكون هو النظام الأكـمل والجدير بأن يصدر عن الله الذي كرّم بني آدم وفضّلهم على كثير ممّن خَلَق؟

لكن ينبغي قبل كلّ شيء أن نُدرك حقائق اجتماعية وحياتية وسياسية واقتصادية، كانت أحاطت بمسألة الرقّية في العالم المتحضّر آنذاك، وكانت سبب تأخير هذا الإعلان المرتقب بإلغائها.

يجب أن ندرك أنّ الإسلام جاء والرقّ نظام معترف به في جميع أنحاء العالم، بل كان عملة اقتصادية واجتماعية متداولة، لا يستنكرها أحد، ولا يفكّر في إمكان تغييرها أحد، لذلك كان تغيير هذا النظام أو محوه أمراً يحتاج الى تدرّج شديد وزمن طويل . وقد احتاج تحريم الخمر وإبطالها الى بضع سنوات، في حين أنها كانت عادة شخصية، وربما كان بعضهم يتعفّفون عنها، ويرون خبثها وقذارتها، بما لا يليق بذوي النفوس العالية . والرقّ كان أعمق في كيان المجتمع ونفوس الأفراد، ولم يكن أحد يستنكره ـ كما أسلفنا ـ لذلك كان إبطاله في حاجة الى زمن أطول بكثير، ممّا لا تتّسع له حياة الرسول ﷺ، وهي الفترة التي كان ينزل فيها الوحي بالتنظيم والتشريع، والله أعلم بمن خلق وبما خلق .

فالذي قدّمه الإسلام هو تمهيد السبيل لإبطال هذا النظام رأساً، ولعلّه كان لوقت قريب لولا عرقلة السبيل بما لا يكاد يعترف به الإسلام .

لكن تلك الخطوة التي خطاها الإسلام ، كانت خطوة جريئة، وانتفاضة غريبة في وجه نظام الرقّ، بحيث لم تكن البشرية تترقّبها في مثل ذلك الوقت، وخرق للنظام الحاكم على جميع أرجاء العالم .

* * *

تلك إجابة أجابها بعض الكتّاب الإسلاميين، تبريراً لموقف الإسلام تجاه الرقّية في وقته المبكّر[١].

وإجابة أُخرى لعلّها أعمق وأقطع لجذور السؤال: وهو أنّ الإسلام قد ألغى الرقّية من أساسها والتي كانت معهودة ذلك الوقت، كان استرقاق الأقوياء

(١) راجع شبهات حول الإسلام لسيد قطب : ص ٣٩.

للضعفاء أمراً معهوداً ومعترفاً به ـ كما أسلفنا ـ الأمر الذي لم يعترف به الإسلام أصلاً.

الإسلام لا يرى استيلاء القويّ على الضعيف سبباً للاسترقاق، كما لا يرى اللون وغيره من الفوارق الطارئة سبباً. ويرى ما كان يعترف به ذلك النظام ظلماً وعدواناً على البشرية ونقضاً لدعائم الانسانية الكريمة.

واذا لم يكن ذلك سبباً فما هو السبب الآخر ؟ وإذ ليس شيء آخر يخلف ذلك النظام الغاشم، فإنّه يصبح ملغى لا محالة.

وبالجملة فأسباب الرقّية التي كانت معهودة لذلك الحيّز هي بأجمعها ملغاة لدى شريعة الإسلام، ولا سبب غيرها ذلك الوقت، ولا محالة فنظام الرقّية ملغاة نهائياً، حسب المتعارف آنذاك.

نعم، الإسلام يرى من أسباب الرقّية كلّها ملغاةً سوى سبب واحد ـ وهو استرقاق المعتدي على الانسانية، المقدّم على هتك حريمها، فاستوجب لنفسه الإعدام والمحو عن الوجود، قطعاً لجذور الفساد في الأرض ـ فالإسلام بعطوفته وسماحته السماوية ـ لأنه جاء رحمةً للعالمين ـ أجاز الاستبدال من قتله باسترقاقه، إبقاءً لنفس بشرية ـ مهما كانت رذيلة ـ علّه يصلح ويهتدي الى الصلاح، اذا وقع تحت التربية المباشرة وفي ظلّ نظام الإسلام الحنون.

الإسلام إنّما أجاز الاسترقاق في ميادين القتال، القتال مع الكفّار وأعداء الانسانية والاسلام، لا سبب للاسترقاق سواه. واذا لم يكن سبب آخر فمعناه رفض سائر الأسباب التي كانت معهودة لحدّ ذلك الوقت، والتي كانت متداولة لاسترقاق الأناسي لغير سبب معقول.

جاء في كتاب «شرائع الاسلام» لنجم الدين جعفر بن الحسن المحقّق الحلّي (٦٠٢ ـ ٦٧٦) بشأن الأُسارى:

«فالإناث يُملَكن بالسبي ـ ولو كانت الحرب قائمة ـ وكذا الذراري...

والذكور البالغون يتعيّن عليهم القتل، إن كانت الحرب قائمة، ما لم يسلموا ...وإن أُسروا بعد تقضّي الحرب لم يقتلوا، وكان الامام مخيّراً بين المنّ والفداء والاسترقاق[١].

وهذا الحكم مستند الى عدّة أحدايث مروية، منها حديث طلحة بن زيد عن الامام الصادق عليه‌السلام قال: كان أبي (الامام الباقر عليه‌السلام) يقول: إنّ للحرب حكمين:

اذا كانت الحرب قائمة ولم تضع أوزارها ولم يثخن أهلها فكلّ أسير أُخذ في تلك الحالة فإنّ الامام فيه بالخيار إن شاء ضرب عنقه أو قطع يده ورجله، حيث قال تعالى: ﴿إنّما جزاء الّذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتّلوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفوا من الأرض﴾[٢].

قال الراوي: سألته عن النفي من الأرض. قال: ذلك الطلب، أن تطلبه الخيل حتى يهرب. فإن أخذته الخيل حكم عليه ببعض الأحكام التي وصفت لك.

قال عليه‌السلام: والحكم الآخر، اذا وضعت الحرب أوزارها وأُثخن أهلها فكلّ أسير أُخذ على تلك الحال فكان في أيديهم فالإمام مخيّر إن شاء منّ عليهم فأرسلهم، وإن شاء فاداهم أنفسهم، وإن شاء استعبدهم فصاروا عبيداً[٣].

قال صاحب الجواهر: وهذا الحديث قد عمل به الأصحاب، فهو الحجّة في الباب[٤].

والى طرف من هذا الحكم جاءت الإشارة في الآية الكريمة: ﴿الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم ـ الى قوله : ـ فإذا لقيتم الذين كفروا فضَربَ الرقاب حتّى اذا أثخنتموهم فشُدّوا الوَثاق فإمّا منّاً بعدُ وإمّا فداءً حتّى تضع الحربُ أوزارها﴾[٥].

قال الطبرسي: فاذا أُسروا فالإمام مخيّر بين المنّ والفداء والقتل والاستعباد.

---

(١) كتاب الشرائع: ج ١ ص ٣١٧ طبع النجف الأشرف. (٢) المائدة: ٣٣.
(٣) وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٧١ ـ ٧٢ باب ٢٣ من أبواب جهاد العدو.
(٤) جواهر الكلام: ج ٢١ ص ١٢٢. (٥) محمّد: ١ ـ ٤.

وهو قول الشافعي وأبي يوسف ومحمّد بن إسحاق. وقيل: إنّ الامام مخيّر بين المنّ والفداء والاستعباد، وليس له القتل بعد الأسر. عن الحسن. وكأنه جعل في الآية تقديماً وتأخيراً،تقديره: فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها. ثم قال: حتى اذا أثخنتموهم .

ثمّ ذكر المروي عن أئمة الهدى صلوات الله عليهم بما ذكرناه [١].

* * *

ويتلخّص حكم الأُسارى، في أنهم إن أُخذوا وقبض عليهم في حالة كون الحرب قائمة فإنّهم حينذاك يقتلون لا مناص منه. وإن أُخذوا بعد أن وضعت الحرب أوزارها، فإنّ الأمر بشأنهم منوط بما يراه الإمام مصلحةً في حينه: فإمّا أن يطلق سراحهم ـ اذا لم يكن إطلاقهم خطر على المسلمين، بأن يلحقوا بمعسكر العدوّ من جديد، وإلّا لم يجز إطلاق سراحهم على حال .

أويفاديهم، بأن يأخذ الفداء، إمّا بإبدال أسير بأسير، أو بأخذ مال يتوافق عليه الفريقان .

أو يستعبدهم، اذا لم يكونوا قد أسلموا من قبل .

والاستعباد هو آخر العلاج، وآخر الدواء الكيّ ـ كما قيل ـ.

فالاستعباد ـ في هذه الحالة الحاسمة ـ هو خير علاج ممكن لحلّ مشكلة الأسر، بعد أن لم تكن مصلحة في إطلاق سراحهم ولا أمكن الفداء، فلا سبيل بعدهما سوى: إمّا القتل أو الاسترقاق، والأخير خيرٌ لهم، علّهم يهتدون ويصلح بالهم، حيث عناية المسلمين بشأن العبيد وتربيتهم تربية صالحة ،وسوف تنتهي حالتهم الى الانعتاق إن شاء الله .

* * *

(١) راجع مجمع البيان: ج ٩ ص ٩٧.

تلك كانت نماذج عن تشريعات إسلامية راقية فاقت سائر التشريعات
الوضعية التي سبقتها، وحتى التي لحقتها على أيدي البشر القاصرة
الشمول . وقد جهدنا في عرض أروع صوَر من ذلك التفوّق
للتشريع الإسلامي الشامخ، وكان ذلك مبلغ وسعنا ولم
نبلغ الغاية، ولعلنا أبدينا بعض التكليف الموجّه
إلينا في هذا المجـال، ومن الله التوفيـق
وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ
العالمين، والصلاة والسلام
على خير خلقه محمّد
وآله الطاهرين .

محمّـد هادي معرفـة
قم المقدسة
٢٧ رجـب الأصبّ سنة ١٤١٤

الفهارس



فهرس الآيات

(٣) سورة آل عمران

(٤) سورة النسـاء

(٥) سورة المائدة

(٦) سورة الأنعام

(٧) سورة الأعراف

(٨) سورة الأنفال

(٩) سورة التوبــة

(١٠) سورة يونـس

(١١) سورة هـود

(١٢) سورة يوسـف

(١٣) سورة الرعـد

(١٤) سورة إبراهيم

(١٥) سورة الحجـر

(١٦) سورة النحـل

(١٨) سورة الكهـف

(١٩) سورة مريـم

(٢٢) سورة الحجّ

(٢٣) سورة المؤمنون

(٢٤) سورة النور

(٢٥) سورة الفرقـان

(٣٠) سورة الـروم

(٣١) سورة لقمـان

(٣٥) سورة فاطر

(٣٦) سورة يس

(٣٨) سورة ص

(٤٧) سورة محمّد

(٤٨) سورة الفتح

(٤٩) سورة الحجرات

(٥١) سورة الذاريات

(٥٢) سورة الطـور

(٥٣) سورة النجـم

(٥٤) سورة القمر

(٥٥) سورة الرحمن

(٥٩) سورة الحشر

(٦٠) سورة الممتحنة

(٦١) سورة الصف

(٦٢) سورة الجمعة

(٦٣) سورة المنافقون

(٦٤) سورة التغابن

(٦٥) سورة الطلاق

(٦٧) سورة الملك

(٦٨) سورة القلم

(٨٢) سورة الانفطار

(٨٤) سورة الانشقاق

(٨٦) سورة الطارق

(٩٠) سورة البلـد

(٩١) سورة الشمس

(٩٢) سورة الليـل

(٩٣) سورة الضحى

(٩٦) سورة العلـق

(٩٨) سورة البيّنـة

(٩٩) سورة الزلزلـة

(١١٠) سورة النصـر

(١١١) سورة المسـد

(١١٢) سورة الإخـلاص

فهرس الأحاديث

(أ)

(ت)

(ث)

(د)

(ذ)

(س)

(ص)

(ف)

(ك)

(ي)

فهرس الأعلام

(أ)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(هـ)

(و)

(ي)

فهرس الأشعـار

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
الناس من جهة	والأُمّ حوّاء	الامام علي (ع)	٣٢٠

فهرس الفِرق والمذاهب

(أ)

(ز)

(ع)

(م)

(ن)

(هـ)

(ي)

فهرس البلدان والأماكـن

(أ)

(ب)

(م)

(ن)

(ي)

فهرس الجماعات والقبائل

(أ)

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(م)

(ن)

(هـ)

(ي)



فهرس مواضيع الكتاب

الباب الثاني
في الإعجاز العلمي

أنبــاء الغيــب

الباب الثالث

في الإعجاز التشريعي